مجموعة مؤلفات فضيلة الشيخ حمد العثمان (٦)

التَّعْلِيقُ عَلَى كِتَابِ التَّوْحِيدِ

الَّذِي هُوَ حَقُّ اللهِ عَلَى العَبِيدِ

لِشَيْخِ الإِسْلَامِ
أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ
ت ١٢٠٦هـ رَحِمَهُ اللهُ

تَأْلِيف
د. حَمَدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ العُثْمَان

دار اللؤلؤة

التعليـــق

على

كتــاب التوحيــد

الذي هو حــق الله على العبــيد


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

التعليــق

على

كتـــاب التوحيـــد

الذي هو حـق اللّه على العبـيد

لشيخ الإسلام

أبي عبد اللّه محمد بن عبد الوهــاب

ت: ١٣٩٦هـ رحمه الله

تأليف

حمد بن إبراهيـــم العثمـــان

حفظه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرور أنْفُسِنا، وسيئات أعمالنا، مَن يهد اللهُ فهو المهتدي، ومَن يضلل فلا هادي له.

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أمَّا بعدُ:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهديِ هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محْدَثاتُها، وكلّ محْدَثةٍ بدعة، وكلّ بدعةٍ ضلالة، وكلّ ضلالةٍ في النار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

وبعدُ:

فإنَّ الفقهَ في الدِّين من أسباب خيرية الأُمَّة، قال النبيُّ ﷺ: «**مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يفقِّهه في الدِّين**» متفق عليه من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وأولُ ما يَجِبُ على المُسلِم مدارسته والتفقه فيه؛ التوحيد، قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ [محمد: ١٩].

والقرآنُ كلّه في التوحيد، فشرْحُ معانيه في ذلك هو مِن أوجَب ما ينبغي على المعلِّمين القيام به، وهو من أسبابِ خيرية أُمَّةِ الإسلام، شعوبًا وأفرادًا وأُمَمًا.

وإذا كان اعتقادُ الناس وتوحيدهم صحيحًا كان ذلك من أسباب قبول الله لأعمالهم الصالحة ودخولهم الجنة، قال تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥].

وأحقُّ ما يَجِبُ على المسلمين تزكية نفوسهم ومجتمعاتهم به؛ هو تحقيقُ كلمةِ التوحيدِ، كلمةِ التقوى، فإنها تُثمِر كلّ خيرٍ، فتكون سببًا في زَكاءِ اعتقادهم وأقوالهم وأعمالهم، قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

ومتنُ كِتاب «التوحيد» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ من أتقنِ المتون في العقيدة، فإنه اقتصرَ فيه مُؤلِّفه على نصوص القرآنِ والسُّنَّة وأقوالِ الصحابة والتابعين، فجاء مُتقَنًا في محتواه، سليمًا من الخطأ والزَّلل، مُيَسَّرًا للفهم

والتعليم، يَفهمه كلُّ المتعلمين: العامي، وطالب العِلم، والعالِم.

وكتابُ «التوحيد» من أوعبِ متون العقيدة في شرْحِ التوحيد ومسائله، وأحمدُ اللهَ علىٰ تيسيرِ شرْحِه في هذا المُؤلَّف، نفعَ اللهُ به آمين.

وكان تمامُ الفراغِ من تأليفه في يوم الجمعة، ١٤ ربيع الآخر ١٤٤٠هـ.

وكتبه

حمد بن إبراهيم العثمان

۞ ۞ ۞


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

كِتَابُ التَّوْحِيدِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◈ وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

◈ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

◈ وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

◈ وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

◈ وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ؛ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٥١ – ١٥٣].

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «**يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ؟**»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ: أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ.

٢) أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ؛ لِأَنَّ الْخُصُومَةَ فِيْهِ.

٣) أَنَّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ، فَفِيهِ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣].

٤) الْحِكْمَةُ فِي إِرْسَالِ الرُّسُلِ.

٥) أَنَّ الرِّسَالَةَ عَمَّتْ كُلَّ أُمَّةٍ.

٦) أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ.

٧) الْمَسْأَلَةُ الْكَبِيرَةُ: أَنَّ عِبَادَةَ اللهِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ، فَفِيهِ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٨) أَنَّ الطَّاغُوتَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ.

٩) عِظَمُ شَأْنِ ثَلَاثِ الآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ السَّلَفِ، وَفِيهَا عَشْرُ مَسَائِلَ: أَوَّلُهَا: النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ.

١٠) الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، وَفِيهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مَسْأَلَةً، بَدَأَهَا اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، وَنَبَّهَنَا اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩].

١١) آيَةُ سُورَةِ النِّسَاءِ الَّتِي تُسَمَّىٰ آيَةَ الْحُقُوقِ الْعَشَرَةَ، بَدَأَهَا اللهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

١٢) التَّنْبِيهُ عَلَىٰ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ.

١٣) مَعْرِفَةُ حَقِّ اللهِ عَلَيْنَا.

١٤) مَعْرِفَةُ حَقِّ الْعِبَادِ عَلَيْهِ إِذَا أَدَّوْا حَقَّهُ.

١٥) أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَا يَعْرِفُهَا أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ.

١٦) جَوَازُ كِتْمَانِ الْعِلْمِ لِلْمَصْلَحَةِ.

١٧) اسْتِحْبَابُ بِشَارَةِ الْمُسْلِمِ بِمَا يَسُرُّهُ.

١٨) الْخَوْفُ مِنَ الِاتِّكَالِ عَلَىٰ سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ.

١٩) قَوْلُ الْمَسْؤُوْلِ عَمَّا لَا يَعْلَمُ: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ».

٢٠) جَوَازُ تَخْصِيصِ بَعْضِ النَّاسِ بِالْعِلْمِ دُونَ بَعْضٍ.

٢١) تَوَاضُعُهُ ﷺ؛ لِرُكُوب الْحِمَارَ مَعَ الْإِرْدَافِ عَلَيْهِ.

٢٢) جَوَازُ الْإِرْدَافِ عَلَىٰ الدَّابَّةِ.

٢٣) فَضِيلَةُ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ.

٢٤) عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

الشَّرْح

ابتدأ شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب التوحيد بالتذكير بمقصود خَلقِنا، فإنَّ مَنِ اهتدىٰ إلىٰ ذلك سعىٰ إلىٰ تحقيقه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

مقدمة شيخ الإسلام دعوة لتحقيق التوحيد، فإنه استهل كتاب التوحيد بقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم.

ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أحب إليهم من الإيمان به ومحبتهم له ومعرفتهم به.

وحاجتهم إليه في عبادتهم له وتألههم له، كحاجتهم إليه -بل أعظم- في خَلقِه وربوبيته لهم ورزقه لهم، فإنَّ ذلك هو الغاية المقصودة التي بها سعادتهم وفوزهم، وبها ولأجلها يصيرون عاملِين متحرِّكِين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة ولا سرور بدون ذلك بحال.

فمَن أعرضَ عن ذِكر ربه فإنَّ له معيشة ضنكًا، ويحشره يوم القيامة أعمىٰ، ولهذا لا يغفر الله لمَن يشرك به شيئًا، ويغفر ما دون ذلك لمَن يشاء».

ومجموع ما ذَكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من نصوص القرآن والسُّنة وقول الصحابي ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في مقدمة كتاب التوحيد، هو حثٌّ علىٰ تحقيق التوحيد ومحاذرة الشرك، وهذا لا يكون إلا بالتأله لله وعبوديته وحده لا شريك له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تنفي عن قلبه ألوهية ما سوىٰ الحق، وتثبت في قلبه ألوهية الحق.

فيكون نافيًا لألوهية كل شيء من المخلوقات، مثبتًا لألوهية رب العالمين، ورب الأرض والسماوات، وذلك يتضمن اجتماع القلب علىٰ الله، وعلىٰ مفارقة ما سواه، فيكون مُفرِّقًا في علمه وقصده، في شهادته وإرادته، في معرفته ومحبته: بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالمًا بالله تعالىٰ، ذاكرًا له، عارفًا به. وهو مع ذلك

---

(١) طريق الهجرتين (ص٥٦).
(٢) العبودية (ص١٣٥، ١٣٦).

عالم بمباينته لخَلقِه، وانفراده عنهم، وتوحّده دونهم، ويكون مُحبًّا لله، مُعظِّمًا له، عابدًا له، راجيًا له، خائفًا منه، مُحبًّا فيه، مواليًا فيه، معاديًا فيه، مستعينًا به، مُتوكِّلًا عليه، ممتنعًا عن عبادة غيره، والتوكل عليه والاستعانة به، والخوف منه، والرجاء له، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والطاعة لأمره».

ابتدأ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب التوحيد بالحث على إخلاص الدين لله وحده، فذكر قول الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

فالإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ هو أساس الملة الحنيفية، قال النبي ﷺ: **«مَن قال: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه؛ حرَّمه اللهُ على النار»**.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الإسلام هو الاستسلام لله وحده، ولفْظُ الإسلام يتضمن الإسلام ويتضمن إخلاصه لله».

والإسلام هو العبودية لله وحده، وهو الانقياد والخضوع له وحده لا شريك له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ العبادة والدِّين والعمل له، لا يكون إلا مع الخضوع له والتواضع، وهو مُستلزِمٌ لذلك».

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «المقصود بجميع العبادات أن يكون الدِّين كله لله وحده، فالله هو المعبود والمسئول الذي يُخاف ويُرجى ويُسأل ويُعبد، فله الدِّين خالصًا».

---

(١) النبوات (١/ ٣٤٦).

(٢) النبوات (١/ ٣٥٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٦/ ١٥١).

وذكرَ شيخ الإسلام في مقدمة كتاب التوحيد حق الله علىٰ عباده ليقوم المسلمون بأدائه، قال رسول الله ﷺ: «**حقُّ الله علىٰ عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**»، وهذا حقيقة الدِّين كله، وهو عبودية الله وحده لا شريك له.

فمَن عبدَ اللهَ وحده فذلك المسلم، فتوحيد الله هو عبوديته بإقامة أركان الإسلام وشعائره وشرائعه، خالصةً لله ﷻ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقول النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**حقُّ الله علىٰ العِباد أنْ يَعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**»، فيه بيان أساس التوحيد وقاعدته وهو:

إثبات الألوهية لله ﷻ وحده، وإثبات كمال الله المستلزم لعبوديته، ومعاملته وأداء حقه بما يجب من عبوديته.

والشركُ مضاد للتوحيد، وأصلُ الشرك وقاعدته يرجع إلىٰ التعطيل، قال ابن القيم رحمه الله[1]: «هو ثلاثة أقسام:

- تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه.
- وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المُقدّس، بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله.
- وتعطيل معاملته عما يجب علىٰ العبد من حقيقة التوحيد».

وعبادة الله وحده؛ حقّه الخالص، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، أوجبَ علىٰ خَلقِه عبوديته وحده لتفرده بالألوهية الحقة، فهو الإله الواحد المتفرد بالكمال ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «إنّ الله يجب أنْ يكونَ معبودًا، وهو المعبود لذاته، الذي يُحَبُّ غاية الحب بغاية الذل، وهذا لا يصلح إلا لله».

---

(١) الجواب الكافي (ص٢٩٩).

(٢) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٨٨).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «العبادة متعلقة بالإلهية لله تعالىٰ، ولهذا كان عنوان التوحيد (لا إله إلا الله)، بخلاف مَن يُقِرّ بربوبيته ولا يعبده، أو يعبد معه إلهًا آخر.

فالإله: هو الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، والخوف والرجاء، ونحو ذلك.

وهذه العبادة: هي التي يحبها الله ويرضاها، وبها وصفَ المُصطفين من عباده، وبها بعثَ رُسُلَهُ».

وحقيقة الإسلام هو توحيد الله بالخضوع له، وعبوديته بالتأله له وحده محبةً وتعظيمًا وإجلالًا وخوفًا ورجاءً.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنّ (الإله) هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل والخضوع، وتعبده.

والعبادة لا تصح إلا له وحده.

والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل.

والشرك في هذه العبودية من أظلمِ الظلمِ الذي لا يغفره الله».

فمَن حقَّق التوحيد فذلك المسلم الحنيف، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «إنَّ العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خَلقَ الخَلْقَ لها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(١) العبودية (ص٥٣، ٥٤).
(٢) الجواب الكافي (ص٥٣٢).
(٣) العبودية (ص٤٤، ٤٥).

وبها أَرسلَ جميع الرسل، كما قال نوح لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وكذلك قال هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم لقومهم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]».

دعا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في مقدمة كتاب «التوحيد» إلىٰ التأله لله وعبوديته والكفر بما يُعبد من دونه، مُستدلًّا بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]، وهذه دعوة إلىٰ إقامة كلمة التوحيد «لا إله إلا الله».

فإنَّ كلمة التوحيد لها ركنان:

- ركنُ الإثبات «إلا الله»، وهو إثبات الألوهية الحقة لله.
- وركنُ النفي «لا إله»، وهو نفي الألوهية الباطلة عما سواه، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنّ معنىٰ (لا إله إلا الله)، هو البراءة من عبادة كل ما سوىٰ الله، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله».

وذكرَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة كتاب التوحيد من نصوص القرآن ما يُبيِّن معنىٰ التوحيد، وهو أداء حق الله وحق المخلوق، مستدلًّا

---

(١) الدرر السنية (٢/ ٣٣٢).

بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ لأن أداء حقوق المخلوقين هو من تعظيم الله الذي أمر بأداء حقوقهم.

وشرحَ شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنىٰ صراط الله المستقيم في أثرِ ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو تصديق خبر الله، والانقياد لأمره ونهيه، واتباع رسوله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «حقيقة الدِّين كله هي شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وهو صراط الله المستقيم مما ارتضاه الله لخَلقِه من الاعتقادات والأقوال والأفعال».

وضرورة شرح معنىٰ صراط الله في مقدمة كتاب «التوحيد» معلومة، فإنّ الصراط هو طريق العبودية، ولضرورة كل مسلم إليه أَمَرنا اللهُ أنْ ندعو بالهداية إليه في كل ركعة من كل صلاة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنه لا نجاة من العذاب إلا بهذه الهداية، ولا وصول إلىٰ السعادة إلا به، فمَن فاته هذا الهدي فهو: إما من المغضوب عليهم أو من الضالين».

والإخلاص لله بعبوديته واتباع صراطه المستقيم، هو العِلم النافع والعمل الصالح وهو حقيقة الدِّين كله، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

---

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٠).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (١/ ١٠٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنّ الهُدَىٰ هو العِلم بالله ودِينه، والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العِلم النافع والعمل الصالح».

وإنَّما ذكرَ شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة كتاب التوحيد العبادة والصراط المستقيم؛ لأنَّ الدِّين أنْ يُعبد اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بما شرع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «العبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء، مقصودها واحد، ولها أصلان:

أحدهما: ألا يُعبد إلا الله.

الثاني: ألا يعبده إلا بما أمرَ وشرعَ، لا يعبده بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]».

شــرْحُ المســائل:

١) **الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ**: عبودية الله وحده.

٢) **أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ؛ لِأَنَّ الْخُصُومَةَ فِيْهِ**: فصرْفُ أيِّ نوعٍ من العبادة لغير الله شركٌ.

٣) **أَنَّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ، فَفِيهِ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ**: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]: فالتوحيد عبودية لله وليس هو مجرد معرفة الله بلا عمل.

٤) **الْحِكْمَةُ فِي إِرْسَالِ الرُّسُلِ**: إقامة الحجة على الخَلق، وبيان صراط الله المستقيم وطريق عبوديته.

٥) **أَنَّ الرِّسَالَةَ عَمَّتْ كُلَّ أُمَّةٍ**: قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤١٤).
(٢) العبودية (ص٧١).

٦) **أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ**: وهو توحيد الله.

٧) **الْمَسْأَلَةُ الْكَبِيرَةُ: أَنَّ عِبَادَةَ اللهِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ، فَفِيهِ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ**: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]: التوحيد: إفراد الله بالعبودية والكفر بما يُعبد من دونه، وهو تحقيق: «لا إله إلا الله».

٨) **أَنَّ الطَّاغُوتَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ**: الطاغوت هو: كلُّ ما تجاوَز به العبد حدّه من متبوعٍ أو معبودٍ أو مطاعٍ.

٩) **عِظَمُ شَأْنِ ثَلَاثِ الآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ السَّلَفِ، وَفِيهَا عَشْرُ مَسَائِلَ: أَوَّلُهَا: النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ**: فيها الأمر بتوحيد الله، والنهي عن الشرك، وأداء حق الخالق وحق المخلوق، والأمر باتباع صراط الله المستقيم، والأمر بالعدل، والوصية باليتيم، والنهي عن ظاهر الإثم وباطنه، خصوصًا الفواحش.

١٠) **الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، وَفِيهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مَسْأَلَةً، بَدَأَهَا اللهُ بِقَوْلِهِ**: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، **وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ**: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، **وَنَبَّهَنَا اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ بِقَوْلِهِ**: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩]: الحكمة التي في هذه الآيات: الأمر بتوحيد الله، والإحسان إلىٰ الوالدين وبرُّهما، وخفْض الجناح لهما، وإحسان مخاطبتهما، والدعاء لهما بالرحمة.

والأمر بالأوبة إلىٰ الله، وإعطاء القريب والمسكين وابن السبيل حقوقهم، والنهي عن التبذير، والأمر بالتوسط في النفقة.

والتحذير من قتل الذرية خشية الفقر، والتحذير من الزنىٰ، والتحذير من قتل النفوس بغير حق، والنهي عن أخذِ مالِ اليتيم بالباطل، والنهي عن تطفيف المكيال، والنهي عن القول بغير عِلمٍ، والنهي عن الكِبْر.

١) **آيَةُ سُورَةِ النِّسَاءِ الَّتِي تُسَمَّىٰ آيَةَ الْحُقُوقِ الْعَشَرَةَ، بَدَأَهَا اللهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ:** ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]: أمرَ اللهُ بأداء حقه بتوحيده وعبادته، ونهىٰ عن الشرك.

وأمرَ اللهُ بالإحسان إلىٰ الوالدين وذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين والجيران بأنواعهم، والإحسان إلىٰ الصاحب بالجنب وابن السبيل وملك اليمين.

وأمرَ اللهُ بالتواضع، ونهىٰ عن الكِبْر.

٢) **التَّنْبِيهُ عَلَىٰ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ:** توحيد الله والنهي عن الشرك، والأمر بأداء حق الله وحق المخلوق.

٣) **مَعْرِفَةُ حَقِّ اللهِ عَلَيْنَا:** أنْ نعبد الله ولا نشرك به شيئًا.

٤) **مَعْرِفَةُ حَقِّ الْعِبَادِ عَلَيْهِ إِذَا أَدَّوْا حَقَّهُ:** دخول الجنة.

٥) **أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَا يَعْرِفُهَا أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ:** نهىٰ النبي ﷺ معاذًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنْ يُحدِّث من الصحابة مَن يخشىٰ عليه ترْك العمل اتكالًا علىٰ البشارة بالثواب.

٦) **جَوَازُ كِتْمَانِ الْعِلْمِ لِلْمَصْلَحَةِ:** يكتم عمَّن يُخشىٰ عليه المضرة في تحديثه، ولا يكتم كتمًا عامًّا.

٧) **اسْتِحْبَابُ بِشَارَةِ الْمُسْلِمِ بِمَا يَسُرُّهُ:** فهذا يُنشِّط النفوس إلىٰ أسباب سعادتها.

٨) **الْخَوْفُ مِنَ الِاتِّكَالِ عَلَىٰ سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ:** المسلم يأتي بالعمل الموجب للثواب.

٩) **قَوْلُ الْمَسْؤُوْلِ عَمَّا لَا يَعْلَمُ: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»:** هذا جوابُ مَن لا يتعالم، ومَن يخشىٰ القول علىٰ الله بغير عِلمٍ.

١٠) **جَوَازُ تَخْصِيصِ بَعْضِ النَّاسِ بِالْعِلْمِ دُونَ بَعْضٍ**: كالعلماء، ومنهم معاذ ﵁.

١١) **تَوَاضُعُهُ ﷺ؛ لِرُكُوب الْحِمَارَ مَعَ الْإِرْدَافِ عَلَيْهِ**: مكارم أخلاق النبي ﷺ وشمائله عليَّة.

١٢) **جَوَازُ الْإِرْدَافِ عَلَىٰ الدَّابَّةِ**: أردفَ النبي ﷺ معاذًا.

١٣) **فَضِيلَةُ مُعَاذٍ** ﵁: تخصيصه ببعض العِلم.

١٤) **عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ**: فضيلة مَن حقَّق التوحيد.

۞ ۞ ۞



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَــابُ الأَوَّلُ

بَــابٌ: فَضْـلُ التّوحـيدِ، وما يُكَفِّـرُ من الذُّنُـوبِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

◊ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ». أَخْرَجَاهُ.

◊ وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)؛ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ».

◊ وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَىٰ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا؟ قَالَ: يَا مُوسَىٰ، لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ -غَيْرِي- وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ.

◊ وَلِلتِّرْمِذِيِّ -وَحَسَّنَهُ- عَنْ أَنَسٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) سَعَةُ فَضْلِ اللهِ.

٢) كَثْرَةُ ثَوَابِ التَّوْحِيدِ عِنْدَ اللهِ.

٣) تَكْفِيرُهُ مَعَ ذَلِكَ لِلذُّنُوبِ.

٤) تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ.

٥) تَأَمَّلِ الْخَمْسَ اللَّوَاتِي فِيْ حَدِيْثِ عُبَادَةَ.

٦) أَنَّكَ إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدِيثِ عِتْبَانَ وَمَا بَعْدَهُ؛ تَبَيَّنَ لَكَ مَعْنَىٰ قَوْلِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَتَبَيَّنَ لَكَ خَطَأُ الْمَغْرُوْرِينَ.

٧) التَّنْبِيهُ لِلشَّرْطِ الَّذِي فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ.

٨) كَوْنُ الْأَنْبِيَاءِ يَحْتَاجُونَ لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ فَضْلِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

٩) التَّنْبِيهُ لِرُجْحَانِهَا بِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَقُولُهَا يَخِفُّ مِيزَانُهُ.

١٠) النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّ الْأَرَضِينَ سَبْعٌ كَالسَّمَوَاتِ.

١١) أَنَّ لَهُنَّ عُمَّارًا.

١٢) إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ، خِلَافًا (لِلْمُعَطِّلَةِ) لِلأَشْعَرِيَّةِ.

١٣) أَنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ حَدِيثَ أَنَسٍ، عَرَفْتَ أَنَّ قَوْلَهُ فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ» أَنَّ تَرْكَ الشِّرْكِ، لَيْسَ قَوْلُهَا بِاللِّسَانِ.

١٤) تَأَمَّلِ الْجَمْعَ بَيْنَ كَوْنِ عِيْسَىٰ وَمُحَمَّدٍ عَبْدَيِ اللهِ وَرَسُولَيْهِ.

١٥) مَعْرِفَةُ اخْتِصَاصِ عِيْسَىٰ بِكَوْنِهِ كَلِمَةَ اللهِ.

١٦) مَعْرِفَةُ كَوْنِهِ رُوْحًا مِنْهُ.

١٧) مَعْرِفَةُ فَضْلِ الْإِيمَانِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

١٨) مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: «عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ».

١٩) مَعْرِفَةُ أَنَّ الْمِيزَانَ لَهُ كِفَّتَانِ.

٢٠) مَعْرِفَةُ ذِكْرِ الْوَجْهِ.

الشَّرح

مِن حُسْنِ تصنيف الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ لكتاب التوحيد أنه بدأ بذِكر حقِّ الله الخالص في توحيده، ثم ذَكَرَ فضائل التوحيد، حتىٰ تكون عبودية الخَلق لله وتوحيدهم له أداءً لحقه سبحانه، ورغبةً في ثوابه.

وفي هذا حثٌّ للمسلمين علىٰ تحقيق التوحيد، فمَن عرفَ فضْلَ الشيء حرص عليه.

ولم يقتصر الإمام في ذِكرِ فضْلِ التوحيد علىٰ هذا الباب فقط، بل الأبواب التي تَتْرَىٰ بعده كلها في فضلِ التوحيد وبيان معناه؛ لأنه لا يُحقِّق التوحيدَ مَن جهله.

ومِن حذْقِ الإمام ونُصْحِهِ في ذِكرِه فضْلِ التوحيد: استدلاله بحديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال النبي ﷺ: «**مَن شهدَ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمدًا عبده ورسوله، أدخله اللهُ الجنةَ علىٰ ما كان من العمل**»؛ ليُبيِّنَ للمسلمين أنّ التوحيد عمل وليس مجرد معرفة، وهذا من تمام نُصحه حيث بيّن ذلك في أول الكتاب.

وقد ابتدأ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ ذِكْر فضائل التوحيد في هذا الباب بقول الله تعالىٰ: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ لأنّ الأمن من أعظم ما يكون من الفضائل، وأولُ ذلك: أَمْنُ القلب من المخاوف فيطمئن بالله، وتجتمع إراداته وشعثه علىٰ إرادة الله فيسكن مِن تفرُّق الهموم والخواطر، ويحصل الأمن للموحدين في الهداية والنصر والرزق والكفاية لمَن حقَّق التوحيد والعبودية لله وحده، قال تعالىٰ: ﴿ **أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ**

عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [آل عمران: ١٠١].

ويحصل الأمن للموحدين في الدنيا، وعند الاحتضار، وفي البرزخ، وحين البعث، وفي الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ومن أعظم فضائل التوحيد التي ذكرها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب تحريم دخول النار علىٰ مَن حقَّق التوحيد، الذي دلَّ عليه حديث عتبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إنّ الله حرَّم علىٰ النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»، وهذا التحريم إنما يكون بتحقيق التوحيد علمًا واعتقادًا وعملًا ودعوة وجهادًا، وليس بمجرد نطق اللسان.

وقد ذكرَ شيخُ الإسلام حديث عبادة بن الصامت؛ ليدفعَ توهُّم أنَّ قول كلمة التوحيد بدون تحقيقها سبب دخول الجنة، حيث جاء في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مَن شهدَ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، أدخله اللهُ الجنةَ علىٰ ما كان من العمل**».

وحديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**لو أنَّ السماوات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله**»، ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مخرجه، حيث قال: رواه ابن حبان والحاكم وصحَّحه(١).

فأفادنا الإمام بتصحيح ابن حبان والحاكم للحديث، وصحَّحه الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢)، وكذلك الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣).

---

(١) ورواه النسائي أيضًا في السنن الكبرىٰ (٣/ ١٦٦٨ – رقم ١٠٦٠٢).
(٢) تلخيص المستدرك (١/ ٥٢٨).
(٣) فتح الباري (١١/ ٢٠٨).

والحديث في إسناده: دراج أبي السمح، ورواياته فيها مناكير، يعني: ليس كلها كذلك وإنما بعض رواياته، وهذا الحديث من رواية أبي السمح دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال يحيىٰ بن مَعِين رَحِمَهُ اللَّهُ: ما كان بهذا الإسناد فليس به بأس، دراج ثقة، وأبو الهيثم ثقة[1].

والحافظ ابن عدي رَحِمَهُ اللَّهُ سبرَ مناكير روايات دراج -وهذا ليس منها-، ثم قال: وسائر أخبار دراج غير ما ذكرتُ من هذه الأحاديث يتابعه الناس عليها[2].

وحديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم! لو لقيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئًا، لأتيتكَ بقُرابها مغفرة**»، فيه بيان فضل التوحيد في تكفير الذنوب، فتحقيق التوحيد اعتقادًا وعلمًا وعملًا ودعوةً، يُكفِّر السيئات، ويُثقل موازين الحسنات.

فالحسنات يذهبن السيئات، قال تعالىٰ ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ [هود: ١١٤]، والحسنات أصلها وأساسها التوحيد، وكل أنواع الحسنات من حقائق التوحيد.

والتوحيد هو عِلمُ القلب واعتقاده وعمله، وقول اللسان وعمل الجوارح، ومِن تحقيقه: فعْلُ المأمورات وترْكُ المنهيات، ومَن فرَّط في مأمورٍ أو فعلَ محظورًا فالتوبة تُكفِّره، والغفلات يُكفِّرها التوحيد والعمل الصالح إذا رجحت علىٰ السيئات.

وتكفير التوحيد للذنوب بحسب التحقق بالتوحيد، والإخلاص فيه، والعمل بمقتضاه، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[3]:«اعلم أنّ أشعة لا إله إلا الله تُبدِّد من ضباب

(١) تهذيب الكمال (٨/ ٤٧٨).

(٢) دراج بن سمعان، أبو السمح المصري، وأبو الهيثم هو سليمان بن عمرو المصري، الكامل في الضعفاء (٤/ ٤٩٣).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ط. - دار البشير، الإمارات.

الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور، وتفاوت أهلها في ذلك النور قوةً وضعفًا لا يحصيه إلا الله تعالىٰ.

فمِنَ الناسِ مَن نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس، ومنهم مَن نورها في قلبه كالكوكب الدُّرِّي، ومنهم مَن نورها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم علىٰ هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علمًا وعملًا ومعرفةً وحالًا.

وكلما عَظُمَ نورُ هذه الكلمة واشتد أحرقَ من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتىٰ إنّه ربما وصل حالًا لا يصادف معها شبهةً ولا شهوةً ولا ذنبًا إلا أحرقه، وهذا حالُ الصادق في توحيده الذي لم يشرك بالله شيئًا، فأيُّ ذنبٍ أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها، فسماء إيمانه قد حُرست بالنجوم من كل سارق لحسناته، فلا ينال منها السارق إلا علىٰ غرة وغفلة لا بد منها للبشر، فإذا استيقظ وعَلِمَ ما سُرق منه استنقذه من سارقه أو حصَّل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبدًا مع لصوص الجن والإنس، ليس كمَن فتحَ لهم خزانته، وولَّىٰ البابَ ظَهْرَه».

والحديث القدسي الذي قال الله فيه: «**لو لقيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا أتيتكَ بقُرابها مغفرة**»، يدل علىٰ إقبال الموحدين علىٰ ربهم بالعمل الصالح، والانتهاء عن الذنوب، فهذا من تحقيقهم للتوحيد الذي يكون سببًا في تكفير ما سلف من السيئات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أمَّا الحديث الآخر «**لو لقيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، أتيتك بقرابها مغفرة**»، فلا يدل علىٰ أن ما عدا الشرك كله صغائر، بل يدل علىٰ أنَّ مَن لمْ يشرك بالله شيئًا فذنوبه مغفورة كائنة ما كانت، ولكن ينبغي أنْ يُعلم ارتباط إيمان القلوب بأعمال الجوارح، وتعلقها بها، وإلا لم يُفْهَمْ مرادُ الرسول ﷺ ويقع الخلط والتخبيط.

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٥٤، ٢٥٥).

فاعلمْ أنَّ هذا النفي العام للشرك -أنْ لا يشرك بالله شيئًا البتة- لا يصدر من مُصرٍّ علىٰ معصية أبدًا، ولا يمكن مدمنُ الكبيرة والمصرُّ علىٰ الصغيرة أن يصفو له التوحيد حتىٰ لا يشرك بالله شيئًا، هذا من أعظم المحال».

فالتوحيد ينفي الذنوب؛ لأن التوحيد ليس هو مجرد المعرفة، كما هو دِين الجهمية، التوحيد أساسه الذي يُبنىٰ عليه هو محبة الله وخوفه ورجاؤه، وذلك لا يكون إلا بالعمل لله والفرار إليه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن خافَ أدلجَ، ومَن أدلجَ بلغَ المنزل، ألا إنَّ سلعة الله غالية، ألا إنَّ سلعة الله الجنة**»، رواه الترمذي وحسّنه. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

فتقديم محبة الله وطاعته علىٰ ما خالفها، وطاعة الله والإجلال له، وخشيته ورجاؤه هو حقيقة التوحيد.

وحديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دالٌّ علىٰ أن أفضل أنواع الذِّكر هو ذِكرُ الله بكلمة التوحيد؛ لأنه حقيقة الملة، فالله عَزَّ وَجَلَّ ما أرسل الرسل، ولا أنزل الكتب، ولا أقام سوق الجهاد، إلا من أجل إقامة كلمة التوحيد وتحقيقها؛ ولذلك جاء في حديث دعاء عرفة، وحسّنه الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» بمجموع طرقه أنّ النبي ﷺ قال: «**خيرُ ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «لا إله إلا الله: تقتضي الإخلاص والتوكل، وإخلاص الشكر، فهي أفضل الكلام، وأعلىٰ شعب الإيمان، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنّه قال: «**الإيمان بضع وستون -أو: سبعون- شعبة، أعلاها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**».

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٩٠).

فـ (لا إله إلا الله) هي قطب رحى الإيمان، وإليها يرجع الأمر كله، والكتب المنزلة مجموعة في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وهي معنى (لا إله إلا الله)، و(لا حول ولا قوة إلا بالله)، وهي من معنى: (لا إله إلا الله) و(الحمد لله)، في معناها، و(سبحان الله، والله أكبر)، من معناها».

والخصوصية في الذِّكر التي أرادها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يجعلها الله له، هذه جُعلت لنبينا محمد ﷺ، فإنه -يَحمدُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ في المقام المحمود في الشفاعة العظمى بمحامد لم يفتحها عليه من قبل، وذلك فضلُ اللهِ يؤتيه مَن يشاء.

وإبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنَّ «الحمد»، أكثر الذِّكر ثوابًا، وهذا ممَّا رجَّحه الحافظ ابن عبد البر وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله.

ورجَّح شيخ الإسلام ذلك؛ لأنّ النبي ﷺ قال: «**الحمد لله تملأ الميزان**»، ولأنّ الحمد أول ما أُمر به العبد، وهو أول ما أنطق الله به آدم، وهو أحق ما قال العبد؛ ولأنّ النبي ﷺ تُقبل شفاعته في أهل الموقف بعد أن يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ بمحامدَ لم يفتحها عليه من قبل.

والمعنى الذي رجَّح به شيخ الإسلام الذِّكر بالحمد هو أنه متضمن كل أسماء الله الحسنى ونعوته العظمى؛ لأن الحمد هو وصف المحمود بصفات الكمال كلها، محبةً وتعظيمًا وإجلالًا، ومن جملة ذلك وأوله وآكده: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

قال وكيع رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الحمد لله: شُكْر لا إله إلا الله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «حقُّ الرب: حمدُه وعبادتُه وحده، وهذان: حمد الرب وتوحيده، يدور عليهما جميع الدِّين».

---

(١) قوت المغتذي على جامع الترمذي (٣/ ١٠٩٧).

(٢) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (١/ ٨٦).

وقال شيخ الإسلام أيضًا[(١)]: «قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، فذكر ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ بالألف واللام التي تقتضي الاستغراق لجميع المحامد، فدلَّ علىٰ أنّ الحمد كله لله، ثم حصره في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فهذا تفصيل لقوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «قال النخعي: كانوا يرون أنّ الحمد أكثر الكلام تضعيفًا.

وقال الثوري: ليس يُضاعف من الكلام مثل الحمد. والحمد يتضمن إثبات جميع أنواع الكمال لله، فيدخل فيه التوحيد».

ومعنىٰ قول النبي ﷺ: «**وأنَّ عيسىٰ عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه**»، أي: أنه خُلق بكلمة الله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وليس هو كلمة الله؛ لأن كلام الله صفة قائمة بذاته، والله بائن من خَلقِه، لا يَحُلُّ شيء من صفاته في مخلوقاته.

ومعنىٰ قوله ﷺ «**وروح منه**»: أنَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ نفخَ في جيب درع مريم أمه لتلدَ من غير زوجٍ؛ اصطفاءً من الله.

قال أمير المؤمنين في الحديث البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «إنما خلقَ اللهُ عيسىٰ بالكلمة، لا أنه الكلمة، ألا تسمع إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، يعني: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال في آية أخرىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فخلقَ عيسىٰ وآدم بقوله: ﴿كُن﴾».

(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (١/ ١٠٣).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٠).
(٣) خلق أفعال العباد (٢/ ٦٢).

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أمَّا قوْلُ اللهِ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، يقول: مِن أمْرِه كان الروح فيه، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، يقول: مِن أمْرِه.

وتفسير (روح الله)، إنما معناها: أنها روح بكلمة الله، خلقها الله، كما يقال: عبد الله، وسماء الله، وأرض الله».

فجبريل وعيسىٰ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ مخلوقان، وإضافة الروح إليهما إضافة المخلوق إلىٰ خالقه تشريفًا واصطفاءً، وليسا من صفات الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قوله تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، فإنه وصف هذا الروح بأنه تمثل لها بشرًا سويًّا، وأنها استعاذت بالله منه إن كان تقيًّا، وأنه قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩]، وهذا كله يدل علىٰ أنها عينٌ قائمة بنفسها».

شـرْحُ المسـائل:

١) **سَعَةُ فَضْلِ اللهِ**: وذلك أن الله خلقَ عِبادَه علىٰ الفطرة، وكمَّلها بالشرع، وجعل ما خلقهم له من عبوديته سبب دخولهم الجنة.

٢) **كَثْرَةُ ثَوَابِ التَّوْحِيدِ عِنْدَ اللهِ**: فإنه سببُ دخولِ الجنة.

٣) **تَكْفِيرُهُ مَعَ ذَلِكَ لِلذُّنُوبِ**: فمَن لقي اللهَ لا يشرك به شيئًا، غفر الله ذنوبه بأسباب مغفرتها.

٤) **تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ**: وهو أن تحقيق التوحيد أمان للموحدين في الدنيا والبرزخ والآخرة.

---

(١) الرد علىٰ الزنادقة والجهمية (ص٢٥١، ٢٥٢).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ٢٤٢).

٥) **تَأَمَّلِ الْخَمْسَ اللَّوَاتِي فِيْ حَدِيْثِ عُبَادَةَ**: وهي:

١، ٢) شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله.

٣) أنَّ عيسىٰ عبدُ اللهِ ورسولُه.

٤) الجنة حق.

٥) النار حق.

فتحقيق الشهادتين، والإيمان بالرسل، واليوم الآخر، والعمل للحساب من أسباب دخول الجنة.

٦) **أَنَّكَ إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدِيثِ عِتْبَانَ وَمَا بَعْدَهُ؛ تَبَيَّنَ لَكَ مَعْنَىٰ قَوْلِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَتَبَيَّنَ لَكَ خَطَأُ الْمَغْرُوْرِينَ**: فالأحاديث يُفسِّر بعضها بعضًا، فالمغرور يتوهم أنَّ مُجرَّد قول لا إله إلا الله يدخله الجنة، وذلك لا يكون إلا لمَن حقَّقها عِلمًا واعتقادًا وعملًا ودعوةً.

٧) **التَّنْبِيهُ لِلشَّرْطِ الَّذِي فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ**: وهو الإخلاص لله ﷻ.

٨) **كَوْنُ الْأَنْبِيَاءِ يَحْتَاجُونَ لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ فَضْلِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)**: حيث وعظ الله ﷻ موسىٰ بذِكر فضْلِ لا إله إلا الله، فموعظةُ مَن دُونَ الأنبياء بذلك أوكد.

٩) **التَّنْبِيهُ لِرُجْحَانِهَا بِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَقُولُهَا يَخِفُّ مِيزَانُهُ**: لأن كلمة التوحيد هي حقيقة الأمر كله، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وثقلها في الميزان بحسب التحقق بها.

١٠) **النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ كَالسَّمَوَاتِ**: وذلك يدل علىٰ عظمة خالقهن، وكمال علمه، وقدرته، وقوته.

والسماوات والأرض ومَن فيهن كلهم مربوبون لله، قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، فالواجب علىٰ كل مُكلَّف أن يكون

عبدًا لله طوعًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

١١) **أَنَّ لَهُنَّ عُمَّارًا**: وعُمَّارُها يجب عليهم عمارتها بتوحيد الله، والسماء أكثر عُمَّارِها هم الملائكة، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، والأرضون عُمَّارُها من الجن والإنس، منهم المُوحِّدون ومنهم الكافرون.

١٢) **إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ، خِلَافًا (لِلْمُعَطِّلَةِ) لِلأَشْعَرِيَّةِ**: وذلك أنَّ إثباتَ صفاتِ الله تصديقٌ بخبر الله وإيمانٌ بالله، ونفْيَها أو تحريفَها تكذيبٌ بخبر الله وتجهيلٌ للصحابة والتابعين الذين اعتقدوا ظاهرها ولم يقولوا بخلافها.

١٣) **أَنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ حَدِيثَ أَنَسٍ، عَرَفْتَ أَنَّ قَوْلَهُ فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ» أَنَّ تَرْكَ الشِّرْكِ، لَيْسَ قَوْلُهَا بِاللِّسَانِ**: فالواجب علىٰ المسلم تحقيق التوحيد بعبودية الله وحده، والكفر بما يُعبد من دون الله، وذلك حقيقة «لا إله إلا الله».

١٤) **تَأَمَّلِ الْجَمْعَ بَيْنَ كَوْنِ عِيسَىٰ وَمُحَمَّدٍ عَبْدَيِ اللهِ وَرَسُولَيْهِ**: وذلك أن الإيمان بالله مُستلزِمٌ للإيمان برسله، الذين بعثهم الله لبيان شرعه، ولإقامة الحُجَّة علىٰ خَلقِه.

وفيه بيانُ أنَّ عيسىٰ ومحمدًا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عبيدٌ مخلوقون لله، ليس لهم شيء من حق الربوبية والعبودية.

١٥) **مَعْرِفَةُ اخْتِصَاصِ عِيسَىٰ بِكَوْنِهِ كَلِمَةَ اللهِ**: خَلقَه من غير أبٍ، حيث أمر الله جبريل أن ينفخ في جيبِ درع مريم، وذلك كله بأمرِ الله وخَلقِه، فإنه قال: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

١٦) **مَعْرِفَةُ كَوْنِهِ رُوحًا مِنْهُ**: أي: من أمرِ الله، فعيسىٰ مخلوق لله خَلقَه اللهُ بالكلمة، وأضافه إليه «روح الله وكلمته» إضافة مخلوق إلىٰ خالقه تكريمًا وتشريفًا.

١٧) **مَعْرِفَةُ فَضْلِ الْإِيمَانِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ**: لأنه من الإيمان باليوم الآخر، وهو أحد أركان الإيمان الستة، وهو من الإيمان بالله؛ لأن الله لم يخلقنا سُدًىٰ.

١٨) **مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: «عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»**: أي: أنَّ العملَ بتحقيق التوحيد سببُ دخول الجنة.

١٩) **مَعْرِفَةُ أَنَّ الْمِيزَانَ لَهُ كِفَّتَانِ**: الذي دل عليه حديث أبي سعيد، والميزان حقيقي يُوزن به العامل، وتُوزن أعماله، وصحائف أعماله.

٢٠) **مَعْرِفَةُ ذِكْرِ الْوَجْهِ**: لقوله ﷺ: «**فإنَّ اللهَ حرَّم علىٰ النار مَن قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله**»، والوجه من أشرف صفات الله.

۞ ۞ ۞



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَـابُ الثَّـانِي

بَـابُ: مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِـيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَـابٍ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◈ وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

◈ وَقَالَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَىٰ الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ؛ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَىٰ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ؛ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»، قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَا سَمِعَ؛ وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَىٰ وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُوْلَ اللهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِم رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ؛ فَقَالَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) مَعْرِفَةُ مَرَاتِبِ النَّاسِ فِي التَّوْحِيدِ.

٢) مَا مَعْنَىٰ تَحْقِيقِهِ؟

٣) ثَنَاؤُهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِكَوْنِهِ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

٤) ثَنَاؤُهُ عَلَىٰ سَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ بِسَلَامَتِهِمْ مِنْ الشِّرْكِ.

٥) كَوْنُ تَرْكِ الرُّقْيَةِ وَالْكَيِّ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ.

٦) كَوْنُ الْجَامِعِ لِتِلْكَ الْخِصَالِ هُوَ التَّوَكُّلَ.

٧) عُمْقُ عِلْمِ الصَّحَابَةِ لِمَعْرِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا ذَلِكَ إِلَّا بِعَمَلٍ.

٨) حِرْصُهُمْ عَلَىٰ الْخَيْرِ.

٩) فَضِيلَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْكَمِّيَّةِ وَالْكَيْفِيَّةِ.

١٠) فَضِيلَةُ أَصْحَابِ مُوسَىٰ.

١١) عَرْضُ الْأُمَمُ عَلَيْهِ ﷺ.

١٢) أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تُحْشَرُ وَحْدَهَا مَعَ نَبِيِّهَا.

١٣) قِلَّةُ مَنِ اسْتَجَابَ لِلْأَنْبِيَاءِ.

١٤) أَنَّ مَنْ لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ يَأْتِي وَحْدَهُ.

١٥) ثَمَرَةُ هَذَا الْعِلْمِ، وَهُوَ عَدَمُ الِاغْتِرَارِ بِالْكَثْرَةِ، وَعَدَمُ الزُّهْدِ فِي الْقِلَّةِ.

١٦) الرُّخْصَةُ فِي الرُّقْيَةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ.

١٧) عُمْقُ عِلْمِ السَّلَفِ؛ لِقَوْلِهِ: «قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ كَذَا وَكَذَا»؛ فَعُلِمَ أَنَّ الْحَدِيثَ الْأَوَّلَ لَا يُخَالِفُ الثَّانِي.

١٨) بُعْدُ السَّلَفِ عَنْ مَدْحِ الْإِنْسَانِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ.

١٩) قَوْلُهُ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»: عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ.

٢٠) فَضِيلَةُ عُكَّاشَةَ.

٢١) اِسْتِعْمَالُ الْمَعَارِيضِ.

٢٢) حُسْنُ خُلُقِهِ ﷺ.

الشَّرح

بدأ المصنف هذا الباب بذكر ما يدل من القرآن علىٰ نعوت سيد الحنفاء بتحقيق التوحيد، ثم أتبعه بذكر وصف الموحدين في كتاب الله ﴿بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩]، ثم ختم متن الباب بذكر حديث فضل السبعين ألفًا الذين يدخلون بغير حساب، بسبب كمال توحيدهم، وهذا حثٌّ علىٰ تحقيق التوحيد، لإدراك فضائله.

فذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ نعت الخليل في التوحيد؛ لأنه القدوة والأُمَّة والأب وسيد الحنفاء؛ لنأخذَ عنه حنيفية التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

والموحدون حظهم من التوحيد والمِلَّة الحنيفية بمقدار ما اتبعوا فيه سيد الحنفاء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:(١) : «يمدح سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء ويبرِّئه من المشركين، ومن اليهودية، والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ [النحل: ١٢٠].

فأمَّا الأُمَّة: فهو الإمام الذي يُقتدىٰ به.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٦٧).

والقانت: هو الخاشع المطيع.

والحنيف: المنحرف قصدًا عن الشرك إلىٰ التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠]».

فالخليل ﴿كَانَ أُمَّةً ﴾جمعَ اللهُ فيه صفات الخير ونعوت البركة. وكان ﴿قَانِتًا ﴾ مطيعًا، ﴿لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾، مائلًا إلىٰ التوحيد والطاعة[١].

فحنيفية التوحيد ملة إبراهيم هي التي في اتباعها الحساب اليسير ودخول الجنة بغير حساب لمَن تحقق بها علىٰ الكمال.

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] : «نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: مُقبِلًا علىٰ الله، مُعرِضًا عمَّا سواه، قائمًا بالتوحيد، تاركًا للشرك والتنديد، فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية».

والسبعون ألفًا الذين يدخلون الجنةَ بغير حساب ذَكرَ شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب فضلهم من السنة في تحقيق التوحيد، قال النبي ﷺ في نعتهم: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلىٰ ربهم يتوكلون**».

فهم لكمال توحيدهم لا يسألون الرقية، ولا يتطببون بمنهيٍّ عنه كالْكَيِّ، ولا يشركون بالله شيئًا في تطيرٍ، ولا غيره، فنعتُهم وعملُهم وحالُهم «التوكل علىٰ الله».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أمَّا حديث السبعين ألفًا، فلم يصفهم بترك سائر التطبب، وإنما وصفهم بترك الاكتواء والاسترقاء، والاكتواء مكروه،

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ١٠٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٦).
(٣) الاستقامة ص١٣٠.

وقد نُهي عنه في غير هذا الحديث لمَّا قال: «**وأنا أنهىٰ أُمَّتِي عن الكَيِّ**»، والمسترقي لم يفعل شيئًا إلا اعتماده علىٰ الراقي، فتوكله علىٰ الله -سبحانه وحده لا شريك له- أنفع له من ذلك.

وهذا الجواب الآخر، وهو أن المسترقي يضعف توكله علىٰ الله، فإنه إنما طلبَ دعاء الغير ورقيته، فاعتماد قلبه علىٰ الله وحده، وتوكله عليه أكمل لإيمانه وأنفع له».

وسُنَّةُ النبي ﷺ الفعلية معلومة في الحث علىٰ رُقيَة مَن به حاجة أو ضرورة إلىٰ ذلك، ففي الصحيحين أن النبي ﷺ رأىٰ جارية أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في وجهها سَفْعَةٌ، فقال: «**إنَّ بها النَّظْرَةَ، استرقوا لها**».

والنظرةُ هي: النظرةُ من الجِنِّ، وقيل: أَخْذَةٌ من الشيطان(١).

قال العَلَّامة المجدد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ(٢): «(وعلىٰ ربهم يتوكلون)، يعني: يعتمدون ويثقون به سبحانه ويفوضونه جَلَّ وَعَلَا، مع فعلهم الأسباب الشرعية والمباحة، لكنَّ هذين السببين: الكي والاسترقاء تركهما أَوْلىٰ عند الغُنْيَة عنهما، فإذا احتاج إلىٰ الاسترقاء فلا بأس، وإذا احتاج إلىٰ الكي فلا بأس، لكنَّ تركهما أفضلُ عند الغُنْيَة عنهما.

وقد ثبت أنه ﷺ أمر أسماء بنت عميس رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن تسترقي لأولاد جعفر لمَّا أصابتهم العَين، وكوىٰ بعض أصحابه؛ فدلَّ ذلك علىٰ أنه يجوز عند الحاجة.

قال ﷺ: «**الشفاء في ثلاثة: كية نار، شربة عسل، وشَرْطَة مِحْجَم، وما أحبُّ أنْ أكتوي**»، وفي اللفظ الآخر: «**وأَنهىٰ أُمَّتِي عن الكيِّ**»؛ بيَّن أنَّ الكيَّ من أسباب الشفاء، ولكن -مهما أمكن- أن يكون آخر الطب، وألا يُصارَ إليه إلا عند تعذُّر غيره، فإنه يعالج به.

---

(١) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (١٤/ ١٨٥)، فتح الباري (١٠/ ٢٠٢).

(٢) دروس وفتاوىٰ في المسجد الحرام ص١١٣، ١١٤.

فعرفتَ أنَّ الكي والاسترقاء تركهما أولىٰ، وأنَّ تركهما من كمال الإيمان، من الكمالات، من كمال الإيمان، ومن كمال صفات أهل الجنة، وليس تركهما واجبًا، وليس الكي مُحرَّمًا، وليس الاسترقاء مُحرَّمًا، لكن تركهما أفضل».

والطب لا يكون بتناول الأدوية فقط، بل أوله وأساسه وأصله: التوكل علىٰ الله، والاستعانة به في تقوية النفس لدفع المرض، والإقبال علىٰ الله بالتوبة من الذنوب والإنابة إليه، وملازمة الاستغفار والذِّكر، والإلحاح علىٰ الله بالدعاء، والرقية وفعْل الخير، والصدقة والإحسان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كلُّ طبيبٍ لا يداوي العليل بتفقُّد قلبه وصلاحه، وتقوية روحه وَقُوَاهُ بالصدقة، وفعْلِ الخير، والإحسان، والإقبال علىٰ الله والدار الآخرة؛ فليس بطبيبٍ بل مُتَطَبِّبٌ قاصر.

ومن أعظم علاجات المرض فعْلُ الخير، والإحسان، والذِّكر، والدعاء، والتضرع، والابتهال إلىٰ الله، والتوبة، ولهذه الأمور تأثير في دفع العلل، وحصول الشفاء أعظم من الأدوية الطبيعية، ولكن بحسب استعداد النفس وقبولها وعقيدتها في ذلك ونفعه».

وبعض الأمراض إنما هي من تسلُّطِ الشيطان ووخزه، كالطاعون، فلا أنفع للمريض في دفعها من الذِّكر وقراءة القرآن.

قال ابن القيم[2]: «إنَّ الأرواح الشيطانية تتمكن من فِعلها بصاحب هذه العوارض ما لا تتمكن من غيره، ما لم يدافعها دافِعٌ أقوىٰ من هذه الأسباب من: الذِّكر، والدعاء، والابتهال، والتضرع، والصدقة، وقراءة القرآن، فإنه يستنزل بذلك من الأرواح الملكية ما يقهر هذه الأرواح الخبيثة، ويبطل شرها، ويدفع تأثيرها».

---

(١) زاد المعاد ص٦٤٣.

(٢) زاد المعاد ص٦٠٢.

وحديث السبعين ألفًا فيه بشارة للموحدين وصحيحي الاعتقاد بيُسْرِ الحساب يوم القيامة، كما أن فساد الاعتقاد من أسباب سوء الحساب يوم القيامة، فقد قال النبي ﷺ في الخوارج: «**يمرقون من الدِّين كما يمرق السهم من الرمية**»، وقال فيهم أيضًا «**كلاب النار**».

وكان العلماء من أهل السُّنة إذا حضروا مريضًا بشَّروه بحُسْنِ الظن بالله في القدوم عليه، وجعلوا أعظم مبشرات ذلك صحيح الاعتقاد.

قال يحيىٰ بن عون: دخلتُ مع سحنونٍ علىٰ ابن القصار وهو مريض، فقال: ما هذا القلق؟

قال له: الموت والقدوم علىٰ الله.

قال له سحنون: ألستَ مُصدِّقًا بالرسل والبعث والحساب، والجنة والنار، وأنَّ أفضل هذه الأُمَّة أبو بكر ثم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والقرآن كلام الله غير مخلوق، وأنَّ اللهَ يُرىٰ يوم القيامة، وأنه علىٰ العرش استوىٰ، ولا تخرج علىٰ الأئمة بالسيف -وإنْ جاروا-؟

قال: إي والله.

فقال: متْ إذا شئتَ، متْ إذا شئتَ[1].

وهذا الباب حقيقته يرجع إلىٰ معنىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فمَن تحقق بها كان حسابه يسيرًا.

والناس طبقات في تحقيقهم للعبادة والاستعانة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن الناس في عبادته واستعانته علىٰ أربعة أقسام: فالمؤمنون المتقون هم له وبه، يعبدونه ويستعينونه.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٦٧).

(٢) التدمرية (ص٢٣٤)، ط- السادسة.

وطائفة تعبده من غير استعانة ولا صبر، فتجد عند أحدهم تحريًا للطاعة والورع، ولزوم السُّنة، لكن ليس لهم توكل واستعانة وصبر، بل فيهم عجزٌ وجزعٌ.

وطائفة فيهم استعانة وتوكل وصبر، من غير استقامة علىٰ الأمر ولا متابعة للسُّنة».

فالتوكل علىٰ الله والاستعانة به، وعبوديته وحده لا شريك له، وطاعة أمره واجتناب نهيه سببُ سعادة الدنيا والآخرة والحساب اليسير يوم القيامة.

والتوكل علىٰ الله أعظمه وأهمه هو في طلبِ الهداية من الله، وتجريد التوحيد لله، والمتابعة للرسول ﷺ، والجهاد، ودفع كيد العدو المُعْلَن والباطن، وشرور النفس. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أعظمُ التوكل عليه: التوكل في الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعة الرسول ﷺ، وجهاد أهل الباطل، فهذا توكُّل الرسل وخاصة أتباعهم».

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «يدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي به إلىٰ العطب ويحميه منه، فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشر نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه».

فحاجة المسلم للاستعانة بالله في هدايته وتثبيته علىٰ ذلك حتىٰ يوافي ربه هو أَوْلىٰ وأهم ما يحتاجه المسلم، وهو محتاج لإعانة الله في أموره كلها. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «يجب علىٰ المؤمن أن يستعين بالله ويتوكل عليه، في أن يقيم قلبه ولا يزيغه، ويثبته علىٰ الهدىٰ والتقوىٰ، ولا يتبع الهوىٰ».

---

(١) الفوائد (ص١٢٥).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٧٢).

(٣) الاستقامة ص٤٧٨.

وقوله ﷺ في وصف السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «**هم الذين: لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلىٰ ربهم يتوكلون**»، بيان لموجب الفضل في دخول الجنة بغير حساب «**وعلىٰ ربهم يتوكلون**»، فالتوكل واجب في كل الأمور، ومن أهمها الثلاثة المذكورة.

والحديث يدل علىٰ أن أفضل ما يتقرب به إلىٰ الله من الإيمان والطاعات وهو ما كان أعظم توكلًا وتحقيقًا للتوحيد. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «كلُّ عملٍ كان أقربَ إفضاءً إلىٰ العِلم بالله وأسمائه وصفاته فهو أعلىٰ مما دونه، وكذلك حال القلب؛ فكلُّ حالٍ كان أقرب إلىٰ المقصود الذي خُلق له فهو أشرف مما دونه، وكذلك الأعمال؛ فكلُّ عملٍ كان أقرب إلىٰ تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره؛ ولهذا كانت الصلاةً والجهاد من أفضل الأعمال لقرب إفضائهم إلىٰ المقصود، وهكذا يجب أن يكون، فإن كل ما كان الشيء أقرب إلىٰ الغاية كان أفضل من البعيد عنها.

فالعمل المُعد للقلب المهيئ له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك».

وفي اجتهاد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في معرفة موجب فضل السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، دليلٌ علىٰ حرصهم علىٰ معرفة فضائل الأعمال الموجبة لرفعة الدرجات؛ ليبادروا بالعمل بها.

وأجوبة الصحابة تدل علىٰ علمهم، فهي لم تخرج عن معنىٰ جواب النبي ﷺ، فالنبي ﷺ ذكر أن تحقيق التوحيد هو الموجب لدخول الجنة بغير حساب، وأجوبة الصحابة هي في معنىٰ ذلك، فالذين صَحِبُوا النبيَّ ﷺ فضْل صحبتهم؛ لنصرة التوحيد الذي بُعث به، صَحِبُوه -صلوات الله وسلامه عليه-،

---

(١) عدة الصابرين (ص١٨٣).

وجاهدوا معه لإقامته، ودعوا الناس إليه حتىٰ عُبد اللهُ وحده في جزيرة العرب ثم دخل الناس في دين الله أفواجًا.

وكذلك جوابهم الثاني في قولهم: «لعلهم الذين وُلدوا في الإسلام ولم يشركوا به شيئًا»، فهو في معنىٰ تحقيق التوحيد.

علىٰ كل حال، مقام الصحابة رضي الله عنهم في نصرة الدِّين وصحبة أشرف المرسلين لا يدركه أحدٌ، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أصحاب محمد ﷺ كانوا أبر هذه الأُمَّة قلوبًا، وأعمقها عِلمًا، وأقلها تكلُّفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دِينه».

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في الصحابة[1]: «لمقامُ أحدِهم ساعة -يعني: مع رسول الله ﷺ- خيرٌ من عملِ أحدكم عُمْره»، رواه أحمد في فضائل الصحابة بإسنادٍ صحيح.

وفي هذا قال النبي ﷺ: «**لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**» رواه البخاري ومسلم، وبيَّن النبي ﷺ أن جهاد الصحابة هو سبب عبودية الخَلق لله، فقال مبتهلًا لله قبل غزوة بدر: «**اللهم إنْ تهلك هذه العصابة فلنْ تُعبدَ في الأرض**»، رواه البخاري ومسلم.

فالصحابة رضي الله عنهم هم خير الناس -كما قال النبي ﷺ-؛ بما حقَّقوه من كمال التوحيد، وبما أدركوه من شرف صحبة النبي ﷺ، وبما قاموا به من الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، فبهم قام الإسلام وفُتحت الأمصار وعُبد الله، والصحابة هم الذين أدوا الدِّين للناس جميعًا، فلا يزال الناس في فضلِ جهادهم وعلومهم.

قال العَلَّامة محمد بن علي الشوكاني رحمه الله: «اعلمْ أن الصحابة لاسيما أكابرهم الجامعين بين الجهاد بين يدي رسول الله ﷺ، والعلم بما جاء به، وأسعدهم اللهُ سبحانه من مشاهد النبوة وصحبة رسول الله ﷺ في السراء والضراء،

---

(١) الشريعة للآجري (ص٧١٥ - رقم ٢٠٥٤).

وبذلهم أنفسهم وأموالهم في الجهاد في سبيل الله سبحانه حتىٰ صاروا خير القرون بالأحاديث الصحيحة، فهم خيرةُ الخيرة؛ لأنَّ هذه الأُمَّة هي -كما أكرمهم الله به بقوله:- ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وكانوا الشهداء علىٰ العِباد -كما في القرآن-، فهم خير العباد جميعًا، وخير الأمم سابقهم ولاحقهم، وأولهم وآخرهم، وهؤلاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهم خير قرونهم، وأفضل طوائفهم إلىٰ يوم القيامة.

فتقرر بهذا أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خير العالم بأسره من أوله إلىٰ آخره، لا يفضلهم أحد إلا الأنبياء والملائكة(١)، ولهذا لم يعدل مثل أحد ذهبًا مد أحدهم ولا نصيفه».

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا المتفق عليه، قال النبي ﷺ: «**سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**»، هذه رواية الصحيحين في عددِ مَن يدخل الجنة بغير حساب.

ووردَ في غير رواية الصحيحين ما يفيد أن مجموعهم أكثر من ذلك، فقد وردَ مرفوعًا من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «**أنَّ مع كل ألف سبعين ألفًا**»(٢).

ووردَ مرفوعًا أيضًا «**أنَّ مع كل واحد -أو رجل- سبعين ألفًا**»(٣). قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(٤): «هذا يحتمل: أن يكون مع كل واحد من الألوف، ويحتمل: أن يكون مع كل واحد من الآحاد، وهو أشمل وأكثر».

---

(١) الصحابة أفضل من الملائكة باعتبار العاقبة، وباعتبار ما حصل لهم من التكليف.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٨٠)، وصححه الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٥)، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه الطبراني في الكبير (٨/ ١٢٩) من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجود إسناده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٨)، وأحمد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجود إسناده ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٤١١).

(٣) رواه أبو يعلىٰ (٦/ ٤١٧) وجود إسناده ابن كثير في التفسير (١/ ١٠٠).

(٤) البداية والنهاية (٢٠/ ٦٢).

فهؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب هم أهل التوحيد الخالص، الذين لا يسترقون وعلىٰ ربهم يتوكلون، ويليهم في الفضل في دخول الجنة مَن يكون حسابه عرضًا، وهم أولياء الله المتقون، تُعرض أعمالهم مجرد عرضٍ بلا نقاش، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «**ليس أحدٌ يُحاسب يوم القيامة إلا هلك**»، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]»؟! فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك العرض، وليس أحدٌ يُناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذِّب**»، رواه البخاري ومسلم.

شـرْحُ المسـائل:

١) **مَعْرِفَةُ مَرَاتِبِ النَّاسِ فِي التَّوْحِيدِ**: وذلك بحسب تحققهم بالتوحيد، فأفضلُ الناسِ أكملهم توحيدًا.

٢) **مَا مَعْنَىٰ تَحْقِيقِهِ؟**: هو خلوصه من شوائب الشرك، وكل ما يضاد أصل التوحيد أو كماله، وعبودية الله وحده لا شريك له، والانقياد لله بإخلاص باتباع أمره واجتناب نهيه وتصديق خبره، وعبادته بما شرع، والخشية له، والتوكل عليه، والاستقامة علىٰ صراطه، والبراءة من الشرك والمشركين.

٣) **ثَنَاؤُهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِكَوْنِهِ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**: وذلك حثٌّ علىٰ الاقتداء بسيد الحنفاء في مجانبة الشرك.

٤) **ثَنَاؤُهُ عَلَىٰ سَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ بِسَلَامَتِهِمْ مِنْ الشِّرْكِ**: وذلك سببُ سيادتهم وولايتهم وهو تحقيق التوحيد والسلامة من الشرك، فمَن كان حنيفًا تقيًّا كان للهِ وليًّا.

٥) **كَوْنُ تَرْكِ الرُّقْيَةِ وَالْكَيِّ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ**: فالموحدون لا يطلبون من غيرهم الرقية، بل يرقون أنفسهم وعلىٰ ربهم يتوكلون، ولا يتداوون بمكروهٍ أو منهيٍّ عنه كالكي.

٦) **كَوْنُ الْجَامِعِ لِتِلْكَ الْخِصَالِ هُوَ التَّوَكُّلَ**: فالتوكل يوجب الثقة والطمأنينة إلىٰ كفاية الله، فيتداوىٰ المتوكلون بما لا يضاد أصل التوحيد أو كماله.

٧) **عُمْقُ عِلْمِ الصَّحَابَةِ لِمَعْرِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا ذَلِكَ إِلَّا بِعَمَلٍ**: حيث قالوا في أجوبتهم لسؤال النبي ﷺ عن سبب دخول السبعين ألفًا الجنة بغير حساب، ما يرجع معناه إلىٰ تحقيق التوحيد.

٨) **حِرْصُهُمْ عَلَىٰ الْخَيْرِ**: لرغبتهم في معرفة العمل الموجب لدخول الجنة بغير حساب، والعمل بموجب ذلك كما هو المعهود عنهم.

٩) **فَضِيلَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْكَمِّيَّةِ وَالْكَيْفِيَّةِ**: حيث أنهم أكثر أهل الجنة، وأقومهم تحقيقًا للتوحيد، وأتباعُ أكملِ شِرْعَة نسخت ما قبلها من الشرائع، ويهتدي بهم الخَلق بما أدّوه من علم الشريعة.

١٠) **فَضِيلَةُ أَصْحَابِ مُوسَىٰ**: وهي فضيلة لموسىٰ أولًا لكثرة أتباعه، وفضل أتباعه بالتوحيد لا بعبادة العجل وقتل الأنبياء أو الكفر بهم.

١١) **عَرْضُ الْأُمَمُ عَلَيْهِ** عليه الصلاة والسلام: لأنه شهيد عليهم، وأُمَّتُه شهداء علىٰ الأمم من قبلهم، وبشارة للنبي ﷺ وأُمَّتِه بأنهم أكثر أهل الجنة.

١٢) **أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تُحْشَرُ وَحْدَهَا مَعَ نَبِيِّهَا**: وهذا مصداق قوله تعالىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١].

١٣) **قِلَّةُ مَنِ اسْتَجَابَ لِلْأَنْبِيَاءِ**: حيث لم يتبعهم إلا القليل.

١٤) **أَنَّ مَنْ لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ يَأْتِي وَحْدَهُ**: لأنه لا يتبعه إلا مَن آمن به.

١٥) **ثَمَرَةُ هَذَا الْعِلْمِ، وَهُوَ عَدَمُ الِاغْتِرَارِ بِالْكَثْرَةِ، وَعَدَمُ الزُّهْدِ فِي الْقِلَّةِ**: فالحق هو ما دل عليه الوحي من الكتاب والسُّنة، وما بُعث به النبيون، لا ما خالفه من الباطل وإنْ كَثُرَ أتباعه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

١٦) **الرُّخْصَةُ فِي الرُّقْيَةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ**: لأن ذلك مما أَذِن فيه الشرع.

١٧) **عُمْقُ عِلْم السَّلَفِ؛ لِقَوْلِهِ**: «قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ كَذَا وَكَذَا»؛ **فَعُلِمَ أَنَّ الْحَدِيثَ الْأَوَّلَ لا يُخَالِفُ الثَّانِي**: وبهذا ظهرَ فضْلُ عِلمِ السلف، حيث كانت اعتقاداتهم وأعمالهم عن توقيف، وتحققهم في العلم بجمعهم بين النصوص علىٰ ما تَأْتَلِف به من المعاني الصحيحة الذي يقتضيه مجموعها.

١٨) **بُعْدُ السَّلَفِ عَنْ مَدْحِ الْإِنْسَانِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ**: وذلك بدفع توهم الناس عن قيامهم بأعمال لم يعملوها.

١٩) **قَوْلُهُ**: «أَنْتَ مِنْهُمْ»: **عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ**: حيث شهد النبي ﷺ لعكاشة بن محصن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعينه أنه في الجنة.

٢٠) **فَضِيلَةُ عُكَّاشَةَ**: لسبقه الصحابة في طلب دخول الجنة بغير حساب.

٢١، ٢٢) **اِسْتِعْمَالُ الْمَعَارِيضِ، وَحُسْنُ خُلُقِهِ ﷺ**: لقوله ﷺ: «**سبقكَ بها عكاشة**».

الْبَـابُ الثَّـالِثُ

بَـابُ الْخَـوْفِ مِنَ الشِّـرْكِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◈ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

◈ وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

◈ وَفِي الحَدِيثِ: «**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**»، فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ: «**الرِّيَاءُ**».

◈ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو للهِ نِدًّا؛ دَخَلَ النَّارَ**». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

◈ وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ**».

فِيـهِ مَسَـائِلُ:

١) الْخَوْفُ مِنْ الشِّرْكِ.

٢) أَنَّ الرِّيَاءَ مِنْ الشِّرْكِ.

٣) أَنَّهُ مِنَ الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ.

٤) أَنَّهُ أَخْوَفُ مَا يُخَافُ مِنْهُ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ.

٥) قُرْبُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

٦) الْجَمْعُ بَيْنَ قُرْبِهِمَا فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ.

٧) أَنَّهُ مَنْ لَقِيَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ -وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ-.

٨) الْمَسْأَلَةُ الْعَظِيمَةُ: سُؤَالُ الْخَلِيلِ لَهُ وَلِبَنِيهِ وِقَايَةَ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

٩) اِعْتِبَارُهُ بِحَالِ الْأَكْثَرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦].

١٠) فِيهِ تَفْسِيرُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)؛ كَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ.

١١) فَضِيلَةُ مَنْ سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ.

الشَّرح

بعد أن ذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ فضْلَ التوحيد حذَّر من الشرك، ليكون المسلم حنيفًا، مقبلًا على الله مائلًا عن الشرك، وذلك حقيقة التوحيد، وهو معنى «لا إله إلَّا الله».

والشرك غالبٌ على النفوس، إلَّا ما شاء الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، من أجل ذلك خافه الموحدون، وسعوا في تحقيق التوحيد ودفع كل ما يضاده من أنواع الشرك.

وإذا خشي النبي ﷺ على أصحابه من الشرك، فمَن يأمنه على نفسه؟!

وسيد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خشي من الشرك على نفسه وبنيه، فبَنُوهُ الحنفاء يتأسون به في الخوف منه واجتنابه.

وأدلة هذا الباب التي ذكرها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تضمنَّت أمرين عظيمين:

الأول: الخوف من الشرك.

الثاني: وعيد المشركين.

أَمَّا الخوف من الشرك، فقد ذكر حال سيد الحنفاء الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كيف خشي علىٰ نفسه وبنيه من الشرك.

ومكة وما حولها من جزيرة العرب كانوا موحدين علىٰ ملة إبراهيم، ولم يزالوا علىٰ ذلك إلىٰ أن جلب عمرو بن لحي الخزاعي الأصنام من أرض البلقاء بالشام وتحريم الحلال، فاقتدىٰ به الناس في ذلك مكة، فأوقعَ الشركَ بمكة ونواحيها، وأفسدَ مِلَّةَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقصةُ عمرو بن لحي الخزاعي تدل علىٰ خطرِ التشبه بالمشركين، وتدل علىٰ مسارعة الناس إلىٰ الشرك إلا مَن رَحِمَ اللهُ، وتدل علىٰ أن الجهل وانْدِرَاسَ العِلمِ من أعظم أسباب الشرك.

فتعاهُد النَّاس بالتعليم والتذكير من أسباب حفظ أديان الناس، وإنكار الشرك والتحذير منه من أعظم أسباب محاذرته واجتنابه.

فالواجب علىٰ المسلمين التواصي بالدعوة إلىٰ التوحيد وشرائعه وأحكامه، والتحذير مما يضاده، قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

والشرك لا يغفره الله لمَن لم يتُب منه، وهو أكبر الكبائر؛ لأنَّه يحبط الإيمان، ولا يتأسس عليه بنيان، ولا يقوم معه أركان، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة:٥٤]، وهو مبطلٌ لكل عملٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥]، وهو الموجب للخلود في النار، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢].

والشرك لا يغفره الله؛ لأنَّ الطباع لا تقتضيه كبعض الشهوات المحرّمة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الإشراك والقول علىٰ الله بلا علم فإنَّه منكرٌ

(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير (٤/ ٥٨٧).

محض، ليس في النفوس ميلٌ إليها، بل إنَّما يكونان عن عنادٍ وظلمٍ، فهما منكرٌ وظلمٌ محضٌ بالفطرة».

والشرك لا يغفره الله؛ لأنَّه مضاد للغاية المقصودة من الخَلق وهو توحيد الله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ الله خلقَ الخَلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه، ومحبته والإخلاص له.

وحاجتهم إليه في عبادتهم إيَّاه وتألههم كحاجتهم وَأَعْظَمَ في خَلقِه لهم وربوبيته إيَّاهم، فإنَّ ذلك هو الغاية المقصودة لهم.

ولهذا كان الله لا يغفر أن يُشرَك به، ويغفر ما دون ذلك لمَن يشاء، ولهذا كانت (لا إله إلَّا الله) أحسن الحسنات».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ الله خلقَ الخَلق لعبادته، فهذا هو المقصود المطلوب لجميع الحسنات، وهو إخلاص الدِّين كله لله، وما لم يحصل فيه هذا المقصود فليس حسنةً مطلقة مستوجبة لثواب الله في الآخرة، وإن كان حسنة من بعض الوجوه له ثواب في الدنيا، وكل ما نُهِي عنه فهو زيغٌ وانحرافٌ عن الاستقامة ووضْعٌ للشيء في غير موضعه، فهو ظلمٌ».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «فلمَّا كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذي خلقَ اللهُ له الخَلق وأمر لأجله بالأمر، كان أكبر الكبائر عند الله».

والشرك لا يغفره الله؛ لأنَّه عدولٌ عن حق الله الخالص إلىٰ مخلوق ناقص لا يستحقه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩١]، فالشرك أعظم الظلم؛ لأنَّه صرفٌ لحق الله الخالص لغيره.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٢٣)، باختصار.

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٨٦).

(٣) الجواب الكافي (صـ ٣٢٩).

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «هذا الذنب الذي هذا شأنه عند الله، وإنَّما كان كذلك؛ لأنَّه أقبح القبيح، وأظلم الظُّلم، إذ مضمونه تنقيصُ رب العالمين، وصرفُ خالصِ حقّه لغيره، وعَدْلُ غيره به، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، ولأنَّه مناقضٌ للمقصود بالخَلق والأمر، منافٍ له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته، والذُّلِّ له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالَم إلَّا بذلك، فمتىٰ خلا منه خَرِبَ وقامت القيامة، كما قال ﷺ: «**لا تقوم السَّاعة حتَّىٰ لا يُقال في الأرض: الله، الله**» رواه مسلم.

ولأنَّ الشرك تشبيهٌ للمخلوق بالخالق -تعالىٰ وتقدَّس- في خصائص الإلهية، من مُلك الضُّر والنفع، والعطاء والمنع الذي يوجب تعلُّق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل، وأنواع العبادة كلها بالله وحده».

فالشرك لا يغفره الله؛ لأنَّه تسويةٌ بين الخالق الكامل والمخلوق النَّاقص، قال العَلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «الله لا يغفر أن يُشرَك به؛ لأنَّه يتضمَّن التسوية بينه تعالىٰ وبين غيره في المحبة والتعظيم، وغير ذلك من أنواع العبادة، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّه مَن أحبَّ شيئًا دون الله، كما يحب الله، فقد اتخذه ندًّا، وهذا معنىٰ قول المشركين لمعبوديهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٩٧-٩٨]، فهذه تسويةٌ في المحبة والتألُّه، لا في الذات والأفعال والصفات، فمَن صرف ذلك لغير إلهه الحق، فقد أعرض عنه وأبِقَ عن مالكه وسيده، فاستحق مَقْتَه وبُغْضَه وطَرْدَه عن دارِ كرامته ومنزل أحبابه».

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).
(٢) عيون الرسائل (٢/ ٦٢٠، ٦٢١)

وقال العَلَّامة أبو العبَّاس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الشرك أكبر الكبائر عند الله تعالىٰ، وأنَّه لا يُغفر بغير التوبة منه، وأنَّه موجب للخلود في العذاب العظيم، وأنَّه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه فقط، بل يستحيل علىٰ الله أن يشرع لعباده إلهًا غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله».

فمَن أنعمَ اللهُ عليه بنعمة التوحيد فليحفظها، وليخلص لله في إرادته وأعماله، وليكون عمله في تحقيق التوحيد يومه ودهره كله، فيقوم بتنمية التوحيد وتخليصه من شوائب الشرك.

والنَّفْسُ تَكمُل بالعِلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والتفقُّه في كتابه بتصديق خبره والعمل بأمره ونهيه[2].

فالواجب علىٰ الحنفاء: تحقيق التوحيد، وتعاهُد توحيدهم بأسباب حفظه وتنميته، وتجريد توحيدهم من شوائب الشرك، وتخليص نفوسهم من أهواء النفوس المذمومة، وقصْد الله وحده، وتنمية العِلم بأسماء الله وصفاته والتألُّه لله بحقائقها. قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «أمَّا العمل، فآفته عدمُ مطابقته لمراد الله الدينيِّ الذي يُحبُّه الله ويرضاه، وذلك يكون من فساد العلم تارة، ومن فساد الإرادة تارة.

ففساده من جهة العِلم: أن يعتقد أنَّ هذا مشروع محبوب لله، وليس كذلك، أو يعتقد أنَّه يُقرِّبه إلىٰ الله وإن لم يكن مشروعًا، فيظُن أنه يتَقرَّب إلىٰ الله بهذا العمل، وإن لم يعلم أنَّه مشروع.

وأمَّا فساده من جهة القصد: فألَّا يقصد به وجه الله والدار الآخرة، بل يقصد به الدُّنيا والخَلْق.

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (صـ ٣٨).

(٢) الفوائد (صـ ١٢٢).

(٣) الفوائد (صـ ١٢٣).

وهاتان الآفتان في العلم والعمل لا سبيل إلىٰ السلامة منهما إلا بمعرفة ما جاء به الرسول ﷺ في باب العلم والمعرفة، وإرادة وجه الله والدار الآخرة في باب القصد والإرادة، فمتىٰ خلا من هذه المعرفة وهذه الإرادة؛ فسدَ علمُهُ وعملُهُ».

ومن مداخل الشيطان في إغواء بني آدم: تهوين الشرك عليهم، وتزيينه لهم في إرادات وأقوال وأعمال توهم عدم مضادتها للتوحيد.

ومن مداخل الشيطان في إغواء بني آدم: تزيين العجب والغرور بالسلامة من الشرك حالًا، وطمأنتهم إلىٰ ذلك مستقبلًا.

وحال السلف الحنفاء معلوم في الخشية علىٰ أنفسهم من الشرك، خصوصًا ما يتعلَّق بإرادة غير الله، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنَّهم يستعينون علىٰ مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، فيغتر به الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل، ثمَّ ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به بصَغْوها وميلها إليه، ورضاها به؛ لما كُسي من الزخرف الذي يغر السامع، فلمَّا أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولًا وعملًا».

فدعاة الشرك روَّجوا شركهم بتسمية الاستغاثة بالموتىٰ: توقيرًا للصالحين، وتبرُّكًا، وتوسُّلًا بهم.

فالدِّينُ كله حقيقته في العِلم النَّافع والعمل الصالح، فالسير إلىٰ الله يكون باتباع صراطه المستقيم، وهذا السير مواصلته وحفظه عن العوارض والقواطع وعن التقهقر ضروري حتىٰ يكون المنتهىٰ حميدًا، وذلك لا يكون إلَّا بالمداومة علىٰ طلبِ العِلم النَّافع والعمل به وقصدِ وجه الله وتقديم مرضاته علىٰ ما سواه.

---

(١) الصَّواعق المرسلة (١/ ٤٣٧).

قال الخليل سيد الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

وهذا تعليمٌ من سيد الحنفاء للأُمَّة باتخاذ أسباب مجانبة الشرك، وأول ذلك وأهمّه الاستعانة بالله في ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ينبغي لكل داعٍ، أنْ يدعوَ لنفسه ولوالديه ولذرِّيته».

وقال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إذا كان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يسأل اللهَ أن يُجنِّبهُ، ويُجَنِّبَ بَنِيه عبادة الأصنام، فما ظَنُّكَ بغيره؟!».

كما قال إبراهيم التَّيْميُّ: «ومَن يَأْمَن منَ البلاء بَعْدَ إبراهيم»، رواه الطبري.

وهذا يُوجب للقلب الحيِّ أنْ يخافَ من الشرك، لا كما يقول الجُهَّالُ: إنَّ الشِّرْك لا يقع في هذه الأُمَّة، ولهذا أَمِنُوا من الشرك فوقعوا فيه، وهذا وجه مناسبة الآية للترجمة.

والنبيُّ ﷺ وهو يُودِّع أُمَّته حذَّرها شرْكَ اليهود والنصارىٰ، خصوصًا اتخاذ القبور مساجد؛ كُلُّ هذا خوفًا علىٰ أُمَّته من الشرك، وقد وقع هذا النوع من الشرك في أُمَّته بعد القرون الفاضلة.

وهذا يوجب للناصح لنفسه ولأُمَّة الإسلام: الدعوة للتوحيد وتعليمه، وتحذير النَّاس من الشرك، كما فعلَ النبيُّ ﷺ؛ حيث علَّم التوحيد وحذَّر من الشرك، وكان ذلك حقيقة ما بُعِث به، وما قام به ودعا إليه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٧٩١).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١/ ٢٨٨).

وأنتَ إذا تأمَّلتَ ما وقع فيه كثير من النَّاس من أنواع الشرك، أوجب لك ذلك الخشية منه، وأوجب عليك الدعوة إلىٰ التوحيد والتحذير من الشرك؛ ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، فأهل السُّنَّة ينصحون الخَلق ويرحمونهم.

- فمِنَ النَّاس مَنْ يعلِّق التمائم ويستغيث بالموتىٰ، وينذر لغير الله، ويذبح للجن، ويطوف بالقبور، بل ويتخذها مسجدًا ويشدَّ الرِّحال إليها كما تُشَد الرحال إلىٰ الحج.
- ومِنَ النَّاس مَنْ يتطيَّر، ويأتي الكُهَّانَ والسَّحرة والعرَّافين والمنجمين.
- ومنهم مَن يعتقد في بعض المخلوقين أنَّ له تصرُّفًا في الكون.
- ومنهم مَن يقصد بأعماله غير الله رياءً، ومنهم مَن يريد بعمله ابتداءً غير الله.

وأمَّا شركُ النَّاس بالشجر والحجر، والتوكل علىٰ المخلوق، والحلف بغير الله، فهذا وجوده في النَّاس لا يجهله مَن يعرف واقع النَّاس.

ومعرفة المسلم بحقائق الشرك وأعمال المشركين من أسباب محاذرتها، قال الفاروق عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّما تُنقض عُرىٰ الإسلام عُروةً عُروةً، إذا نشأ في الإسلام مَن لا يعرف الجاهليَّة»(١).

ومن أسباب الخوف علىٰ المسلمين من الشرك في عصرنا هذا: وجود الأئمة المضلين الذين يحثون النَّاس علىٰ الشرك ويبررونه لهم، ويغروهم به. قال العَلَّامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «من المصائب أنَّ كثيرًا ممَّن ينتسب للعلم هو الداعي إلىٰ هذا الباطل والشرك لجهله، يُنسَب إلىٰ العلم وهو أجهل من حمار أهله، فيدعو إلىٰ الشرك بالله، ويدعو للنذر للبدوي، ويُزيِّن هذا للعامة لجهله وضلاله وقلة بصيرته، ومع أنَّ العامَّة ينسبون له العلم، وهو أجهل منهم، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله، نسأل الله العافية والسلامة».

---

(١) رواه الحاكم (٤/ ٤٢٨)، وصححه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.

(٢) دروس وفتاوىٰ في المسجد الحرام (صـ١١٦).

ومن أسباب الخوف على المسلمين من الشرك: إخبارُ النبيِّ ﷺ بوقوعه في النَّاس، قال ﷺ: «**لا تقوم السَّاعة حتَّىٰ تُعبَد اللات والعزىٰ**».

وهذا يوجِب الخوف من الشرك وتحذير النَّاس منه.

والدعوة إلىٰ التوحيد والتحذير من الشرك لا يستنكره ناصح عالم، فإنَّ دعوة التوحيد تزكية للمسلمين في اعتقاداتهم وإرادتهم وأعمالهم، وتزكية لأُمَّة الإسلام وديارهم، وهو من أسباب موالاة الله لهم وحفظهم ونصرهم.

لقد أفسدَ الأئمةُ المضلون أديانَ الناس وعقائدهم بترويج المرويات المكذوبة ليضلوا النَّاس ويوقعوهم في الشرك، فيقولون لهم: إنَّه رُويَ: «**إذا سألتم الله، فاسألوه بجاهي، فإنَّ جاهي عند الله عظيم**»(١).

وإذا عرفتَ نوع ما يجادل به المشركون عن شركهم، أوجب لك ذلك الخشية منه، وتبيينه، وتحذير المسلمين منه، فإنَّ المشركين في عهد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أتوا أنواعًا من الشرك، وقالوا: لسنا مشركين؛ لأنَّهم يُصلُّون ويصومون، وكأنَّ الشرك لا أثر له في مضادة التوحيد وإبطاله في حكمهم.

ومن خشية النبيِّ ﷺ علىٰ أُمَّته من الشرك، التجاؤه إلىٰ ربه أن لا يكون قبره وثنًا يُعبَد، قال ﷺ: «**اللَّهم لا تجعَل قبرِي وثنًا يُعبَد**»، رواه مالك في الموطَّأ.

ومما يوجِب الخوف من الشرك والتحذير منه: إخبار النبي ﷺ بما يكون من أُمَّته من التشبُّه باليهود والنصارىٰ، ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدريّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلكم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة، حتَّىٰ لو دخلوا حُجْر ضبٍّ لدخلتموه**»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارىٰ؟ قال: «**فمَن؟**».

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هو حديث كذب موضوع)، الفتاوىٰ (٢٧/ ١٢٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «مشابهتهم في الشرك بقبور الأنبياء والصالحين، هو من مشابهتهم التي حذَّر منها أُمَّته قبل موته في صحته ومرضه».

والواجب على المسلم أن يكون حاله وسطًا؛ فَرِحٌ بفضل الله عليه ومِنَّته في الهداية والتوحيد، ويكون أيضًا خائفًا من الشرك، فيقوم بشكر الله على أعظم النعم نعمة التوحيد، ومِنْ شُكْرِه: القيام بتحقيق التوحيد وملازمته وتعليمه وتعاهده بالحفظ والتجديد، ومحاذرة أضداده، والخوف من ذلك، وتعاهد المسلمين بتبيين التوحيد والدعوة إليه، والتحذير من الشرك.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إذا عرفتَ ما ذكرتُ لكَ -معنى التوحيد- معرفة قلب، وعرفتَ الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، وعرفتَ دِين الله الذي أُرسِل به الرُّسل من أولهم إلى آخرهم، الذي لا يقبل الله من أحدٍ دينًا سواه، وعرفتَ ما أصبح غالب النَّاس فيه من الجهل بهذا، أفادك فائدتين:

الأولى: الفرح بفضل الله ورحمته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

وأفادكَ أيضًا: الخوف العظيم».

شــرْحُ المســائل:

١) **الْخَوْفُ مِنْ الشِّرْكِ:** لأنَّه مُبطِلٌ للأعمال، ولأنَّه الذنب الذي لا يغفره الله، وهو من أسباب الخلود في النَّار.

٢) **أَنَّ الرِّيَاءَ مِنْ الشِّرْكِ:** فقد سمَّى النبي ﷺ الرياءَ شركًا.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٢٨٦).

(٢) كشف الشبهات (صـ١٠، ١١).

٣) **أَنَّهُ مِنَ الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ**: وهذا يسير الرياء.

٤) **أَنَّهُ أَخْوَفُ مَا يُخَافُ مِنْهُ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ**: فقد خافه النبي ﷺ علىٰ الصحابة، فمَن دونهم أحرىٰ أن يُخاف عليهم منه.

٥) **قُرْبُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ**: لأنَّ مَن مات فقد قامت قيامته، وجرىٰ عليه نعيم البرزخ أو عذابه، والجنة والنَّار أقرب إلىٰ المخلوق من شراك نعله.

٦) **الْجَمْعُ بَيْنَ قُرْبِهِمَا فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ**: وهو قوله ﷺ: «**مَن لقيَ الله لا يُشرِك به شيئًا دخل الجنَّة، ومَن لقيَه يشرك به شيئًا دخل النَّار**».

٧) **أَنَّهُ مَنْ لَقِيَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ -وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ-**: لأنَّ التوحيد هو أساس قبول الأعمال، والشرك محبط للأعمال، قال تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

٨) **الْمَسْأَلَةُ الْعَظِيمَةُ: سُؤَالُ الْخَلِيلِ لَهُ وَلِبَنِيهِ وِقَايَةَ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ**: فالحُنفاء كلهم يستعينون بالله في الوقاية من الشرك.

٩) **اِعْتِبَارُهُ بِحَالِ الْأَكْثَرِ؛ لِقَوْلِهِ**: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦]: وهذا يوجب علىٰ الحنفاء الخشية من الشرك.

١٠) **فِيهِ تَفْسِيرُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)؛ كَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ**: وهو إثبات الألوهية الحقَّة لله، وإبطال الأنداد والكُفر بهم.

١١) **فَضِيلَةُ مَنْ سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ**: فالحنيف هو المقبل علىٰ الله المائل عن الشرك.

الْبَـابُ الـرَّابِعُ

بَـابُ الدُّعَـاءِ إِلَى شَهَـادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◈ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ الآيَةَ.

◈ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَىٰ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ** – وَفِي رِوَايَةٍ: **إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ**– **فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**». أَخْرَجَاهُ.

◈ وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ**»، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «**أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟**»، فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ؛ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: «**انْفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**».

«يَدُوكُونَ»، أَيْ: يَخُوضُونَ.

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ اللهِ طَرِيقُ مَنِ اتَّبَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

٢) التَّنْبِيهُ عَلَىٰ الْإِخْلَاصِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَوْ دَعَا إِلَىٰ الْحَقِّ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَىٰ نَفْسِهِ.

٣) أَنَّ الْبَصِيْرَةَ مِنَ الْفَرَائِضِ.

٤) مِنْ دَلَائِلِ حُسْنِ التَّوْحِيدِ كَوْنُهُ تَنْزِيهًا للهِ تَعَالَىٰ عَنِ الْمَسَبَّةِ.

٥) أَنَّ مِنْ قُبْحِ الشِّرْكِ كَوْنَهُ مَسَبَّةً للهِ.

٦) وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا: إِبْعَادُ الْمُسْلِمِ عَنْ الْمُشْرِكِينَ، لَا يَصِيرُ مِنْهُمْ؛ وَلَوْ لَمْ يُشْرِكْ.

٧) كَوْنُ التَّوْحِيدِ أَوَّلَ وَاجِبٍ.

٨) أَنَّهُ يُبْدَأُ بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّىٰ الصَّلَاةِ.

٩) أَنَّ مَعْنَىٰ «أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ»: مَعْنَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

١٠) أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهَا، أَوْ يَعْرِفُهَا وَلَا يَعْمَلُ بِهَا.

١١) التَّنْبِيهُ عَلَىٰ التَّعْلِيمِ بِالتَّدْرِيجِ.

١٢) الْبَدَاءَةُ بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ.

١٣) مَصْرِفُ الزَّكَاةِ.

١٤) كَشْفُ الْعَالِمِ الشُّبْهَةَ عَنْ الْمُتَعَلِّمِ.

١٥) النَّهْيُ عَنْ كَرَائِمِ الْأَمْوَالِ.

١٦) اتِّقَاءُ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ.

١٧) الْإِخْبَارُ بِأَنَّهَا لَا تُحْجَبُ.

١٨) مِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ مَا جَرَىٰ عَلَىٰ سَيِّدِ الرُّسُلِ وَسَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْجُوعِ وَالْوَبَاءِ.

١٩) قَوْلُهُ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ** ...» إِلَخْ: عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ.

٢٠) تَفْلُهُ فِي عَيْنَيْهِ: عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِهَا أَيْضًا.

٢١) فَضِيلَةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٢) فَضْلُ الصَّحَابَةِ فِي دَوْكِهِمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَشُغْلِهِمْ عَنْ بِشَارَةِ الْفَتْحِ.

٢٣) الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ؛ لِحُصُولِهَا لِمَنْ لَمْ يَسْعَ لَهَا، وَمَنْعِهَا عَمَّنْ سَعَىٰ.

٢٤) الْأَدَبُ فِي قَوْلِهِ: «عَلَىٰ رِسْلِكَ».

٢٥) الدَّعْوَةُ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْقِتَالِ.

٢٦) أَنَّهُ مَشْرُوعٌ لِمَنْ دُعُوا قَبْلَ ذَلِكَ وَقُوتِلُوا.

٢٧) الدَّعْوَةُ بِالْحِكْمَةِ لِقَوْلِهِ: «أَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ».

٢٨) الْمَعْرِفَةُ بِحَقِّ اللهِ فِي الْإِسْلَامِ.

٢٩) ثَوَابُ مَنِ اهْتَدَىٰ عَلَىٰ يَدَيْهِ رَجُلٌ وَاحِدٌ.

٣٠) الْحَلِفُ عَلَىٰ الْفُتْيَا.

الشَّرْح

بعد أن ذَكر شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ وجوب توحيد الله وفضله والتخويف من الشرك، أَتْبَع ذلك بذِكر الدعوة إلىٰ التوحيد؛ ليتحقق المسلمون بتوحيد الله، فلا يكفي أن يكون المسلم مُوحِّدًا في خاصة نفسه حتىٰ يبذل النصيحة لله عَزَّ وَجَلَّ ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللناس أجمعين، فيدعو إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيملأُ اللهُ أرجاءَ الدنيا من الدعوة إلىٰ التوحيد، فيأخذ الموحدون بالتواصي بالحق والصبر، ويكونوا دعاة خير، ساعِين في صلاح الدنيا وعتقِ رقاب الناس من النار.

قال العلامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذا الترتيب الذي صنعه المؤلف في هذه الأبواب في غاية المناسبة، فإنه ذكر في الأبواب السابقة وجوب التوحيد وفضله، والحث عليه وعلىٰ تكميله، والتحقق به ظاهرًا وباطنًا، والخوف من ضده، وبذلك يكمل العبد نفسه.

ثم ذكر في هذا الباب تكميله لغيره بالدعوة إلىٰ شهادة أن (لا إله إلا الله)، فإنه لا يتم التوحيد حتىٰ يكمل العبد جميع مراتبه، ثم يسعىٰ في تكميل غيره -وهذا هو طريق جميع الأنبياء- فإنهم أول ما يدعون قومهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له.

وهي طريقة سيدهم وإمامهم ﷺ؛ لأنه قام بهذه الدعوة أعظم قيام، ودعا إلىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، لم يَفْتر ولم يضعف حتىٰ أقام الله به الدِّين، وهدىٰ به الخَلْق العظيم، ووصل دينه ببركة دعوته إلىٰ مشارق الأرض ومغاربها.

وكان يدعو بنفسه ويأمر رسله وأتباعه أن يدعوا إلىٰ الله وإلىٰ توحيده قبل كل شيء؛ لأن جميع الأعمال متوقفة في صحتها وقبولها علىٰ التوحيد».

والدعوة إلىٰ التوحيد دعوةٌ لتنزيه الله عن الشرك، وهذا من تحقيق التوحيد.

قال شيخنا العلامة المجدد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لا بُدَّ مع التوحيد من الدعوة إليه، وإلا كان ناقصًا، ولا ريب أن هذا الذي سلك سبيل التوحيد لم يسلكه إلا وهو يرىٰ أنه أفضل سبيل، وإذا كان صادقًا في اعتقاده، فلا بد أن يكون داعيًا إليه، والدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله من تمام التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به».

ومن شُكْر نعمة الله عليك بالهداية للتوحيد: أن تدعو إليه، فأهلُ السُّنة والجماعة ينصحون ويرحمون الخَلق.

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص٢٨، ٢٩).

(٢) شرح كتاب التوحيد (ص١١٧)، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ، المجلد التاسع.

والدعوة إلىٰ التوحيد فرضُ كفايةٍ، يجب علىٰ الأُمَّة أن تُؤدِّيه، قال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والدعوة إلىٰ التوحيد هو من التواصي بالحق والصبر، وهو من أعظم أنواع الإحسان إلىٰ الخَلق، فبه تُعتق رقاب الناس من النار، وبه يَكْثُر الخير في الأرض.

قال تعالىٰ: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

قال العلامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «من دواعي الإيمان وأسبابه: الدعوة إلىٰ الله وإلىٰ دينه، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والدعوة إلىٰ أصل الدين، والدعوة إلىٰ التزام شرائعه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

وقال العلامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «هذه الصفات الأربع -وهي الأصول الأربع- هي أساس السعادة -وأساس الربح والنجاة: إيمانٌ صادِق، وعملٌ صالح، وتناصُحٌ، وتواصٍ بالحق، وتعاوُنٌ علىٰ البر والتقوىٰ، وتواصٍ بالصبر علىٰ ذلك في الشدة والرخاء، وفي جميع الأحوال».

وداعية التوحيد يهدي اللهُ به أُمَمًا؛ لأن الناس مفطورون علىٰ التوحيد وعلىٰ معرفة الحق وإرادته، فالناس إذا هيَّأ الله لهم من يبيِّنه لهم علىٰ أحسن ما يكون هُدُوا، وأدركوا بذلك سعادة الدنيا والآخرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «إن الله هدىٰ الناس هداية عامة بما جعله فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم، وبما أنزل إليهم من الكتب،

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٩٠، ٩١).

(٢) مجموع تفسير آيات من القرآن الكريم (ص٢٤٠).

(٣) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠١٨).

وأرسل إليهم من الرسل، قال تعالىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ – ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ – ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١ – ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠].

ففي كلِّ أَحَدٍ ما يقتضي معرفته بالحق ومحبته له، وقد هداه ربه إلىٰ أنواع من العلم يمكنه أن يتوصل بها إلىٰ سعادة الأولىٰ والآخرة، وجعل في فطرته محبة لذلك».

والدِّينُ تكفَّل اللهُ بحفظه وظهوره، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، وهذا فيه بشارة للموحدين بظهور هذا الدين، وفيه حثٌّ لهم علىٰ الأخذ بأسباب ظهوره بالدعوة إليه.

والدعوة إلىٰ التوحيد هو من إقامة شهادة أن لا إله إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، فمَن شَهِدَ بالتوحيد وجبَ عليه أداء هذه الشهادة إلىٰ الناس أجمعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الشهادة تضمنت مرتبتين: إحداهما: تكلم الشاهد وقوله وذِكره لِمَا شهد في نفسه به.

والثاني: إخباره وإعلامه لغيره بما شهد به».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنه سبحانه جعلهم -العلماء- مُؤَدِّين لحقه عند عباده بهذه الشهادة، فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به».

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٤٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٣٣).

وهذه الشهادة إنما يصح أداؤها بالعلم والعدل، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنهم قاموا بشروط الشهادة، وهي العلم والعدل، فإن الشاهد لا يكون مقبولًا حتىٰ يكون عالمًا بما يشهد له، عدلًا في نفسه.

ولم يكن الله سبحانه ليجمع شهادة هؤلاء -الذين هم ورثة رسوله ﷺ وأنصار دينه، ولهم لسانُ الصِّدق في الأُمَّة- علىٰ باطلٍ وزورٍ».

فالعلماء شهداء علىٰ كتاب الله ودعاة إليه، يجب عليهم أن يؤدوا لفظه ومعانيه إلىٰ الناس، والقرآن كله في التوحيد.

الموحدون واجبهم اتباع منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله، يَدْعُون إلىٰ ما دعوا إليه، وهو توحيد الله عَزَّوَجَلَّ؛ هدايةً للخَلْق، وإقامةً للحجة عليهم، وإعذارًا إلىٰ الله.

وسيد الحنفاء الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أخبر أن سبب دعوته للتوحيد ما أتاه الله من العلم النافع الموجب لتصحيح العقائد وهداية الخَلْق، وهكذا يجب أن يقوم ورثة الأنبياء بالدعوة للتوحيد.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٣].

فالواجبُ علىٰ ورثة الأنبياء: الدعوةُ إلىٰ ما دعا إليه الأنبياءُ من توحيدِ الله، فأداءُ هذا الميراث إلىٰ الناس أوجبه الله عليهم؛ لأنه استودعهم حِفْظه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٢١، ١٤٢٢).

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أي: بسبب أن الله استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناءً عليه، وهو أمانة عندهم، وأوجب عليهم حِفْظَه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمَن لا يعلمه، وهم شهداء عليه؛ بحيث أنهم المرجوع إليهم فيه».

ابتدأ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، حثًّا للمسلمين على التأسي برسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله، واتباع منهجه.

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ [الرعد: ٣٦]، وما زال النبي ﷺ وأصحابه يدعون إلى ما أمر الله به من الدعوة إلى توحيده في العبادة، والنهي عن الشرك به، ويجاهدون على ذلك.

والآيات في الأمر بذلك كثيرةٌ جدًّا، كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]».

وقال العَلَّامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «لم يزل ﷺ يدعوهم إلى الله، وينذرهم من الشرك، ويشرح لهم حقيقة ما يدعو إليه، حتى هدى الله منهم مَن هدى ثم دخلوا بعد ذلك في دين الله أفواجًا، فظهرَ دِينُ الله على سائر الأديان بعد دعوةٍ متواصلة، وجهادٍ طويل من رسول الله ﷺ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، والتابعين لهم بإحسان».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٦٨

(٢) قرة عيون الموحدين ص٤٧

(٣) حراسة التوحيد ص٢٠

فالدعوة إلىٰ الله أساسها الدعوة إلىٰ التوحيد، وتبيين حقيقته، والتحذير مما يضاده.

قال العَلَّامة سيلمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «يبدأ بالدعوة إلىٰ التوحيد الذي هو معنىٰ شهادة ألا إله إلا الله؛ إذ لا تصح الأعمال إلا به، فهو أصلها الذي تُبنىٰ عليه، ومتىٰ لم يُوجد لم ينفع العمل -بل هو حابط-؛ إذ لا تصح العبادة مع الشرك، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧]؛ ولأن معرفة معنىٰ هذه الشهادة هو أول واجبٍ علىٰ العباد، فكان أول ما يبدأ به في الدعوة».

والآية التي ابتدأ بها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب تضمنت شروط الدعوة إلىٰ الله، وهي: الإخلاص لله، والعِلم، والاتباع للنبي ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨] هذا شرطُ الإخلاص.

وقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨] هذا شرطُ العِلم.

وقوله: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] هذا شرطُ الاتباع للنبي ﷺ.

وختم الآية بتنزيه الله عن الشرك ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] إشارة إلىٰ ما يدعو إليه، وبيان لمحتوىٰ الدعوة، وهو توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والتوحيد هو أصلُ وأساس الحكمة التي تُبنىٰ عليها الدعوة إلىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (١/ ٢٩٩).

قال الحافظ عبد الرزاق الرَّسْعَني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «نبَّه بهذا على أن الحكمة الأصلية توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وشكره».

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الذي رواه الشيخان في بعث معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن داعيًا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ دليلٌ على أنَّ الإمام ينتدب العلماء للدعوة إلى الله، فإنَّ معاذًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان من علماء الصحابة ومن أعلمهم بالحلال والحرام.

وفي حديثِ معاذٍ شرَحَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحوالَ المدعوين؛ ليأخذ الداعية بأحسن الطرق والوسائل في دعوتهم، حيث شرح النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ حال أهل اليمن، وأخبره أنهم أهلُ كتاب، وقد كانوا يهودًا فهداهم الله للإسلام.

وفي الحديث أن أول واجبٍ على الداعية الدعوة إلى التوحيد، ثم الدعوة إلى ما تستلزمه وحقوقها؛ ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**ليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلواتٍ في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تُؤخذ من أغنيائهم فترُد على فقرائهم**».

وفي الحديث: تحذير الولاة والأمراء من الظلم حيث قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وقد بعثه أميرًا على اليمن-: «**واتقِ دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**».

وفي حديث سهل بن سعد في إعطاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الراية يوم خيبر لعليّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فضيلة عظيمة لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث شهد له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعينه أنه «**يحب اللهَ ورسولَه، ويحبه اللهُ ورسولُه**».

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٦/ ٥٢).

وفي الحديث: بيان مقصود الجهاد وهو هداية الخَلق إلىٰ التوحيد، وبذلك بعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه يدعو يهود خيبر إلىٰ التوحيد قبل جهادهم بالسيف.

وفي الحديث: تبيين أن التوحيد حقُّ الله الخالص، حيث قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**ادعهم إلىٰ الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالىٰ فيه**».

وفي الحديث: بيانٌ لفضل هداية الخَلق إلىٰ التوحيد، حيث قال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**لأن يهديَ اللهُ بكَ رَجُلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمر النَّعَم**».

قال الحافظ النووي رحمه الله[1]: «حُمر النعم هي: الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء، وأنه ليس هناك أعظم منه».

شــرْحُ المســائل:

١) **أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ اللهِ طَرِيقُ مَنِ اتَّبَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ**: فالواجب التأسي بهم في ذلك واتباع منهجهم فيما دعوا الناس إليه.

٢) **التَّنْبِيهُ عَلَىٰ الْإِخْلَاصِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَوْ دَعَا إِلَىٰ الْحَقِّ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَىٰ نَفْسِهِ**: والدعوة بإخلاصٍ لله ومتابعةٍ للنبي ﷺ عملٌ مقبول، ويُبارِكُ اللهُ فيه.

٣) **أَنَّ الْبَصِيْرَةَ مِنَ الْفَرَائِضِ**: فمَن أراد الدعوة فليطلب العلم.

٤) **مِنْ دَلَائِلِ حُسْنِ التَّوْحِيدِ كَوْنُهُ تَنْزِيهًا للهِ تَعَالَىٰ عَنِ الْمَسَبَّةِ**: فما أعظم إجلال الله بالدعوة إلىٰ التوحيد!

٥) **أَنَّ مِنْ قُبْحِ الشِّرْكِ كَوْنَهُ مَسَبَّةً للهِ**: فالشرك جهلٌ وافتراء علىٰ الله وظلمٌ.

---

(١) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج ص ١٧٥٩

٦) **وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا، إِبْعَادُ الْمُسْلِمِ عَنْ الْمُشْرِكِينَ، لَا يَصِيرُ مِنْهُمْ؛ وَلَوْ لَمْ يُشْرِكْ:** تحقيقًا لعقيدة البراء من المشركين، وحفظًا لتوحيده.

٧) **كَوْنُ التَّوْحِيدِ أَوَّلَ وَاجِبٍ:** وهذا ما أمرَ به النبيُّ ﷺ معاذًا رضي الله عنه أن يدعو إليه.

٨) **أَنَّهُ يُبْدَأُ بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّىٰ الصَّلَاةِ:** لأنه الأساس لقبول الأعمال.

٩) **أَنَّ مَعْنَىٰ «أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ»: مَعْنَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ:** فالعناية بالدعوة للتوحيد منهج الناصحين.

١٠) **أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهَا، أَوْ يَعْرِفُهَا وَلَا يَعْمَلُ بِهَا:** فتبيين معنىٰ التوحيد ضرورة للكفار المُبدِّلين لشرع الله.

١١) **التَّنْبِيهُ عَلَىٰ التَّعْلِيمِ بِالتَّدْرِيجِ:** لأمر النبي ﷺ معاذًا رضي الله عنه بدعوة أهل اليمن بذلك.

١٢) **الْبَدَاءَةُ بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ:** كما حث النبي ﷺ معاذًا بن جبل رضي الله عنه علىٰ الدعوة إلىٰ التوحيد ثم الصلاة ثم الزكاة.

١٣) **مَصْرِفُ الزَّكَاةِ:** الفقراء، وبقية الأصناف معلومة من آية التوبة.

١٤) **كَشْفُ الْعَالِمِ الشُّبْهَةَ عَنْ الْمُتَعَلِّمِ:** في تبيين التوحيد لأهل الكتاب.

١٥) **النَّهْيُ عَنْ كَرَائِمِ الْأَمْوَالِ:** عامِلُ الصدقة لا يأخذ الرديء من أموال الناس الزكوية ولا كرائمها، وإنما يأخذ من أوسطها.

١٦) **اتِّقَاءُ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ:** واجب الولاة ونوابهم: العدل.

١٧) **الْإِخْبَارُ بِأَنَّهَا لَا تُحْجَبُ:** فالمظلوم وليُّه الله.

١٨) **مِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ مَا جَرَىٰ عَلَىٰ سَيِّدِ الرُّسُلِ وِسَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْجُوعِ وَالْوَبَاءِ:** هذه سُنَّة الله في ابتلاء أوليائه.

١٩) **قَوْلُهُ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ ...» إِلَخْ: عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ:** لأنه وقع -كما أخبر النبي ﷺ- فتْحُ حِصْن خيبر.

٢٠) **تَفْلُهُ فِي عَيْنَيْهِ: عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِهَا أَيْضًا:** رِيقُ النبي ﷺ مُبارَكة، كانت من أسباب شفاء علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من الرَّمد.

٢١) **فَضِيلَةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: حيث أعطاه النبي ﷺ اللواء، وشهد له بأنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

٢٢) **فَضْلُ الصَّحَابَةِ فِي دَوْكِهِمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَشُغْلِهِمْ عَنْ بِشَارَةِ الْفَتْحِ:** كُلُّهم سارِعَ في الخيرات، يجاهد في سبيل الله، يرجو أن تناله شهادة النبي ﷺ له بأنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.

٢٣) **الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ؛ لِحُصُولِهَا لِمَنْ لَمْ يَسْعَ لَهَا، وَمَنْعِهَا عَمَّنْ سَعَىٰ:** الله أعلم بمواقع فضله، والصحابة كلهم علىٰ خير.

٢٤) **الْأَدَبُ فِي قَوْلِهِ: «عَلَىٰ رِسْلِكَ»:** وهي السكينة في الدعوة قبل القتال.

٢٥) **الدَّعْوَةُ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْقِتَالِ:** لأن المقصود هداية الناس.

٢٦) **أَنَّهُ مَشْرُوعٌ لِمَنْ دُعُوا قَبْلَ ذَلِكَ وَقُوتِلُوا:** هذا إحسان إليهم بتكرار النصيحة.

٢٧) **الدَّعْوَةُ بِالْحِكْمَةِ لِقَوْلِهِ: «أَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ»:** فالحكمة من أسباب قبول الدعوة.

٢٨) **الْمَعْرِفَةُ بِحَقِّ اللهِ فِي الْإِسْلَامِ:** توحيد الله.

٢٩) **ثَوَابُ مَنِ اهْتَدَىٰ عَلَىٰ يَدَيْهِ رَجُلٌ وَاحِدٌ:** خيرٌ من حمر النَّعَم.

٣٠) **الْحَلِفُ عَلَىٰ الْفُتْيَا:** توكيدًا للمحلوف عليه.


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَابُ الْخَامِسُ

بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلاَّ الله

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◈ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء: ٥٧].

◈ وَقَوْلِهِ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

◈ وَقَوْلِهِ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣١].

◈ وَقَوْلِهِ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

◈ وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ ﷻ**».

وَشَرح هَذِهِ التَّرْجَمَةِ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الأَبْوَابِ.

فِيهِ أَكْبَرُ الْمَسَائِلِ وَأَهَمُّهَا، وَهُوَ تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ وَتَفْسِيرُ الشَّهَادَةِ، وَبيَّنَهَا بِأُمُورٍ وَاضِحَةٍ:

- مِنْهَا: آيَةُ الْإِسْرَاءِ، بَيَّنَ فِيهَا الرَّدَّ عَلَىٰ الْمُشْرِكِيْنَ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ الصَّالِحِيْنَ، فَفِيْهَا بَيَانُ أَنَّ هَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ.

- وَمِنْهَا: آيَةُ بَرَاءَةٍ، بَيَّنَ فِيهَا أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُوْنِ اللهِ، وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوْا إِلَّا بِأَنْ يَعْبُدُوْا إِلَهًا وَاحِدًا، مَعَ أَنَّ تَفْسِيرَهَا الَّذِيْ لَا إِشْكَالَ فِيْهِ: طَاعَةُ الْعُلَمَاءِ وَالْعُبَّادِ فِي الْمَعْصِيَةِ، لَا دُعَاؤُهُمْ إِيَّاهُمْ.

- وَمِنْهَا: قَوْلُ الْخَلِيْلِ ﷺ لِلْكُفَّارِ: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦]، فَاسْتَثْنَىٰ مِنَ الْمَعْبُوْدِيْنَ رَبَّهُ، وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذِهِ الْبَرَاءَةَ وَهَذِهِ الْمُوَالَاةَ هِيَ تَفْسِيْرُ شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

- وَمِنْهَا: آيَةُ الْبَقَرَةِ فِي الْكُفَّارِ الَّذِيْنَ قَالَ اللهُ فِيْهِمْ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ذَكَرَ أَنَّهُمْ يُحِبُّوْنَ أَنْدَادَهُمْ كَحُبِّ اللهِ؛ فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يُحِبُّوْنَ اللهَ حُبًّا عَظِيْمًا، وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ أَحَبَّ النِّدَّ حُبًّا أَكْبَرَ مِنْ حُبِّ اللهِ؟! فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يُحِبَّ إِلَّا النِّدَّ وَحْدَهُ، وَلَمْ يُحِبَّ اللهَ؟!

- وَمِنْهَا: قَوْلُهُ ﷺ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ**».

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُبَيِّنُ مَعْنَىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ التَّلَفُّظَ بِهَا عَاصِمًا لِلدَّمِ وَالْمَالِ، بَلْ وَلَا مَعْرِفَةَ مَعْنَاهَا مَعَ لَفْظِهَا، بَلْ وَلَا الْإِقْرَارَ بِذَلِكَ، بَلْ وَلَا كَوْنَهُ لَا يَدْعُوْ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، بَلْ لَا يَحْرُمُ مَالُهُ وَدَمُهُ حَتَّىٰ يُضِيْفَ إِلَىٰ ذَلِكَ الْكُفْرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُوْنِ اللهِ، فَإِنْ شَكَّ أَوْ تَوَقَّفَ؛ لَمْ يَحْرُمْ مَالُهُ وَدَمُهُ.

فَيَا لَهَا مِنْ مَسْأَلَةٍ مَا أَعْظَمَهَا وَأَجَلَّهَا! وَيَا لَهُ مِنْ بَيَانٍ مَا أَوْضَحَهُ! وَحُجَّةٍ مَا أَقْطَعَهَا لِلْمُنَازِعِ!

الشَّـرْح

بعد أنْ ذَكرَ شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ فضائل التوحيد والدعوة إليه، بدأ بشرح معنىٰ كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» ليتأسسَ دِينُ المسلم علىٰ عِلمٍ بحقيقة كلمة التوحيد، فيكون اعتقاده صحيحًا عن عِلمٍ وبصيرة.

وكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» تضمنت نفي الألوهية عن سوىٰ الله، وأفردتِ اللهَ بالألوهية وحده، وذلك لتفرده بالكمال، فليس لله كُفوٌ، ولا سَمِيٌّ، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن الإله علىٰ الحقيقة هو الغني الصمد الكامل في أسمائه وصفاته».

وقال ابن القيم(٢): «لا أحد سواه يستحق أن يُؤله ويُعبد، ويُصلىٰ له ويُسجد، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل، لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده علىٰ الحقيقة، والمألوه وحده، وله الحكم وحده. فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «الإله: هو المألوه الذي تألهه القلوب، وكونه يستحق الإلهية مستلزم لصفات الكمال، فلا يستحق أن يكون معبودًا محبوبًا لذاته إلا هو».

وقلوب الحنفاء تتأله لله وحده بالحب والخوف والرجاء. قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «إن الإله هو الذي يُدعىٰ ويُرجىٰ لجلبِ الخير، ودفعِ الشر، ويُخاف منه، ويُتوكل عليه».

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص١٣٩).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص١٣٩).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٥٦٧).

(٤) الدرر السنية (٢/ ٣٢).

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ [الصافات: ٤]. قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ليس له شريك في الإلهية، فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء، وسائر أنواع العبادة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وهو إثبات تأله القلب لله ومحبته، ونفي تألهه لغيره وكراهته.

فلا يكفي أن يعبد الله ويحبه ويتوكل عليه وينيب إليه ويخافه ويرجوه، حتىٰ يترك عبادة غيره والتوكل عليه والإنابة إليه وخوفه ورجاءه، ويبغض ذلك».

التوحيد عِلمٌ واعتقادٌ وعملٌ ودعوةٌ إليه، قال تعالىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «العلم لا بد فيه من إقرار القلب، ومعرفته بمعنىٰ ما طلب منه علمه، ولا يتم ذلك إلا بالعمل بمقتضىٰ ذلك العلم في كلِّ مقامٍ بحسبه، وهذا العلم الذي أمر الله به فرض عين علىٰ كل إنسان، لا يسقط عن أحدٍ كائنًا مَن كان.

والضرورة إلىٰ هذا العلم والعمل بمقتضاه -من تمام التأله لله- فوق كل ضرورة، والعلم بالشيء يتوقف علىٰ معرفة الطريق المفضي إلىٰ معرفته وسلوكها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «إن التوحيد -وهو معنىٰ قول: (لا إله إلا الله)- هو أن يُعبدَ اللهُ، وهو تعالىٰ إنما يُعبد بما أمر به، فهو العمل لله بأمر الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٦٨).
(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٤١، ٦٤٢).
(٣) تيسير اللطيف المنان (ص٢٢).
(٤) الجامع لتفسير شيخ الإسلام (٣/ ١٢١).

فكل عمل من أعمال البر فهو جزء من التوحيد، ومن العمل لله، ومن عبادة الله وتوحيده».

والشهادتان حقيقتهما هو تصديق خبر الله، والانقياد لأمره ونهيه، والكافر بضد ذلك؛ كذَّب الخبرَ وتولَّىٰ عن الأمر، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٥، ١٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مَن صدَّق الرسولَ ﷺ بأن ما جاء به هو رسالة الله، وقد تضمنت خبرًا وأمرًا، فإنه يحتاج إلىٰ مقام ثان، وهو تصديقه خبر الله وانقياده لأمر الله.

فإذا قال: (أشهد أن لا إله إلا الله)، فهذه الشهادة تتضمن تصديق خبره والانقياد لأمره، و(أشهد أن محمدًا رسول الله)، تضمنت تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله، فبمجموع هاتين الشهادتين يتم الإقرار.

فلما كان التصديق لا بد منه في كلتا الشهادتين -وهو الذي يتلقىٰ الرسالة بالقبول- ظنَّ مَن ظنَّ أنه أصل لجميع الإيمان، وغفل عن أن الأصل الآخر لا بد منه وهو الانقياد».

التوحيد هو عبودية الله وحده لا شريك، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام لله بالانقياد والطاعة، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**مَن أطاعني دخل الجنة، ومَن عصاني فقد أبىٰ**»، رواه البخاري.

فالحد الفاصل بين المؤمن والكافر هو في الانقياد لله وحده، وهو الإسلام لله، فالمؤمنُ حالُه ومَقالُه ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، والكافر حاله ومقاله كما أخبر الله عنهم: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

---

(١) الصارم المسلول (ص٥٢٠).

كل الرسل بُعثوا بالدعوة إلىٰ عبادة الله وحده وطاعته، واجتناب الطاغوت، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «عبادة الله وحده لا شريك له، فهذا هو السعادة، وهو الذي اتفقت عليه الأنبياء كلهم، فكلهم دعوا إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وذلك إنما يكون بتصديق رسله وطاعتهم.

فلهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الأصلين: الإسلام والإيمان، عبادة الله وحده، وتصديق رسله، وهو تحقيق شهادة أن (لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله)».

وكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» لفظها يدل علىٰ معناها، فإن «لا» نافية للجنس، تنفي كل الآلهة الباطلة المعبودة من دون الله، و«إلا الله» تُثبِت الألوهية الحقة لله وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج: ٦٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «معلوم أن ما عُبد من دونه موجود مخلوق، ولكن عبادته باطلة، وهو باطل».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(٣): «المراد بالباطل ما لا ينفع، وكل ما سوىٰ الله لا تنفع عبادته».

وكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» استكبر عن الإيمان بها الكفارُ؛ لأنهم يعلمون أن حقيقتها نفي الشرك والكفر بالأنداد، لذلك قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ

---

(١) النبوات (١/ ٤١٠، ٤١١).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٤/ ٤٤٣).

(٣) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٤/ ٤٤٤).

عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال الكفرة المشركون من قوم هود: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وإخلاص التوحيد ينفي الشرك، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ [الرعد: ٣٦].

فالتوحيد هو عبادة الله وحده والكفر بما يُعبد من دونه، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وتحقيق كلمة التوحيد يكون بالعلم واليقين بمدلولها، والإخلاص في اعتقادها، والانقياد لحقيقتها، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ [الحجرات: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «مَن قالها -لا إله إلا الله- ولم يقبل ما دلَّتْ عليه من الإخلاص، كان قوله لهذه الكلمة كذبًا منه».

وروىٰ البخاري عن أنسٍ، عن معاذٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**ما من أَحَدٍ يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله صِدقًا من قلبه؛ إلا حرَّم اللهُ عليه النار**».

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقىٰ اللهَ بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما، إلا دخل الجنة**»، رواه مسلم.

وهذه النصوص وغيرها كثيرة، دالة علىٰ شروط «لا إله إلا الله»، وهي:

١) العِلم بمعناها، المنافي للجهل.

٢) اليقين، المنافي للشك.

٣) الإخلاص، المنافي للشرك.

(١) قرة عيون الموحدين (ص٣٠).

٤) الصِّدق، المنافي للكذب، فالمنافق يقولها غير مُصدِّقٍ بها.

٥) القبول، المنافي للرد.

٦) المحبة لهذه الكلمة، المنافية للبُغْض.

٧) الانقياد، المنافي للتَّرك.

فتحقيق كلمة التوحيد هو: العِلم والاعتقاد والعمل بمدلولها:

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقُكَ مَعْ مَحَبَّةٍ وانقيادٍ والقبولِ لها

وهو حقيقة الدين كله، قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «معرفة دين الإسلام بالأدلة، وهو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، وهو ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان».

واعتقاد الحنفاء تفرُّد الله وحده بالكمال أوجب لهم العبودية له وحده،

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «المسلمون يقولون كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

والتوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الإلهية، وهو أن يُعبد الله وحده لا شريك له، وهو متضمن لشيئين:

أحدهما: القولي العملي، وهو إثبات صفات الكمال له، وتنزيهه عن النقائص، وتنزيهه عن أن يماثله أَحَدٌ في شيء من صفاته، فلا يُوصف بنقص بحال، ولا يماثله أَحَدٌ في شيء من الكمال، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ١-٣]، فالصمدية تثبت له الكمال، والأحدية تنفي مماثلة شيء له في ذلك، كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع.

---

(١) الأصول الثلاثة (ص١٣).

(٢) الصفدية (٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).

والتوحيد العملي الإرادي: أن لا يُعبدَ إلا إياه، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يُخاف إلا إياه، ويكون الدِّين كله لله، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦]».

واعتقاد الحنفاء تفرُّد الله بالربوبية هو الذي أوجب إفراده وحده بالعبودية، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١].

قال العَلَّامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾، فأتىٰ بالفاء الدالة علىٰ السببية، أي: فبسبب اختصاصه بالربوبية يجب أن تخصوه بالعبادة».

وفي ذِكر شيخِ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير التوحيد قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] مع قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، شرْحٌ لحال أفضل الحنفاء، وهم مَن قام بعبودية الله محبةً وخوفًا ورجاءً، وتحذيرٌ من حالِ المشركين الذين اتخذوا الأنداد مع الله وتألهوا لها حبًّا وعبادة.

قال العَلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «صلاح العبد، وفَلَاحُه، وسعادته، ونجاته، وسروره، ونعيمه، في إفراد الله بهذه العبادات، والإنابة إليه بما شرعه لعباده منها، وأصلها كمال المحبة، وكمال الذل والخضوع، كما تقدم.

---

(١) تفسير سورة آل عمران (١ / ٣٠١).

(٢) عيون الرسائل (٢/ ٦٢٠، ٦٢١).

هذا سر العبادات وروحها، ولا بد في عبادة الله من كمال الحب، وكمال الخضوع، فأحبُّ خَلقِ الله إليه، وأقربهم منزلة عنده، مَن قام بهذه المحبة والعبودية، وأثنىٰ عليه بذِكر أوصافه العُلَىٰ، فمن أجْلِ ذلك كان الشرك أبغض الأشياء إليه؛ لأنه ينقص هذه المحبة والخضوع والإنابة والتعظيم، ويجعل ذلك بينه وبين مَن أشرك به؛ لأنه يتضمن التسوية بينه تعالىٰ وبين غيره في المحبة والتعظيم، وغير ذلك من أنواع العبادة، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فأخبرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن مَن أحبَّ شيئًا دون الله كما يحب الله، فقد اتخذه ندًّا، وهذا معنىٰ قول المشركين لمعبوديهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، فهذه تسوية في المحبة والتألُّه، لا في الذات والأفعال والصفات، فمَن صرفَ ذلك لغير إله الحق فقد أعرضَ عنه، وأبَقَ عن مالكه وسيده، فاستحق مَقْتَه وبُغْضَه، وطرْدَه عن دارِ كرامته ومنزلِ أحبابه».

ويجب علىٰ المسلم تجريد المحبة لله، فإنَّ ذلك أساس العمل، فمَن جاهَد هواه وجرَّد التوحيد لله لم تزاحمه محبةُ ما تهوىٰ النَّفْسُ علىٰ طاعة الله، فيتحقق القلب بالتوحيد فتنبعث الجوارح علىٰ العمل بطاعة الله.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لا يزال هذا الذي في قلوب المحبين المقرَّبين يقوىٰ حتَّىٰ تمتلئ قلوبهم به، فلا يبقىٰ في قلوبهم غيره، ولا تستطيع جوارحهم أن تنبعث إلا بموافقة ما في قلوبهم، ومَن كان حاله هكذا، قيل فيه: ما بقي في قلبه إلا الله، والمراد معرفته ومحبته وذِكره».

والمؤمن متىٰ استعان بالله في تزكية نفسه وأخذَ بأسباب تنقية قلبه من أخلاط السوء وإرادات النفس المذمومة؛ أعانه اللهُ حتىٰ تزكو نفسه فتصير مطمئنة.

---

(١) جامع العلوم والحكم ص٤٣٤.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إذا تحقق القلب بالتوحيد التام، لم يَبْقَ فيه محبةٌ لغير ما يحبه الله، ولا كراهة لغير ما يكرهه الله، ومَن كان كذلك لم تنبعث جوارحه إلا بطاعة الله، وإنما تنشأ الذنوب من محبة ما يكرهه الله، أو كراهة ما يحبه الله، وذلك ينشأ من تقديم هوىٰ النَّفْسِ علىٰ محبة الله وخشيته، وذلك يقدح في كمال التوحيد الواجب، فيقع العبد بسبب ذلك في التفريط في بعض الواجبات أو ارتكاب بعض المحظورات، فأمَّا مَن تحقَّق قلبه بتوحيد الله، فلا يبقىٰ له همٌّ إلا في الله وفيما يرضيه به».

ومن الأسباب التي تجعل المسلم زاكيًا مرتاضًا علىٰ طاعة الله مجاهدًا نفسه وهواه عن مخالفة أمْرِ ربِّه ونهيه، ما يجتنيه من لذة الإيمان بطاعة الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «العِباد إذا تعبدوا بما شرع من الأقوال والأعمال ظاهرًا وباطنًا، وذاقوا طَعْمَ الكلم الطيب والعمل الصالح الذي بعث الله عَزَّ وَجَلَّ به رسوله ﷺ، وجدوا في ذلك من: الأحوال الزكية، والمقامات العَليّة، والنتائج العظيمة ما يغنيهم عما قد يحدث -يعني: من الأهواء-».

وقال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المؤمن يتقلب في لذات الإيمان وحلاوته المتنوعة، ولهذا كان الإيمان مسليًا عن المصيبات مهونًا للطاعات ومانعًا من وقوع المخالفات، جاعلًا إرادة العبد وهواه تبعًا لما يحبه الله ويرضاه، كما قال النبي ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**»».

فالمقصود: أنْ تجعلَ هواك تبعًا لأمر الله ونهيه، قال النبي ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**»، رواه الطبراني.

---

(١) جامع العلوم والحكم ص٤٣٥.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٠٦).

فتجريد أعمال القلب والجوارح كلها لله هو حقيقة التوحيد، فإذا انتظمت إرادتك وأعمالك القلبية وأعمال جوارحك علىٰ مراضي الله وطاعته فقد أخلصتَ الدِّين كله لله، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وقال النبي ﷺ: «**مَن أعطىٰ لله، ومنعَ لله، وأحبَّ لله، وأبغضَ لله، فقد استكملَ الإيمانَ**»[١].

وقال النبي ﷺ: «**ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمان: أنْ يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقىٰ في النار**»[٢].

قال العَلَّامة حسين النعمي رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «أمَّا المؤمنون بالله فيسخطون ما ليس لله، ويكرهونه، وتنفر عنه أديانهم وتَمْقُته قلوبهم، ويحاربونه بكل قوتهم، ولا يرضون إلا قوله ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**».

وإنْ حدثَ بأحدهم لمة البشرية، وزلة إثمية، أتظنهم كالذين فرحوا بما عندهم من العِلم، فإذا انقلبوا إلىٰ أهلهم انقلبوا فكهين؟ أم تجد نعتهم الجميل في قول ربهم الجليل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وفي قول رسولهم ﷺ: «**مَن سرَّته حسنته وساءته سيئته؛ فهو مؤمن**»».

وذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في تفسير التوحيد قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، ليبيِّن أن توحيد الله هو عبادة الله وحده والبراءة والكفر بما يُعبد من دونه.

---

(١) رواه الترمذي (ص٥٧٣ – رقم ٢٥٢١)، وضعفه.

(٢) رواه البخاري كتاب الإيمان باب حلاوة الإيمان (ص٦ – رقم ١٦).

(٣) معارج الألباب في مناهج الحق والصواب ص٢٥٨ – ٢٦٠.

قال شيخنا العَلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «في قول إبراهيم ﷺ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٧]، ولم يقل: (إلا الله)، فائدتان:

الأولىٰ: الإشارة إلىٰ علة إفراد الله بالعبادة؛ لأنه كما أنه منفرد بالخَلق، فيجب أن يُفرد بالعبادة.

الثانية: الإشارة إلىٰ بطلان عبادة الأصنام؛ لأنها لم تضطركم حتىٰ تعبدوها، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات، وهذه من البلاغة التامة في تعبير إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ».

وذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير التوحيد قول الله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، ليبينَ أنَّ إفرادَ اللهِ بالحُكْمِ توحيدٌ، وأنَّ طاعةَ المخلوقِ في تحليل الحرام وتحريم الحلال شركٌ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قال الله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وفي حديث عدي بن حاتم -وهو حديث حسن طويل رواه أحمد والترمذي وغيرهما- وكان قدم علىٰ النبي ﷺ وهو نصراني فسمعه يقرأ هذه الآية، قال: فقلتُ له: إنا لسنا نعبدهم، قال: «**أليس يحرِّمون ما أحل الله فتحرِّمونه، ويُحلِّون ما حرَّم اللهُ فتحلُّونه؟!**»، قال: فقلتُ: بلىٰ، قال: «**فتلك عبادتهم**».

---

(١) شرح كتاب التوحيد، المطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ (٩/ ١٣٩).
(٢) الإيمان الكبير (ص٢٤٦، ٢٤٧).

وكذلك قال أبو البختري: أما إنهم لمْ يصلُّوا لهم، ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكن أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله، فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية.

وقال الربيع بن أنس: قلتُ لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟

قال: كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أُمروا به ونُهوا عنه، فقالوا: لن نسبق أحبارنا بشيء، فما أمرونا به ائتمرنا، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم، فاستنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

فقد بيَّن النبي ﷺ أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال، لا أنهم صلوا لهم، وصاموا لهم، ودَعُوهم من دون الله، فهذه عبادة للرجال، وتلك عبادة للأموال، وقد بيَّنهما النبي ﷺ، وقد ذكر الله أن ذلك شركٌ بقوله: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]».

وذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير التوحيد قول النبي ﷺ: «**مَن قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله، حَرُم مالُه ودمه، وحسابه على الله** عَزَّ وَجَلَّ»، ليبيِّن أن كلمة التوحيد ركناها: الكفر بما يُعبد من دون الله، وإثبات الألوهية لله وحده.

فالحنيف هو المُقبِل على الله، المُعرِض عما سواه، وهذا تفسير سيد الحنفاء للتوحيد، حيث قال لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هذه الكلمة هي كلمة الإخلاص لله تعالىٰ، وهي البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذي فطرنا».

وكلمة التوحيد جعلها الله باقية في عقبِ مَنِ اصطفاهم الله من ذرية إبراهيم، فالحنفاء يتبعون ملة إبراهيم، قال تعالىٰ: ﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗا﴾ [البقرة: ١٣٥].

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «نتبع ﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗا﴾ [البقرة: ١٣٥]، أي: مُقبِلًا علىٰ الله، مُعرِضًا عما سواه، قائمًا بالتوحيد، تاركًا للشرك والتنديد، فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية».

وحقيقة الدِّين هو عبودية الله وحده بما شرع، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «القرآن كله يدل علىٰ أن الحنيفية هي ملة إبراهيم، وأنها عبادة الله وحده والبراءة من الشرك. وعبادته سبحانه إنما تكون بما أمر به وشرعه، وذلك يدخل في الحنيفية، ولا يدخل فيها ما ابتُدع من العبادات».

فالحنفاء يتألهون لله وحده بالمحبة، فيعبدونه وحده بالاتباع لنبيه ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «لا يكون مُحبًّا لله عَزَّ وَجَلَّ إلا مَن يتبع رسولَهُ ﷺ، وطاعةُ الرسولِ ﷺ ومتابعته لا تكون إلا بتحقيق العبودية».

والمشركون والكافرون آثروا الاستمتاع بشهواتهم والاتباع لأهوائهم علىٰ عبودية الله عَزَّ وَجَلَّ واتباع نبيه ﷺ، فلا يحبون ما أحب الله، ولا يبغضون ما يبغضه الله ورسوله، ولا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسولُه، ولا يدينون دِين الحق، ومَن تشبَّه بهم

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٣٧٩، ٣٨٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٦).
(٣) جامع المسائل، المجموعة الخامسة (ص١٨٠).
(٤) العبودية (ص١١٥).

فهو منهم، قال تعالىٰ: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «النصارىٰ يدَّعون قيامهم بهذه المحبة، وأن ما هم فيه من الزهد والعبادة هو من ذلك، وهم براء من محبة الله؛ إذ لم يتبعوا ما أحبه، بل ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]».

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال في خاتمة باب تفسير التوحيد: «وشرْحُ هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب»؛ ليبيِّنَ أنَّ ما ذكره من نصوص القرآن والسُّنة في هذا الباب في تفسير التوحيد هو مجملٌ سيتم تفصيله في بقية أبواب الكتاب، الإحدىٰ والستون المتبقية.

وإذا تأملتَ مجموع أبواب كتاب التوحيد وجدتها قد اشتملت علىٰ بيان فضلِ التوحيد، وتفسيره، وبيان حقيقته، والتحذير مما يضاده، وفي هذا حثٌّ علىٰ مدارسة مجموع الأبواب.

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قد جمع هذا الكتاب -علىٰ اختصاره- من بيان التوحيد ما لا يعذر أحد عن معرفته وطلبه بإقبالٍ وتدبُّر، وكذلك الرد علىٰ أهل الأهواء جميعهم، فمَن حَفِظَه واستحضره وجدَ ذلك».

---

(١) العبودية (ص١١٨).

(٢) قرة عيون الموحدين (ص٦٣).

الْبَــابُ السَّــادِسُ

بَــابٌ: مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا؛ لِرَفْعِ الْبَـلَاءِ أَوْ دَفْعِـهِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◈ وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٨].

◈ وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟»، قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ، فَقَالَ: «**انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مُتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا**». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ.

◈ وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعًا: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ**». وَفِي رِوَايَةٍ: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**».

◈ وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَّىٰ، فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

فِيـهِ مَسَــائِلُ:

١) التَّغْلِيظُ فِي لُبْسِ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِمِثْلِ ذَلِكَ.

٢) أَنَّ الصَّحَابِيَّ لَوْ مَاتَ وَهِيَ عَلَيْهِ مَا أَفْلَحَ؛ فِيهِ شَاهِدٌ لِكَلَامِ الصَّحَابَةِ أَنَّ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ أَكْبَرُ مِنَ الْكَبَائِرِ.

٣) أَنَّهُ لَمْ يُعْذَرْ بِالْجَهَالَةِ.

٤) أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ فِي الْعَاجِلَةِ؛ بَلْ تَضُرُّ؛ لِقَوْلِهِ: «لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا».

٥) الْإِنْكَارُ بِالتَّغْلِيظِ عَلَىٰ مَنْ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ.

٦) التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ.

٧) التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ.

٨) أَنَّ تَعْلِيقَ الْخَيْطِ مِنَ الْحُمَّىٰ مِنْ ذَلِكَ.

٩) تِلَاوَةُ حُذَيْفَةَ الآيَةَ: دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الصَّحَابَةَ يَسْتَدِلُّونَ بِالآيَاتِ الَّتِي فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ عَلَىٰ الْأَصْغَرِ؛ كَمَا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ.

١٠) أَنَّ تَعْلِيقَ الْوَدَعِ عَنِ الْعَيْنِ مِنْ ذَلِكَ.

١١) الدُّعَاءُ عَلَىٰ مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً أَنَّ اللهَ لَا يُتِمُّ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ؛ أَيْ تَرَكَ اللهُ لَهُ.

الشَّرح

هذا الباب جاء بعد بيان معنىٰ كلمة التوحيد، ففي هذا الباب التحذير مما يضاد التوحيد، وهو من بيان معنىٰ التوحيد؛ لأن هذا داخل ضمن بيان ركن النفي، وهو نفي كل ما يتعلق به من دون الله.

وهذا الباب أهميته من جهة بيان أحكام الأسباب الشرعية، والتحذير من ضدها، وفيه حثٌّ علىٰ تجريد التوكل علىٰ الله والاستعانة به، فهو وحده الذي يقدر علىٰ النفع والضر ويكشفه.

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «هذا الباب يتوقف فَهْمُه علىٰ معرفة أحكام الأسباب، وتفصيل القول فيها: أنه يجب علىٰ العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: أن لا يجعل منها سببًا إلا ما ثبت أنه سببٌ شرعًا أو قدرًا.

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد ص٣٥، ٣٦.

ثانيها: أن لا يعتمد العبد عليها، بل يعتمد علىٰ مُسبِّبها ومُقدِّرها، مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه علىٰ النافع منها.

ثالثها: أنْ يعلمَ أنَّ الأسبابَ مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره، لا خروج لها عنه، واللهُ تعالىٰ يتصرف فيها كيف يشاء: إن شاء أبقىٰ سببيتها جارية علىٰ مقتضىٰ حكمته ليقوم بها العباد ويعرفوا بذلك تمام حكمته حيث ربط المسببات بأسبابها والمعلولات بعللها، وإن شاء غيَّرها كيف يشاء؛ لئلا يعتمد عليها العباد، وليعلموا كمال قدرته، وأن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده، فهذا هو الواجب علىٰ العبد في نظره وعمله بجميع الأسباب».

ابتدأ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا البابَ ببيان أنه لا يملك النفع ويدفع الضر إلا الله، مستدلًّا بقوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٨]

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قال مقاتل: فسألهم النبي ﷺ، فسكتوا، أي: لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها، وإنما كانوا يَدعُونها علىٰ معنىٰ أنها وسائط وشفعاء عند الله، لا لأنهم يكشفون الضر، ويجيبون دعاء المضطر، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٣، ٥٤].

وقد دخل في ذلك كلُّ مَن دُعي من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين، فضلًا عن غيرهم».

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (١/ ٣٤٩، ٣٥٠).

ثم قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟»، قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ، فَقَالَ: «**انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مُتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا**». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ». قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «قوله: «**انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا**»، لفظ الحديث: «**انبذها**»، وهو أبلغ، أي: اطرحها.

والنزع هو: الجذب بقوةٍ، والنبذ يتضمن ذلك وزيادة، وهو الطرح والإبعاد».

ونفي النبي ﷺ الفلاح جاء مؤبدًا، وهذا يدل علىٰ أنَّ لُبْسَ الحلقة والخيط والتميمة ونحوها لدفعِ أو رفعِ البلاء أو المرض أو العين شرك أكبر، وهذا يكون إذا اعتقد مَن لبسها أنها نافعة بنفسها.

قال شيخنا العَلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «لُبْسُ الحلقة ونحوها إن اعتقد لابسها أنها مؤثرة بنفسها دون الله، فهو مشرك شركًا أكبر في توحيد الربوبية؛ لأنه اعتقد أن مع الله خالقًا غيره.

وإن اعتقد أنها سببٌ، ولكنه ليس مؤثرًا بنفسه، فهو مشرك شركًا أصغر، لأنه اعتقد أن ما ليس بسببٍ سببًا».

وقال شيخنا العَلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «إنَّ الأعمال بالخواتيم؛ لقوله: «**لو مِتَّ وهي عليكَ**»، فعرف أنه لو أقلع عنها قبل الموت لم تضرَّه؛ لأن الإنسان إذا تاب قبل أن يموت صار كمَن لا ذنب له».

---

(١) كتاب التوحيد ص٣٦.
(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (١/ ٣٥٧).
(٣) شرح كتاب التوحيد، مجموع الفتاوىٰ (٩/ ١٥٥).
(٤) شرح كتاب التوحيد، مجموع الفتاوىٰ (٩/ ١٦٠).

وفي قوله ﷺ لمَن لَبِسَ الحلقة من الصُّفر: «**انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا**» بيانُ أنَّ الأوهامَ تضعف النَّفْسَ عن مقاومة الأمراض، وأن قوة النَّفْس بالتوكل علىٰ الله تدفع الأمراض.

قال شيخنا العَلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قوله: «**إِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا**»، أي: وَهْنًا في النفْس لا في الجسم، وربما تزيده وهنًا في الجسم، أمَّا وهنُ النفس، فلأن الإنسان إذا تعلقت نفسه بهذه الأمور ضعفت واعتمدت عليها ونسيت الاعتماد علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ.

والانفعال النفسي له أثرٌ كبير في إضعاف الإنسان، فأحيانًا يتوهم الصحيح أنه مريض فيمرض، وأحيانًا يتناسىٰ الإنسان المرض وهو مريض فيصبح صحيحًا، فانفعال النفس بالشيء له أثرٌ بالغ؛ ولهذا تجد بعض الذين يصابون بالأمراض النفسية يكون أصل إصابتهم ضعف النفس من أول الأمر، حتىٰ يظن الإنسان أنه مريض بكذا أو بكذا، فيزداد عليه الوهم حتىٰ يصبح الموهومُ حقيقةً.

فهذا الذي لبس الحلقة من الواهنة لا تزيده إلا وهنًا؛ لأنه سوف يعتقد أنها ما دامت عليه فهو سالم، فإذا نزعها عاد إليه الوهن، وهذا بلا شكٍّ ضعفٌ في النفس».

ثم قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعًا: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ**». وَفِي رِوَايَةٍ: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**»».

قال شيخنا العَلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «قوله: «**فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ**»، الجملة خبرية بمعنىٰ الدعاء، ويحتمل أن تكون خبرية محضة، وكلا الاحتمالين دالٌّ علىٰ أن التميمةَ مُحرَّمةٌ، سواء نفىٰ الرسول ﷺ أن يتم الله له أو دعا بأن لا يتم الله له،

---

(١) شرح كتاب التوحيد، مجموع الفتاوىٰ (٩/ ١٥٩).

(٢) كتاب التوحيد ص٣٧.

(٣) شرح كتاب التوحيد، مجموع الفتاوىٰ (٩/ ١٦١).

فإن كان الرسول ﷺ أراد به الخبر، فإننا نخبر بما أخبر به النبي ﷺ، وإلا فإننا ندعو بما دعا به الرسول ﷺ».

ثم قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ؛ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَّىٰ، فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾».

أثرُ حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رواه ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الحسين بن إبراهيم بن إِشْكَابَ، ثنا يونس بن محمد، ثنا حمَّاد بن سلمة، عن عاصم الأحول، عن عَزْرَةَ قال: دخل حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ مريض فرأىٰ في عضده سيرًا فقطعه أو انتزعه، ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦][٢].

إسناده صحيح إلىٰ عَزْرَةَ، وله متابعات وشواهد، ولا أعلم لعَزْرَةَ من حذيفة سماعًا مُحقَّقًا.

ورواه ابن أبي شيبة[٣]: حدثنا علي بن مسهر، قال: أخبرني زيد بن وهب، قال: انطلق حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلىٰ رجلٍ من النخع يعوده، فانطلق وانطلقتُ معه، فدخل عليه ودخلتُ معه، فلمس عضده، فرأىٰ فيه خيطًا، فأخذه فقطعه، ثم قال: لو متَّ وهذا في عضدكَ ما صليتُ عليكَ.

إسناده كوفي صحيح، وفي هذا الأثر أن حذيفة هو الذي قال لمَن لَبِسَ خيطًا: لو متَّ ما صليتُ عليكَ.

وفي أثرٍ آخر يحكي حذيفة ذلك عن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) كتاب التوحيد ص٣٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين (٧/ ٢٢٠٨ – رقم ٢٠٤٠).

(٣) المصنف (١٢/ ٤١ – رقم ٢٣٩٢٨).

قال ابن أبي شيبة(١): حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخل عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ رَجُلٍ يعوده، فوجد في عضده خيطًا، فقال: ما هذا؟ قال: خيطٌ رُقِي لي فيه، فقطعه، ثم قال: لو متَّ ما صليتُ عليكَ.

ففي هذين الأثرين بيانُ اتفاقِ الصحابة وعلماء آل البيت في إنكار الشرك علىٰ مَن لَبِسَ الخيط وما في معناه، من: لُبْسِ التمائم، والحروز، والودع ونحوها.

ومَن لَبِسَ تميمةً أو خيطًا أو حلقةً معتقدًا أنها نافعة مؤثِّرة بنفسها، فيكون ترْكُ الصحابة للصلاة عليه لكفره خصوصًا بعد قيام الحجة عليه من قبلهم، قال تعالىٰ في شأن الكفار: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٨٤].

وإنْ كان مَن لَبِسَ الحلقة أو التميمة أو الخيط معتقدًا أنها سببٌ لدفع الضر لا أنها فاعلة مؤثرة بنفسها، فيكون ترْكُ الصلاة عليه تعزيرًا وزجرًا لغيره، كترْكِ النبي ﷺ الصلاة علىٰ المنتحر والغالّ والمَدِين، واللهُ أعلم.

وفي أثرِ حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قطْعُه بنفْسه الخيط، وكذلك في أثرِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمرَ النبيُّ ﷺ مَن لَبِسَ الحلقة من الصُّفر بنزعها، فحيث تكون المصلحة في إنكار الشرك: إزالته ممن تعاطاه بنفسه فهذا أفضل، فإنه يزيله بنفسه عن قناعة فلا يَعُود إلىٰ لُبْسِه بنفسه، وحيث يقبل المنصوح إزالة أسباب الشرك ممَّن نَصحه فهذا حسنٌ أيضًا، فالمقصود إزالة المُنكَر.

أمَّا إنْ كان مَن لَبِسَ الحلقة أو الخيط لم يقتنع أو فيه عنادٌ ويُخشىٰ معه أن يكون إزالة المُنكَر من الناصح سببًا لإصراره علىٰ باطله وربما يلبسه بعد ذلك، فالأَوْلىٰ المناصحة بما تقتضيه الأحوال تبعًا للأعيان والأشخاص.

---

(١) المصنف (١٢/ ٤٢- رقم ٢٣٩٢٩).

وفِقْهُ الصحابة ﭫ بقطعِ التمائم هو من إنكار المُنكَر الذي دلَّ عليه قول النبي ﷺ: «**لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وترٍ إلا قُطعت**»، رواه البخاري من حديث أبي بشير الأنصاري ﭬ.

ورقبةُ الإنسانِ صيانتُها من الشركِ أَوْلىٰ من رقبة البعير، وإذا كان المسلم منهيًّا عن الشرك وأسبابه في رقاب البهائم، ففي رقبته أَوْلىٰ.

واستدلال حذيفة ﭬ بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، فيه ما كان عليه الصحابة من الاستدلال بالعموم، ولا ريب أن العامَّ المُحكَم غير المنسوخ حُجَّةٌ في عمومه غير المُخصّص الذي سِيق له.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، يوجب علىٰ الجميع: الحذر من أنواع الشرك كله ووسائله، ويوجب علىٰ العلماء وطلبة العلم: النصيحة للمسلمين في بيان التوحيد، والتحذير من الشرك.

شـرْحُ المسـائل:

١) **التَّغْلِيظُ فِي لُبْسِ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِمِثْلِ ذَلِكَ**: وهذا التغليظ شديد جدًّا، حيث نفىٰ النبي ﷺ الفلاح المُؤبَّد عمَّن فعلَ ذلك، وحَكمَ بالشرك علىٰ مَن فعلَ ذلك، ودعا عليه النبي ﷺ.

٢) **أَنَّ الصَّحَابِيَّ لَوْ مَاتَ وَهِيَ عَلَيْهِ مَا أَفْلَحَ؛ فِيهِ شَاهِدٌ لِكَلَامِ الصَّحَابَةِ أَنَّ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ أَكْبَرُ مِنَ الْكَبَائِرِ**: وهذا الحُكمُ عامٌّ لكلِّ مَن مات علىٰ الشرك، فقد خسر خسرانًا مبينًا، حيث قال النبي ﷺ: «**لو متَّ وهي عليكَ ما أفلحتَ أبدًا**».

والشرك وإن كان أصغر فهو عظيم، وهو أكبر من الكبائر، هذا فِقهُ الصحابة، قال شيخنا العَلَّامة محمد العثيمين ﵀[1]: «قوله: (لكلام الصحابة) أي: لقولهم،

(١) شرح كتاب التوحيد، مجموع الفتاوىٰ (٩/ ١٦٣).

وهو كذلك، فالشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود ﵁: (لأنْ أحلفَ بالله كاذبًا أحبُّ إليَّ مِن أنْ أحلفَ بغيره صادقًا)؛ وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكبيرة؛ لأن الشرك لا يُغفر ولو كان أصغرَ، بخلاف الكبائر، فإنها تحت المشيئة».

ومقصود ابن مسعود ﵁: بيان تغليظ الشرك، وأنه أعظم جُرْمًا من الكبائر، لا أنه يريد التهوين من اليمين الغموس -حاشاه من ذلك-.

٣) **أَنَّهُ لَمْ يُعْذَرْ بِالْجَهَالَةِ:** لأن الجهالة ارتفعت عنه ببيان النبي ﷺ له على وجه الخصوص، والنبي ﷺ بيَّن للصحابة عمومًا وهو بيانٌ للأُمَّةِ من بعدهم التوحيد، وحذَّر مما يضاده أتمّ بيانٍ.

ومجموع كلام الإمام محمد بن عبد الوهاب ﵀ في مصنفاته يدل على أنه يعذر بالجهالة، فإنه قال: «إذا كنا لا نُكفِّر مَن عبدَ الصنمَ الذي على قبرِ عبد القادر، والصنم الذي على قبر البدوي، وأمثالهما؛ لأجْلِ جهلهم وعدم مَن ينبههم»، وقد بيَّنتُ ذلك في رسالة: «تأسيس التوحيد في كشفِ الشبهات».

ومَن أعرضَ عن الحق الذي بلَّغه العلماءُ وطلبةُ العِلم في التحذير من الشرك، واستروح إلى جهله؛ فهذا لا يُعذر، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

٤) **أَنَّهَا لا تَنْفَعُ فِي الْعَاجِلَةِ؛ بَلْ تَضُرُّ؛ لِقَوْلِهِ: «لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا»:** فمَن تعلَّق بما لا ينفع ولا يضر، فهو مضار بنفسه في دينه ودنياه:

أمَّا في دِينه؛ فبإفساد عقيدته، ووقوعه في الشرك سواء كان أصغر أو أكبر، وأمَّا إفساد دنياه؛ فبحصول نقيض مقصوده، فلا يكون في دَعةٍ ولا طمأنينة ولا تمام؛ لأنه أعرضَ عمَّن تطمئن القلوب بالتوكل عليه، وصارت نفْسه ضعيفةً بتعلُّقها بالأوهام.

٥) **الْإِنْكَارُ بِالتَّغْلِيظِ عَلَى مَنْ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ:** وهذا الإنكار وقع من النبي ﷺ كما في حديث عمران ﵁، ووقع من الصحابة: حذيفةَ وعليٍّ ﵄.

٦) **التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**: فمَن تعلَّق بالله فقد وُكِل إلىٰ عظيم، ومَن تعلَّق بأوهام فقد وُكل إلىٰ لا شيء، ومَن تعلَّق بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك.

٧) **التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**: هذا منطوق حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٨) **أَنَّ تَعْلِيقَ الْخَيْطِ مِنَ الْحُمَّىٰ مِنْ ذَلِكَ**: لأنَّ مُوجب الحُكمِ واحدٌ، فاتخاذ سببٍ لم يجعله اللهُ سببًا شركٌ.

٩) **تِلَاوَةُ حُذَيْفَةَ الآيَةَ: دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الصَّحَابَةَ يَسْتَدِلُّونَ بِالآيَاتِ الَّتِي فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ عَلَىٰ الْأَصْغَرِ؛ كَمَا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ**: لأن لفْظَ الشرك عامٌّ يشمل أنواع الشرك: الأصغر والأكبر.

والآية التي ذكرها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هي قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «جعْلُ المحبة التي تكون كمحبة الله، من اتخاذ الند لله عَزَّ وَجَلَّ».

١٠) **أَنَّ تَعْلِيقَ الْوَدَعَ عَنِ الْعَيْنِ مِنْ ذَلِكَ**: يعني: من الشرك؛ لأنه اتخاذُ سببٍ لم يجعله اللهُ سببًا.

١١) **الدُّعَاءُ عَلَىٰ مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً أَنَّ اللهَ لا يُتِمُّ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ، أَيْ: تَرَكَ اللهُ لَهُ**: ودعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستجابٌ، ومعنىٰ «تركَ اللهُ له» أي: أن الله لا يتولَّاه، فهذا هو الخسران الحقيقي.

❀ ❀ ❀

---

(١) شرح كتاب التوحيد، مجموع الفتاوىٰ (٩/ ١٦٦).

الْبَـــابُ السَّـــابِعُ

بَـــابُ مَا جَـــاءَ فِي الـرُّقَى وَالتَّمَـــائِمِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في بعض أسفارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا: «**أَنْ لا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ -أَوْ: قِلَادَةٌ- إِلَّا قُطِعَتْ**».

◊ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ.

◊ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: «**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

◊ التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَىٰ الأَوْلَادِ عَنِ الْعَيْنِ؛ لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ؛ مِنْهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

◊ وَالرُّقَىٰ هِيَ الَّتِي تُسَمَّىٰ الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهُ الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ، فَقَدْ رَخَّصَ فِيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ.

◊ وَالتِّوَلَةُ: شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَىٰ زَوْجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَىٰ امْرَأَتِهِ.

◊ وَرَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَىٰ بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ**».

◈ وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ». رَوَاهُ وَكِيعٌ.

◈ وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا؛ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ».

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) تَفْسِيرُ الرُّقَىٰ وَتَفْسِيرُ التَّمَائِمِ.

٢) تَفْسِيرُ التِّوَلَةِ.

٣) أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ كُلَّهَا مِنَ الشِّرْكِ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ.

٤) أَنَّ الرُّقْيَةَ بِالْكَلَامِ الْحَقِّ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ.

٥) أَنَّ التَّمِيمَةَ إِذَا كَانَتْ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ؛ هَلْ هِيَ مِنْ ذَلِكَ أَمْ لَا ؟

٦) أَنَّ تَعْلِيقَ الْأَوْتَارِ عَلَىٰ الدَّوَابِ مِنَ الْعَيْنِ: مِنْ ذَلِكَ.

٧) الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِيمَنْ تَعَلَّقَ وَتَرًا.

٨) فَضْلُ ثَوَابِ مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ.

٩) أَنَّ كَلَامَ إِبْرَاهِيمَ لَا يُخَالِفُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الِاخْتِلَافِ؛ لِأَنَّ مُرَادَهُ أَصْحَابُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ.

الشَّرح

هذا الباب في التحذير من اتخاذ الأسباب الشركية لجلب المنافع ودفع المضار.

والموحدون يتوكلون علىٰ الله في طلب المنافع ودفع المضار؛ لاعتقادهم أن ذلك إلىٰ الله وحده، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

ومَن توكل علىٰ الله علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

وقد أَمَرنا الشرع بالأخذ بالأسباب الشرعية والقدرية للوقاية من الأمراض وللتداوي منها، فقد قال ﷺ: «**مَن تصبَّح بسَبْع تمرات لم يضرَّه في يومه سُمٌّ ولا سِحْر**» متفق عليه من حديث سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورویٰ البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أنزلَ اللهُ من داءٍ إلا أنزل له شفاءً**».

والأمر بالتداوي من الأمراض لا ينافي التوكل علىٰ الله، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل للشفاء من الأمراض أسبابًا، تظهر بها قدرة الله في خَلْقِه لتلك الأسباب، وهداية المخلوقين للعلم بها، والتداوي بها.

وقوة التوكل علىٰ الله الذي جعل الأدوية أسبابًا في الشفاء من الأمراض، من أعظم أسباب الشفاء من الأسقام.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «في الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفْعُ داء الجوع، والعطش، والحر، والبرد بأضدادها.

بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرًا وشرعًا، وأنَّ تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن مُعطِّلها أن تركها أقوىٰ في التوكل، فإن تركها عجزًا ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب علىٰ الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان مُعطِّلًا للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلًا، ولا توكله عجزًا».

وأعظم أسباب الشفاء من الأمراض: قوة النفس في التوكل علىٰ الله، وقوة الرجاء في معافاته.

(١) زاد المعاد (ص٥٩٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن القلب متىٰ اتصل برب العالمين، وخالق الداء والدواء، ومُدبِّر الطبيعة ومُصرِّفها علىٰ ما يشاء كانت له أدوية أخرىٰ غير الأدوية التي يعانيها القلب البعيد منه المُعرِض عنه.

وقد عُلم أن الأرواح متىٰ قويت وقويت النفس والطبيعة تعاونا علىٰ دفع الداء وقهره، فكيف ينكر لمَن قويت طبيعته ونفسه، وفرحت بقربها من بارئها، وأُنْسِها به، وحبها له، وتنعمها بذِكره، وانصراف قواها كلها إليه، وجمعها عليه، واستعانتها به، وتوكلها عليه، أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية».

ومن أقوىٰ الأسباب في الشفاء من الأمراض: كثرةُ ذِكر الله ودعائه، وفعْل الخيرات، والإحسان إلىٰ الخَلق، وملازمة الاستغفار.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الأرواح الشيطانية تتمكن من فِعلها بصاحب هذه العوارض ما لا تتمكن من غيره، ما لم يدفعها دافع أقوىٰ من هذه الأسباب من: الذِّكر، والدعاء، والابتهال والتضرع، والصدقة، وقراءة القرآن، فإنه يستنزل بذلك من الأرواح الملكية ما يقهر هذه الأرواح الخبيثة، ويُبطِل شرها، ويدفع تأثيرها».

والشرك من أسباب سخطِ الله، والمسلم يطلب العافية ممن يُقدِّر المرض والشفاء.

وما مقصود العافية إلا عبادة الله وتوحيده، فاحذر الوسائل التي تَعُود علىٰ المقاصد بالإبطال.

ومن حكمة الله في الابتلاء بالمرض: تكفير سيئات عباده، فلا تتخذِ الأسبابَ الشركية في التداوي سببًا في زيادة آثامك وسخطِ اللهِ عليك.

---

(١) زاد المعاد (ص٥٩٢).

(٢) زاد المعاد (ص٦٠٢).

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**ما يصيب المؤمن من همٍّ ولا وصبٍ ولا أذىٰ، حتىٰ الشوكة يشاكها إلا كفَّر اللهُ بها من خطاياه**».

واللهُ يبتلي عباده بالمرض وغيره ليفروا إليه فيعافيهم ويكمل عبوديتهم، فاحذر الفرار منه باتخاذ الأسباب الشركية في التداوي.

وللهِ عَزَّ وَجَلَّ حكمةٌ بالغة في ابتلاء عباده بالأمراض؛ لأنها تكون سببًا في تضرع العبد إلىٰ مولاه، وتوكله عليه، وسؤاله الشفاء، وتلك من أفضل مقامات العبودية لله.

ومنها: أن الأمراض -خصوصًا الحُمَّىٰ- من أسباب تكفير السيئات، وكان النبي ﷺ إذا عاد من به الحمىٰ قال له: «**طَهُورٌ إن شاء الله**».

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «يعني: أنها تطهير من الذنوب والخطايا».

وفي حرارة الحمىٰ تذكير بفيح جهنم، فتكون من أسباب سعي المسلم في العافية منها؛ بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ واجتناب سيئاته.

والحمىٰ من أسباب تصفية القلب من وسخه ودَرَنِه، وإخراجها خبائثه، وهذا أمرٌ يَعْلَمه أطباء القلوب ويجدونه كما أخبر به نبيهم رسول الله ﷺ[(٢)].

والابتلاء بالمرض أو غيره يُعرِّف العبدَ عِزَّةَ اللهِ في قضائه وقدره، ونفوذ مشيئته، وجريان حُكْمه، ويُعرِّفه حاجته إلىٰ حفظِ الله له ومعونته وصيانته[(٣)].

---

(١) مجموع مؤلفات الحافظ ابن رجب (٢/ ٣٧٦).

(٢) زاد المعاد (ص٥٩٩).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٨١٧، ٨١٨).

ومَن تحقَّق بشهود توحيد الله في ذلك لم يأخذ بالأسباب الشركية، من تعليق التمائم والأوتار ونحوها؛ طلبًا للعافية، فإنّ الشركَ داءٌ وليس بدواءٍ، واللهُ لم يجعل شفاء أُمَّته فيما حرّم عليها.

افتتح المصنف هذا الباب بالتحذير من الشرك في الأسباب، حيث ذكر حديث أبي بشير الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولًا: أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر -أو قلادة- إلا قُطعت.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللهُ(١): «كانوا يقلدون الإبل الأوتار؛ لئلا تصيبها العين، فأمرهم النبي ﷺ بإزالتها؛ إعلامًا لهم بأن الأوتار لا تَرُدُّ شيئًا».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللهُ(٢): «لا يجوز أن تُعلق في أعناق الإبل أشياء تُجعل سببًا في جلب منفعة أو دفع مضرة، وهي ليست كذلك لا شرعًا ولا قدرًا؛ لأنه شركٌ.

ولا يَلزم أن تكون القلادة في الرقبة، بل لو جُعلت في اليد أو الرِّجْل، فلها حُكْمُ الرقبة؛ لأن العلة هي هذه القلادة، وليس مكان وضعها، فالمكان لا يُؤثِّر».

وفي الحديث: بيانُ ما كان عليه النبي ﷺ من بعثِ رسله من الصحابة بتعليم التوحيد وإنكار الشرك.

وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حذَّر النبي ﷺ من اتخاذ الوسائل الشركية للشفاء من الأمراض، وللتواد بين الزوجين، حيث قال: «**إن الرُّقى والتمائم والتولة شركٌ**»، رواه أحمد وأبو داود.

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (١/ ٣٧٢).

(٢) شرح كتاب التوحيد (ص١٦٩، ١٧٠)، مطبوع ضمن المجلد التاسع من فتاوىٰ الشيخ.

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «التولة: نوعٌ من السِّحر، وهو تحبيب المرأة إلىٰ الزوج.

والتميمة: خرزةٌ تَرُدّ العين».

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير التولة[٢]: «هي شيء يصنعونه، يزعمون أنه يُحبِّب المرأة إلىٰ زوجها، والرجل إلىٰ امرأته».

وقال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «وبهذا فسَّره ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ راوي الحديث، كما في صحيح ابن حبان والحاكِم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن، هذه الرُّقىٰ والتمائم قد عرفناها، فما التولة؟ قال: شيءٌ يصنعه النساء يتحببن إلىٰ أزواجهن».

والود بين الزوجين يُستدام بتقوىٰ الله وحُسْن العِشْرة، والتواصي بالمعروف، والصبر علىٰ نوائب الأمور.

والتمائم: قلائد من خرزٍ أو وَتر أو جِلْد تُعلَّق علىٰ رقاب البهائم والإنس لدفع العين والأمراض.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «هي من الشرك؛ لأن الشارِع لم يجعلها سببًا تُتقىٰ به العين».

وتعليق التمائم والأوتار ليس من الأسباب القدرية التي يحصل بها الشفاء، وقد أخبر النبي ﷺ في حديث عبد الله بن عكيم أنَّ مَن تعلَّق ذلك فقد تعلَّق إلىٰ

---

(١) الكبائر ص٤٦

(٢) التوحيد ص١٨

(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (١/ ٣٨١)

(٤) شرح كتاب التوحيد (ص١٧١)، مطبوع ضمن مجموع فتاوىٰ الشيخ، المجلد التاسع.

ما يضره من الشرك، وما لا ينفعه مما لم يجعله اللهُ سببًا لا شرعيًّا ولا قدريًّا، حيث قال: «**مَن تعلَّق شيئًا وُكل إليه**»، رواه أحمد والترمذي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أكثر الخَلق قُوَىٰ نفوسهم مطيعة للأوهام الكاذبة، مع علمهم بكذبها، وأكثر إقدام الخَلق وإحْجَامهم بسبب هذه الأوهام، فإن الوهم عظيمُ الاستيلاءِ علىٰ النفْس».

ومَنِ اعتصمَ بالله واتخذ الأسباب الشرعية في الشفاء، وقابل المرض بقوة النفس بالاستعانة بالله في دفعه، وتحلىٰ بالصبر وطمأنينة النفس في طلب العافية من الله؛ كان ذلك خيرًا له في عافية دينه وبدنه من الشرك والأوهام.

وحقيقة الأمر في الشفاء من الأمراض: اللجوء إلىٰ مُسبِّب الأسباب، وهذا مشهد التوحيد الذي تحقَّق به سيدُ الحنفاء الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حيث قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «مَن تعلقت نفْسه بالله، وأنزل حوائجه بالله، والتجأ إليه، وفوَّض أمره كله إليه؛ كفاه كل مُؤْنَةٍ».

وبيَّن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب أنَّ الرُّقىٰ نوعان:

مشروعة: وهو ما كان بكلمات الله.

ورُقًىٰ غير مشروعة: وهو ما كان شركًا، أو بالكلام المجهول.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «الرُّقىٰ: هي التي تُسمىٰ

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٩٧٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١/ ٣٨٣).

(٣) التوحيد ص١٨

العزائم، وخصَّ منها الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخَّص فيه رسول الله ﷺ من العين والحُمة».

وقال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الرُّقىٰ الموصوفة بكونها شركًا هي الرُّقىٰ التي فيها شركٌ من دعاء غير الله، والاستعانة والاستعاذة به؛ كالرُّقىٰ بأسماء الملائكة والأنبياء والجن ونحو ذلك.

أمَّا الرُّقىٰ بالقرآن وأسماء الله وصفاته ودعائه والاستعاذة به وحده لا شريك له؛ فليست شركًا، بل ولا ممنوعة، بل مستحبة أو جائزة».

وقال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قوله: (التي تُسمىٰ العزائم) أي: في عُرْف الناس، وعزم عليه، أي: قرأ عليه، وهذه عزيمة، أي: قراءة».

واحذر -أيها المسلم- الرُّقىٰ والتعاويذ بالكلام المجهول والطلاسم؛ فإنه من حِيَلِ المشركين الذي يُروِّجون الشرك بما لا يُعقل من الكلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إن المشركين يقرأون من العزائم والطلاسم والرُّقىٰ ما فيه عبادةٌ للجن وتعظيمٌ لها، وعامة ما بأيدي الناس من العزائم والطلاسم والرُّقىٰ التي لا تُفقه بالعربية، فيها ما هو شركٌ بالجن.

ولهذا نهىٰ علماءُ المسلمين عن الرُّقىٰ التي لا يُفقه معناها؛ لأنها مظنة الشرك، وإن لم يعرف الراقي أنها شركٌ.

وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله، كيف ترىٰ في ذلك؟ فقال: «**اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقىٰ ما لم يكن فيه شركٌ**»».

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٣٧٤).

(٢) شرح كتاب التوحيد ص١٧٦، مجموع الفتاوىٰ، المجلد التاسع.

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ١٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «عامة ما يقوله أهل العزائم فيه شركٌ، وقد يقرأون مع ذلك شيئًا من القرآن ويظهرونه، ويكتمون ما يقولونه من الشرك.

وفي الاستشفاء بما شرعه الله ﷻ ورسوله ﷺ ما يُغنِي عن الشرك وأهله».

والمُوحِّدون يستعيذون بكلمات الله لدفع الشرور، وللشفاء من الأمراض، والمشركون يستعملون ما تتلوه الشياطين من الشرك.

قال النبي ﷺ: «**مَن نزلَ منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلقَ؛ لم يضره شيء حتىٰ يرتحل منه**»، رواه مسلم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وحديث رويفع أن النبي ﷺ قال له: «**لعل الحياة تطول بكَ، فأخبر الناس أن مَن عقدَ لحيته، أو تقلَّد وترًا، أو استنجىٰ برجيع دابة أو عظم، فإن محمدًا بريء منه**» دالٌّ علىٰ أن الشرك من الكبائر، وورد عن النبي ﷺ تسميته بأكبر الكبائر.

والحديث دالٌّ علىٰ أن المسلم ما دام حيًّا فعليه أنْ يَقُومَ بالدعوة إلىٰ التوحيد وإنكار المُنكَر -خصوصًا الشرك-.

والحديث فيه بيانُ ما كان عليه الناس في الجاهلية من الضلال واتخاذ الأسباب الشركية من عقْد اللِّحىٰ لدفع الحسد، وتقلُّد الوتر لدفع الشرور، وهذا مما لم يجعله الله سببًا شرعيًّا ولا قدريًّا لدفع الأمراض والحسد والشرور.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «كانوا يَعْقِدُون لِحاهم لأسباب:

منها: الافتخار والعظمة، فتجد أحدهم يعقد أطرافها، أو يعقدها من الوسط عقدة واحدة؛ ليُعلمَ أنه رَجُلٌ عظيم، وأنه سيدٌ في قومه.

الثاني: الخوف من العين؛ لأنها إن كانت حسنة وجميلة ثم عقدت أصبحت قبيحة، فمَن عقدها لذلك فإن الرسول ﷺ بريءٌ منه».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٦١).

(٢) شرح كتاب التوحيد (ص١٧٨)، المطبوع ضمن مجموع فتاوىٰ الشيخ، المجلد التاسع.

وأثرُ سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن قطعَ تميمةً من إنسان كان كعِدل رقبة»؛ إنما كان ثوابه كذلك لأنه أعتقه من النار بمنعه من أسباب الشرك.

وقطعُ التميمة ممَّن تعلَّقها هو من إنكار المنكر، فإنَّ مَن تعلَّقها يُنصح بتحذيره من شرك تعليقها؛ حتىٰ لا يَعُود إلىٰ تعليقها بعد ذلك.

وفي حديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الباب السابق أنَّ النبي ﷺ قال لمن تعلَّق حلْقة من صُفر: «**انزعها فإنها لا تزيدك إلا وَهْنًا**»، وهذا أفضل في النصح؛ بتبيين الحُكْم بعلته، وفيه حثٌّ لِمَن تعلق الوسائل الشركية أن ينزعها بخاصة نفسه.

وختم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ الباب بذكر أثر إبراهيم النخعي أنه قال: «كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن»، وإبراهيم النخعي يحكي فقه ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومَن أخذ عنه من فقهاء الكوفة، وابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من علماء الصحابة، ووجه قوله: هو أن الاستشفاء بالقرآن وردَ علىٰ صفةٍ مخصوصة، وهو القراءة والنفث من ريق القارئ، والله أعلم.

والمعهود عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الاستشفاء والرُّقىٰ بالقرآن علىٰ الصفة المشروعة من نفثِ الرِّيق من تلاوته، ففي الصحيحين في اللديغ: رَقَاه الصحابةُ بالفاتحة، فقال النبي ﷺ: «**وما أدراك أنها رقية؟!**».

والكراهةُ المذكورة في أثرِ إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ -«كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن» في اصطلاح المتقدمين من السلف- كراهةُ تحريمٍ.

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أراد أصحاب عبد الله بن مسعود؛ كعلقمة، والأسود، وأبي وائل، والحارث بن سويد، وعبيدة السلماني، ومسروق، والربيع بن خثيم، وسويد بن غفلة، وغيرهم، وهم من سادات التابعين في زمانهم، كانوا يطلقون الكراهة علىٰ المحرَّم».

(١) قرة عيون الموحدين ص٧٢، ٧٣

وقال صالح ابن الإمام أحمد لأبيه: هل تُعلِّق شيئًا من القرآن؟ قال: التعليق كله مكروه، كان ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُشدِّد فيه[١].

وقال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ في حُكْم تعليق التمائم من القرآن[٢]: «يتعين النهي عنه لأمورٍ ثلاثة:

منها: دخوله في عموم المنهي عنه.

ومنها: كونه ذريعة إلىٰ تعليق ما ليس من القرآن، فيفضي إلىٰ عدم إنكارها.

الثالث: أن تعليق القرآن يكون سببًا في امتهانه، فإنه مَن علَّقه فلا بد أن يدخل به الخلاء ونحوه».

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ الرُّقَىٰ وَتَفْسِيرُ التَّمَائِمِ**: الرقىٰ عزائم الشرك، والقلائد من الخرز أو الوتر أو الجلد ونحوه.

٢) **تَفْسِيرُ التِّوَلَةِ**: نوعٌ من السِّحر.

٣) **أَنَّ هَذِهِ الثَّلاثَةَ كُلَّهَا مِنَ الشِّرْكِ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ**: قال النبي ﷺ: «**إنَّ الرُّقىٰ والتمائم والتِّولة شركٌ**».

٤) **أَنَّ الرُّقْيَةَ بِالْكَلَامِ الْحَقِّ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ**: الرقية بكلمات الله مشروعةٌ.

٥) **أَنَّ التَّمِيمَةَ إِذَا كَانَتْ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ؛ هَلْ هِيَ مِنْ ذَلِكَ أَمْ لَا؟**: كان ابنُ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يكرهها.

---

(١) الآداب الشرعية ص٨١٨

(٢) قرة عيون الموحدين ص٧٣

٦) **أَنَّ تَعْلِيقَ الْأَوْتَارِ عَلَىٰ الدَّوَابِ مِنَ الْعَيْنِ: مِنْ ذَلِكَ**: لا يختلف قولُ السلفِ في تحريمه.

٧) **الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِيمَنْ تَعَلَّقَ وَتَرًا**: براءة النبي ﷺ منه.

٨) **فَضْلُ ثَوَابِ مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ**: أعتقه من النار.

٩) **أَنَّ كَلَامَ إِبْرَاهِيمَ لَا يُخَالِفُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الِاخْتِلَافِ؛ لِأَنَّ مُرَادَهُ أَصْحَابُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ**: إبراهيم النخعي ذكرَ فِقْه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتلاميذه.

۞ ۞ ۞


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَــابُ الثَّــامِنُ

بَــابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَـرَةٍ أَوْ حَجَـرٍ وَنَحْـوِهِمَا

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◈ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠].

◈ عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا (ذَاتُ أَنْوَاطٍ)، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** [الأعراف: ١٣٨]، **لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ النَّجْمِ.

٢) مَعْرِفَةُ صُورَةِ الْأَمْرِ الَّذِي طَلَبُوا.

٣) كَوْنُهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا.

٤) كَوْنُهُمْ قَصَدُوا التَّقَرُّبَ إِلَىٰ اللهِ بِذَلِكَ؛ لِظَنِّهِمْ أَنَّهُ يُحِبُّهُ.

٥) أَنَّهُمْ إِذَا جَهِلُوا هَذَا؛ فَغَيْرُهُمْ أَوْلَىٰ بِالْجَهْلِ.

٦) أَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالْوَعْدِ بِالْمَغْفِرَةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ.

٧) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَعْذُرْهُمْ؛ بَلْ رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ! لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»؛ فَغَلَّظَ الْأَمْرَ بِهَذِهِ الثَّلَاثِ.

٨) الْأَمْرُ الْكَبِيرُ -وَهُوَ الْمَقْصُودُ- أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ طَلَبَهُمْ كَطَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا قَالُوا لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨].

٩) أَنَّ نَفْيَ هَذَا مِنْ مَعْنَىٰ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، مَعَ دِقَّتِهِ وَخَفَائِهِ عَلَىٰ أُولَئِكَ.

١٠) أَنَّهُ حَلَفَ عَلَىٰ الْفُتْيَا، وَهُوَ لَا يَحْلِفُ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ.

١١) أَنَّ الشِّرْكَ فِيهِ أَكْبَرُ وَأَصْغَرُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْتَدُّوا بِهَذَا.

١٢) قَوْلُهُمْ: «وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ»؛ فِيهِ أَنَّ غَيْرَهُمْ لَا يَجْهَلُ ذَلِكَ.

١٣) التَّكْبِيرُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ، خِلَافًا لِمَنْ كَرِهَهُ.

١٤) سَدُّ الذَّرَائِعِ.

١٥) النَّهْيُ عَنِ التَّشَبُّهِ بِأَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

١٦) الْغَضَبُ عِنْدَ التَّعْلِيمِ.

١٧) الْقَاعِدَةُ الْكُلِّيَّةُ؛ لِقَوْلِهِ: «**إِنَّهَا السُّنَنُ**».

١٨) أَنَّ هَذَا عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ؛ لِكَوْنِهِ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ.

١٩) أَنَّ مَا ذَمَّ اللهُ بِهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ فِي الْقُرْآنِ؛ أَنَّهُ لَنَا.

٢٠) أَنَّهُ مُتَقَرِّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْعِبَادَاتِ مَبْنَاهَا عَلَىٰ الْأَمْرِ، فَصَارَ فِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ مَسَائِلِ الْقَبْرِ. أَمَّا «مَنْ رَبُّكَ؟» فَوَاضِحٌ، وَأَمَّا «مَنْ نَبِيُّكَ؟» فَمِنْ إِخْبَارِهِ بِأَنْبَاءِ الْغَيْبِ، وَأَمَّا «مَا دِينُكَ؟» فَمِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ﴾ إِلَىٰ آخِرِهِ.

٢١) أَنَّ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَذْمُومَةٌ كَسُنَّةِ الْمُشْرِكِينَ.

٢٢) أَنَّ الْمُنْتَقِلَ مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي اعْتَادَهُ قَلْبُهُ لَا يَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ بَقِيَّةٌ مِنْ تِلْكَ الْعَادَةِ؛ لِقَوْلِهِ: «وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ».

الشَّرْح

كان المشركون قبل الإسلام علىٰ جهلٍ عظيم، يعبدون الأحجار، فيتخذ أحدهم إلهًا من حجارة، وإذا وجد أحدهم حجارةً أعجبَ إليه، تركَ حجارته الأُولَىٰ وعبدَ إلهًا جديدًا!

ومنهم مَن كان يبني البناء علىٰ قبرِ ميتٍ، ويتخذ قبرَ وبيتَ الميتِ وثنًا يعبده، وهذا كان صنم «اللات» الذي كانت تعبده (ثقيف).

قال الله ﷻ مُبكِّتًا المشركين لعبادتهم أصنامًا لا كَمَالَ فيها، ولا تنفع ولا تضر: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، وهو استفهامٌ للتوبيخ، أي: ما شأن هذه الآلهة؟! وعبادةُ الحجارة هو شركُ قومِ نوح.

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مناسبة هذه الآية للترجمة: أن عبادة المشركين للعُزَّىٰ إنما كان بالتفات القلوب رغبةً إليها في حصول ما يرجونه ببركتها من نفعٍ أو دفعِ ضرٍّ، فصارت أوثانًا تُعبد من دون الله. وذلك من شدة ضلال أهل الكفر وفساد عقولهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، فصار عبادة القبور وعبادة الشجر والحجر هو شركُ المشركين، وقد جرىٰ ذلك وما هو أعظم منه في أواخر هذه الأُمَّة».

ومع الجهل يُزيِّن الشيطان للناس التبرك بالحجر والشجر؛ رجاءَ العافيةِ والرزق، ومنهم مَن يتغلظ شركُه بعبادتها.

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل -المعروف بأبي شامة المقدسي- في كتاب «الحوادث والبدع»: «ومن هذا القِسْم أيضًا: ما قد عمَّ به

---

(١) قرة عيون الموحدين (ص٧٤).

الابتلاء من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد، وسرج مواضع مخصوصة من كل بلد، يحكي لهم حاكٍ أنه رأىٰ في منامه بها أحدًا ممن شُهِر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك، ويحافظون عليه، مع تضييعهم فرائض الله وسننه، ويظنون أنهم يتقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلىٰ أن يَعظُم وقْعُ تلك الأماكن في قلوبهم فيعظِّمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم، وقضاء حوائجهم بالنذر لها، وهي من بين عيون، وشجر، وحائط، وحجر.

وفي مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة، كعوينة الحمىٰ خارج باب توما، والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق، سهَّل اللهُ قطْعَها واجتثاثها من أصلها! فما أشبهها بذات أنواط التي في الحديث»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «وقد كان بدمشق كثير من هذه الأنصاب، فيسَّر اللهُ سبحانه كسْرَها علىٰ يد شيخ الإسلام وحزب الله الموحدين، كالعامود المخلق، والنصب الذي كان بمسجد النارنج عند المصلىٰ يعبده الجُهَّال، والنصب الذي كان تحت الطاحون، الذي عند مقابر النصارىٰ، ينتابه الناس للتبرك به».

والنهي عن التبرك بالشجر عامٌّ لأي نوعٍ منه، فالحُكم واحد، فالشجر والحجر كلها مخلوقات لله، لا تنفع ولا تضر.

قال العَلَّامة أبو بكر محمد الطرطوشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٥٢٠هـ)(٣): «انظروا -رحمكم الله-، أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناسُ، ويعظِّمون من شأنها، ويَرجون البرء والشفاء من قبلها، وينوطون بها المسامير والخرق، فهي ذات أنواط فاقطعوها».

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٨٧).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٨٨).

(٣) الحوادث والبدع (ص١٠٥).

وحديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دال على أن التشبه بالكافرين من أسباب الشرك والكفر، فإن أولئك أرادوا تقليد الكافرين بتبركهم بالشجر، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك.

وبالتشبه بالكافرين أفسد عمرو بن لحي ملة إبراهيم في جزيرة العرب، فإنه ذهب إلى أرض البلقاء من الشام فوجدهم يعبدون الحجارة فتشبه بهم، فكان هو أول مَن نصب الأنصاب حول البيت(١).

وقد حكم النبي ﷺ بأن التبرك بالشجر تنديد، ومن اتخاذ آلهة مع الله -تعالى الله عما يشركون- حيث قال لمَن سأله أن يتبرك بذات أنواط: «**قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]».

والتبرك بالشجر والحجر لا يجلب نفعًا ولا يدفع ضرًّا، وليس مع الله مدبر في نفعِ الخَلق وضرهم، واعتقاد النفع والضر بالتبرك بالشجر والحجر شركٌ في الربوبية.

قال العَلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إنَّ الشركَ نوعان:

- شركٌ في ربوبيته؛ بأن يجعل لغيره معه تدبيرًا، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، فبيَّن سبحانه أنهم لا يملكون ذرة استقلالًا، ولا يشركونه في شيء من ذلك، ولا يعينونه على مُلكِه، ومَن لم يكن مالكًا ولا شريكًا ولا عَونًا؛ فقد انقطعت علاقته.

- وشركُ الألوهية؛ بأن يُدعى غيره دعاءَ عبادةٍ أو دعاءَ مسألةٍ، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]».

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٢٠٩).

(٢) منهاج التأسيس في الرد على داود بن جرجيس (ص١٥٩).

وأمَّا استلامُ الأحجارِ والأشجار عبادةً؛ فذلك من البدع الشركية، وبعضُ مَن يطوف بالقبور يستلمها عبادةً، والطوافُ بالقبور واستلام أحجارها شركٌ.

والذين سألوا النبي ﷺ التبرك بذات أنواط، لم يتبركوا بها بعد نهي النبي ﷺ لهم عن ذلك، وهذا يفيد أن الجاهل إذا انتهىٰ إلىٰ نصيحة العلماء ولم يأتِ بالشرك، أنه لا يَكفُر.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لا خلاف في أن الذين نهاهم النبي ﷺ لو لم يطيعوه، واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا، وهذا هو المطلوب.

ولكن هذه القصة تفيد: أن المسلم -بل العالِم- قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها، فتفيد: التعلُّم والتحرُّز، ومعرفة أنَّ قوْلَ الجاهل: (التوحيد فهمناه)؛ أنَّ هذا من أكبر الجهل ومكايد الشيطان.

وتفيد أيضًا: أن المسلم المجتهد إذا تكلم بكلامٍ كُفْرٍ، وهو لا يدري فنُبِّه علىٰ ذلك فتابَ من ساعته، أنه لا يَكْفُر كما فعل بنو إسرائيل، والذين سألوا النبي ﷺ.

وتفيد أيضًا: أنه لو لم يَكْفُر فإنه يُغلِظ عليه الكلام تغليظًا شديدًا، كما فعل رسول الله ﷺ».

وليس التمسح بأحجار البقاع والأماكن من العبادات المشروعة، فضلًا عن أن يعتقد البركة بالتمسح بها.

ولم يشرع الله استلام شيء من الحجر إلا الحجر الأسود والركن اليماني، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لم يأمر الله أن يُتخذ مقام نبيٍّ من الأنبياء مُصلًّىٰ إلا مقام إبراهيم بقوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

---

(١) كشف الشبهات (ص٦٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ١٣٥، ١٣٦).

كما أنه لم يأمر بالاستلام والتقبيل لحجرٍ من الحجارة إلا الحجر الأسود، ولا بالصلاة إلىٰ بيتٍ إلا البيت الحرام، ولا يجوز أن يقاس غير ذلك عليه باتفاق المسلمين، بل ذلك بمنزلة مَن جعل للناس حجًّا إلىٰ غير البيت العتيق، أو صيام شهر مفروض من غير صيام شهر رمضان، وأمثال ذلك.

فصخرةُ بيتِ المقدس لا يُسَنُّ استلامها ولا تقبيلها باتفاق المسلمين، بل ليس للصلاة عندها والدعاء خصوصية علىٰ سائر بقاع المسجد. والصلاة والدعاء في قِبلة المسجد الذي بناه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للمسلمين أفضل من الصلاة والدعاء عندها».

وتقبيلُ الحجر الأسود واستلامه، وكذلك استلام الركن اليماني عبادةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ واتباع للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس هو تبرُّكًا بهما.

قال العَلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «الحِكمةُ من تقبيل الحجر بيَّنها أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال: (إني أعلم أنكَ حجرٌ لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقبِّلُكَ ما قبَّلتكَ).

فالحكمةُ: التعبدُ لله عَزَّ وَجَلَّ باتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تقبيل هذا الحجر، وإلا فهو حجرٌ من الأحجار لا يضر ولا ينفع».

وقال العَلَّامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «إن ما يفعله بعض الناس من كونه يمسح الحجر بيده، ثم يمسح علىٰ وجهه وصدره تبركًا بذلك، إنه خطأ وضلال».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «التعلق بأستار الكعبة، أو إلصاق الصدر عليها، أو ما أشبه ذلك؛ بدعةٌ لا أصل له، فلمْ يكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يفعلون ذلك، وغاية ما ورد الالتزام فيما بين باب الكعبة والحجر الأسود

(١) فتاوىٰ نور علىٰ الدرب (٨/ ١٧٧).
(٢) فتاوىٰ نور علىٰ الدرب (٨/ ١٧٧).
(٣) فتاوىٰ نور علىٰ الدرب (٨/ ١٧٩).

فقط، وأما بقية جهات الكعبة وأركانها فإنه لم يَرِد عن النبي ﷺ وأصحابه أنهم كانوا يلتزمونها، أو يلصقون صدورهم بها».

وقال العَلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «التزام الكعبة المعروف ليس فيه التمسح بحال، إنما هو إلصاق الخد والصدر واليدين اشتياقًا تارة، وأسفًا على الفراق تارة، وذُلًّا لله تعالى، وخشيةً تارة أخرى».

والمبتدعة المشركون يضللون الناس بتسمية أنواع الشرك تبركًا؛ ترغيبًا في الشرك، ويجعلون ذلك طريقًا لنفي الشرك عن الأعمال الشركية، والأفعال إنما تُسمى شركًا إذا كانت حقائقها كذلك.

قال العَلَّامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الاعتبار بالحقائق والمعنى، لا باختلاف الألفاظ، فإذا قالوا: ما نعبدهم وإنما نتبرك بهم، لم ينفعهم ذلك، ما داموا فعلوا فعْلَ المشركين من قبلهم، وإن لم يُسموا ذلك عبادةً، بل سموه توسلًا أو تبركًا.

فالتعلق بغير الله، ودعاء الأموات والأنبياء والصالحين، والذبح لهم، أو السجود لهم، أو الاستعانة بهم، كلُّ ذلك عبادة، ولو سموها خدمة، أو سموها غير ذلك؛ لأن العِبرة بالحقائق، لا بالأسماء -كما تقدم-.

ومن هذا القبيل قول الجماعة الذين خرجوا مع النبي ﷺ إلى حنين لما رأوا المشركين يُعلِّقون أسلحتهم على سدرة، قالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «**الله أكبر! قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾** [الأعراف: ١٣٨]»، فجعل المقالة واحدة مع أن هؤلاء قالوا: اجعل لنا ذات أنواط، فجعل قولهم مثل قول بني إسرائيل؛ لأن العِبرة بالمعنى والحقائق لا بالألفاظ».

---

(١) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم (٥/ ١٢).
(٢) الفتاوى البازية (٣/ ١٣٩).

فمَن أراد البركة فليطلبها من الله، فهو المُتبارَك، والبركة كلها منه، خَلْقًا وإمدادًا وإحسانًا، قال تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن الخير كله بيده، وكل الخير منه، وصفاته كلها صفات كمال، وأفعاله كلها حكمة، ورحمة، ومصلحة، وخيرات».

وبتحقيق التوحيد يدرك الناسُ البركةَ والخير وأسباب الرزق والسعادة والنصر والحفظ، قال تعالىٰ: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لربه عبادةً واستعانة، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وفي قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وفي قوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [الشورىٰ: ١٠]، وفي قوله: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧]».

والمسلمون يدركون الخيرات والبركة، بالإيمان بالله والعمل الصالح؛ فبذلك تقوم أمورهم، ويصلح معاشهم، ويكفيهم اللهُ الشرور والبلايا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

والكفر والشرك والبدع والذنوب شرٌّ، وهي سببُ نقصِ البركة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [النساء: ٤٦]، وشؤمُ الكفار محيطٌ بهم، قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

---

(١) جلاء الأفهام (ص٤٣٣).

(٢) الوصية الصغرىٰ (ص١٣٧)، بشرح مُقيِّده.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها».

والله سبحانه يُبارِك عِبادَه إذا اتبعوا وحيه المُبارَك، قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

قال العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «وصَفَه بوصفين جليلين:

كونه ذِكرًا: يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذِكرًا، لأنه يُذكِّر ما ركزه اللهُ في العقول والفِطَر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلًا، والنهي عن القبيح عقلًا.

وكونه مُبارَكًا: يقتضي كثرة خيراته ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية، أو أخروية، فإنها بسببه، وأثرٌ عن العمل به، فإذا كان ذِكرًا مباركًا وجب تلقيه بالقبول والانقياد والتسليم، وشُكْر الله علىٰ هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه».

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام بارك الله فيهم بما أوتوه من الوحي، قال المسيح ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «قال غير واحد من السلف: مُعلِّمًا للخير أينما كنت، وهذا جُزْء الْمُسَمّىٰ.

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص١٠٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٥٥٢).
(٣) جلاء الأفهام (ص٢٧٣).

فالمبارك كثير الخير في نفسه الذي يحصله لغيره تعليمًا، وإقدارًا، ونصحًا، وإرادة، واجتهادًا، ولهذا يكون العبد مباركًا؛ لأن الله بارَكَ فيه وجعله كذلك، والله تعالىٰ مُتبارَك؛ لأن البركة كلها منه، فعبده مُبارَك، وهو المُتبارَك: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، وذلك أنه حيث كان دعا إلىٰ عبادة الله وحده لا شريكَ له، ونزّه جنابَه عن النقص والعَيب».

ومَن أراد أن يكون مُبارَكًا فليتبع المرسلين، وليأخذ بميراثهم، قال النبي ﷺ: «إنّ الله أمرَ المؤمنين بما أمرَ به المُرسَلِين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]»، رواه مسلم.

والكافرون والمشركون أنواعٌ في جهلهم وضلالهم وظلمهم، فمنهم مَن يطلب البركة ممن لا يملكها كالذين يتبركون بالحجر والشجر، ومنهم من غالط في أسباب البركة والشؤم، كأعداء المرسلين وأتباعهم المؤمنين.

قال الله تعالىٰ عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «يعني: إذا أصابهم الخِصْب والسَّعَة والعافية قالوا: لنا هذه، أي: نحن الجديرون الحقيقيون به، ونحن أهله، وإن أصابهم بلاء وضيق وقحط ونحوه قالوا: هذه بسبب موسىٰ وأصحابه أصبنا بشؤمهم، ونفض علينا غبارهم، كما يقوله المُتطيِّر لمَن يتطير به، فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده.

---

(١) قصص الأنبياء (ص٥٤٤).
(٢) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٤٧٧).

كما قال تعالىٰ عن أعداء رسوله ﷺ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨]».

وإنه من الضلال وسفه العقول طلبُ البركةِ في الشرك، والأماكن إنما بارك الله فيها بما يكون فيها من أسباب البركة، من عبودية الله وذِكره وطاعته، لذلك كانت المساجد أحبَّ الأماكن إلىٰ الله، وأبغضها إلىٰ الله الأسواق؛ لغفلة الناس، وقلة ذِكرهم.

والأرض المقدسة بارك الله فيها؛ لكثرة مَن بُعث فيها من رسله، فنور النبوة والدعوة إلىٰ الله وتوحيده وعبوديته هي التي كانت سببًا في بركة الديار ومَن فيها.

وسادات الأولياء وأفضل الأتقياء النبيون عليهم الصلاة والسلام حَثُّوا الناس علىٰ الأسباب التي يدركون بها البركة، قال خير البرية محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، فباتباع الوحي يدرك الناسُ البركةَ.

فالبركة من اللهِ، والعبدُ إنما يدركها بعبودية الله وحده لا شريك له، واتباع أمره، واجتناب نهيه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كل شيء لا يكون لله، فبركته منزوعة، فإن الرب هو الذي تبارك وحده، والبركة كلها منه، وكل ما نُسب إليه مُبارَك. فكلامه مبارك، ورسوله مبارك، وعبده المؤمن النافع لخَلْقِه مبارك، وبيته الحرام مبارك، وكنانته من أرضه -وهي الشام- أرض البركة، وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه.

فلا متبارك إلا هو وحده، ولا مبارك إلا ما نُسب إليه، أعني: إلىٰ محبته وألوهيته ورضاه، وإلا فالكون كله منسوب إلىٰ ربوبيته وخَلقِه.

وكل ما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال، فلا بركة فيه ولا خير فيه، وكل ما كان قريبًا منه من ذلك، ففيه من البركة علىٰ حسب قربه منه».

---

(١) الجواب الكافي (ص٢٠٢، ٢٠٣).

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ النَّجْمِ**: آلهة المشركين لا كمالَ لها، ولا شأن.

٢) **مَعْرِفَةُ صُورَةِ الْأَمْرِ الَّذِي طَلَبُوا**: التبرك بالسدرة تشبهًا بالمشركين.

٣) **كَوْنُهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا**: استجابةً لنهي النبي ﷺ لهم.

٤) **كَوْنُهُمْ قَصَدُوا التَّقَرُّبَ إِلَىٰ اللهِ بِذَلِكَ؛ لِظَنِّهِمْ أَنَّهُ يُحِبُّهُ**: والله لا يُتقرب إليه إلا بما شرع.

٥) **أَنَّهُمْ إِذَا جَهِلُوا هَذَا؛ فَغَيْرُهُمْ أَوْلَىٰ بِالْجَهْلِ**: فالواجب: تعلُّم التوحيد، ومحاذرة ما يضاده.

٦) **أَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالْوَعْدِ بِالْمَغْفِرَةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ**: ومن حسناتهم: انتهاؤهم عن التبرك بالشجر.

٧) **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَعْذُرْهُمْ؛ بَلْ رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ**: «اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ، لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»؛ **فَغَلَّظَ الْأَمْرَ بِهَذِهِ الثَّلَاثِ**: وكون النبي ﷺ بينهم هو الحُجَّة عليهم في تلقي الدِّين عنه، وهكذا مِن بعدهم الوحي الذي أدَّاه لنا حُجَّة علينا، فالأخذ به هداية، لا عذر في الإعراض عنه.

٨) **الْأَمْرُ الْكَبِيرُ -وَهُوَ الْمَقْصُودُ- أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ طَلَبَهُمْ كَطَلَب بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا قَالُوا لِمُوسَىٰ**: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ [الأعراف: ١٣٨]: لأن الشرك من وسوسة الشيطان، فيضل به من بعد بنحو ما أضل به من قبل.

٩) **أَنَّ نَفْيَ هَذَا مِنْ مَعْنَىٰ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، مَعَ دِقَّتِهِ وَخَفَائِهِ عَلَىٰ أُولَئِكَ**: فالتوحيد نفيٌ للشرك، وإنكار له، وإقبال علىٰ الله والميل عما سواه.

١٠) **أَنَّهُ حَلَفَ عَلَىٰ الْفُتْيَا، وَهُوَ لَا يَحْلِفُ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ**: فيجوز توكيد العلم بالحلف بالله.

١١) **أَنَّ الشِّرْكَ فِيهِ أَكْبَرُ وَأَصْغَرُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْتَدُّوا بِهَذَا**: الشرك الأصغر لا يُخرِج من الملة، ومَن تاب من أنواع الشرك غُفر له.

١٢) **قَوْلُهُمْ**: «وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْر»؛ **فِيهِ أَنَّ غَيْرَهُمْ لَا يَجْهَلُ ذَلِكَ**: وهم السابقون الأولون من سادات الصحابة.

١٣) **التَّكْبِيرُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ، خِلَافًا لِمَنْ كَرِهَهُ**: حيث كبَّر النبي ﷺ إجلالًا لله، وتعظيمًا له عن الشرك، فالتكبير تعظيم لله بالتوحيد.

١٤) **سَدُّ الذَّرَائِعِ**: حيث زجر النبي ﷺ عن التشبه بأهل الكتاب.

١٥) **النَّهْيُ عَنْ التَّشَبُّهِ بِأَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ**: حيث نهىٰ النبي ﷺ عن التشبه بهم في تبركهم بالسدرة.

١٦) **الْغَضَبُ عِنْدَ التَّعْلِيمِ**: حيث يكون في ذلك مصلحةُ استرعاءِ انتباهِ المتعلمين، وتحذيرهم وتوجيههم.

١٧) **الْقَاعِدَةُ الْكُلِّيَّةُ؛ لِقَوْلِهِ: «إِنَّهَا السُّنَنُ»**: أصل الضلال في مخالفة الصراط المستقيم والتشبه بالمغضوب عليهم والضالين.

١٨) **أَنَّ هَذَا عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ؛ لِكَوْنِهِ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ**: حيث تشبَّه أقوامٌ من الأُمَّة بالكافرين.

١٩) **أَنَّ مَا ذَمَّ اللهُ بِهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ فِي الْقُرْآنِ؛ أَنَّهُ لَنَا**: وَحْيُ اللهِ خِطابٌ للأُمَّة إلىٰ يوم القيامة.

٢٠) **أَنَّهُ مُتَقَرِّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْعِبَادَاتِ مَبْنَاهَا عَلَى الْأَمْرِ، فَصَارَ فِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ مَسَائِلِ الْقَبْرِ. أَمَّا «مَنْ رَبُّكَ؟» فَوَاضِحٌ، وَأَمَّا «مَنْ نَبِيُّكَ؟» فَمِنْ إِخْبَارِهِ بِأَنْبَاءِ الْغَيْبِ، وَأَمَّا «مَا دِينُكَ؟» فَمِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ﴾ إِلَىٰ آخِرِهِ**: إفراد الله وحده بالتوحيد، والنبي ﷺ بالاتباع ينتظم به أمرُ الدِّين.

٢١) **أَنَّ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَذْمُومَةٌ كَسُنَّةِ الْمُشْرِكِينَ**: الصراط المستقيم هداية مِن كُفرِ الضالين والمغضوب عليهم.

٢٢) **أَنَّ الْمُنْتَقِلَ مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي اعْتَادَهُ قَلْبُهُ لا يَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ بَقِيَّةٌ مِنْ تِلْكَ الْعَادَةِ؛ لِقَوْلِهِ: «وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ»**: فالواجب علىٰ المسلم تخليص قلبه وإراداته وأعماله من شوائب الشرك.

الْبَـابُ التَّـاسِعُ

بَـابُ مَا جَـاءَ فِي الـذَّبْحِ لِغَـيْرِ اللهِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

- وَقَوْلِهِ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

- عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

- وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ**»، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

- قَالَ: «**مَرَّ رَجُلَانِ عَلَىٰ قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ، لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّىٰ يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ، قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا؛ فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا لِلآخَرِ: قَرِّبْ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ.

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) تَفْسِيرُ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢].

٢) تَفْسِيرُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

٣) الْبَدَاءَةُ بِلَعْنَةِ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ.

٤) لَعْنُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَمِنْهُ أَنْ تَلْعَنَ وَالِدَي الرَّجُلِ فَيَلْعَنَ وَالِدَيْكَ.

٥) لَعْنُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا، وَهُوَ الرَّجُلُ يُحْدِثُ شَيْئًا يَجِبُ فِيهِ حَقُّ اللهِ؛ فَيَلْتَجِئُ إِلَىٰ مَنْ يُجِيرُهُ مِنْ ذَلِكَ.

٦) لَعْنُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْمَرَاسِيمُ الَّتِي تُفَرِّقُ بَيْنَ حَقِّكَ وَحَقِّ جَارِكَ، فَتُغَيِّرُهَا بِتَقْدِيمٍ أَوْ تَأْخِيرٍ.

٧) الْفَرْقُ بَيْنَ لَعْنِ الْمُعَيَّنِ وَلَعْنِ أَهْلِ الْمَعَاصِي عَلَىٰ سَبِيلِ الْعُمُومِ.

٨) هَذِهِ الْقِصَّةُ الْعَظِيمَةُ، وَهِيَ قِصَّةُ الذُّبَابِ.

٩) كَوْنُهُ دَخَلَ النَّارَ بِسَبَبِ ذَلِكَ الذُّبَابِ الَّذِي لَمْ يَقْصِدْهُ، بَلْ فَعَلَهُ تَخَلُّصًا مِنْ شَرِّهِمْ.

١٠) مَعْرِفَةُ قَدْرِ الشِّرْكِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ؛ كَيْفَ صَبَرَ ذَلِكَ عَلَىٰ الْقَتْلِ، وَلَمْ يُوَافِقْهُمْ عَلَىٰ طلبتهم، مَعَ كَوْنِهِمْ لَمْ يَطْلُبُوا إِلَّا الْعَمَلَ الظَّاهِرَ.

١١) أَنَّ الَّذِي دَخَلَ النَّارَ مُسْلِمٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَافِرًا؛ لَمْ يَقُلْ: «دَخَلَ النَّارَ فِي ذُبَابٍ».

١٢) فِيهِ شَاهِدٌ لِلْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ».

١٣) مَعْرِفَةُ أَنَّ عَمَلَ الْقَلْبِ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ، حَتَّىٰ عِنْدَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ.

الشَّرح

الذبح والنحر من أجل الطاعات؛ لذلك شُرع في جميع الملل، قال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، وقَرَنَهُ اللهُ مع الصلاة، قال تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، والسر في ذلك: تحقيق التوحيد الذي بُعثت به كل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإقامة ذِكر الله.

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «أي: ولكل أُمَّة من الأمم السالفة جعلنا منسكًا، أي: فاستبقوا إلىٰ الخيرات، وتسارعوا إليها، ولننظر أيكم أحسن عملًا.

والحكمة في جعلِ الله لكل أُمَّة منسكًا؛ لإقامة ذِكره، والالتفات لشكره، ولهذا قال: ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الحج: ٣٤].

وإن اختلفت أجناس الشرائع، فكلها متفقة علىٰ هذا الأصل، وهو ألوهية الله، وإفراده بالعبودية، وترْك الشرك به، ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾، أي: انقادوا واستسلموا له، لا لغيره، فإن الإسلام له طريق إلىٰ الوصول إلىٰ دار السلام، ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾، بخير الدنيا والآخرة، والمُخبِت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده».

وخيرُ أنواعِ الذبح الأضحية، وهو من شعائر الحنيفية، فإن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ رأىٰ في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورؤيا الأنبياء وَحْيٌ من الله، فانقاد الخليل وابنه لأمر الله، وفدىٰ اللهُ إسماعيلَ بذبحٍ عظيم، ليكون نُسُكًا وسُنَّةً للمسلمين إلىٰ يوم القيامة، وليكون العزم علىٰ الطاعات عبادةً يُثاب عليها المسلم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥١٠).

قال تعالىٰ: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: صار بدله ذبحٌ من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم، فكان عظيمًا من جهة أنه كان فداءً لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قربانًا وسُنَّة إلىٰ يوم القيامة».

ونحرُ بهيمة الأنعام المقصود منه: برُّ القلوب؛ بالتأله لله بأداء هذه العبادة تقرُّبًا لله وحده، لا شريك له، وبذل نفائس الأموال والأنعام طاعة لله، وإطعام الطعام من بهيمة الأنعام، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنّ رجلًا سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «**تُطعِم الطعام، وتقرأ السلام علىٰ مَن عرفتَ ومَن لمْ تَعرِف**»، رواه البخاري.

وقال تعالىٰ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسغي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قوله تعالىٰ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾، أي: لن يصل إليه ﴿لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، أي: يرتفع إليه التقوىٰ منكم والأعمال الصالحة التي أُرِيد بها وجه الله تعالىٰ».

ومن أعظم التقوىٰ منكم في نحرِ الأضاحي موافقة جماعة المسلمين في إظهار آكد شعائر الإسلام، ملة إبراهيم في أمصار المسلمين، قال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ موقوفًا عليه: «مَن وجدَ سَعةً ولمْ يضحِّ فلا يقربنَّ مُصلَّانا».

ويوم النحر ظرف لشعائر وعبادات الحنيفية، خصوصًا نحْر الهدي والأضاحي؛ فلذلك جعله اللهُ خيرَ أيامِ السَّنة، فعن عبد الله بن قُرْط رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أعظم الأيام عند الله يوم النحر**»، رواه أحمد وأبو داود.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٤٨).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٦٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فضلِ فعلِ العبادات في وقتها: «قد قالوا: إنّ الحج كل عام فرضٌ علىٰ الكفاية؛ لأنَّه من شعائر الإسلام، والضحايا في عيد النحر كذلك، بل هذه تُفعل في كل بلد هي والصلاة، فيظهر بها من: عبادة الله، وذِكره، والذبح له، والنسك له ما يظهر بالحج، كما يظهر ذِكرُ الله بالتكبير في الأعياد».

والذبح عبادة، فقصدُ اللهِ بالذبح وذِكر اسم الله عند النحر توحيدٌ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وقال تعالىٰ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

والذبح لغير الله شركٌ أكبر، وهو أنواع(١):

١) أن يَذْكُرَ اسمًا غير الله عند الذبح.

٢) أن يقصدَ غير الله بالذبح، وإنْ لم يَذْكُر اسمه.

٣) أن يذبحَ عند استقبال السلطان تقرُّبًا إليه ، فهذا شركٌ.

أمَّا إن كان الذبح لله إكرامًا للضيف، وقُصد به وجهُ الله مما أمر به من إكرام الضيف، وذُكر اسمُ الله عليه، فهذا مشروع(٢).

ومن الذبح لغير الله: الذبح عند القبور، فقد «**نهىٰ النبيُّ ﷺ عن العقر عند القبر**»، رواه أبو داود، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «لأنّه يُشبِه ما يُذبح علىٰ النُّصب».

وقال شيخ الإسلام(٤): «كان المشركون يذبحون للقبور، ويقربون لها

---

(١) فتح المجيد (ص١٢٧ – ١٢٩).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١/ ٤٢٤).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٢٦/ ٣٠٦).

(٤) مجموع الفتاوىٰ (٢٦/ ٣٠٦).

القرابين. وكانوا في الجاهلية إذا مات لهم عظيم ذبحوا عند قبره الخيل والإبل وغير ذلك؛ تعظيمًا للميّت، فنهى النبي ﷺ عن ذلك كله».

ونبّه شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى تعاظُمِ شركِ مَن ذبح مستعينًا بغير الله، قاصدًا غيره، فهذا اجتمع فيه شركٌ في الاستعانة وشركٌ في العبادة(١).

فالذبح لا بُدَّ أن يكون لله، وأن يُستعان به وحده، لا شريك له، في مكانٍ لا يُذبح فيه إلا لله، ويُذكر اسمُ الله عليه.

وحديث علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيه التحذير من الكبائر الموجبة للّعن، وأغلظها الشرك، ومن أنواعه الذبح لغير الله.

فالشرك سببٌ للطرد والإبعاد من رحمة الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال النبي ﷺ: «**لعنَ اللهُ اليهودَ والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، متفق عليه من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

ومن الكبائر الموجبة للعنة الله: التسبب في سبِّ الوالدين، فالواجب: برُّ الوالدين وصيانتهما عن أسباب سبِّ السفهاء.

وإيواءُ المُحْدِث من أسباب لعنة الله؛ لأنه من أغلظ أنواع التعاون على الإثم والعدوان.

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنّ المُحْدِث أعمُّ من أن يكون بجناية أو ببدعة في الدِّين، بل المحدث بالبدعة في الدين شرٌّ من المحدث بالجناية، فإيواؤه أعظم إثمًا».

وتغييرُ حدودِ الأَرَضِين، والعدوان على أملاك الناس وعقاراتهم من أسباب لعنة الله، ومَنِ اقتطعَ شبرًا من أرضٍ بغير حقٍّ طوَّقه اللهُ من سبعِ أَرَضِين يوم القيامة.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٤٢٢، ٤٢٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١/ ٤٢٥).

وحديث طارق بن شهاب فيمن قرَّب ذبابًا فدخل النار، هذا قَصَدَ التقرب لغير الله؛ فمِن أجْلِ ذلك دخل النار، فهذا لا يشمله الاستثناء في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. ومَن تقرَّب لغير الله -ولو بحقير- فقد وقع في الشرك.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «معلوم أن الإنسان لا يُكره إلا علىٰ الكلام أو الفعل، وأمَّا عقيدةُ القلب فلا يُكرَه عليها أحد».

والرُّخصة بقول كلمة الكفر حال الإكراه بالقتل مع اطمئنان القلب بالإيمان، هذا حيث لا يكون ذلك سببًا لظهور الكفر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الذي يُكره علىٰ الكفر فيصبر حتىٰ يُقتل ولا يتكلم بالكفر، فإن هذا بمنزلة الذي يقاتله العدو حتىٰ يُقتل ولا يستأسر لهم، والذي يتكلم بالكفر بلسانه وهو موقن من قلبه بالإيمان بمنزلة المستأسر للعدو. فإن كان هو الآمر الناهي ابتداءً كان بمنزلة المجاهد ابتداءً.

فإذا كان الأول أعز الإيمان وأذل الكفر، كان هو الأفضل.

وقد يكون واجبًا إذا أفضىٰ تركه إلىٰ زوال الإيمان من القلوب، وغلبة الكفر عليها وهي الفتنة، فإن الفتنة أشد من القتل، فإذا كان بترك القتل يحصل من الكفر ما لا يحصل بالقتل، وبالقتل يحصل من الإيمان ما لا يحصل بتركه، ترجح القتل واجبًا تارةً ومُستحبًّا أخرىٰ، وكثيرًا ما يكون ذلك تخويفًا به، فيجب الصبر علىٰ ذلك».

(١) كشف الشبهات (ص٧٣).

(٢) جامع المسائل، المجموعة الخامسة (ص٣٢٩).

شــرْحُ المســائل:

١) **تَفْسِيرُ:** ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢]: وهو تجريد العبادات كلها لله.

٢) **تَفْسِيرُ:** ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]: وجوب إفراد الله بالعبودية، خصوصًا عبادتي الصلاة والنحر.

٣) **الْبَدَاءَةُ بِلَعْنَةِ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ:** لأنها أغلط الأربع، وهي شركٌ.

٤) **لَعْنُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَمِنْهُ أَنْ تَلْعَنَ وَالِدَيِ الرَّجُلِ فَيَلْعَنَ وَالِدَيْكَ:** بِرُّ الوالدين واجبٌ، ومِن بِرِّهما: عدم تعريضهما لسبِّ السفهاء.

٥) **لَعْنُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا، وَهُوَ الرَّجُلُ يُحْدِثُ شَيْئًا يَجِبُ فِيهِ حَقُّ اللهِ؛ فَيَلْتَجِئُ إِلَىٰ مَنْ يُجِيرُهُ مِنْ ذَلِكَ:** وهذا نوعٌ من أفراد ما نُهي عنه من التعاون علىٰ الإثم والعدوان.

٦) **لَعْنُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْمَرَاسِيمُ الَّتِي تُفَرِّقُ بَيْنَ حَقِّكَ وَحَقِّ جَارِكَ، فَتُغَيِّرُهَا بِتَقْدِيمٍ أَوْ تَأْخِيرٍ:** فاقتطاع أراضي الناس بغير حق من الكبائر الموجبة للعنة الله، خصوصًا أراضي الجار.

٧) **الْفَرْقُ بَيْنَ لَعْنِ الْمُعَيَّنِ وَلَعْنِ أَهْلِ الْمَعَاصِي عَلَىٰ سَبِيلِ الْعُمُومِ:** لعْنُ الموصوف جائزٌ حيث وردَ به النص، والتعيين يَحْذره المسلمُ؛ لأنه قد يتخلف موجبه في حق المُعيَّن؛ لتوبةٍ أو غيره.

٨) **هَذِهِ الْقِصَّةُ الْعَظِيمَةُ، وَهِيَ قِصَّةُ الذُّبَابِ:** فيها بيانُ خطرِ الشرك، وخطر دعاته الذين يأمرون به.

٩) **كَوْنُهُ دَخَلَ النَّارَ بِسَبَبِ ذَلِكَ الذُّبَابِ الَّذِي لَمْ يَقْصِدْهُ، بَلْ فَعَلَهُ تَخَلُّصًا مِنْ شَرِّهِمْ:** فإرادات القلب وعزماته عليها المناط في قصدِ الشرك أو كراهته ومحاذرته.

١٠) **مَعْرِفَةُ قَدْرِ الشِّرْكِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ؛ كَيْفَ صَبَرَ ذَلِكَ عَلَىٰ الْقَتْلِ، وَلَمْ يُوَافِقْهُمْ عَلَىٰ طلبتهم، مَعَ كَوْنِهِمْ لَمْ يَطْلُبُوا إِلَّا الْعَمَلَ الظَّاهِرَ:** فالموحدون تعظيمهم لله يمنع قلوبهم من قصدِ غيره بالعبادة والتقرب.

١١) **أَنَّ الَّذِي دَخَلَ النَّارَ مُسْلِمٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَافِرًا؛ لَمْ يَقُلْ:** «دَخَلَ النَّارَ فِي ذُبَابٍ»: حقائق ما في القلوب من التوحيد وكراهيتها للشرك لا يَعرِفه إلا الله، ويجزي عباده بما يستحقونه.

١٢) **فِيهِ شَاهِدٌ لِلْحَدِيثِ الصَّحِيحِ:** «اَلْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»: فواجب المسلم: تحقيق التوحيد والتزام التقوىٰ دهره كله، وموافاة الله بأسباب رضاه.

١٣) **مَعْرِفَةُ أَنَّ عَمَلَ الْقَلْبِ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ، حَتَّىٰ عِنْدَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ:** فاملأ قلبكَ من تعظيم الله، وكراهية الشرك.

۞ ۞ ۞

الْبَـابُ الْعَاشِـــرُ

بَـــابٌ: لَا يُـذْبَحُ للهِ بِمَكَـانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَـيْرِ اللهِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة:١٠٨].

◊ عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟**»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «**فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**»، قَالُوا: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَىٰ شَرْطِهِمَا.

فِيـهِ مَسَــائِلُ:

١) تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة:١٠٨].

٢) أَنَّ الْمَعْصِيَةَ قَدْ تُؤَثِّرُ فِي الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ الطَّاعَةُ.

٣) رَدُّ الْمَسْأَلَةِ الْمُشْكِلَةِ إِلَىٰ الْمَسْأَلَةِ الْبَيِّنَةِ؛ لِيَزُولَ الْإِشْكَالُ.

٤) اسْتِفْصَالُ الْمُفْتِي إِذَا احْتَاجَ إِلَىٰ ذَلِكَ.

٥) أَنَّ تَخْصِيصَ الْبُقْعَةِ بِالنَّذْرِ لَا بَأْسَ بِهِ؛ إِذَا خَلَا مِنَ الْمَوَانِعِ.

٦) الْمَنْعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ.

٧) الْمَنْعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ، وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ.

٨) أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِمَا نَذَرَ فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ؛ لِأَنَّهُ نَذْرُ مَعْصِيَةٍ.

٩) الْحَذَرُ مِنْ مُشَابَهَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَعْيَادِهِمْ، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ.

١٠) لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةٍ.

١١) لَا نَذْرَ لِابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ.

الشَّرح

بعد أن شرحَ شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب السابق حُكْمَ الذبح لغير الله، أكملَ شرْحَ أحكامه في هذا الباب، ليبيّنَ حُكْمَ الذبح في مشاعر وأماكن الشرك.

والذبحُ لله من أَجَلِّ العبادات والطاعات، ذَكَرَها اللهُ تعظيمًا لشأنها، مقرونةً بالصلاة؛ لأَنَّها من أعظم شعائر الملَّة، فقال تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [الكوثر:٢].

ولا بُدَّ أن يُقصَد اللهُ بالذبح، وأن يُذكَر اسمُ الله علىٰ ما أُحِل ذبحه، وأن يذبح لله في منحر التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

قال العَلَّامة المجدّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ما أحسن اتباع هذا الباب بالذي قبله، فالذي قبله من المقاصد وهذا من الوسائل، ذاك من باب الشرك الأكبر، وهذا من وسائل الشرك القريبة.

فإنَّ المكان الذي يذبح فيه المشركون لآلهتهم تقرُّبًا إليها وشركًا بالله، قد صار مشعرًا من مشاعر الشرك، فإذا ذبح فيه المسلم ذبيحةً ولو قصدها لله فقد تشبَّه

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد (صـ ٤٨).

بالمشركين وشاركهم في مشعرهم، والموافقة الظاهرة تدعو إلىٰ الموافقة الباطنة والميل إليهم.

ومن هذا السببِ نهىٰ الشارعُ عن مشابهة الكفَّار في شعائرهم وأعيادهم وهيئاتهم ولباسهم وجميع ما يُختص بهم؛ إبعادًا للمسلمين عن الموافقة لهم في الظاهر التي هي وسيلة قريبة للميل والركون إليهم، حتَّىٰ إنَّه نهىٰ عن الصلاة النافلة في أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله؛ خوفًا من التشبُّه المحذور».

فالموحدون يخلصون عباداتهم لله وحده، فلا يذبحون علىٰ النُّصب، ولا في أماكن الأوثان والأعياد الجاهلية والبدعية، فحقُّ الله علىٰ العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الله تعالىٰ مستحقٌّ أن نعبده، ولا نشرك به شيئًا، وهذا أصلُ التوحيد الذي بُعثت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأُنزلَت به الكُتُب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]».

والعبادات ومن جملتها الذبح كلها تتضمن إخلاص الدين لله، فيجب علىٰ كل مسلمٍ أن ينحر لله في الأماكن التي يُذبَح فيها لله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الحديث وإن كان في النذر فيشمل كل عبادة لله؛ إذ لا فَرْق، فلا تُفعل في هذه الأماكن الخبيثة التي اتُّخِذَت محلًّا لِمَا يُسخِط الله تعالىٰ».

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (صـ ٥٥٣).
(٢) قرَّة عيون الموحدين (صـ ٨٣، ٨٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ(١): «العبادات التي شرعها الله، كلها تتضمن إخلاص الدِّين كله لله؛ تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]».

وقد حرّم الله سبحانه ما ذُبح على النصب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ(٢): «وهي كلُّ ما يُنصَب ليُعبَد من دون الله تعالىٰ».

والذبح للأنصاب -أو على الأنصاب- شركٌ أكبر؛ لأنَّه صرفُ عبادةٍ لغير الله، وتعظيمٌ للأصنام والأنداد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ(٣): «معلومٌ أنَّ حُكْمَ ذلك لا يختلف بحضور الوثن وغيبته، فإنَّما حَرُم؛ لأنَّه قُصِد بذبحه عبادةُ الوثن وتعظيمه».

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣]، قال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ(٤): «كانت حجارة حول الكعبة يذبح لها أهلُ الجاهلية، ويُبدِّلونها إذا شاءوا بحجارة أعجب إليهم منها».

وقال قتادة رَحِمَهُ اللهُ(٥): «النُّصب حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها، ويذبحون لها، فنهىٰ اللهُ عن ذلك».

ومشاعر الشرك لا تَجُوزُ عبادةُ اللهِ فيها، قال تعالىٰ: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾ [التوبة:١٠٨].

فأماكنُ عبادةِ غير الله سواء كان مُصلًّىٰ أو منحرًا فهي كمسجد الضِّرار، لا تَجُوز العبادة فيها.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (صـ ٥٥٦).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (صـ ٣٦٥).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (صـ ٣٦٧).
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (صـ ١٧١).
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم (صـ ١٧١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ما أشبه هذه الأمكنة بمسجد الضرار، الذي أُسس علىٰ شفا جُرفٍ هار فانهار به في نارِ جهنم، فإنّ ذلك لما بُني ضرارًا وكُفرًا وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمَن حارَبَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ورسولَهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قبل، نهىٰ الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة فيه، وأمَرَ بهدمه.

وهذه المشاهد إنّما وُضعَت مضاهاة لبيوت الله، وتعظيمًا لِمَا لَمْ يُعظِّمه الله، وعكوفًا علىٰ أشياء لا تنفع ولا تضر، وصدًّا للخَلْق عن سبيل الله، وهي عبادته وحده لا شريك له بما شرعه علىٰ لسان رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسليمًا».

فالموحدون كما يُصلُّون لله في البيوت التي قد أَذِنَ فيها أن يُذكَر فيها اسمه، فكذلك ينحرون في الأماكن التي أَذِنَ أن يُنسَكَ فيها بذِكر اسم الله.

فالعبادات تُقام حيث شرعَ اللهُ فِعلَها، وعموم أماكن الشرك والبدع والمعاصي تجب مجانبتُها، قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «العلة المانعة مخرج الخصوص والنهي عام، وما كان مثله من الأمكنة مما أُعِد للمعصية وخُص بفعلها فيه، فإنَّه يُعطىٰ حُكْمَه؛ لأنّ المعصية صيَّرته محلًّا خبيثًا، وأثَّرت فيه بالنهي عن العبادة فيه».

وقال ثابت بن الضحاك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟**»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «**فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيْدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**»، قَالُوا: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ**».

فالنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استفصل من السائل قبل إفتائه؛ لأنّ نذْرَ الذبح لله طاعة، فسأله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الموانع التي تمنع الوفاء بالنذر؛ لأنّ السائل عيَّن في نَذْرِه مكان النحر

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (صـ٤٣٠).
(٢) قرَّة عيون الموحدين (صـ٨٢).

(بوانة)، وعندما تبيّن للنبي ﷺ أنَّ المنحر ليس من مشاعر الشرك ولا أعياد الكافرين، أمره بالوفاء بنذره؛ لأنَّه نذْرَ طاعةٍ.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللهُ(١): «الوثن: كلُّ ما عُبد من دون الله، من شجر أو حجر، سواء نُحِت أو لم يُنحَت.

والصنم يختص بما صنعه الآدمي».

وقال العَلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللهُ(٢): «يُستفاد من الحديث: أنّه لا يُذبَح بمكان يُذبَح فيه لغير الله، وهو ما ساقه المؤلف من أجله، والحكمة في ذلك ما يلي:

الأول: أنَّه يؤدي إلىٰ التشبه بالكُفَّار.

الثاني: أنَّه يؤدي إلىٰ الاغترار بهذا الفعل؛ لأنَّ مَن رآك تذبح بمكان يَذْبَح فيه المشركون؛ ظنَّ أنَّ فعْلَ المشركين جائزٌ.

الثالث: أنَّ هؤلاء المشركين سوف يقوون علىٰ فِعلهم إذا رأوا مَن يفعل مثلهم، ولا شك أنَّ تقوية المشركين من الأمور المحظورة، وإغاظتهم من الأعمال الصالحة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة:١٢٠]».

وإنَّما نهىٰ النبي ﷺ عن الذبح في منحر الأوثان والمشركين؛ خشية مشابهتهم، ولأنّ ذلك من تعظيم أوثان الشرك، وإحيائها.

وواجِبُ المُسلم: الكفرُ بما يُعبَد من دون الله، واجتناب أماكن الشرك، وإزالتها واجبٌ مع القدرة.

---

(١) شرح كتاب التوحيد (صـ٢٣٠)، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ، المجلد التاسع.
(٢) شرح كتاب التوحيد (صـ ٢٣٤)،

وأعيادُ المشركين مواسمُ شركٍ وبدعٍ، وشرعٌ مُبدَّل مُحرَّف، وتعظيمٌ لعيدٍ لمْ يعظِّمه اللهُ، فالذبح في أماكن الأوثان والأعياد الجاهلية ليس خالصًا لله ولا صوابًا باتباع الشرع، إنّما هو مضاهاة للحنيفية بالشرك والبدع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّما العيد شريعة، فما شرعه الله اتبع، وإلَّا لم يُحدث في الدِّين ما ليس منه».

والأعمال الشركية والبدعية تصد عن سبيل الله، وتُفسِد القلوب، وتُغيِّر الفطرة، فتنصرف القلوب إلىٰ غير الله وتتعبد بما لم يشرع.

شرْحُ المسائل:

١) **تَفْسِيرُ قَوْلِهِ:** ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة:١٠٨]: النهي عن عبادة الله في مشاعر الكُفر.

٢) **أَنَّ الْمَعْصِيَةِ قَدْ تُؤَثِّرُ فِي الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ الطَّاعَةُ:** بقاع التوحيد والطاعة أَذِنَ اللهُ بعبادته فيها لطهارتها، وبقاع الشرك والبدع خبيثة لا يُعبَد اللهُ فيها.

٣) **رَدُّ الْمَسْأَلَةِ الْمُشْكِلَةِ إِلَىٰ الْمَسْأَلَةِ الْبَيِّنَةِ؛ لِيَزُولَ الْإِشْكَالُ:** حيث أُخِذ حُكْمُ النذر من معرفة مكان النحر.

٤) **اسْتِفْصَالُ الْمُفْتِي إِذَا احْتَاجَ إِلَىٰ ذَلِكَ:** لسؤال النبي ﷺ عن منحر بوانة، هل هو مشعرُ شركٍ وبدعة، أم منحر توحيد وسُنَّة؟

٥) **أَنَّ تَخْصِيصَ الْبُقْعَةِ بِالنَّذْرِ لَا بَأْسَ بِهِ؛ إِذَا خَلَا مِنَ الْمَوَانِعِ:** نذْرُ الطَّاعة يجب الوفاء به.

٦) **الْمَنْعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ:** هو نهيٌ عن تعظيم مشاعر الشرك.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (صـ ٤٠٤).

٧) **الْمَنْعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ، وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ**: الشرك والبدع مضاهاة للحنيفية، لا تجوز.

٨) **أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِمَا نَذَرَ فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ؛ لِأَنَّهُ نَذْرُ مَعْصِيَةٍ**: ومَن نذرَ أنْ يعصي اللهَ فلا يعصه.

٩) **الْحَذَرُ مِنْ مُشَابَهَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَعْيَادِهِمْ، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ**: لأنَّ الموافقة في الظاهر سببٌ للموافقة في الباطن.

١٠) **لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةٍ**: النذر عبادة، فلا بُدَّ أن يكون خالصًا صوابًا.

١١) **لَا نَذْرَ لِابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ**: لأنَّ اللهَ لا يُكلِّف نفْسًا إلَّا وُسْعَها.

الْبَــابُ الْحَــادِي عَشَــر

بَــابٌ: مِنَ الشِّــرْكِ النَّــذْرُ لِغَــيْرِ اللهِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◊ وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧].

◊ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

◊ وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ**».

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) وُجُوبُ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ.

٢) إِذَا ثَبَتَ كَوْنُهُ عِبَادَةً للهِ، فَصَرْفُهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ شِرْكٌ.

٣) أَنَّ نَذْرَ الْمَعْصِيَةِ لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِهِ.

الشَّرْح

النذر عبادة فصرْفُه لله وحده توحيد، وصرْفُه لغير الله شركٌ، واللهُ عَزَّ وَجَلَّ إنما خَلَقنا لعبادته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] : «معنىٰ ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾: يُوحِّدون،

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٠، ١١).

وأعظم ما أمر الله به التوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة، وأعظم ما نهىٰ عنه الشرك».

ومعنىٰ إخلاص الدِّين لله وحده الذي أمرنا الله به، هو إخلاصه وإفراده بالعبادة، والقيام بعبوديته وحده لا شريك له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «العبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدِّين كله لله؛ تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، فالصلاة لله وحده، والصدقة لله وحده، والصيام لله وحده، والحج لله وحده إلىٰ بيت الله وحده».

وأدلة الباب تدل علىٰ أن النذر إنما يكون عبادةً وطاعة لله إذا قُصد به وجهُ الله وكان في طاعة، قال تعالىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، وقال النبي ﷺ: «**مَن نذرَ أنْ يطيعَ اللهَ فليطعه، ومَن نذرَ أنْ يعصيَ اللهَ فلا يعصه**»، وهذا كله حثٌّ علىٰ أن تكون العبادة مَرضيَّة عند الله.

ونذْرُ المعصية فيه كفَّارة في رواية عن الإمام أحمد؛ لحديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**ما كان من نذرٍ في معصية الله، فلا وفاء فيه، ويُكفِّره ما يُكفِّر اليمين**(٢)»، ولأن النذر كاليمين، واليمينُ علىٰ المعصية توجب الكفَّارة، فكذلك النذر(٣).

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٥٥٦).

(٢) رواه النسائي والحاكم والبيهقي، وفي إسناده محمد بن الزبير الحنظلي، وهو ليس بالقوي، وصح موقوفًا عن ابن عباس، رجحه أبو داود. التلخيص الحبير (٤/ ١٧٥، ١٧٦).

(٣) الكافي في فقه الإمام أحمد (ص٩٥٩).

قال الموفق أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وعن أحمد: ما يدل على أنه لا كفارة فيه؛ لحديث أبي إسرائيل، ولقول النبي ﷺ: «**ليس على الرَّجل نذرٌ فيما لا يملك**»، متفق عليه. وفي لفظٍ: «**لا نذْرَ في معصية الله، ولا فيما لا يملك العبد**»، رواه مسلم، ولأنه نذْرٌ غير منعقد، فلم يوجب شيئًا، كيمين اللغو».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «المعاصي، قيل: فيها كفارة يمين، وهو ظاهر مذهب أحمد.

وقيل: لا شيء فيها، وهو المنقول عن الشافعي ومالك.

وقيل: إنْ قُصد بها اليمين لزمته كفارة يمين، وهو مذهب أبي حنيفة والخراسانيين من أصحاب الشافعي».

والنذر التزامٌ شديد لمَن نذرَ له، فمَن نذرَ لله، وكان نذْرُه في طاعة، فهذا عبدَ اللهَ وأخلص له، ومَن نذرَ لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «لا يكون نذرًا إلا ما ابتُغي به وجهُ الله تعالى، كما في سننِ أبي داود: عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال: «**لا نذْرَ إلا ما ابتُغي به وجهُ الله**».

ولهذا لو نذرَ لكنيسة أو قبر أو وثن، لم يكن عليه الوفاء لذلك، بل لا يجوز الوفاء به، فإن هذا نذرُ معصيةٍ، وقد قال النبي ﷺ: «**مَن نذرَ أن يطيع الله فليطعه، ومَن نذرَ أن يعصي الله فلا يعصه**»، مثل مَن ينذر زيتًا أو شمعًا أو ستورًا لبعض القبور، أو ينذر لشيخٍ ميت، فيقول: عليَّ نذْرٌ للشيخ فلان، فإن هذا من جنس النذر لِمَا يُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، كما لو نذرَ للمسيح أو للعزير أو غير ذلك، وهذا شركٌ».

---

(١) الكافي في فقه الإمام أحمد (ص٩٥٩، ٩٦٠).
(٢) الإخنائية (ص٣٣٣).
(٣) العقود (ص٢٦).

ومَن صرفَ شيئًا من العبادات لغير الله، فقد وقع في شرك الربوبية والأسماء والصفات، فضلًا عن شرك العبودية؛ لأن خضوعه لغير الله وعبوديته لغيره بنذرٍ أو غيره هو تشبيه للخالق بالمخلوق، وصرفُ حقوقِ اللهِ لمخلوقٍ مربوب لله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ(١): «هذا التشبيه الذي أبطله الله سبحانه -نفيًا ونهيًا-: هو أصلُ شركِ العالَم وعبادة الأصنام؛ ولهذا نهىٰ النبي ﷺ أن يَسجدَ أَحَدٌ لمخلوق مثله، أو يحلفَ بمخلوق، أو يصلي إلىٰ قبر، أو يَتخذَ عليه مسجدًا، أو يعلّق عليه قنديلًا، أو يقول القائل: ما شاء الله وشاء فلان، ونحو ذلك؛ حذرًا من هذا التشبيه الذي هو أصل الشرك.

وأمَّا إثبات صفات الكمال فهو أصل التوحيد.

فتبيَّن أنَّ المُشبِّهة هم الذين يُشبِّهون المخلوق بالخالق في العبادة، والتعظيم، والخضوع، والحلف به، والنذر له، والسجود له، والعكوف عند قبره، وحلق الرأس له، والاستغاثة به، والتشريك بينه وبين الله في قولهم:

- (ليس لي إلا الله وأنتَ).
- و(أنا مُتَّكِلٌ علىٰ الله وعليك).
- و(هذا من الله ومنك).
- و(أنا في حسبِ الله وحسبك).
- و(ما شاء الله وشئت).
- و(هذا للهِ ولكَ)، وأمثال ذلك، فهؤلاء هم المشبهة حقًّا».

ومَن نذرَ شدّ الرحال إلىٰ القبور فلا يجوز له الوفاء بذلك؛ لأنه نذرُ بدعة، وأما الاستغاثة بالموتىٰ فهو شركٌ أكبر سواء كان عند قبره أو بعيدًا منه.

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٧١، ٩٧٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تُشد الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصىٰ، ومسجدي هذا**».

وهذا الحديث مما اتَّفق الأئمة علىٰ صحته والعمل به، فلو نذَر الرجل أن يصلي بمسجد أو مشهد أو يعتكف فيه ويسافر إلىٰ غير هذه المساجد الثلاثة، لم يجب عليه ذلك باتفاق الأئمة.

ولو نذَر أن يسافر ويأتي إلىٰ المسجد الحرام لحجٍّ أو عمرة، وجب عليه ذلك باتفاق العلماء.

ولو نذَر أن يأتي مسجد النبي ﷺ أو المسجد الأقصىٰ لصلاةٍ أو اعتكافٍ، وجب عليه الوفاء بهذا النذر؛ عند مالك، والشافعي في أحد قوليه، وأحمد.

ولم يجب عليه عند أبي حنيفة؛ لأنه لا يجب عنده بالنذر إلا ما كان من جنسه واجبًا بالشرع.

وأما الجمهور فيوجبون الوفاء بكل طاعة، كما ثبت في صحيح البخاري عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «**مَن نذَر أنْ يطيعَ اللهَ فليطعه، ومَن نذَر أنْ يعصي الله فلا يعصه**»، والسفر إلىٰ المسجدَين طاعة، فلهذا وجب الوفاء به.

وأمَّا السفر إلىٰ بقعة غير المساجد الثلاثة فلمْ يُوجِب أحدٌ من العلماء السفر إليه إذا نذره، حتىٰ نصَّ العلماءُ كالأئمة الأربعة علىٰ أنه لا يسافر إلىٰ مسجد قباء؛ لأنه ليس من الثلاثة، مع أن مسجد قباء يُستحب زيارته لمَن كان في المدينة؛ لأن ذلك ليس بشدِّ رحلٍ، كما في الحديث الصحيح: «**مَن تطهَّر في بيته ثم أتىٰ مسجد قباء لا يريد إلا الصلاةَ فيه، كان كعمرة**»، وهذا الحديث رواه أهل السنن كالنسائي وابن ماجه والترمذي وحسّنه.

---

(١) الإخنائية (ص٨٠، ٨١).

وقالوا: ولأن السفر إلىٰ زيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يفعلها أحد من الصحابة ولا التابعين، ولا أمر بها رسول الله ﷺ، ولا استحب ذلك أحدٌ من أئمة المسلمين، فمَن اعتقد ذلك عبادة وفعَلَها فهو مخالِفٌ للسُّنة ولإجماع الأئمة، وهذا مما ذكره أبو عبد الله ابن بطة في (الإبانة الصغرىٰ) من البدع المخالفة للسُّنة والإجماع».

شـرْحُ المسـائل:

١) **وُجُوبُ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ**: إذا كان النذرُ طاعةً.

٢) **إِذَا ثَبَتَ كَوْنُهُ عِبَادَةً للهِ، فَصَرْفُهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ شِرْكٌ**: العباداتُ كلها يجب إخلاصها لله، فمَن صرفَ شيئًا من العبادات؛ كالنذرِ لغير الله، فقد أشركَ.

٣) **أَنَّ نَذْرَ الْمَعْصِيَةِ لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِهِ**: لقوله ﷺ: «**مَن نذرَ أنْ يعصيَ اللهَ فلا يعصه**».

الْبَــابُ الثَّــانِي عَشَــر

بَــابٌ: مِنَ الشِّــرْكِ الِاسْتِعَــاذَةُ بِغَــيْرِ اللهِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

◊ عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فِيـــهِ مَسَـــائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ الْجِنِّ.

٢) كَوْنُهُ مِنَ الشِّرْكِ.

٣) الِاسْتِدْلَالُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِالْحَدِيثِ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَىٰ أَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ؛ قَالُوا: لِأَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ بِالْمَخْلُوقِ شِرْكٌ.

٤) فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اخْتِصَارِهِ.

٥) أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ يَحْصُلُ بِهِ مَنْفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ -مِنْ كَفِّ شَرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ- لَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ.

الشَّرح

الاستعاذة من أنواع الدعاء، وصار استعماله في الدعاء فيما يُحاذر ويخاف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الاستعاذة، والاستجارة، والاستغاثة، كلها من نوع الدعاء أو الطلب، وهي ألفاظ متقاربة».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إنَّ لفظ (عاذَ)، وما تصرَّف منها تدل علىٰ التحرُّز والتحصُّن والالتجاء، وحقيقة معناها: الهروب من شيءٍ تخافه إلىٰ مَن يعصمك، ولهذا يُسمَّىٰ المُستَعاذُ به: (مُعاذًا)، كما يُسمَّىٰ: (مَلْجأً) و(وَزَرًا)».

ونبينا محمد صلَّىٰ الله عليه وسلَّم دلَّ أُمَّته علىٰ الاستعاذة بالله، والتوجه إليه، وقصده بجلب المنفعة ودفع المضرَّة، وكلُّ ذلك من حقائق الإيمان بالله والتوكُّل عليه، فإنَّه العظيم الذي قهر كل مخلوق، وهو الذي ينفع ويضر وحده، وإليه يُرجع الأمر كله.

قال النبيُّ ﷺ لابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**»، رواه الترمذي، وقال: حسنٌ صحيح.

فالمؤمنون المُوحِّدون يَدْعون الله وحده، وبه يستعيذون، فهو ربهم، وهو وليُّهم الذي يكفيهم السوء، وقد أمر الله ﷻ سيد الحُنفاء أن يُعلِّم النَّاس التوحيد، والبراءة من الحول والقوَّة إلَّا بالله ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠-٢٢].

---

(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير (٦/ ٤٠٦).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٧٠٣).

وجمَع شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أدلة هذا الباب ما يفيد أنَّ مَن استعاذ بغير الله انعكس عليه مقصوده، وضره من دون الله، ولم ينفعه في إعانته، ناهيك عمَّا يناله من إثم الشرك، وذَكرَ شيخ الإسلام المستعاذ العظيم الذي يكشف الضر ويدفع السوء. والاستعاذة به توحيد وطمأنينة وأمان وكفاية.

فذَكرَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «كانت عَادَةُ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَعُوذُونَ بِعَظِيمِ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنَ الْجَانِّ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِشَيْءٍ يَسُوؤُهُمْ، كَمَا كَانَ أَحَدُهُمْ يَدْخُلُ بِلَادَ أَعْدَائِهِ فِي جِوَارِ رَجُلٍ كَبِيرٍ وَذِمَامِهِ وَخَفَارَتِهِ، فَلَمَّا رَأَتِ الْجِنُّ أَنَّ الْإِنْسَ يَعُوذُونَ بِهِمْ مِنْ خَوْفِهِمْ منهم ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، أي: خوفًا وإرهابًا وذعرًا حتىٰ بقوا أَشَدَّ مِنْهُمْ مَخَافَةً وَأَكْثَرَ تَعَوُّذًا بِهِمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، أَيْ: إِثْمًا وَازْدَادَتِ الْجِنُّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ جَرَاءَةً».

فالخوف من الله أمان وطمأنينة، والالتجاء إليه حفْظٌ وكفاية، والتوكل عليه هو الغاية، والجن منهم المسلمون ومنهم الكافرون، واللهُ يتولَّىٰ مَن توكَّل عليه من شر الإنس والجن.

والاستعاذة بغير الله تُضعِف القلب عن قوته الذي مادته توحيد الله والثقة بكفايته والطمأنينة إلىٰ ولايته، ومَن ضَعُفَ قلبُه عن التوكُّل علىٰ الله استطالت عليه الجن.

ومَن استعاذ بمخلوقٍ استعاذ بضعيفٍ، ومَن كانت استعاذته شركًا انعكس عليه مقصوده، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٤٦).

وهكذا الجن عندما رأت مشركي العرب في الجاهلية يستعيذون بهم، زادوهم خوفًا وإثمًا، فالحمد لله الذي مَنَّ بالهداية علىٰ مَن اجتباه من عباده، وأخرجهم من ظلمات الشرك إلىٰ نور التوحيد.

والاستعاذة بالله بقصده والتوجه إليه توحيدٌ، وحقائق ما يقوم بالقلب من التوكل علىٰ الله وصِدْق الالتجاء إليه لا يحيط بوصفه عبارة، ومَن استعاذ بالله فقد استعاذ بعظيم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «ومعنىٰ الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات، وإنَّما هي تمثيل وإشارة وتفهيم، وإلَّا فما يقوم بالقلب حينئذٍ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الربِّ، والافتقار إليه والتذلل بين يديه، أمْرٌ لا تحيط به العبارة».

فالاستعاذة بالله والتوكل عليه والاعتصام به توحيدٌ، وذلك من حقائق الإيمان بمُلك الله وتدبيره، لا حول ولا قوة إلَّا به.

ومَن انصرف عن الله واستعاذ بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلَّا الله فقد أركس نفسه في الشرك، واستعاذ بغير مُعاذٍ.

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إذا تحقَّق العبد بهذه الصِّفات: الرَّبّ، والمَلِك، والإله، وامتثل أمْرَ الله، واستعاذ به، فلا ريب أنَّ هذا عبادة من أجَلِّ العبادات، بل هو من حقائق توحيد الإلهية.

فإنِ استعاذَ بغيره فهو عابد لذلك الغير، كما أنَّ مَن صلَّىٰ لله وصلَّىٰ لغيره يكون عابدًا لغير الله، كذلك في الاستعاذة ولا فرْقَ، إلَّا أنَّ المخلوق يُطلب منه ما يَقْدِر عليه، ويُستعاذ به فيه، بخلاف ما لا يَقْدِر عليه إلَّا الله، فلا يُستعاذ فيه إلَّا بالله، كالدعاء فإنَّ الاستعاذة من أنواعه».

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٠٤).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١/ ٤٦٢).

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وكلماتُ اللهِ التي استعاذ بها النبيُّ ﷺ هي كلماته الكونية، التي كوّن بها الكائنات، فلا يخرج برٌّ ولا فاجر من تكوينه ومشيئته وقدرته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥].

وكلماتُ اللهِ الدينية هي وحيه إلىٰ رسله عليهم الصلاة والسلام، وما فيها من أخباره وأحكامه، وأمره ونهيه(١).

وعن عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا من عبْدٍ يقولُ في صباحِ كلِّ يومٍ ومساءِ كلِّ ليلةٍ: باسم اللهِ الذي لا يضرُّ مع اسمِه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميعُ العليم، ثلاثَ مرَّات إلَّا لم يضرَّه شيءٌ**»، رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

والشياطين نفْسُها تَعرِف أنَّ مَن استعاذ بالله كُفي وهُدي وعُصِم، ولم يكن لها عليه سبيل.

عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا خرجَ الرَّجلُ من بيته، فقال: بسمِ اللهِ، توكَّلتُ علىٰ الله، لا حَوْل ولا قوة إلَّا بالله، يُقال له: حَسْبُكَ: هُديتَ، وكُفيتَ، ووُقيتَ، وتنحَّىٰ عنه الشيطانُ**»، رواه النسائي وحسَّنه وصحَّحه ابنُ حِبَّان.

ورواه أبو داود، وفيه: «**يُقال حينئذٍ: هُديت، وكُفيت، ووُقيت، فيتنحىٰ عنه الشيطان، فيقول له شيطان آخر: كيف لكَ برَجُلٍ كُفي وهُدي ووُقي؟**».

---

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام (١١/ ٢٧٠، ٢٧١)

والمسلم في تحقيقه للتوحيد في يومه وليلته يكون في حفْظِ الله وكفايته وولايته، قال النبي ﷺ: «**احفظِ اللهَ يحفظكَ، احفظِ اللهَ تجده تجاهَكَ، تَعرَّف إلى الله في الرَّخاء يَعْرِفكَ في الشدَّة**»، رواه الترمذي.

والمسلم يحيط ببعض الأسباب الظاهرة فيدفع شرَّها بالأسباب الممكنة، والأسباب الخفيَّة يكفيه اللهُ شرَّها.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٨].

قال شيخنا العلامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ الإنسان إذا اعتمد علىٰ الله تعالىٰ في جلبِ المنافع ودفعِ المَضارِّ مع الثِّقة به، صار ذلك أقوىٰ له، وأطمَنَ لقلبه، ولكن مع هذا فإنَّ التوكُّل لا ينافي فعْل الأسباب الشرعية التي ثبتت، إمَّا عن طريق الشَّرْع وإمَّا عن طريق الحِسِّ.

ومَن زعم أنَّ هذا ينافي التوكُّل فقد أخطأ؛ وذلك لأنَّ الرسول ﷺ إمامُ المُتوكِّلين، وسيِّدُ بني آدم، ومع هذا فكان يفعل الأسباب، فقد كان يَتَّقي من البرد، ويَتَّقي من الحر، ويَتَّقي من البأس، فكان يلبس الدُّروع كما ظاهَرَ في يومِ أُحُدٍ بين دِرْعَيْن، ومع هذا فإنَّه لا يُقال: إنَّ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ضعيفُ التوكُّل.

إذَنْ: فِعْل الأسباب من تمام التَّوكُّل علىٰ الله تعالىٰ؛ لأنَّ درء ما تخافه يكون بأمرين: أمرٍ من قِبَلِكَ أنتَ، وأمرٍ آخر من قِبَل الله تعالىٰ، فالأشياء الخفيَّة التي تُدركها ولا طاقة لك بها؛ هذا من قِبَل الله تعالىٰ، والأشياء الظاهرة التي لك بها قِبَلٌ؛ هذه من قِبَلِ نفْسِكَ، فعليكَ أنْ تفعل هذا، وأن تعتمد علىٰ الله تعالىٰ فيما لا تُدرِكه ولا يَصِل إليه ذِهْنكَ».

(١) تفسير سورة الأحزاب (صـ٣٥١).

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْجِنِّ**: وهو تحذيرٌ مما كان عليه المشركون في الجاهلية من الاستعاذة بالجن.

٢) **كَوْنُهُ مِنَ الشِّرْكِ**: فالاستعاذة بمخلوق فيما لا يَقدر عليه إلَّا الله شركٌ.

٣) **الِاسْتِدْلَالُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِالْحَدِيثِ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَىٰ أَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ؛ قَالُوا: لِأَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ بِالْمَخْلُوقِ شِرْكٌ**: فالله هو المعاذ وهو الكافي، واستعاذة النبي ﷺ بكلمات الله هي استعاذة بالله؛ لأنَّ كلمات الله صفة من صفاته، وصفات الله قائمة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٤) **فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اخْتِصَارِهِ**: فالأخذ بهذا الدعاء وسائر الأسباب الشرعية؛ فيه غُنيَة عن الشرك.

٥) **أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ يَحْصُلُ بِهِ مَنْفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ -مِنْ كَفِّ شَرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ- لَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ**: فمنافع الشرك غير مباركة، ومفاسد الشركُ أعظم منها؛ ولذلك حرَّمها الله.

والمسيح الدجَّال كافرٌ مُشرِك تحصل لمَن اتَّبعه منافع دنيوية بإفساد التوحيد باتباعه علىٰ زعمه أنَّه ربُّ العالمين.

۞ ۞ ۞


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosailililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَــابُ الثَّـالِثُ عَشَــر

بَــابٌ: مِنَ الشِّــرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧].
- وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧].
- وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥].
- وَقَوْلُهُ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢].
- وَرَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ؛ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ**».

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) أَنَّ عَطْفَ الدُّعَاءِ عَلَىٰ الِاسْتِغَاثَةِ مِنْ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَىٰ الْخَاصِّ.

٢) تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس:١٠٦].

٣) أَنَّ هَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ.

٤) أَنَّ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ يَفْعَلُهُ إِرْضَاءً لِغَيْرِهِ صَارَ مِنْ الظَّالِمِينَ.

٥) تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا.

٦) كَوْنُ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا مَعَ كَوْنِهِ كُفْرًا.

٧) تَفْسِيرُ الْآيَةِ الثَّالِثَةِ.

٨) أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ لَا يَنْبَغِي إِلَّا مِنْ اللهِ، كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ لَا تُطْلَبُ إِلَّا مِنْهُ.

٩) تَفْسِيرُ الْآيَةِ الرَّابِعَةِ.

١٠) أَنَّهُ لَا أَضَلَّ مِمَّنْ دَعَا غَيْرَ اللهِ.

١١) أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْ دُعَاءِ الدَّاعِي لَا يَدْرِي عَنْهُ.

١٢) أَنَّ تِلْكَ الدَّعْوَةَ سَبَبٌ لِبُغْضِ الْمَدْعُوِّ لِلدَّاعِي وَعَدَاوَتِهِ لَهُ.

١٣) تَسْمِيَةُ تِلْكَ الدَّعْوَةِ عِبَادَةً لِلْمَدْعُوِّ.

١٤) كُفْرُ الْمَدْعُوِّ بِتِلْكَ الْعِبَادَةِ.

١٥) هِيَ سَبَبُ كَوْنِهِ أَضَلَّ النَّاسِ.

١٦) تَفْسِيرُ الْآيَةِ الْخَامِسَةِ.

١٧) الْأَمْرُ الْعَجِيبُ، وَهُوَ إِقْرَارُ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ أَنَّهُ لَا يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِلَّا اللهُ، وَلِأَجْلِ هَذَا يَدْعُونَهُ فِي الشَّدَائِدِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

١٨) حِمَايَةُ الْمُصْطَفَىٰ ﷺ حِمَىٰ التَّوْحِيدِ، وَالتَّأَدُّبُ مَعَ اللهِ.

الشَّرح

حذَّر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من شركِ الاستغاثة بغير الله ودعاءِ غيره، وساق من نصوص القرآن ما يدل علىٰ أنَّ الله وحده هو غِياثُ المؤمنين والخَلق أجمعين.

وذَكرَ من نصوص القرآن ما يبيِّن معاني الحنيفيَّة، من عبادة الله ودعائه والاستغاثة به وحده، والميل عن قصدِ سواه أو دعائه أو الاستغاثة به.

وكان ممَّا خاطب به عقول النَّاس في هدايتهم للحق بيان أنَّ مَن يُدعون من دون الله لا يملكون كشف الضر ولا جلب المنفعة، ولا إجابة الدعاء، ولا رِزْق الخَلق، وأنّ الله وحده هو مجيب الدعاء، ومنه يُبتغىٰ الرزق وتجب له العبادة وحده.

الدعاء عام في كل ما يدعو به الداعي، في شدَّةٍ أو رخاء، والاستغاثة من أخص أنواعه، وهو الدعاء بكشف الشدَّة، واللهُ وحده هو الذي يُدعىٰ ويُرجىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ(١): «الاستغاثة هي طلبُ كشفِ الشدَّة، فكلُّ مَن دعا ميتًا أو غائبًا من الأنبياء أو الصالحين، أو دعا الملائكة، أو دعا الجن، فقد دعا مَن لا يغيثه، فلا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله».

وقال العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ(٢): «الفَرْق بين الدُّعاء والاستغاثة: أنَّ الدُّعاء عام في كل الأحوال، والاستغاثة هي الدعاء لله في حالة الشدائد، فكل ذلك يتعيَّن إخلاصه لله وحده، وهو المجيب لدعاء الدَّاعين، المفرِّج لكربات المكروبين.

ومَن دعا غيره من: نبيٍّ، أو مَلِك، أو ولي، أو غيرهم، أو استغاث بغير الله فيما لا يَقدر عليه إلَّا الله فهو مشرك كافر، وكما أنَّه خرج من الدِّين فقد تجرَّد أيضًا من العقل، فإنَّ أحدًا من الخَلق ليس عنده من النفع والدفع مثقال ذرة، لا عن نفسه ولا عن غيره، بل الكل فقراء إلىٰ الله في كل شؤونهم».

افتتح شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ الباب بما يدل علىٰ وجوب إفراد الله بالدعاء، والاستغاثة به دون ما سواه، فذَكرَ قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧].

---

(١) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٤٨).

(٢) القول السديد شرح كتاب التوحيد (صـ ٥٣).

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «في الآية تنبيه على أنَّ المدعوَّ لا بُدَّ أن يكون مالكًا للنفع والضر، حتى يعطي مَن دعاه، أو يبطش بمَن عصاه، وليس ذلك إلَّا لله وحده، فتعيَّن أن يكون هو المدعُوَّ دون ما سواه، والآية شاملة لنوعي الدعاء.

قوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:١٠٦]، أي: المشركين».

وذَكرَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ضلال مَن استغاث بمَن لا يغيثه، ويكون يوم القيامة عدوًّا له، يتبرَّأ من شركه به، حيث ساق قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥، ٦].

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أخبرَ تعالى أنَّه لا أضل ممَّن يدعو أحدًا من دونه كائنًا مَن كان، وأخبر أنَّ المدعو لا يستجيب لِمَا طُلِب منه من ميت أو غائب، أو ممَّن لا يَقدر على الاستجابة مطلقًا من طاغوتٍ ووثنٍ، فليس لمَن دعا غير الله إلَّا الخيبة والخسران.

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥]، كما قال تعالى في آية يونس: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ إلى قوله: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس:٢٨، ٢٩].

ثمَّ قال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل:٨٦]، فلا يحصل للمشرك يوم

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٥٠٤).

(٢) قرَّة عيون الموحدين (صـ ٩٢).

القيامة إلَّا نقيض قصده، فيتبرَّأ منه المدعو ومن عبادته، وينكر ذلك عليه أشد الإنكار، وقد صار المدعو للداعي عدوًّا.

ثمَّ أخبر تعالىٰ أنَّ ذلك الدعاء عبادة بقوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦]، فدلَّت أيضًا علىٰ أنَّ دعاء غير الله عبادة له، وأنَّ الداعي له في غاية الضلال».

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في تحذيره من شركِ الاستغاثة بغير الله، ذَكرَ للمسلمين مَن يُبتغىٰ عنده الرزق وأنواع المنافع، ومَن يُطلب منه دفْع المضار، حيث استدل بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: تذلَّلوا بالطاعة؛ لأن العبادة مأخوذة من التعبيد، وهو التذليل، ومنه قولهم: طريقٌ مُعَبَّد، أي: مُذلَّل للسالكين، قد أُزيل عنه الأحجار والأشجار المؤذية؛ لأنَّكم إذا تذلَّلتم له بالطاعة، فهو من أسباب الرزق، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]، فأمرَ أن نطلب الرزق عنده، ثمَّ أعقبه بقوله: ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾؛ إشارة إلىٰ أنَّ تحقيق العبادة من الرزق؛ لأنَّ العابد ما دام يُؤمِن أن مَن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب، فعبادته تتضمَّن طلب الرزق بلسان الحال.

قوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت:١٧]، إذا أضاف الله الشكر له متعديًا باللام، فهو إشارة إلىٰ الإخلاص، أي: واشكروا نعمة الله لله، فاللام هنا لإفادة الإخلاص؛ لأنَّ الشاكر قد يشكر الله لبقاء النعمة، وهذا لا بأس به، ولكن كونه شكر لله وتأتي إرادة بقاء النعمة تبعًا، هذا هو الأكمل والأفضل».

(١) شرح كتاب التوحيد (صـ٢٦١)، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ المجلد التاسع.

وجاءت السُّنَّة بمنطوق القرآن: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧]، حيث قال النبي ﷺ لابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما معلِّمًا له ولأمَّته: «**إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله**»، رواه أحمد والترمذي وصححه.

قال شيخنا العلامة المجدِّد عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله(١): «وجَّهه إلىٰ أن يوجه قلبه إلىٰ الله في جميع حاجاته؛ لأنَّه سبحانه هو المعبود بالحق، هو المسؤول، وهو القائل: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] فالمؤمن والمؤمنة كلاهما جدير بهما أن يوجِّها قلوبهما إلىٰ الله في جميع الحاجات «**إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله**»، كما يقول سبحانه: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢]، ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وهو المدعو، والمرجو، والمسؤول سبحانه وتعالى في جميع الأمور.

ولا يُستثنىٰ من ذلك إلَّا ما كان في قدرة العبد الحي الحاضر، ما كان في قدرته فلا بأس أن تسأله إيَّاه علىٰ الوجه الشرعي، إذا كان حيًّا حاضرًا قادرًا يستطيع أن يعينك علىٰ ما تريد، فلا بأس بالطرق الشرعية، هذا مُستثنىٰ كما قال جل وعلا: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥]».

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يأتون النبي ﷺ ليدعو الله لهم حال حياته، وبعد موته لم يسأله أحد من الصحابة شيء من ذلك؛ مما يدل علىٰ أنَّه لا يجوز ولا يصح أن يُستغاث بميت ولو كان من خير خَلقِ الله.

وجاء المبتدعة المشركون ووضعوا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤]، في غير موضعه، وزعموا أنَّ الآية دالَّة علىٰ قصدِ الرسول ﷺ بعد وفاته

---

(١) حديث الصباح (صـ ٢٦٨، ٢٦٩).

ليستغفر لهم، وهذا من تحريفات المبتدعين لنصوص القرآن، فإنّ ﴿إذ﴾ ظرفٌ لِمَا مضىٰ وليس لِمَا يُستقبَل من الزمان.

والمبتدعة مخالفون لفهم السلف؛ خير القرون الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فلمْ يقصدوه بعد وفاته ﷺ بالدعاء والاستغفار.

قال الحافظ ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الآية سِيقَتْ لذمِّ مَن تخلَّف عن المجيء إلىٰ رسول الله ﷺ في حال حياته ليستغفر له، وحَكَمَ تعالىٰ علىٰ مَن أبىٰ هذا؛ أنَّه من المنافقين، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون:٥].

وكذلك هذه الآية إنَّما هي في المنافق الذي رضي بحُكمِ كعب بن الأشرف وغيره من الطواغيت، دون حُكمِ رسول الله ﷺ، فظلمَ نفْسَه بهذا أعظم ظلمٍ، حيث لمْ يجئ إلىٰ رسول الله ﷺ يستغفر له، فإنَّ المجيء إليه ليستغفر له توبةٌ وتنصُّلٌ من الذنوب.

وهذه كانت عادة الصحابة معه ﷺ: أنَّ أحدهم متىٰ صَدَرَ منه ما يقتضي التوبة جاء إليه، فقال: يا رسول الله، فعلتُ كذا وكذا، فاستغفرْ لي، وكان هذا فَرْقًا بينهم وبين المنافقين، فلمَّا استأثر الله عَزَّ وَجَلَّ بنبيه ﷺ، ونقله من بين أظهرهم إلىٰ دار كرامته لم يكن أحدًا منهم قط يأتي إلىٰ قبره ويقول: يا رسول الله، فعلتُ كذا وكذا فاستغفرْ لي، ومَن يقل هذا عن أَحَدٍ منهم فقد جاهر بالكذب والبهت».

والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين استغاثوا بالنبي ﷺ من أذىٰ المنافق الذي كان يؤذيهم، لمْ يسارع النبي ﷺ إلىٰ كفِّ أذاه بما يَقدر عليه ممَّا أقدره الله إلَّا بعد أن شرح لهم توحيد الله بوجوب إفراده بالاستغاثة، وهذا من حُسن تعليمه -صلوات الله وسلامه عليه- مسائل العقيدة.

---

(١) الصارم المنكي، بواسطة مصباح الظلام للعلامة عبد اللطيف آل الشيخ (صـ ٤٧٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «حقيقة قوله: «**لا يُستغاثُ بي**»، وإن كان مراده الاستغاثة الكليّة كما يُقال: لا يُستغاث بي، ولا يُتوكل عليَّ، ولا أُدعا، ولا أُسأل، ونحو ذلك، فمراده النهي عن الطلب الذي لا يفعله إلَّا الله، كما نهىٰ عن السجود له، وكما نهىٰ أن يُقال: ما شاء الله وشاء محمد، وقال لمَن قال: ما شاء الله وشاء محمد، ما رُوي عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رَجُل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئتَ، فقال: «**أجعلتني لله ندًّا، قل: ما شاء الله وحده**»، رواه النسائي وابن ماجه، ووراه الإمام أحمد ولفْظُه: «**أجعلتني لله عدلًا، بل ما شاء الله وحده**»».

فما لا يَقدر عليه إلَّا الله لا يُطلَب من غيره.

وإذا كان لا يُستغاث بخير الصالحين وأفضلهم، سيد ولد آدم، فمَن دونه من باب أَوْلىٰ.

وقد أمرَ اللهُ نبيه محمدًا ﷺ أن يخاطب الخَلق بما يجعلهم حنفاء موحدين لله، فيعاملوه كمخلوق مربوب لله، ليس بيده المُلْك، ولا تصريف الأمور ولا تقديرها، وليس له حق في العبودية، وإنَّما هو بَشرٌ، رسول الله ﷺ، يدعو إلىٰ عبادة الله وحده والربوبية لله وحده، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

ودعاء الميت أو اتخاذه واسطة في الدعاء شركٌ أكبر، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٦].

---

(١) الرد علىٰ البكري (١/ ٢٥٣-٢٥٤).

قال العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «ما أوضحها من آية في بيان أنَّ جُلَّ شركِ المشركين إنَّما هو بدعاء مَن أشركوا مع الله في العبادة».

وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨].

فنزَّه اللهُ نفسه عن شرك مَن دعا من دونه ما لا يضر ولا ينفع، أو اتخذه شفيعًا في دعاء الله.

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «أخبرَ أنَّه شركٌ، ونزَّه نفسه عنه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «ليس من دِين المسلمين، ولا دِين أحدٍ من الرسل، لم يسنَّ أحد من الأنبياء للخَلق أن يطلبوا من الصالحين الموتىٰ، والغائبين، والملائكة، دعاءً ولا شفاعة، بل هذا أصل الشرك، فإنَّ المشركين إنَّما اتخذوهم شُفعاء، قال تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]».

فسؤال الموتىٰ أو اتخاذهم وسائط في دعاء الله شركٌ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٤): «إذا كان ﷺ نهىٰ عن الصلاة التي تتضمن الدعاء لله وحده خالصًا عند القبور؛ لئلا يفضي ذلك إلىٰ نوع من الشرك بربهم، فكيف إذا وُجد ما هو نوع من الشرك من الرغبة إليهم، سواء طُلِب منهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، أو طُلِب منهم أن يطلبوا ذلك من الله تعالىٰ».

---

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتَّلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (صـ١٤٩).
(٢) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتَّلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (صـ٨٥).
(٣) قاعدة في الفرق بين عبادات أهل الإيمان، وأهل الشرك (صـ٤٢، ٤٣).
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٠٤).

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيّنًا شرك اتخاذ الوسائط في دعاء الله[١]: «إن قال: الكفار يريدون منهم، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضَّار المُدَبِّر، لا أريد إلا منه، والصالحون ليس لهم من الأمر شيء، ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم.

فالجواب: أنّ هذا قول الكفار سواء بسواء، واقرأ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]».

وقد بلغ الجهل ببعض المسلمين إلىٰ دعاء الأموات وسؤالهم ما لا يَقدر عليه إلَّا الله، من الرزق، وشفاء الأسقام، والنصر، والكفاية، وهذا مما لا يرتاب مسلمٌ أنَّه شركٌ لا يجوز.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «سؤال الميت والغائب نبيًّا كان أو غيره، من المحرَّمات المُنكَرة باتفاق أئمة المسلمين، لم يأمر الله عَزَّوَجَلَّ به ولا رسوله ﷺ، ولا فَعَلَهُ أَحَدٌ من أئمة المسلمين، وهذا مما يُعلم بالاضطرار من دين المسلمين.

فإنَّ أحدًا منهم ما كان يقول -إذا نزلت به تِرة أو عرضت له حاجة- لميتٍ: يا سيدي فلان، أنا في حسبك، أو اقضِ حاجتي! كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمَن يدعونهم من الموتىٰ والغائبين، ولا أحدًا من الصحابة استغاث بالنبي ﷺ بعد موته، ولا بغيره من الأنبياء، لا عند قبورهم، ولا إذا بعدوا عنها!».

وكلُّ مسلمٍ يُؤمِن بأنَّ الله هو (القيُّوم)، القائم بذاته ونفسه لكماله، فهو الرب الغني، وكل مخلوق فقير إلىٰ قيومية الله، فهو المدبر للخَلق أجمعين.

فاللهُ خلقنا من عدمٍ، وهو الذي أحيانا ورزقنا، وهو وحده الذي ينفع ويضر،

---

(١) كشف الشبهات (ص٤٢، ٤٣).

(٢) الرد علىٰ البكري (١/ ٣٣١، ٣٣٢).

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧].

فكلُّ مَن يُؤمِن أنَّ الله هو القيُّوم، ولا ينسيه الشيطان هذه الحقيقة، لا يمكن أن يطلب من مخلوق ميتٍ ما لا يَقدر عليه إلَّا الله، من الرزق والنصر وكفاية الشرور.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هذا القرآن ينطق عن جميع الأنبياء والمُرسلين -وهم سادات المقرَّبين- بأنَّهم كانوا يفرِّقون بين المعروف والمُنكَر، والإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، ويأمرون بعبادة الله وحده، وينهون عن عبادة ما سواه، ولو لم يشهدوا إلَّا القيُّومية التي تُرد فيها الأفعال إلىٰ خالقها».

والسُّنَّة المتَّبعة هي الدعاء للموتىٰ والاستغفار لهم، لا الدعاء بهم، فبدَّل الذين ظلموا سنَّة النبي ﷺ ودعوا الموتىٰ واستغاثوا بهم، واتَّخذوهم وسائط في دعاء الله.

فسُنَّة النبيّ ﷺ المعلومة المتيقَّنة هي السلام علىٰ الموتىٰ والاستغفار والدَّعاء لهم، فعن بُريدة بن الحصيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يُعلِّمهم إذا خرجوا إلىٰ المقابر أن يقول قائلهم: «**السَّلَامُ عَلَىٰ أَهْلِ الدِّيَارِ**»، وفي لفظٍ: «**السَّلامُ عَلَيكُمْ أَهْلَ الدِّيارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ والمُسْلِمِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ، نَسْأَلُ الله لَنا وَلَكُمُ العافِيَةَ**» رواه مسلم.

وكان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**» رواه أبو داود وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وقال النبي ﷺ: «**إنَّ جبريلَ أتانِي وقالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «تخصيص الميت بالدعاء له، فهذا كلُّه

(١) الرد علىٰ البكري (١/ ٢٣٨).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٧).

وما كان مثله من سنَّة رسول الله ﷺ وما كان عليه السابقون الأولون، هو المشروع للمسلمين في ذلك».

فالواجب على المسلم أن يأتي بأسباب إجابة الدعاء، من الإيمان بالله ﷻ والعمل الصالح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد، وعن كمال الطاعة؛ لأنه عَقَّب آيةَ الدعاءِ بقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾ [البقرة:١٨٦]».

والمبتدعة الذين يقصدون قبور الموتى، ويجعلونهم وسائطَ في دعاء الله لقضاء حوائجهم وإجابة دعائهم، وتفريج كرباتهم، قد أتوا بما يُسخِط اللهَ ويمنع إجابة الدعاء.

ودُعاة الشرك غرَّروا بالجُهَّال، وقالوا لهم: اتَّخذوا من أولياء الله الموتى الصالحين وسائط في دعاء الله؛ لأنكم مذنبون وهم صالحون، قد حثُّوهم على الذنب الذي لا يغفره اللهُ -وهو الشرك- إلا بالتوبة، فكان ما أمروهم به أغلظ الذنوب.

والمذنبون دواؤهم في التوبة وقصْدِ الله وحده بالدُّعاء، بدون واسطة أحد من المخلوقين.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «الدَّواء هو التوحيد والاستغفار، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، وفي الحديث: **«فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَقُولُ: أَهْلَكْتُ بَنِي آدَمَ بِالذُّنُوبِ وَأَهْلَكُونِي بِالاسْتِغْفَارِ وَبِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ بَثَثْتُ فِيهِمْ الْأَهْوَاءَ، فهم يُذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنْعًا»**».

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٣).

(٢) شفاء العليل (ص٤٥٤).

ولذلك كان الدُّعاء المفرِّج للكرب محض التوحيد، وهو: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ، وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**».

وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: «**دعوةُ أخي ذِي النُّون ما دعاها مكروبٌ إلا فرَّج اللهُ كربَهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**».

فالتوحيد يُدخِل العبدَ علىٰ الله، والاستغفار والتوبة يرفع المانع، ويُزيل الحجاب الذي يحجب القلب عن الوصول إليه».

ودُعاة الشرك اختاروا للناس ما يُسخِط ربهم، ومنعوهم من سؤال الله مباشرة إلىٰ اتخاذ مخلوقين وسائط في دعاء الله وسؤاله، والله ﷻ اختار لخَلقه الأحسن والأتقىٰ والأنفع، وهو أن ندعوه مباشرةً دون التجاء إلىٰ مخلوقٍ بشرٍ مربوبٍ مثلنا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إنَّ الحنفاء ليس بينهم وبين الله تعالىٰ واسطة في العبادة والدعاء والاستعانة، بل يُناجون ربهم ويدعونه ويعبدونه بلا واسطة، وإنما الرُسل عليهم الصلاة والسلام بلغتهم عن الله ﷻ ما أمر به وأحبه من العبادات وغيرها وما نهىٰ عنه».

ودُعاة الشرك أفسدوا علىٰ الناس فِطَرهم وتوحيدهم، وأضلُّوهم بدعوتهم إلىٰ الاستغاثة بالموتىٰ، أو اتَّخاذهم وسائط في دعاء الله.

والمسلم إذا تدَّبر كلام الله ووحيه تحقَّق أنّ نصوصَ القرآن والسُّنَّة دالةٌ علىٰ أن الله وحده هو الذي يُرجىٰ ويُخاف ويُعبَد ويُدعىٰ؛ فالمسلم يعبد الله ومن جملة ذلك: دعاؤه بما شرع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إنَّ كل ما شرعه الله ﷻ ورسوله ﷺ

---

(١) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٧٧).

(٢) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٢٦).

فهو من أعظم الوسائل إلىٰ الله، لكن دعاءهم -المخلوقين- بعد الموت لم يشرعه الله ﷻ ورسوله ﷺ، فليس من الوسائل.

وكذلك سؤال أحدهم ما لا يَقدر عليه إلا الله ليس مشروعًا، وأصلُ الدين ألا يُعبَد إلا الله، وألا يُعبَد إلا بما شرع، وما ذَكرَه هؤلاء يتضمَّن عبادة غير الله بغير أمرِ الله».

وإنَّه لمن سفَه العقول استغاثتها بمَن لا يستجيب لها، وبمَن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عن أنه يملكه لغيره، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

قال شيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «فقد تهدَّد سبحانه مَن دعا شيئًا من دون الله، وبيَّن أنَّهم لا مُلْك لهم مع الله، ولا شركاء في مُلكِه، وأنَّه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين، فقطعَ تعلُّق القلوب بالمخلوقات رغبةً، ورهبةً، وعبادةً، واستعانة».

فالذي اتَّخذ الميِّت مستغاثًا عدَل عن ربِّه إلىٰ مَن ليس له من الأمر شيء، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]؛ فالموحِّدون هم الذين قصدوا الله وحده في دعاء المسألة والعبادة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «آخرون قد جعلوا الميت بمنزلة الإله، والشيخ الحي المتعلِّق به كالنبي، فمِنَ الميتِ يطلب قضاء الحاجات وكشف الكربات، وأمَّا الحي فالحلال ما أحلَّه والحرام ما حرَّمه، وكأنهم قد عزلوا الله عن أن يتَّخذوه إلهًا، وعزلوا محمدًا ﷺ عن أن يتَّخذوه رسولًا».

---

(١) التوسُّل والوسيلة (ص ٢٨٠).

(٢) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٧٠).

والدعاء من أفضل ما عُبد الله به، وتحرِّي أوقات وأسباب الإجابة المشروعة هو عبودية الموحِّدين، وقد أمرَ الله ﷻ بإفراده وحده بالدُّعاء دون مَن سواه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن:١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف:٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الشرح:٨].

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن الحسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا ريب أنَّ الدعاء يجتمع فيه من أنواع العبادة ما لا يجتمع في غيره من أنواع العبادات، والنداء كذلك، كتوجُّه الوجه والقلب واللسان للمدعو تذلُّلًا له وخضوعًا واستكانةً ورغبة، وهنا هو العبادة؛ لأن أصل العبادة وأساسها أن يخضع غاية الخضوع والتذلُّل للمعبود.

ولا بُدَّ مع ذلك من المحبة، وأنت ترىٰ ما يفعله المشركون وإقبالهم علىٰ الأموات بسؤالهم ما لا قدرة لهم عليه، وتجد عندهم من الخضوع والتذلُّل وإسلام الوجه والقلب والجوارح بسؤال صاحب القبر ما لا يُوجد مثله في المساجد.

وهذا لا يخفىٰ علىٰ مَن عرَف حال هؤلاء المشركين مع مَن كانوا يقصدون لإغاثة لهفاتهم وتفريج كرباتهم، فيقع منهم من الشرك بالله ما يَجِلُّ عن الوصف، فعبدوا غير الله بالقول والاعتقاد وأقبلوا عليه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم».

وكلُّ نصوص القرآن والسنَّة دالة علىٰ وجوب عبادة الله وحده، ودعائه وحده، وإفراد الله وحده بالألوهية التي مقتضاها الرغبة والرهبة لله وحده لا شريك له.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، وعن النُّعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**الدُّعَاءُ هُو العِبَادَةِ**» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

---

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص ٧٣).

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العبادة هي لله وحده، فلا يُصلىٰ إلا لله، ولا يُصام إلا لله، ولا يُحَج إلا إلىٰ بيت الله، ولا تُشَّد الرحال إلا إلىٰ المساجد الثلاثة؛ لكونِ هذه المساجد بناها أنبياء الله بإذن الله، ولا يُنذَر إلا لله، ولا يُحلَف إلا بالله، ولا يُدعىٰ إلا الله، ولا يُستغاث إلا بالله».

شــرْحُ المســائل:

١) **أَنَّ عَطْفَ الدُّعَاءِ عَلَىٰ الِاسْتِغَاثَةِ مِنْ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَىٰ الْخَاصِّ**: فالاستغاثة هي الدعاء بكشف الشِّدة، والدعاء عام لكل مسألة.

٢) **تَفْسِيرُ قَوْلِهِ**: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس:١٠٦]: وهو نهيٌ عن الاستغاثة بمَن لا يُغيث.

٣) **أَنَّ هَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ**: لأنه صرفُ العبادة لمخلوق.

٤) **أَنَّ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ يَفْعَلُهُ إِرْضَاءً لِغَيْرِهِ صَارَ مِنْ الظَّالِمِينَ**: وظلمُه مُضاعَف؛ لقصده غير الله وعبادة مَن سواه.

٥) **تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا**: وهو أنَّ الله وحده الذي يكشف الضُّر وينفع الخَلق.

٦) **كَوْنُ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا مَعَ كَوْنِهِ كُفْرًا**: وهذا من أعظم الضَّلال خسران الدنيا والآخرة.

٧) **تَفْسِيرُ الْآيَةِ الثَّالِثَةُ**: أنَّ ما عند الله من الرزق وأنواع الخيرات يُنال من الله وحده بعبوديته.

٨) **أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ لَا يَنْبَغِي إِلَّا مِنْ اللهِ، كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ لَا تُطْلَبُ إِلَّا مِنْهُ**: فهو وحده

---
(١) التوسُّل والوسيلة (ص ٢٩٩).

الذي بيده كل شيء، ومنه يُطلَب كل شيء.

٩) **تَفْسِيرُ الْآيَةِ الرَّابِعَةُ**: ضلال مَن دعا مَن لا يُجيبه.

١٠) **أَنَّهُ لَا أَضَلَّ مِمَّنْ دَعَا غَيْرَ اللهِ**: فالجهل بحق الله والالتفات عنه إلىٰ مَن لا يُجيب الدعاء أعظم الضلال.

١١) **أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْ دُعَاءِ الدَّاعِي لَا يَدْرِي عَنْهُ**: ولا يُمكنه إجابته.

١٢) **أَنَّ تِلْكَ الدَّعْوَةَ سَبَبٌ لِبُغْضِ الْمَدْعُوِّ لِلدَّاعِي وَعَدَاوَتِهِ لَهُ**: وسخطُ اللهِ علىٰ الداعي أعظم من عداوة المخلوق له.

١٣) **تَسْمِيَةُ تِلْكَ الدَّعْوَةِ عِبَادَةً لِلْمَدْعُوِّ**: فلا تُصرَف العبادة لغير الله، ولا تدعو غيره.

١٤) **كُفْرُ الْمَدْعُوِّ بِتِلْكَ الْعِبَادَةِ**: فالأولياء والصالحون لا يرضون بشرك الناس بهم.

١٥) **هِيَ سَبَبُ كَوْنِهِ أَضَلَّ النَّاسِ**: فالمشرِكُ -خصوصًا مَن استغاث بميتٍ- أضلُّ الناس؛ لضلاله عن حق الله الخالص، ولظلمه في ذلك، واستغاثته بمَن هو غافل عنه ولا يُجيبه، ومَن يكون له عدُّوًا.

١٦) **تَفْسِيرُ الْآيَةِ الْخَامِسَةُ**: فالله وحده هو الذي يُجيب دعوة مَن دعاه ويكشف السوء.

١٧) **الْأَمْرُ الْعَجِيبُ، وَهُوَ إِقْرَارُ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ أَنَّهُ لَا يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِلَّا اللهُ، وَلِأَجْلِ هَذَا يَدْعُونَهُ فِي الشَّدَائِدِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**: والموحِّدون لا يدعون إلا الله في السَّراء والضَّراء.

١٨) **حِمَايَةُ الْمُصْطَفَىٰ ﷺ حِمَىٰ التَّوْحِيدِ، وَالتَّأَدُّبُ مَعَ اللهِ**: حيث قال لمَن استغاث به: «**إنه لا يُستغاث بي، ولكن يُستغاث بالله**».

الْبَابُ الرَّابِعُ عَشَر

بَابُ: قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾

[الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

- وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].
- وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فَقَالَ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟**» فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].
- وَفِيهِ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ -إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الْفَجْرِ-: «**اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا**»، بَعْدَ مَا يَقُولُ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ**»؛ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].
- وَفِي رِوَايَةٍ: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].
- وَفِيهِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ؛ لَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ -عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ- لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**».

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ.

٢) قِصَّةُ أُحُدٍ.

٣) قُنُوتُ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ، وَخَلْفَهُ سَادَاتُ الْأَوْلِيَاءِ يُؤَمِّنُونَ فِي الصَّلَاةِ.

٤) أَنَّ الْمَدْعُوَّ عَلَيْهِمْ كُفَّارٌ.

٥) أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الْكُفَّارِ، مِنْهَا: شَجُّهُمْ نَبِيَّهُمْ، وَحِرْصُهُمْ عَلَىٰ قَتْلِهِ. وَمِنْهَا: التَّمْثِيلُ بِالْقَتْلَىٰ، مَعَ أَنَّهُمْ بَنُو عَمِّهِمْ.

٦) أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

٧) قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨]؛ فَتَابَ عَلَيْهِمْ فَآمَنُوا.

٨) الْقُنُوتُ فِي النَّوَازِلِ.

٩) تَسْمِيَةُ الْمَدْعُوِّ عَلَيْهِمْ فِي الصَّلَاةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ.

١٠) لَعْنُ الْمُعَيَّنِ فِي الْقُنُوتِ.

١١) قِصَّتُهُ ﷺ لَمَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

١٢) جِدُّهُ ﷺ، بِحَيْثُ فَعَلَ مَا نُسِبَ بِسَبَبِهِ إِلَىٰ الْجُنُونِ، وَكَذَلِكَ لَوْ يَفْعَلُهُ مُسْلِمٌ الْآنَ.

١٣) قَوْلُهُ لِلْأَبْعَدِ وَالْأَقْرَبِ: «**لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللهِ شَيْئًا**»، حَتَّىٰ قَالَ: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللهِ شَيْئًا**»، فَإِذَا صَرَّحَ -وَهُوَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ- بِأَنَّهُ لَا يُغْنِي شَيْئًا عَنْ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَآمَنَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ ﷺ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ، ثُمَّ نَظَرَ فِيمَا وَقَعَ فِي قُلُوبِ خَوَاصِّ النَّاسِ الْيَوْمَ، تَبَيَّنَ لَهُ التَّوْحِيدُ وَغُرْبَةُ الدِّينِ.

الشَّرح

هذا الباب فيه بيانُ تفرُّدِ الله بالألوهية وانتفاؤها عمَّن سواه، الذين هم مربوبون مخلوقون لله، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عن أن يملكوه لغيرهم.

ابتدأ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب ببيان أن الأنداد لله لا تستحق الألوهية، حيث استدل بقوله تعالىٰ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١].

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنهم مخلوقون فلا يصح أن يكونوا شركاء لمَن هم خَلقُه وعبيده».

وقال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إن جميع ما يُعبد من دون الله من مَلِكٍ وبشرٍ، ومن شجرٍ وحجرٍ وغيرها كلهم فقراء إلىٰ الله، عاجزون، ليس بيدهم من النفع مثقال ذرة، ولا يَخلقون شيئًا وهم يُخلقون، ولا يملكون ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، واللهُ تعالىٰ هو الخالق لكل مخلوق، وهو الرازق لكل مرزوق، المدبر للأمور كلها، الضار النافع، المعطي المانع، الذي بيده ملكوت كل شيء، وإليه يرجع كل شيء، وله يُقصد ويُصمد ويَخضع كلُّ شيء».

وقال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «بيَّن اللهُ عجْزَ هذه الأصنام، وأنَّها لا تصلح أن تكون معبودةً من أربعة وجوه، هي:

١) أنها لا تَخلق، ومَن لا يَخلق لا يستحق أن يُعبد.

٢) أنهم مخلوقون من العدم، فهم مفتقرون إلىٰ غيرهم ابتداءً ودوامًا.

---

(١) قرة عيون الموحدين ص٩٥

(٢) القول السديد شرح كتاب التوحيد ص٥٦

(٣) شرح كتاب التوحيد ص٢٧٦، ٢٧٧، مجموع الفتاوىٰ، المجلد التاسع.

٣) أنهم لا يستطيعون نصْرَ الداعين لهم، وقوله: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٢] أبلغ من قوله: (لا ينصرونهم)؛ لأنه لو قال: (لا ينصرونهم) فقد يقول قائل: لكنهم يستطيعون، لكن لمَّا قال: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ [الأعراف: ١٩٢] كان أبلغ لظهور عجزهم.

٤) أنهم لا يستطيعون نصْرَ أنفسهم».

وكلُّ ما عُبد من دون الله فهو مربوبٌ مخلوقٌ لله، أمرُه إلىٰ الله، لا يملك لنفسه موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ولا يستطيع دفْعَ الضر عن نفسه فضلًا عن دفعه عن غيره.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

فاللهُ الذي ليس له كفو هو الذي تجب له العبودية وحده، وإذا تأملتَ أنداد المشركين عَلِمتَ ضلال وسفه المشركين.

قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قوله: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾ [سبأ: ٢٧] أي: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أندادًا وصيرتموها له عدْلًا.

﴿كَلَّا ﴾ [سبأ: ٢٧] أي: ليس له نظير، ولا نديد، ولا شريك، ولا عديل.

ولهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٧] أي: الواحد الأحد، الذي لا شريك له، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٧] أي: ذو العِزَّة الذي قد قهر بها كل شيء، وغلبتْ كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، تعالىٰ وتقدَّس عما يقولون علوًّا كبيرًا».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٧٧٩، ٧٨٠).

والشرك مبناه على الكذب والإفك، قال تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أصلُ الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم، فإنَّ المشرك يزعم أن مَن اتخذ معبودًا من دون الله يقرِّبه إلى الله ويشفع له عنده ويقضي حاجته بواسطته؛ كما تكون الوسائط عند الملوك، فكلُّ مشركٍ قائلٌ على الله بلا علم».

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أي: ومَن دعا مع الله آلهةً غيره بلا بيِّنة من أمره ولا برهان يدل على ما ذهب إليه، وهذا قيدٌ ملازم، فكل مَن دعا غير الله فليس له برهان على ذلك؛ بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرضَ عنها ظلمًا وعنادًا، فهذا سيَقدُم على ربه فيجازيه بأعماله، ولا ينيله من الفلاح شيئًا؛ لأنه كافر ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فكفرهم منعهم من الفلاح».

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «تأمَّلْ كيف أَخذتْ هذه الآية على المشركين بمجامع

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٠٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٥٩٠

(٣) الصواعق المرسلة (١/ ٤٦١، ٤٦٢).

الطُّرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسدتها عليهم أحكم سدٍّ وأبلغه، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود؛ لما يرجو من نفعه، وإلا فلو لمْ يرجُ منه منفعةً لم يتعلق قلبه به، وحينئذٍ فلا بد أن يكون المعبود مالكًا للأسباب التي ينتفع بها عابده أو شريكًا لمالكها، أو ظهيرًا أو وزيرًا ومعاونًا له، أو وجيهًا ذا حرمة وقدر يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت؛ انتفتْ أسبابُ الشركِ وانقطعتْ مَوادُّه.

فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السماوات والأرض، فقد يقول المشرك: هي شريكة لمالك الحق، فنفى شركتها له، فيقول المشرك: قد تكون ظهيرًا ووزيرًا ومعاونًا، فقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، فلم يبقَ إلا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم، وأخبر أنه لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، فهو الذي يأذن للشافع، فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه كما يكون في حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته، وإن لم يأذن له فيها.

وأمَّا كلُّ ما سواه فقير إليه بذاته، وهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟!».

واستدل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب بالنهي عن الاستغاثة بغير الله بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]؛ ليبيِّن أن الأنداد التي يدعوها المشركون لا تملك أسباب النفع والضر، فكيف يصمد إليها الضالون، ويرجون نفعها وضرها؟!

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ابتدأ تعالىٰ هذه الآيات بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [فاطر: ١٣]، يخبر الخبير أن المُلْكَ لله وحده، والملوك وجميع الخَلق تحت تصرفه وتدبيره؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، فإنَّ مَن كانت هذه صفته لا يجوز أن يُرغب في طلبِ نفعٍ أو دفعِ ضرٍّ إلىٰ أحدٍ سواه تعالىٰ وتقدَّس؛ بل يجب إخلاص الدعاء له الذي هو من أعظم أنواع العبادة.

وأخبرَ تعالىٰ أن ما يدعوه أهل الشرك لا يملك شيئًا، وأنهم لا يسمعون دعاء مَن دعاهم، ولو فُرض أنهم يسمعون فلا يستجيبون لداعيهم، وأنهم يوم القيامة يَكفرون بشركهم، أي: ينكرونه، ويتبرؤون ممن فعله معهم، فهذا الذي أخبر به الخبير الذي ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وأخبر أن ذلك الدعاء شركٌ به، وأنه لا يغفره لمَن لقيه به».

وحديثُ أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيه استعتاب الله لنبيه ﷺ، فإن الكفار في غزوة أُحُدٍ شجوا وجهه وكسروا رباعيته، وقتلوا جماعةً من خيار أصحابه، فقال: «**كيف يُفلح قومٌ شجوا نبيهم؟**» ودعا علىٰ أعيان الكافرين باللعنة، فعاتبه الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الهداية إليه وحده، فقال سبحانه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إن معناها إفراد الرب تعالىٰ بالأمر، وأنه ليس لغيره أمرٌ؛ بل إن شاء الله تعالىٰ قطع طرفًا من الكفار، وإن شاء كبتهم فانقلبوا بالخسارة، وإن شاء تاب عليهم، وإن شاء عذَّبهم».

(١) قرة عيون الموحدين (ص٩٥).
(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٢/ ١٣٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «إن الله إذا كان قد قال لنبيه ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] فأيش نكون نحن؟!».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ الحُكْمَ في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له، فقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، أي: بل الأمر كله إليَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]».

وذَكرَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خاتمة الباب حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ ليبيِّن أن محمدًا رسول الله ﷺ إنما هو مبلِّغٌ عن الله وحيه، وليس له من الأمر شيء، وهداية التوفيق للإسلام، والتصديق لخبر الله، والانقياد لأمره ونهيه للهِ وحده لا شريك له، وما عليه إلا البلاغ المبين، وهداية الدلالة إلىٰ صراط الله المستقيم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣].

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، دلَّ النبي ﷺ قرابته وأُمَّته علىٰ أسباب نجاتهم من النار ودخول الجنة.

فقال النبي ﷺ: «**اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ؛ لَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»، قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «أي: بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له، وعدم الإشراك به، وطاعته فيما أمرَ، والانتهاء عمَّا عنه زجرَ، فإن جميع ذلك ثمن النجاة والخلاص من عذاب الله، لا الاعتماد علىٰ الأنساب، وترْك الأسباب، فإنَّ ذلك غير نافع عند رب الأرباب».

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٢/ ١٣٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٦١).
(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (١/ ٥٤٥).

وقال العَلَّامة سليمان آل الشيخ[1]: «دفعَ بقوله: «**لا أغني عنكم من الله شيئًا**» ما عساه أن يتوهمه بعضهم أنه يغني عنهم من الله شيئًا بشفاعته، فإذا كان لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا يدفع عن نفسه عذاب ربه لو عصاه، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥] فكيف يملك لغيره نفعًا أو ضرًّا، أو يدفع عنه عذاب الله؟!

وأمَّا شفاعته ﷺ في بعض العصاة فهو أمرٌ من الله ابتداءً، فضلًا عليه وعليهم، لا أنه يشفع فيمَن يشاء، ويُدخِل الجنة مَن يشاء».

شــرْحُ المســائل:

١) **تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ**: الشركاء مع الله لا يملكون النفع والضر ولا النصر.

٢) **قِصَّةُ أُحُدٍ**: اشتد أذىٰ الكفار للنبي ﷺ يومَ أُحُدٍ، فاستبعد هدايتهم وقال: «**كيف يفلح قومٌ شجوا نبيهم؟**» فاستعتبه اللهُ في ذلك قائلًا سبحانه: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

٣) **قُنُوتُ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ، وَخَلْفَهُ سَادَاتُ الْأَوْلِيَاءِ يُؤَمِّنُونَ فِي الصَّلَاةِ**: ومتىٰ حصلت للمسلمين نوازل شُرِع لهم القنوت.

٤) **أَنَّ الْمَدْعُوَّ عَلَيْهِمْ كُفَّارٌ**: الدعاء من جملة الأسباب في مواجهة العدو.

٥) **أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الْكُفَّارِ، مِنْهَا: شَجُّهُمْ نَبِيَّهُمْ، وَحِرْصُهُمْ عَلَىٰ قَتْلِهِ. وَمِنْهَا: التَّمْثِيلُ بِالْقَتْلَىٰ، مَعَ أَنَّهُمْ بَنُو عَمِّهِمْ**: الكفار أنواع بحسب تغلُّظ كفرهم، واشتداد أذاهم للمسلمين.

٦) **أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ**: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]: الهداية من الله.

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (١/ ٥٤٦).

٧) **قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾** [آل عمران: ١٢٨]؛ **فَتَابَ عَلَيْهِمْ فَآمَنُوا:** الله ﷻ مُسبِّب الأسباب.

٨) **الْقُنُوتُ فِي النَّوَازِلِ:** لا يزال مشروعًا.

٩) **تَسْمِيَةُ الْمَدْعُوِّ عَلَيْهِمْ فِي الصَّلَاةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ:** تعيين أعيان الكافرين بالدعاء عليهم مشروع.

١٠) **لَعْنُ الْمُعَيَّنِ فِي الْقُنُوتِ:** بسبب كفره وقتاله للإسلام واشتداد أذاه للمؤمنين.

١١) **قِصَّتُهُ ﷺ لَمَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾:** أدَّىٰ النبي ﷺ واجب الدعوة إلىٰ الله، وأنذر العام من كل الناس، والخاص من قرابته.

١٢) **جِدُّهُ ﷺ، بِحَيْثُ فَعَلَ مَا نُسِبَ بِسَبَبِهِ إِلَىٰ الْجُنُونِ، وَكَذَلِكَ لَوْ يَفْعَلُهُ مُسْلِمٌ الْآنَ:** فلا يترك المسلم واجب الدعوة إلىٰ الله لسفهِ الجاهلين.

١٣) **قَوْلُهُ لِلْأَبْعَدِ وَالْأَقْرَبِ: «لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللهِ شَيْئًا»، حَتَّىٰ قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! لا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللهِ شَيْئًا»، فَإِذَا صَرَّحَ -وَهُوَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ- بِأَنَّهُ لَا يُغْنِي شَيْئًا عَنْ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَآمَنَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ ﷺ لا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ، ثُمَّ نَظَرَ فِيمَا وَقَعَ فِي قُلُوبِ خَوَاصِّ النَّاسِ الْيَوْمَ، تَبَيَّنَ لَهُ التَّوْحِيدُ وَغُرْبَةُ الدِّينِ:** الجنةُ يدخلها الناس بأسبابها، من التوحيد والعمل الصالح.

❖ ❖ ❖

الْبَابُ الْخَامِسُ عَشَر

بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾

[سبأ: ٢٣].

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◈ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، **فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ -وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ- فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيَهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ**».

◈ وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ، تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمَاوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ- شَدِيدَةٌ، خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صَعِقُوا وَخَرُّوا للهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرَائِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرَائِيلُ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرَائِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرَائِيلُ: قَالَ الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرَائِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرَائِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَىٰ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ**».

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

٢) مَا فِيهَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَىٰ إِبْطَالِ الشِّرْكِ، خُصُوصًا مَا تَعَلَّقَ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ، وَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي قِيلَ: إِنَّهَا تَقْطَعُ عُرُوقَ شَجَرَةِ الشِّرْكِ مِنَ الْقَلْبِ.

٣) تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

٤) سَبَبُ سُؤَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ.

٥) أَنَّ جِبْرَائِيلَ يُجِيبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «**قَالَ: كَذَا وَكَذَا**».

٦) ذِكْرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ: جِبْرَائِيلُ.

٧) أَنَّهُ يَقُولُ لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ.

٨) أَنَّ الْغَشْيَ يَعُمُّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ كُلَّهُمْ.

٩) ارْتِجَافُ السَّمَاوَاتِ لِكَلَامِ اللهِ.

١٠) أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يَنْتَهِي بِالْوَحْيِ إِلَىٰ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ.

١١) ذِكْرُ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ.

١٢) صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

١٣) إِرْسَالُ الشِّهَابِ.

١٤) أَنَّهُ تَارَةً يُدْرِكُهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَتَارَةً يُلْقِيهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ مِنَ الْإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ.

١٥) كَوْنُ الْكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ.

١٦) كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ.

١٧) أَنَّهُ لَمْ يُصَدَّقْ كَذِبَهُ إِلَّا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ.

١٨) قَبُولُ النُّفُوسِ لِلْبَاطِلِ، كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِمِائَةٍ؟!

١٩) كَوْنُهُمْ يَتَلَقَّىٰ بَعْضُهُمُ مِنْ بَعْضٍ تِلْكَ الْكَلِمَةَ وَيَحْفَظُونَهَا وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا.

٢٠) إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ لِلْمُعَطِّلَةِ.

٢١) أَنَّ تِلْكَ الرَّجْفَةَ وَالْغَشْيَ خَوْفٌ مِنَ اللهِ.

٢٢) أَنَّهُمْ يَخِرُّونَ للهِ سُجَّدًا.

الشَّرح

هذا الباب فيه بيانُ عَظَمةِ الله الموجبة لعبوديته وتوحيده وحده لا شريك له، فالملائكة مخلوقات عظيمة تفزع لسماع كلام الله ﷻ وتخضع لعظمته، وهكذا كلُّ مَن عرف عظمة الله من الموحِّدين خضع لله وحده وعبَده.

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة بيان حال الملائكة الذين هم أقوىٰ وأعظم مَن عُبد من دون الله، فإذا كان هذا حالهم مع الله تعالىٰ، وهيبتهم منه، وخشيتهم له، فكيف يدعوهم أَحَدٌ من دون الله؟!».

والفزع الذي يصيب الملائكة هو بسبب سماع كلام الله، وهذا دالٌّ علىٰ عظمة الله، والتابعون الذين تلقوا الدِّين عن الصحابة أخبروا عما سمعوه منهم في ذلك.

قال مسروق: «مَن كان يُحدِّثنا بهذه الآية لولا ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سألناه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ [سبأ: ٢٣]، قال: سَمِع أهلُ السماوات صَلصَلة مثل صلصلة السلسلة علىٰ الصَّفْوَان فيخرون، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ [سبأ: ٢٣] سكنَ الصوتُ؛ عَرَفوا أنه الوحي، ونادوا ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣]»، رواه البخاري في خلقِ أفعال العباد.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٥٥٤).

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ نبي الله قال: إذا قضىٰ اللهُ الأمر في السماء ضربت الملائكة أجنحتها خضعانًا لقوله كأنه سلسلة علىٰ الصفوان، فإذا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]».

هذا حالُ الملائكة، فَزِعُون من خشية الله، وهم الذين لا يفترون عن طاعة الله، يسبحون الليل والنهار.

وكذلك الحال بالنسبة للسماوات إذا تكلم الله بالأمر، فقد وردَ في حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أراد اللهُ أن يوحي بأمره تكلَّم بالوحي، فإذا تكلَّم أخذتِ السماواتُ منه رجفة -أو قال: رعدة شديدة- من خوف الله، فإذا سَمِع بذلك أهل السماوات صُعقوا وخروا لله سُجَّدًا**»، رواه ابن أبي حاتم والطبري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «هذا الذي جاء به الكتاب والسُّنة والآثار مما يصيب الملائكة عند سماع الوحي إذا قضىٰ الله الأمر يتناول ما يقضيه بخَلقه وقدره، وما يقضيه بشرعه وبأمره. فإنهم ذكروا ذلك عند تكلمه بالقرآن، وعندما يقضيه من الحوادث».

فالملائكة ليس لها ملْك في السموات والأرض، وليس لهم ظهير يعينهم علىٰ ذلك، ولا يشفعون إلا بعد أن يأذن الله لهم، وهكذا كلُّ مَن دون الله.

قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٖ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٥/ ٢٩٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هذه الآية وما فيها من الأحاديث المتعددة في الصِّحاح والسُّنن والمسانيد والآثار المأثورة عن السلف في تفسيرها، فيها أصولٌ من أصول الإيمان يُبَيِّنُ بها ضلالُ مَن خالَفَ ذلك من المتفلسفة الصابئة والجهمية ونحو هؤلاء، ففيها ما دل عليه القرآن من أن الملائكة لا يشفعون إلا بعد أن يأذن الله لهم فضلًا عن أن يتصرفوا ابتداء».

وذَكرَ شيخ الإسلام ابن تيمية ما في الآية من نفي كل أسباب الشرك بالملائكة ومَن سواهم لله رب العالمين، فقال(٢): «سلبهم المُلْكَ والشركة والمعاونة والشفاعة إلا بإذنه».

ودلَّ قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقوله ﷺ: «**إذا قضىٰ الله الأمر في السماء، فُزع عن قلوبهم -الملائكة-، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق**»، علىٰ أن الله يتكلم حقيقةً بصوتٍ وحَرْفٍ. وهكذا سَمِع موسىٰ كلام الله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالىٰ مُكلِّمًا موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم: ٥٢].

قال العَلَّامة أبو نصر السجزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «النداء عند العرب صوتٌ لا غير».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «(النداء) في لغة العرب هو صوتٌ رفيع، لا يُطلق النداء علىٰ ما ليس بصوتٍ لا حقيقةً ولا مجازًا».

---

(١) مجموع كلام شيخ الإسلام في التفسير (٥/ ٢٩٤).
(٢) مجموع كلام شيخ الإسلام في التفسير (٥/ ٢٩٦).
(٣) الرد علىٰ من أنكر الحروف والصوت (ص١٦٧).
(٤) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٥٣١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[(١)]: «عُلِم بإجماع الأُمَّة ما استفاضت به السُّنن عن النبي ﷺ من تخصيص موسىٰ بتكليم الله إياه؛ دلَّ ذلك علىٰ أن الذي حصل له ليس من جنس الإلهامات وما يُدرك بالقلوب، وإنما هو كلامٌ مسموع بالآذان، ولا يُسمع بها إلا ما هو صوتٌ».

ومن النصوص الدالة علىٰ أنه تعالىٰ يتكلم بحَرْفٍ: حديثُ ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَن قرأ حَرْفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، لا أقول: (الم) حَرْف، ولكن (أَلِفٌ) حَرْف، و(لامٌ) حَرْف، و(مِيمٌ) حَرْف**»، رواه الترمذي.

وقال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «**فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأَ بحَرْفٍ منهما إلا أُوتيته**»، رواه مسلم.

قال الحافظ أبو نصر السجزي رحمه الله[(٢)]: «فلمَّا سمَّىٰ سبحانه هذا القرآن العربي الفصل كلامه -سبحانه- عُلِم أنَّ كلامَه حُروف، كيف وقد أكَّد ذلك بذِكرِ الحروف المقطّعة في أوائل السور منه، مثل: (الم)، و(الر)، و(كهيعص)، و(طه)، و(حم)، و(يس)، و(ص)، و(ق)، و(ن)».

وقال أيضًا[(٣)]: «والنبي ﷺ يقول: «**مَن قرأ سورة الإخلاص**»، و«**مَن قرأ آية الكرسي**»، و«**مَن قرأ حَرْفًا من القرآن**»، فبيَّنَ أن القرآنَ سورٌ وآيٌ وحُروف».

وكلامُ اللهِ عز وجل بصوتٍ وحَرْف يليق بعظمته وجلاله، لا يماثل كلام المخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

ومن فوائد الآية وحديث الباب: إثباتُ الإيمان بالملائكة، والإيمان بصفاتهم.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٥٣٢).
(٢) الرد علىٰ من أنكر الحرف والصوت (ص١٥٤).
(٣) الرد علىٰ من أنكر الحرف والصوت (ص١٥٥).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «في الآية فوائد:

١) أن الملائكة يخافون الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ﴾ [النحل: ٥٠].

٢) إثبات القلوب للملائكة، لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ﴾ [سبأ: ٢٣].

٣) إثبات أنهم أجسام، وليسوا أرواحًا مُجرَّدة من الجسمية، وهو أمرٌ معلوم بالضرورة، قال تعالىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٍ ﴾ [فاطر: ١]، وقد رأىٰ النبي ﷺ جبريل له ستمائة جناح قد سدَّ الأُفق.

فالقول بأنهم أرواح فقط إنكارٌ لهم في الواقع، وهو قولٌ باطل.

لكنهم لا يأكلون ولا يشربون، وإنما أَكْلُهم وشربهم التسبيح؛ بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ففي هذا دليل علىٰ أن ليلهم ونهارهم مملوآن بذلك، ولهذا جاء ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ ﴾، ولم يقل: يُسبِّحون في الليل، أي: أن تسبيحهم دائمٌ، والتسبيحُ: تنزيهُ اللهِ عما لا يليق به.

٤- أنَّ لهم عقولًا؛ إذ إنَّ القلوب هي محل العقول، خلافًا لمَن قال: إنهم لا يعقلون، ولأنهم يسبحون الله، ويطوفون بالبيت المعمور».

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ الْآيَةِ**: ليس للملائكة مثقال ذرة من المُلْك، وليس لهم ظهير علىٰ ذلك، ولا يشفعون إلا بعد إذن الله.

٢) **مَا فِيهَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَىٰ إِبْطَالِ الشِّرْكِ، خُصُوصًا مَا تَعَلَّقَ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ، وَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي قِيلَ: إِنَّهَا تَقْطَعُ عُرُوقَ شَجَرَةِ الشِّرْكِ مِنَ الْقَلْبِ**: فليس لمَن دون الله مُلْك ولا ظهير ولا شفيع.

---

(١) شرح كتاب التوحيد (ص٣٠٠، ٣٠١)، مجموع الفتاوىٰ المجلد التاسع.

٣) **تَفْسِيرُ قَوْلِهِ:** ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾: الله لا يقول إلا الحق، وهو الكامل في صفاته، العلي بذاته، ذو العظمة والكبرياء.

٤) **سَبَبُ سُؤَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ:** لأنهم صُعقوا من كلام الله.

٥) **أَنَّ جِبْرَائِيلَ يُجِيبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:** «قَالَ: كَذَا وَكَذَا»: وذلك تفضيلًا من الله له علىٰ سائر الملائكة، ولِمَا جعلَ اللهُ فيه من القوة والأمانة في تبليغ كلام الله.

٦) **ذِكْرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ: جِبْرَائِيلُ:** تفضيلًا له من الله.

٧) **أَنَّهُ يَقُولُ لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ:** لأن الله وَكله بذلك.

٨) **أَنَّ الْغَشْيَ يَعُمُّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ كُلَّهُمْ:** وذلك لعظمة الله.

٩) **اِرْتِجَافُ السَّمَاوَاتِ لِكَلَامِ اللهِ:** خضعانًا لعظمة الله.

١٠) **أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يَنْتَهِي بِالْوَحْيِ إِلَىٰ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ:** فيؤدي كلام الله إلىٰ حيث أراد سبحانه.

١١) **ذِكْرُ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ:** إذا لم يدركه الشهاب.

١٢) **صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا:** كالسُّلَّم يستمعون ما تقول الملائكة في السماء مما تكلم الله به.

١٣) **إِرْسَالُ الشِّهَابِ:** حفظًا للسماء من استراق الجن للسمع.

١٤) **أَنَّهُ تَارَةً يُدْرِكُهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَتَارَةً يُلْقِيهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ مِنَ الْإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ:** كل ذلك بمشيئة الله.

١٥) **كَوْنُ الْكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ:** إذا أدَّىٰ بما سُمِع في السماء كما هو.

١٦) **كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ:** تزيدًا في الكلام، وإضلالًا للخَلق.

١٧) **أَنَّهُ لَمْ يُصَدَّقْ كَذِبُهُ إِلَّا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ:** يُروِّج بذلك الكاهن كذبه.

١٨) **قَبُولُ النُّفُوسِ لِلْبَاطِلِ، كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِمِائَةٍ؟!:** لنقص عقولهم، ولتعلُّقهم بالأوهام الكاذبة.

١٩) **كَوْنُهُمْ يَتَلَقَّىٰ بَعْضُهُمُ مِنْ بَعْضٍ تِلْكَ الْكَلِمَةَ وَيَحْفَظُونَهَا وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا**: المُبلِّغ عن الكاذب مشاركٌ له في الإثم، والكُهّان كاذبون، يتبعهم الغاوون.

٢٠) **إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ الْمُعَطِّلَةِ**: فاللهُ يتكلم، وهو العلي الكبير.

٢١) **أَنَّ تِلْكَ الرَّجْفَةَ وَالْغَشْيَ خَوْفٌ مِنْ اللهِ**: ومع قسوة القلوب ونقصِ العِلم بالله ضعفتْ خشيتنا من الله.

٢٢) **أَنَّهُمْ يَخِرُّونَ للهِ سُجَّدًا**: فالسجود أفضل مقامات العبودية.

۞ ۞ ۞


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosailulilmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَابُ السَّادِسُ عَشَر

بَابُ الشَّفَاعَةِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◈ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

◈ وَقَوْلِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾.[الزمر: ٤٤]

◈ وَقَوْلِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

◈ وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

◈ وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

◈ قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: «نَفَىٰ اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَنَفَىٰ أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ، أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا للهِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ -لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا- ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**».

وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**»، فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لأَهْلِ الإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ.

وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَىٰ أَهْلِ الإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالإِخْلَاصِ». انْتَهَىٰ كَلَامُهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) تَفْسِيرُ الْآيَاتِ.

٢) صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمَنْفِيَّةِ.

٣) صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمُثْبَتَةِ.

٤) ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ الْكُبْرَىٰ، وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ.

٥) صِفَةُ مَا يَفْعَلُهُ ﷺ: أَنَّهُ لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ؛ بَلْ يَسْجُدُ، فَإِذَا أُذِنَ لَهُ شَفَعَ.

٦) مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِهَا؟

٧) أَنَّهَا لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ.

٨) بَيَانُ حَقِيقَتِهَا.

الشَّرْح

الشفاعة لغةً: تدل علىٰ مقارنة الشيئين، من ذلك الشفع خلاف الوتر(١).

والشفاعة في الاصطلاح: التوسط في أمرٍ، فيترتب عليه خيرٌ من دفعِ ضرٍّ أو جلبِ نفعٍ(٢).

والاعتقاد في الشفاعة ضل فيه الخوارج والقبوريون المشركون، فالخوارج أنكروا الشفاعة للعصاة من الموحدين، والقبوريون جعلوا الموتىٰ وسائط في دعاء الله.

فالخوارج والمعتزلة والزيدية أنكروا الشفاعة لعصاة المسلمين، وقالوا: «مَن يدخل النار لا يخرج منها، لا بشفاعة ولا بغيرها».

وعند هؤلاء ما ثم إلا مَن يدخل الجنة فلا يدخل النار، ومَن يدخل النار فلا يدخل الجنة، ولا يجتمع عندهم في الشخص الواحد ثواب وعقاب(٣).

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بالنصوص التي فيها نفيُ الشفاعة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وهذا النفي يُراد به شيئان:

أحدهما: أنها لا تنفع المشركين، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، ومفهوم المخالفة أن المؤمنين تنفعهم شفاعة الشافعين.

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/ ٢٠١).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ١٤١٩).

(٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص١٠، ١١.

والثاني: أنه يُراد بذلك نفيُ الشفاعة التي أثبتها المشركون ومَن شابههم من أهل البدع الذين يظنون أن للخَلق عند الله من القدْر أن يشفعوا عنده بغير إذنه.

والنصوص من القرآن التي ذكَرها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب، دالةٌ علىٰ ثبوت الشفاعة بشروطها، قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]

- فالشرط الأول: إذْنُ اللهِ للشافع.
- والثاني: رضاه عن المشفوع له.

والشفاعة نوعان: عامَّة وخاصَّة.

- **أمَّا العامة**: فهي فيمن استحق دخول النار أن لا يدخلها، قال النبي ﷺ: «**ما من مُسلِمٍ يموت فيقوم علىٰ جنازته أربعون رَجُلًا لا يشركون بالله شيئًا إلَّا شفَّعهم اللهُ فيه**»، رواه مسلم.

قال شيخنا العلامة المجدد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هذه شفاعة قبل أن يدخل النار، فيشفعهم الله في ذلك».

- **والنوع الثاني من الشفاعة العامة**: الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، ففي الصحيحين من حديث أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**يخرج من النار مَن قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزْنُ بُرَّة من خيرٍ، ويخرج من النار مَن قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزْنُ ذرَّة من خيرٍ**».

والخوارج كفَّروا المسلمين بكبائر المعاصي، وقالوا بخلودهم في نار جهنم، والمعتزلة حكموا علىٰ عصاة الموحدين ممن أتوا بالكبائر بالخلود في نار جهنم، وقالوا: هؤلاء ليسوا مسلمين ولا كفارًا، وهم في منزلة بين المنزلتين.

---

(١) القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد (١/ ٣٣٥).

فاتفق الخوارج والمعتزلة علىٰ القول بخلود عصاة الموحدين في النار، واختلفوا في مُسمَّاهم، فالخوارج قالوا: هم كفار، والمعتزلة قالوا: ليسوا مسلمين ولا كفارًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الخوارج والمعتزلة أنكروا شفاعته لأهل الكبائر، فقالوا: لا يشفع لأهل الكبائر، بناءً علىٰ أن أهل الكبائر عندهم لا يغفر الله لهم ولا يخرجهم من النار بعد أن يدخلوها لا بشفاعة ولا غيرها.

ومذهب الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر أهل السنة والجماعة: أنه ﷺ يشفع في أهل الكبائر، وأنه لا يخلد في النار من أهل الإيمان أَحَدٌ، بل يخرج من النار مَن في قلبه مثقال حبةٍ من إيمان أو مثقال ذرةٍ من إيمان».

وسببُ إنكارِ الخوارج والمعتزلة للشفاعة في عصاة المسلمين هو تكفيرهم للعصاة؛ لأن عندهم أن الإيمان قطعة واحدة إما يبقىٰ كله أو يذهب كله.

وهذه عقيدة باطلة، فإن الإيمان ذو شُعَبٍ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بضعٌ وستون شُعبَة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياءُ شُعبَةٌ من الإيمان**».

والمسلم إذا خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا من الذنوب التي لا تُخرِج من الملة، سواء كانت من الصغائر أو الكبائر، فإنْ رجحت حسناته علىٰ سيئاته كان من أهل الثواب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وإنْ رجحت سيئاته علىٰ حسناته؛ استحق العقاب، وأمْرُه إلىٰ الله، إن شاء عذَّبه، وإن شاء غفر له، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص٣١١).

ومَن شاء الله تعذيبه من عصاة المسلمين فهؤلاء لا يُخلَّدون في نار جهنم، ويكون مكثهم فيها بقَدْر ما يُطهِّرهم من ذنوبهم.

قال شيخ المُفسِّرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عصاة الموحدين[١]: «هم في مشيئة الله تعالىٰ ذِكرُه، إن شاء أنْ يُعذِّبَهم عذَّبهم وأدخلهم النار بذنوبهم، وإن شاء عفا عنهم بفضله ورحمته فأدخلهم الجنة.

غير أنه إن أدخلهم النار فعاقبهم بها لم يُخلِّدهم فيها، ولكنه يعاقبهم فيها بقَدْر إجرامهم، ثم يخرجهم بعد عقوبته إياهم بقَدْر ما استحقوا فيدخلهم الجنة؛ لأن الله جلَّ ثناؤه وعدَ علىٰ الطاعة الثواب، وأوعد علىٰ المعصية العقاب، ووعد أن يمحق بالحسنة السيئة، ما لم تكن السيئة شركًا».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الحسنات والسيئات تتدافع وتتقابل، ويكون الحُكْمُ فيها للغالب، وهو يقهر المغلوب ويكون الحُكْمُ له حتىٰ كأنَّ المغلوب لم يكن، فإذا غلبت علىٰ العبد الحسنات، دفعت حسناته الكثيرة سيئاته.

ومتىٰ تاب من السيئة ترتب علىٰ توبته منها حسنات كثيرة قد تُرْبِي وتزيد علىٰ الحسنة التي حبطت بالسيئة.

فإذا عزمت التوبة وصحَّت ونشأت من صميم القلب، أحرقت ما مرت عليه من السيئات حتىٰ كأنها لم تكن، فإن التائب من الذنب كمَن لا ذنب له».

والوعيد والعقاب علىٰ الذنوب قد يتخلف لمانع، ولا يلزم من وجود مقتضىٰ الحُكْم، وجود الحُكْم؛ فإنَّ الحُكْم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه[٣]، والتوحيد مانع من الخلود في نار جهنم، وموانع العقوبة علىٰ الذنوب كثيرة.

---

(١) التبصير في معالم الدين (ص١٨٣، ١٨٤).

(٢) الوابل الصيب (ص٢٣، ٢٤).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٩٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «حيث قُدِّرَ قيام المُوجِب للوعيد، فإنَّ الحُكْم يتخلف عنه لمانع، وموانع لُحُوق الوعيد متعددة: منها التوبة، ومنها الاستغفار، ومنها الحسنات الماحية للسيئات، ومنها بلاء الدنيا ومصائبها، ومنها شفاعةُ شفيعٍ مطاع، ومنها رحمة أرحم الراحمين.

فإذا عُدِمَتْ هذه الأسباب كلها، ولن تُعْدَمَ إلا في حقِّ مَن عَتَا وتَمرَّد وشَردَ على الله شُرودَ البعير على أهله، فهنالك يَلْحَقُ الوعيد به».

وسببُ ضلالِ الخوارج والمعتزلة في كفرهم بالشفاعة للموحدين أنهم وضعوا نصوص القرآن في الكافرين في حق عصاة الموحدين، قال الحافظ أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إنه -المُكذِّب بالشفاعة- عمد إلى آيات من القرآن نزلت في أهل الكفر، أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ: أنهم إذا دخلوا النار أنهم غير خارجين منها، فجعلها المُكذِّب بالشفاعة في المُوحِّدين، ولم يلتفت إلى أخبار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إثبات الشفاعة، أنها إنما هي لأهل الكبائر، والقرآن يدل على هذا».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «ردَّ الخوارجُ والمعتزلة النصوص المتواترة الدالة على خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة، فكذَّبوا بها، وقالوا: لا سبيل لمَن دخلَ النار إلى الخروج منها بشفاعة ولا غيرها. ولما بهرتهم نصوص الشفاعة، وصاح بهم أهل السُّنة وأئمة الإسلام من كل قُطرٍ وجانب، ورموهم بسهام الرد عليهم، أحالوا بالشفاعة على زيادة الثواب فقط، لا على الخروج من النار».

والنصوص من الوحي تُبطِل اعتقاد المعتزلة والخوارج، منها: حديث صاحب البطاقة الذي يُنشر له تسعة وتسعون سجلًّا، كلُّ سجلٍّ منها مد البصر، ويُؤتى ببطاقة

---

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص٥٠).
(٢) الشريعة (ص٢٧٢).
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٢/ ٨٣٩).

التوحيد «لا إله إلا الله»، فتُوضع في كفة والسجلات في كفة، فتثقل البطاقة وتطيش بالسجلات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الحسنة الواحدة قد يقترن بها من الصدق واليقين ما يجعلها تكفر الكبائر».

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: انظروا مَن كان في قلبه حبة من خردل من إيمان فأخرجوه من النار، فيلقون في نهر الحياة، فينبتون كما ينبت الغثاء في حميل السيل**».

وعن عمران بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**يُخرِج اللهُ من النار قومًا بشفاعة محمدٍ ﷺ فيدخلهم الجنة، فيسميهم أهل الجنة الجهنميين**»، رواه البخاري.

وقد ظهر التكذيب بالشفاعة في الأُمَّة، وأنكرها مَن أدركها من الصحابة، قال طلق بن حبيب: «كنتُ أشد الناس تكذيبًا بالشفاعة، حتىٰ لقيتُ جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقرأتُ عليه كل آية أقدر عليها فيها ذِكر خلود النار.

فقال لي: أتراك أقرأ لكتاب الله وأعلم بالسُّنة مني؟!

قلتُ: لا.

قال: فإنَّ الذي قرأتَ هم المشركون، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوبًا، فعُذِّبوا ثم أُخرجوا من النار، وأومأ بيده إلىٰ أذنيه، فقال: «صُمَّتا إذا لم أكن سمعته من رسول الله ﷺ، ونحن نقرأ الذي تقرأه»، رواه أحمد.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ، يقول الله تعالىٰ: «**شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين**» رواه البخاري ومسلم.

---

(١) مختصر الفتاوىٰ المصرية (ص٥٧٧).

قال الحافظ أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قد رُوي من غير وجه: أن النبي ﷺ يشفع يوم القيامة لجميع ذرية آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الموحدين، بأن يخرج من النار كل موحد، ثم يشفع آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ثم الأنبياء، ثم الملائكة، ثم المؤمنون، فنعوذ بالله ممن يُكذِّب بهذا».

وأحاديث الشفاعة في خروج عصاة الموحدين متواترة كَذَّب بها المعتزلة والخوارج، وقد حاجَّهم في ذلك السلف، وما جادل بها المعتزلة والخوارج إلا تكذيبًا.

قال سفيان بن عُيَيْنَة: قَدِمَ علينا عمرُو بن عبيد ومعه رَجُل تابع له علىٰ هواه، فدخل عمرو بن عبيد الحجر، فصلىٰ فيه، وخرج صاحبه، وقام علىٰ عمرو بن دينار وهو يحدث عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ: «**يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة**»، فرجع إلىٰ عمرو بين عبيد، فقال: يا ضال، أما كنتَ تُخبِر أنه لا يخرج أحدٌ من النار؟

قال: بلىٰ.

قال: فهو ذا عمرو بن دينار يزعم أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة**».

قال: فقال عمرو بن عبيد: لهذا معنىٰ لا تعرفه.

فقال الرجل: وأي معنىٰ يكون لهذا؟! قال: وفك ثوبه من يديه وفارقه[(٢)].

قال شيخ المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إن الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ متظاهرة بنقل مَن يمتنع في نقلِه الخطأ والسهو والكذب،

---

(١) الشريعة (ص٢٨١).

(٢) أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص٥١٥).

(٣) التَّبصير في معالم الدِّين (ص١٨٤ – ١٨٦).

ويوجب نقله العلم، أنه ذَكرَ أنَّ الله جل ثناؤه يُخرِج من النار قومًا بعدما امتحشوا وصاروا حممًا، بذنوبٍ كانوا أصابوها في الدنيا ثم يدخلهم الجنة، وأنه ﷺ قال: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أُمَّتي**»، وأنه عليه السلام يشفع لأُمَّته إلىٰ ربه -عز وجل ذِكرُه- فيُقال: أخرِجْ منها منهم مَن كان في قلبه مثقال حبةٍ من خردل من إيمان».

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم رحمه الله[1]: «الأخبار التي رَوَيْنَا عن نبينا ﷺ فيما فضَّله الله به من الشفاعة، وَتَشْفِيعِهِ إياه فيما يشفع فيه، أخبار ثابتة مُوجِبَةٌ بعلم حقيقة ما حوت علىٰ ما اقتصصنا، وَالصَّادُّ عن الأخبار الْمُوجِبَةِ للعلم المتواترة كافر».

وقال حنبل: قلتُ لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: ما يروىٰ عن النبي ﷺ في الشفاعة؟

فقال: هذه أحاديث صحاح نُؤمِن بها ونُقِرّ، وكل ما روي عن النبي ﷺ بأسانيد جيدة نؤمن بها ونقر.

قلت له: وقوم يخرجون من النار؟

فقال: نعم، إذا لم نقر بما جاء به الرسول ودفعناه، رددنا علىٰ الله أمره، قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

قلت: والشفاعة؟

قال: كم حديث يروىٰ عن النبي ﷺ في الشفاعة والحوض، فهؤلاء يكذبون بها ويتكلمون، وهو قول صنف من الخوارج، وأن الله تعالىٰ لا يخرج من النار أحدًا بعد إذ أدخله، والحمد لله الذي عدل عنا ما ابتلاهم به[2].

---

(١) السُّنَّة (ص٣٥٨).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص٥٢٣، ٥٢٤).

وأما الشفاعة الخاصة: فهي التي اختص الله بها نبينا محمدًا ﷺ، وليست لأَحَدٍ غيره، فضلًا من الله وإحسانًا، وهي أنواع:

١) **الشفاعة العظمىٰ في أهل الموقف أن يُقضىٰ بينهم،** بعد أن يعتذر جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه البخاري ومسلم، وهذا هو المقام المحمود الذي يبعثه الله لنبينا صلوات الله وسلامه عليه.

٢) الشفاعة لأهل الجنة في أن يدخلوا الجنة: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**آتِي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: مَن أنتَ؟ فأقول: محمد، فيقول: بكَ أُمرتُ، لا أفتح لأَحَدٍ قبلكَ**»، رواه مسلم.

٣) الشفاعة في أبي طالب: أبو طالب مات كافرًا علىٰ ملة عبد المطلب، والكافر لا تنفعه الشفاعة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، والنبي ﷺ قد شفع في عمه لنصرته له، فلم تنفعه شفاعته كاملة فلم تخرجه من النار، ولكنها خَفَّفت عنه العذاب، وليس لأحد شفاعة في كافر إلا هذه.

قال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه للنبي ﷺ: هل نفعتَ أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطكَ ويغضب لكَ؟ قال: «**نعم، هو في ضَحْضَاحٍ، ولَوْلَا أنا لكان في الدَّركِ الأسفل من النار**»، رواه مسلم.

وحذر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في هذا الباب من الشفاعة الشركية، فقال[١]: «الشفاعة التي نفاها القرآن: ما كان فيها شركٌ».

والشفاعة الشركية هي اتخاذ الموتىٰ وسائط في دعاء الله، وقد ذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب شبهة القبوريين في ذلك وردَّ عليهم، قال[٢]: «أنا -

(١) كتاب التوحيد (ص٣٣).
(٢) كشف الشبهات (ص٤٢، ٤٣).

القبوري- أشهد أن الله هو النافع الضار المدبر لا أريد إلا منه، والصالحون ليس لهم من الأمر شيء، ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم.

فالجواب: أنّ هذا قول الكفار سواء بسواء، واقرأ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]».

وبيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن اتخاذ الوسائط في دعاء الله شركٌ، كما أن دعاء غير الله شركٌ، فقال[١]: «الشرك بأهل القبور بمثل دعائهم، والتضرع إليهم، والرغبة إليهم، ونحو ذلك.

فإذا كان ﷺ نهىٰ عن الصلاة التي تتضمن الدعاء لله وحده خالصًا عند القبور، لئلا يفضي ذلك إلىٰ نوع من الشرك بربهم، فكيف إذا وجد ما هو نوع الشرك من الرغبة إليهم، سواء طلب منهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، أو طلب منهم أن يطلبوا ذلك من الله».

واتخاذ الموتىٰ وسائط في دعاء الله هو شركُ الأولين الذي بعث الله رسوله ﷺ بإنكاره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المشركون الذين كفَّرهم رسول الله ﷺ، وقاتلهم، واستباح دماءهم وأموالهم من العرب، لم يكونوا يقولون: إنّ آلهتهم شاركت الله في خَلقِ السماوات والأرضُ والعالَم، بل كانوا يُقِرُّون بأن الله وحده خَلقَ السماوات والأرض والعالَم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٠٤، ٣٠٥).
(٢) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص١٥٠، ١٥١).

تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ الآيات، إلىٰ قوله: ﴿تُسۡحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ – ٨٩]، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال طائفة من السلف: يسألهم: مَن خَلقَ السماوات والأرض؟ فيقولون: الله، وهم يعبدون غيره.

وإنما كانت عبادتهم إياهم أنهم يَدعُونهم ويتخذونهم وسائط ووسائل وشفعاء لهم، فمَن سلَكَ هذا السبيل فهو مشرك بحسب ما فيه من الشرك».

وسببُ شركِ القبوريين بالله في اتخاذ الصالحين شفعاء في دعائهم الله، هو قياسهم الخالق علىٰ المخلوق في اتخاذ الوسائط لقضاء الحاجات، تعالىٰ الله عما يشركون.

فإنهم رأوا الملوك من الخَلق والبشر يقضون حوائج الناس بمَن يشفع إليهم من الوجهاء وذي المنزلة عندهم، فقالوا: كذلك ندعو بشفاعة الأنبياء والصالحين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(1): «هو سبحانه لا يُقاس به غيره، ولا يُمَثَّل به سواه؛ إذ ليس كمثله شيء، والمشركون ضربوا له أمثالًا من خَلقِه، فجعلوا لله ندًّا ومثلًا، والقرآن مملوء من ذمِّ هؤلاء ولعنهم وتكفيرهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٢ – ٧٤]».

ومن شبهات القبوريين في اتخاذ الموتىٰ وسائط في دعاء الله: قولهم: إنّ الأولياء صالحون ونحن مذنبون، نرجو استجابة الدعاء باتخاذ الصالحين وسائط في دعاء الله.

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وأهل الشرك والنفاق (ص١٣٣، ١٣٤).

وهذا ضلالٌ عن أسباب إجابة الدعاء باتخاذ الشرك الذي هو أكبر الكبائر سببًا في دعاء الله. والواجب على المسلم إزالة موانع إجابة الدعاء والإقبال على الله وحده.

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يخافنَّ أَحَدٌ إلا ذنبه، ولا يَرْجُوَنَّ إلا ربَّه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الدواء هو التوحيد والاستغفار، قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩]، وفي الحديث: «**إن الشيطان يقول: أُهلِكُ بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار، وبـ (لا إله إلا الله)، فلما رأيتُ ذلك بثثتُ فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا**».

ولذلك كان الدعاء المُفرِّج للكرب محض التوحيد، وهو: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، لا إله إلا هو رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم**».

وفي الترمذي وغيره عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دعوة أخي ذي النون، ما دعاها مكروب إلا فَرَّج الله كربه،** ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]».

فالتوحيد يُدخِل العبد على الله، والاستغفار والتوبة يرفع المانع ويزيل الحجاب الذي يحجب القلب عن الوصول إليه».

والرسل عليهم الصلاة والسلام سادات الأولياء، وسطاء بين الله وخَلقِه في تبليغ الشرع، وهم يَدعُون للناس بالخير عندما كانوا أحياءً، وبعد موتهم وفي قبورهم ليسوا وسطاء في عبادة الله ولا دعائه، فكيف بمَن هو دونهم من الأولياء؟!

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

---

(١) شفاء العليل (ص٤٥٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «دِينُ الله الذي بعث به رسله، وأنزل به كتبه، أثبت وساطة الرسل بين الله وبين خَلقِه، فيبلغونهم أمره ونهيه، وخبره، ووعده ووعيده. ويقطعون وساطة المخلوقات في: العبادة، والاستعانة، والدعاء، والتوكل.

فلا يُعبد إلا الله، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يُدعىٰ إلا هو، فإنه لا ربَّ غيره، ولا إله سواه».

وغالب شرك الناس اليوم هو في اتخاذ الموتىٰ شفعاء في دعاء الله وسؤاله، قال تعالىٰ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أخبر تعالىٰ أن اتخاذ الشفعاء هو دِينُ أهلِ الشرك بالله من عبدة الأوثان، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨]، فأخبر أنه شركٌ، ونزَّه نفسه عنه، وأخبر أن قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨] يمنع حصول الشفاعة لهم بطلبها من غير مَن يملكها.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، فأخبر تعالىٰ أنهم تولوهم من دون الله بالعبادة، وأنهم إنما أرادوا بذلك أن يُقرِّبوهم إلىٰ الله بشفاعتهم لهم، فأخبر تعالىٰ أن هذا هو الكفر بالله، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿كَفَّارٞ ﴾ صيغة مبالغة أبلغ من كافر.

---

(١) جامع المسائل، المجموعة الثانية (ص٧٨، ٧٩).
(٢) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص٨٥).

وهذا الذي ذكَرَه اللهُ تعالىٰ عن المشركين هو الواقع من كثيرٍ من هذه الأُمَّة في أرباب القبور، جهلًا منهم بحقيقة الشرك».

والدعاءُ عبادة، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فسمَّىٰ اللهُ دعاءه عبادة، وعن النعمان بن بشير رَضِوَلِلَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**الدعاء هو العبادة**»، رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

ومَن دعا غير الله فقد أشرك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ(١): «في الآية تنبيه علىٰ أن المدعو لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر، حتىٰ يعطي مَن دعاه أو يبطش بمَن عصاه، وليس ذلك إلا لله وحده، فتعين أن يكون هو المدعو دون ما سواه، والآية شاملة لنوعي الدعاء.

قوله: ﴿فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦] أي: المشركين».

وقال سيد الحنفاء الخليل إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ للمشركين: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨، ٤٩].

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ(٢): «سمَّىٰ دعاءهم لغيره عبادة».

وصار القبوريون يقصدون الميت ويصمدون إليه، ويتوجهون إليه يرجون شفاعته، وهذا من أغلظ أنواع الشرك.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٥٠٤، ٥٠٥).

(٢) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس ص٦٧.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لأنه عندهم إذا زار القبر، وتوجه إلىٰ الميت، فاض عليه من روحه، كما ذكروا ذلك في الشفاعة».

وهذا النوع من الشرك أَدْخَلَهُ علىٰ المسلمين الفلاسفةُ ومَنِ اقتبسَ من شركهم، وصاغه للمسلمين في قالبِ قُوَىٰ النفْس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «يقولون: إنه بنفس توجههم إلىٰ ما يدعونه ويحبونه يحصل مقصودهم، وإن كان ذلك المدعو لا يعرف أن هذا دعاه ولا توجه إليه، وهذا قول المتفلسفة كابن سينا، وصاحب الكتب المضنون بها -أبي حامد الغزالي-، ونحوهم، ويقولون: إذا توجه الإنسان إلىٰ ما يتوجه إليه من أرواح الموتىٰ فإنه يفيض عليه ما يفيض من غير علم من ذلك الشفيع، وشبهوا ذلك بشعاع الشمس، فإنه يظهر في المرآة، ثم ينعكس علىٰ ما يقابلها من حائط، أو ماء، من غير شعور من المرآة.

وذلك أن هؤلاء عندهم أن الله لا يعلم الجزئيات، ولا يحدث في العالم شيئًا، وعندهم تأثير دعاء بني آدم كله من هذا الباب، وهو أن الداعي إذا جمع همه وتوجه نحو ما يدعوه، قويت نفسه حتىٰ حصل بها المطلوب من غير أن يكون اللهُ عَلِمَ بذلك، والمُؤَثِّر عندهم هو النفْس».

وهذا من أغلظ وأشنع وأبشع أنواع الشرك، تضمن كفرهم وشركهم إنكار عِلْم الله، وغلبة نفس المخلوق لحُكمِ الله الشرعي وقضائه الكوني فهي التي تشاء، مع ما تضمنه هذا الشرك من التَّوجُّه والالتجاء إلىٰ المخلوق بدعائه، فهل يستريب مسلم في أن هذا الضلال جمع أنواعًا من الكفر والشرك الأكبر؟!

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان، وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص١٤٤).

(٢) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان، وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص١٣٦).

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لا ريب أن الدعاء يجتمع فيه من أنواع العبادة ما لا يجتمع في غيره من أنواع العبادات، والنداء كذلك، كتوجه الوجه والقلب واللسان للمدعو، تذللًا له وخضوعًا واستكانة ورغبة، وهذا هو العبادة؛ لأن أصل العبادة وأساسها أن يخضع غاية الخضوع والتذلل للمعبود، ولا بد مع ذلك من المحبة، وأنت ترىٰ ما يفعله المشركون من إقبالهم علىٰ الأموات بسؤالهم ما لا قدرة لهم عليه، وتجد عندهم من الخضوع والتذلل وإسلام الوجه والقلب والجوارح بسؤال صاحب القبر ما لا يوجد مثله في المساجد».

وقد حث الله عباده علىٰ سؤاله ودعائه وحده، ووعدهم بالإجابة، ونهاهم عن دعاء غيره والالتجاء إلىٰ سواه، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

قال العَلَّامة محمد بن علي الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الله سبحانه قد أمر عباده بدعائه، ووعدهم بالإجابة، ووَعْدُه الحق، وما يُبدَّل القول لديه، ولا يخلف الميعاد.

ثم صرَّح سبحانه بأنَّ هذا الدعاء باعتبار معناه الحقيقي وهو الطلب، هو من عبادته، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي: ذليلين صاغرين، وهذا وعيدٌ شديد لمَن استكبر عن دعاء الله، وفيه لطفٌ بعباده عظيم وإحسانٌ إليهم جليل، حيث توعَّد مَن تركَ طلبَ الخير منه، واستدفاع الشر به بهذا الوعيد البالغ، وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة.

فيا عباد الله، وجِّهوا رغباتكم وعَوِّلوا في كل طلباتكم علىٰ مَن أمركم بتوجيهها إليه، وأرشدكم إلىٰ التعويل عليه، وكفل لكم الإجابة به بإعطاء الطلبة، فهو الكريم المطلق الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويغضب علىٰ مَن لم يطلب من فضله العظيم، ومُلكِه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا والدِّين».

---

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص٧٣).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٩٨).

فالمسلم حنيف مُقبِل علىٰ الله، يتأله له ويتضرع إليه، ويدعوه وحده، ويزيد إقباله علىٰ رب العالمين؛ لأنه لا يحتجب دون خَلقِه، وتزيد عبوديته له؛ لأن الله اختار لخَلقِه الأحسن والأفضل وهو أن يدعوه مباشرة، من غير حاجة إلىٰ وسيط ولا شفيع ولا واسطة في دعائه سبحانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن الحنفاء ليس بينهم وبين الله تعالىٰ واسطة في العبادة والدعاء والاستعانة، بل يناجون ربهم ويدعونه ويعبدونه بلا واسطة».

واستدل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بجواب النبي ﷺ لأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن سؤاله: مَن أسعد الناس بشفاعتك؟ قال ﷺ: «**مَن قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**» علىٰ أن الشفاعة ينالها الموحدون، لا المشركون.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «تلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمَن أشرك بالله».

فمَن أشرك بالله باتخاذ الموتىٰ وسائط في دعاء الله، فما أبعده عن شفاعة النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «أهل التوحيد المخلصون لله، هم أحق الناس بشفاعته ﷺ، فمَن كان لا يدعو إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يتوكل إلا علىٰ الله، ولا يدعو مخلوقًا، لا مَلَكًا، ولا بشرًا، لا نبيًّا، ولا صالحًا، ولا غيرهما، كان أحق بشفاعته ممن يدعوه، أو يدعو غيره من المخلوقين، فإن هؤلاء مشركون، والشفاعة إنما هي لأهل التوحيد.

---

(١) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٧٧).

(٢) كتاب التوحيد (ص٣٣).

(٣) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان، وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص١٢٨).

وإذا كان كذلك فالذين يدعون المخلوقين، ويطلبون من الموتىٰ والغائبين من الملائكة والبشر، الدعاء والشفاعة هم أبعد عن الشفاعة فيهم، والذين لا يدعون إلا الله هم أحق بالشفاعة لهم».

شــرْحُ المســائل:

١) **تَفْسِيرُ الْآيَاتِ**: الشفاعة لا تكون إلا لمَن يملكها.

٢) **صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمَنْفِيَّةِ**: الشفاعة في الكافرين، والشفاعة بغير إذن الله.

٣) **صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمُثْبَتَةِ**: الشفاعة بإذن الله، ورضاه عن الشافع والمشفوع له.

٤) **ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ الْكُبْرَىٰ، وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ**: الشفاعة في أهل الموقف أن يُقضىٰ فيهم.

٥) **صِفَةُ مَا يَفْعَلُهُ ﷺ: أَنَّهُ لا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ؛ بَلْ يَسْجُدُ، فَإِذَا أُذِنَ لَهُ شَفَعَ**: فإنه يحمد الله بمحامدَ لم يفتحها عليه من قبل.

٦) **مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِهَا؟**: المُوحِّدون.

٧) **أَنَّهَا لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ**: ومن الإشراك بالله اتخاذ الشفعاء في دعاء الله.

٨) **بَيَانُ حَقِيقَتِهَا**: مَن تحقق بتوحيد الله أَذِنَ اللهُ له في الشفاعة، ومَن كان من الموحدين رَضِيَ اللهُ بالشفاعة له.

الْبَـابُ السَّـابِعُ عَشَر

بَـابٌ: قَـوْلُ اللهِ تَعَـالَى:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

◊ فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: «**يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَىٰ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ١١٣]، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦].

فِيـهِ مَسَـائِلُ:

١) تَفْسِيرُ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦].

٢) تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ [التوبة: ١١٣] الْآيَةَ.

٣) وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ الْكَبِيرَةُ، تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ مَنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ.

٤) أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا قَالَ لِلرَّجُلِ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»؛ فَقَبَّحَ اللهُ مَنْ أَبُو جَهْلٍ أَعْلَمُ مِنْهُ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ.

٥) جِدُّهُ ﷺ، وَمُبَالَغَتُهُ فِي إِسْلَامِ عَمِّهِ.

٦) الرَّدُّ عَلَىٰ مَنْ زَعَمَ إِسْلَامَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَسْلَافِهِ.

٧) كَوْنُهُ ﷺ اِسْتَغْفَرَ لَهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، بَلْ نُهِيَ عَنْ ذَلِكَ.

٨) مَضَرَّةُ أَصْحَابِ السُّوءِ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ.

٩) مَضَرَّةُ تَعْظِيمِ الْأَسْلَافِ وَالْأَكَابِرِ.

١٠) الشُّبْهَةُ لِلْمُبْطِلِينَ فِي ذَلِكَ؛ لِاسْتِدْلَالِ أَبِي جَهْلٍ بِذَلِكَ.

١١) الشَّاهِدُ لِكَوْنِ الْأَعْمَالِ بِالْخَوَاتِيمِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَهَا لَنَفَعَتْهُ.

١٢) التَّأَمُّلُ فِي كِبَرِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي قُلُوبِ الضَّالِّينَ؛ لِأَنَّ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُمْ لَمْ يُجَادِلُوهُ إِلَّا بِهَا، مَعَ مُبَالَغَتِهِ ﷺ وَتَكْرِيرِهِ؛ فَلِأَجْلِ عَظَمَتِهَا وَوُضُوحِهَا عِنْدَهُمْ اِقْتَصَرُوا عَلَيْهَا.

الشَّرح

الله ﷻ خلقَ خلقَهُ علىٰ الفطرة، فقال سبحانه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنها فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي فطرة الإسلام، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة».

وقال النبي ﷺ: «**قال الله ﷻ: خلقتُ عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين**»، رواه مسلم.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٢٤٥).

واللهُ ﷻ الذي خَلقَ عِبادَه علىٰ الفطرة أكمل تزكيتهم وهدايتهم بوحيه، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود: ١٧].

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ بالوحي، ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، وهو شاهد الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه، وعلم بعقله حسنه، فازداد بذلك إيمانًا إلىٰ إيمانه».

ولا يكون المخلوق مسلمًا بمجرد خَلْقِ الله له علىٰ الفطرة حتىٰ يعتقدَ الإسلام ويعبدَ الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لا يلزم من كونهم مولودين علىٰ الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا، ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام، بحيث لو تُرك من غير مُغيِّر لَمَا كان إلا مسلمًا. وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع، هي فطرة الله التي فطر الناس عليها».

فالله ﷻ تولىٰ خَلْقَ عباده علىٰ الفطرة، فكلُّ مخلوقٍ هداه الله إلىٰ معرفة الحق وإرادته، ومعرفة ما ينفعه، ولا ينحرف عن ذلك إلا مَن اجتالته الشياطين، قال موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خَلقَ عباده علىٰ الفطرة، التي فيها الحق والتصديق به، ومعرفة الباطل والتكذيب به، ومعرفة النافع الملائم والمحبة له، ومعرفة الضار المنافي والبغض له بالفطرة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٩٥)، باختصار.
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٢٤٧).
(٣) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٦٣).

فما كان حقًّا موجودًا صدَّقت به الفطرة، وما كان حقًّا نافعًا عرفته الفطرة وأحبته واطمأنت إليه -وذلك هو المعروف-، وما كان باطلًا معدومًا كذَّبت به الفطرة، فأبغضته الفطرة فأنكرته، قال تعالىٰ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]».

واللهُ الذي خلقنا عَلِمَ ضرورتنا إلىٰ الهداية إلىٰ العلم النافع والعمل الصالح، أعظم من ضرورتنا إلىٰ الطعام والشراب، فعَرَّفنا صراطه المستقيم بإرسال رسوله محمد ﷺ إلينا، يدعونا إلىٰ الله، ويهدينا إلىٰ كيفية عبادته وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «اللهُ سبحانه قد أنعمَ علىٰ المؤمنين بالإعانة والهداية، فإنه بيَّن لهم هداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأعانهم علىٰ اتباع ذلك علمًا وعملًا، كما مَنَّ عليهم وعلىٰ سائر الخَلقِ بأنْ خَلقَهم ورزقهم وعافاهم، ومَنَّ علىٰ أكثر الخَلقِ بأن عرَّفهم ربوبيته لهم وحاجتهم إليه، وأعطاهم سُؤْلَهم وأجاب دعاءهم، قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]».

وقصة أبي طالب تبيِّن ضرورة كل مخلوق إلىٰ هداية الله ﷻ، فهو سبحانه الذي يُوفِّق مَن شاء من خَلقِه إلىٰ توحيده وصراطه المستقيم.

ورسول الله ﷺ داعية إلىٰ صراط الله المستقيم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣]، فقام بواجب النصيحة والرحمة للخَلق علىٰ أحسن وأتم ما يكون في تبيين الحق والهداية إليه، مع عموم الناس ومع عشيرته وأقاربه خصوصًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

---

(١) قاعدة جامعة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة واستعانة (ص٩٣، ٩٤).

وقد حرص علىٰ هداية عمه أبي طالب غاية الحرص، لِحقِّه مع عموم الناس في الدعوة، وبرًّا به لقرابته، ولِمَا قام به من دفعِ أذىٰ كفار قريش عنه الذي كان من أسباب تمكنه من الدعوة إلىٰ الإسلام، وهداية مَن شاء الله هدايته للإسلام.

وقد عَلِمَ أبو طالب صحة ما دعا إليه النبي ﷺ من دِين الله، ولم يُسْلِم خشية السب والتعيير من قومه لمفارقة دِين آبائه وأجداده الجاهليين.

قال أبو طالب:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَو حَذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

وكما قام رسول الله ﷺ ببر عمه بدعوته للإسلام، قام بالشفاعة له في أن يُخفف عنه العذاب؛ لأن الكفار مآلهم للنار، وما تنفعهم شفاعة الشافعين، فهذه خصوصية لأبي طالب.

قال العباس بن عبد المطلب رضي لله عنه للنبي ﷺ: هل نفعتَ أبا طالب بشيءٍ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «**نعم، هو في ضَحْضَاح، ولولا أنا لكان في الدَّرك الأسفل من النار**»، رواه مسلم.

وكان من أسباب بقاء أبي طالب علىٰ الكفر: جلساء السوء الذين كانوا عنده وهو يحتضر، فهيَّجا فيه دواعي الإصرار علىٰ الكفر بتقليد الآباء بالباطل، فصدوه عن أسباب الهداية وحسن الخاتمة.

قال المُسيِّبُ بْنُ حَزْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لمَّا حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ، وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: «**يا عمِّ، قل: (لا إله إلا الله)**»، فقالا له: أترغبُ عن مِلَّة عبد المطلب؟!

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله: (فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟!) القائلان هما: عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل، والاستفهام للإنكار عليه؛ لأنهما عرفا أنه إذا قالها -أي كلمة الإخلاص- وحَّد، وملة عبد المطلب الشرك، وذكرا له ما تهيج به نعرته، وهي ملة عبد المطلب حتىٰ لا يخرج عن ملة آبائه».

وهذا يوجب لكل ناصح لنفسه الحذر من حمية الجاهلية، فقد بطر أبو طالب وكفار قريش الحق الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ، وهذا كان سبب كفرهم، قال النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة مَن في قلبه مثقال ذرَّة من كِبْرٍ**» رواه مسلم من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «مَن لم يكن الله معبوده ومنتهىٰ حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك، فلا بد أن يكون له مرادٌ محبوب يستعبده غير الله، فيكون عبدًا لذلك المراد المحبوب، إما المال وإما الجاه».

فأبو طالب أطاع قومه واختار الكفر علىٰ طاعة الله، فالإخلاص لله وحده من أعظم أسباب الهداية، ولا يظلم ربك أحدًا.

وقول الله مخاطبًا نبيه ﷺ والناس أجمعين: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، فيه دليل علىٰ أن الهداية للإسلام والتوفيق للخير من الله، لا يملكها مخلوق، ولذلك فإننا ندعوه في كل ركعة من كل صلاة أن يهدينا صراطه المستقيم.

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «هذا الباب أيضًا نظير

---

(١) شرح كتاب التوحيد، المطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٣٤٣).
(٢) العبودية (ص٨١).
(٣) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص٦٥).

الباب الذي قبله، وذلك أنه إذا كان ﷺ، وهو أفضل الخَلق علىٰ الإطلاق وأعظمهم عند الله جاهًا وأقربهم إليه وسيلة، لا يَقدِر علىٰ هدايةِ مَن أحب هدايةَ التوفيق، وإنما الهداية كلها بيد الله، فهو الذي تفرَّد بهداية القلوب كما تفرَّد بخَلقِ المخلوقات، فتبين أنه الإله الحق.

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، فالمراد بالهداية هنا: هداية البيان، وهو ﷺ المُبلِّغ عن الله وحيه الذي اهتدىٰ به الخَلقُ».

ومحبة النبي ﷺ لأبي طالب الواردة في الآية هي محبة هدايته، وليست المحبة في الله؛ لأن أبا طالب كافر، والمحبة في الله إنما تكون للمؤمنين، قال النبي ﷺ: «**أوثقُ عُرَىٰ الإيمان الحبُّ في الله والبغض في الله**»، وقد أبان النبي ﷺ عن بغضه له في الله بقوله: «**هو علىٰ ملة عبد المطلب**».

وقول النبي ﷺ لأبي طالب: «**يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**»، المقصود أن يقول الكلمة معتقدًا بها، مؤمنًا بالله، كافرًا بما يُعبد من دونه، فيعتقدها بقلبه، ويعمل بحقيقتها، فكان ذلك أول واجب في حقه، وذلك الذي يتميز به المسلم من الكافر، وإن كان الله كتب له الحياة لزمه القيام بحقيقة التوحيد من إقامة شعائر الإسلام وشرائعه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن التصديق الحقيقي بـ (لا إله إلا الله)، يستلزم التصديق بشُعَبِها وفُروعِها كُلِّها، وجميع الدِّين -أصوله وفروعه- من شُعَبِ هذه الكلمة».

فالنبي ﷺ دعا أبا طالب إلىٰ ما دعا إليه كافة الخَلق، قال سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قلتُ: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: «**قل: آمنتُ بالله، ثم استقم**»، رواه مسلم.

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٩١).

فاعتقاد كلمة التوحيد وخلوصها من الشرك، والعمل بمقتضاها، والعزم على ذلك هو من تحقيقها، فمَن مات على هذا الاعتقاد كان مسلمًا، قال النبي ﷺ: «**مَن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**».

فالتوحيد هو الإيمان بالله ﷻ، وحقيقته طاعةُ اللهِ ﷻ ورسولِه ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله، كما أنَّ مَن لم يطع الله ورسوله فليس بمُؤْمِنٍ».

فالإيمان بالله هو شهادة أن لا إله إلا الله، وهو التأله لله بعبوديته، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن قالوا: إنه لا يضره ترْكُ العملِ، فهذا كفرٌ صريح».

فلم يقصد النبي ﷺ من قوله: «**كلمة أحاج لك بها عند الله**»، قول اللسان من غير اعتقاد القلب وعمل الجوارح، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «القول المجرد عن اعتقاد الإيمان ليس إيمانًا باتفاق المسلمين».

وقال العَلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «المقصود من الشهادتين: ما دلتا عليه من البراءة من كل معبودٍ سوى الله، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له، والإيمان بالرسل، والتزام متابعتهم، هذا مدلول الشهادتين».

فاحذر -أيها المسلم- اعتقادَ الجهمية وهم ليسوا من فِرَقِ القِبلة، فإن عقيدتهم أن الإيمان مجرد المعرفة.

ومن ضلال المرجئة أنهم يضعون النصوص فيمن مات بعد اعتقاد التوحيد

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٣٢٥).

(٢) الإيمان الكبير (ص٣٩٥).

(٣) شرح حديث جبريل (ص٤٤١).

(٤) مصباح الظلام (ص٥٤٢).

موضع مَن عاش دهره من غير عمل بالتوحيد ولا إقامة لأركان الإسلام، ويقولون: لا يضر ترك العمل، وهذا تحريف للأدلة ووضعها في غير مواضعها.

فقول النبي ﷺ لأبي طالب: «**قل: لا إله إلا الله**»، وقوله للغلام اليهودي: «**قل: لا إله إلا الله**»، وقوله لجارية معاوية بن الحَكَم السُّلَمِي رضي الله عنه: «**أين الله؟**» قالت: في السماء، فقال لها: «**مَن أنا؟**»، قالت: «**رسول الله**»، قال لمعاوية: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»، هذا أراد به النبي ﷺ أول ما يتميَّز به المسلم من الكافر، الذي يُخَاطَبُ بكلمة التوحيد التي تلزمه حقائقها وأركانها، كما قال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه عندما بعثه إلى اليمن: «**إنك تأتي قومًا أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أجابوك لذلك فأَعْلِمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات، فإن هم أجابوك لذلك فأَعْلِمهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم..**»، الحديث، متفق عليه.

فأولئك الذين اعتقدوا التوحيد وآمنوا بالله وفعلوا الواجب عليهم ثم ماتوا وهم مسلمون، ليسوا كمَن ترَكَ العمل لله، ولم يُسلِم لله بالطاعة والخضوع، ومات ولم يقم بأركان الإسلام، فهؤلاء لا حَظَّ لهم في الإسلام؛ لأنهم لم يُصدِّقوا القول بالعمل، وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي.

ذَكَرَ الأثرم للإمام أحمد احتجاج المرجئة بقول النبي ﷺ: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»، فأجابه بأن المراد حُكمها في الدنيا حُكْم المؤمنة، لمْ يُرِد أنها مؤمنة عند الله تستحق دخول الجنة بلا نار، إذا لقيته بمجرد هذا الإقرار[١].

من فوائد الحديث: مخاطبة المدعو بما يوجب قبوله للدعوة والنصيحة، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[٢]: «قوله: «**فقال: يا عم، قل: لا إله إلا الله**»، أتى ﷺ بهذه الكنية الدالة على العطف؛ لأن العم صنو الأب».

---

(١) الإيمان (ص٣٩٨)، ط- المكتب الإسلامي، تحقيق العلامة الألباني رحمه الله.

(٢) شرح كتاب التوحيد، المطبوع ضمن مجموع الفتاوى (٩/ ٣٤٢).

ومن فوائد الحديث: جواز عيادة المريض الكافر لدعوته للإسلام، قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «في هذا جواز عيادة المشرك إذا رُجِي إسلامُه».

ومن فوائد الحديث: شدةُ حرصِ النبي ﷺ علىٰ هداية الناس وصبره علىٰ دعوتهم إلىٰ ذلك.

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «فيه الحرص في الدعوة إلىٰ الله، والصبر علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن رُدَّ ذلك علىٰ صاحبه، وتكريره وعدم الاكتفاء بمرة واحدة».

شــرْحُ المســائل:

١) **تَفْسِيرُ:** ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]: هداية التوفيق من الله.

٢) **تَفْسِيرُ قَوْلِهِ:** ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ [التوبة:١١٣] **الْآيَةَ**: لا يجوز الاستغفار لمَن مات كافرًا.

٣) **وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ الْكَبِيرَةُ، تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ مَنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ**: الكفر بما يُعبد من دون الله، والتأله لله وحده.

٤) **أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا قَالَ لِلرَّجُلِ: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ فَقَبَّحَ اللهُ مَنْ أَبُو جَهْلٍ أَعْلَمُ مِنْهُ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ**: وهم الذين يشركون مع الله، ولا يَكْفُرون بما يُعبد من دونه، ولا يخلصون العبودية لله وحده.

٥) **جِدُّهُ ﷺ، وَمُبَالَغَتُهُ فِي إِسْلَامِ عَمِّهِ**: وذلك من رحمته وإحسانه إليه، صلوات الله وسلامه علىٰ الرؤوف الرحيم.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص٣٠١.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص٣٠٢.

٦) **الرَّدُّ عَلَىٰ مَنْ زَعَمَ إِسْلَامَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَسْلَافِهِ**: فلا تستعظم كفر الكافر لقرابته من النبي ﷺ، فإن سيد الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان أبوه كافرًا.

٧) **كَوْنُهُ ﷺ اِسْتَغْفَرَ لَهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، بَلْ نُهِيَ عَنْ ذَلِكَ**: فالذي مات على الكفر لا ينفعه الاستغفار، ولا يجوز أن يستغفر له؛ لأنه قَطعَ بكفره عن نفسه أسباب الرحمة.

٨) **مَضَرَّةُ أَصْحَابِ السُّوءِ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ**: إذ كان جلساء أبي طالب سببًا في كفره.

٩) **مَضَرَّةُ تَعْظِيمِ الْأَسْلَافِ وَالْأَكَابِرِ**: فقد كانت حميةُ الجاهليةِ سببَ كفرِ أبي طالب.

١٠) **الشُّبْهَةُ لِلْمُبْطِلِينَ فِي ذَلِكَ؛ لِاسْتِدْلَالِ أَبِي جَهْلٍ بِذَلِكَ**: وهو الاستدلال بعقيدة الآباء ولو كانوا مشركين.

١١) **الشَّاهِدُ لِكَوْنِ الْأَعْمَالِ بِالْخَوَاتِيمِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَهَا لَنَفَعَتْهُ.**

١٢) **التَّأَمُّلُ فِي كِبَرِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي قُلُوبِ الضَّالِّينَ؛ لِأَنَّ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُمْ لَمْ يُجَادِلُوهُ إِلَّا بِهَا، مَعَ مُبَالَغَتِهِ ﷺ وَتَكْرِيرِهِ؛ فَلِأَجْلِ عَظَمَتِهَا وَوُضُوحِهَا عِنْدَهُمُ اقْتَصَرُوا عَلَيْهَا**: فتعظيمُ الباطل نوعٌ من الكِبْرِ.

۞ ۞ ۞


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَـابُ الثَّـامِنُ عَشَـر

بَـابُ مَا جَـاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْـرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُـوَ الْغُلُـوُّ فِي الصَّالِحِـينَ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◊ وَقَوْلِ اللهِ عَلَّ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾.

◊ فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: ٢٣]- قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَىٰ الشَّيْطَانُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ؛ أَنِ انْصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ».

◊ وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَىٰ قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ».

◊ وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**». أَخْرَجَاهُ.

◊ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ**».

◊ ولِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»، قَالَهَا ثَلَاثًا.

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) أَنَّ مَنْ فَهِمَ هَذَا الْبَابَ وَبَابَيْنِ بَعْدَهُ، تَبَيَّنَ لَهُ غُرْبَةُ الْإِسْلَامِ، وَرَأَىٰ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ وَتَقْلِيبِهِ لِلْقُلُوبِ الْعَجَبَ.

٢) مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شِرْكٍ حَدَثَ فِي الْأَرْضِ؛ أَنَّهُ بِشُبْهَةِ الصَّالِحِينَ.

٣) أَوَّل شَيْءٍ غُيِّرَ بِهِ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ؟ مَعَ مَعْرِفَةِ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُمْ.

٤) قَبُولُ الْبِدَعِ مَعَ كَوْنِ الشَّرَائِعِ وَالْفِطَرِ تَرُدُّهَا.

٥) أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلِّهُ: مَزْجُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ.

- **فَالْأَوَّلُ**: مَحَبَّةُ الصَّالِحِينَ.
- **وَالثَّانِي**: فِعْلُ أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّيْنِ شَيْئًا أَرَادُوا بِهِ خَيْرًا؛ فَظَنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَهُ.

٦) تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ نُوحٍ.

٧) جِبلَّةُ الْآدَمِيِّ فِي كَوْنِ الْحَقِّ يَنْقُصُ فِي قَلْبِهِ، وَالْبَاطِلِ يَزِيدُ.

٨) فِيهِ شَاهِدٌ لِمَا نُقِلَ عَنْ السَّلَفِ أَنَّ الْبِدَعَ سَبَبُ الْكُفْرِ.

٩) مَعْرِفَةُ الشَّيْطَانِ بِمَا تَؤُوْلُ إِلَيْهِ الْبِدْعَةُ؛ وَلَوْ حَسُنَ قَصْدُ الْفَاعِلِ.

١٠) مَعْرِفَةُ الْقَاعِدَةِ الْكُلِّيَّةِ، وَهِيَ النَّهْيُ عَنْ الْغُلُوِّ، وَمَعْرِفَةُ مَا يَؤُوْلُ إِلَيْهِ.

١١) مَضَرَّةُ الْعُكُوفِ عَلَىٰ الْقَبْرِ لِأَجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ.

١٢) مَعْرِفَةُ النَّهْيِ عَنِ التَّمَاثِيلِ، وَالْحِكْمَةِ فِي إِزَالَتِهَا.

١٣) مَعْرِفَةُ شَأْنِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَشِدَّةُ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْهَا.

١٤) وَهِيَ أَعْجَبُ وَأَعْجَبُ: قِرَاءَتُهُمْ إِيَّاهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِمَعْنَىٰ الْكَلَامِ، وَكَوْنُ اللهِ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ حَتَّىٰ اعْتَقَدُوا أَنَّ فِعْلَ قَوْمِ نُوحٍ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّ مَا نَهَىٰ اللهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ هُوَ الْكُفْرُ الْمُبِيحُ لِلدَّمِ وَالْمَالِ.

١٥) التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ.

١٦) ظَنُّهُمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ صَوَّرُوا الصُّوَرَ أَرَادُوا ذَلِكَ.

١٧) الْبَيَانُ الْعَظِيمُ فِي قَوْلِهِ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ»، فَصَلَوَاتُ اللهُ وَسَلَامُهُ عَلَىٰ مَنْ بَلَّغَ الْبَلَاغَ الْمُبِينِ.

١٨) نَصِيحَتُهُ إِيَّانَا بِهَلَاكِ الْمُتَنَطِّعِينَ.

١٩) التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا لَمْ تُعْبَدْ حَتَّىٰ نُسِيَ الْعِلْمُ، فَفِيهَا بَيَانُ مَعْرِفَةِ قَدْرِ وُجُودِهِ، وَمَضَرَّةِ فَقْدِهِ.

٢٠) أَنَّ سَبَبَ فَقْدِ الْعِلْمِ: مَوْتُ الْعُلَمَاءِ.

الشَّرْح

هذا الباب في تحذير الأُمَّة من أعظم أسباب الشرك وهو الغلو في الصالحين كما وقع من قوم نوح؛ فإنهم أشركوا بسبب غلوهم في الصالحين وتصويرهم تماثيلهم وعبادتها.

وحذَّر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في أول الباب من التشبه بالنصارىٰ في غلوهم، مُذكِّرًا بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١].

وكان من غلو النصارىٰ في نبيهم عيسىٰ ابن مريم أن عبدوه وأُمَّه، قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

من أجل ذلك حذَّر النبي ﷺ من الغلو فيه، فقال: «**لا تطروني كما أطرتِ النصارىٰ ابن مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسوله**».

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلتِ النصارىٰ في عيسىٰ، فادّعوا فيه الربوبية، وإنما أنا (عبدُ الله)، فصفوني بذلك كما وصفني به ربي».

وحذَّر النبي ﷺ أُمَّته قبل أن يُودِّعَهم من غلو أهل الكتاب وشركهم، فقد روىٰ مسلم في صحيحه عن جندب بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «**ألا وإن مَن كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**».

فاحذر -أيها المسلم- غلو النصارىٰ، واحذر التشبه بهم، قال النبي ﷺ: «**مَن تشبَّه بقومٍ فهو منهم**»، رواه أحمد، وهو حديث حسنٌ.

فالتشبه بالكافرين من أسباب الشرك، وهل تحرَّفت ملة إبراهيم في جزيرة العرب إلا بسبب التشبه بالكافرين؟! فإن عمرَو بن لُحَي الخُزاعي تشبَّه بعُبَّاد الأصنام من أرض البلقاء بالشام، وجلب عبادة الأصنام إلىٰ مكة وأفسد ملة إبراهيم.

قال العَلَّامة المجدد عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ أخصَّ أوصافِ النصارىٰ الضالين: عبادةُ الأنبياء والصالحين، وجعْلهم شركاء لله فيما يختص به ويستحقه، وطاعة علمائهم وأحبارهم في التحليل والتحريم، المخالف لِمَا عُهد إليهم في الكتب السماوية علىٰ ألسنة أنبيائهم.

وعُبَّاد القبور ضربوا في هذا بسهمٍ وافر، وحصلوا علىٰ نصيب من عبادة الأنبياء والصالحين ودعائهم مع الله، استحقوا به إطلاق وصف الضلال عليهم، فيما أتوا

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (١/ ٦٤٢، ٦٤٣).
(٢) منهاج التأسيس (ص١١٦، ١١٧).

به وابتدعوه من طاعة الدعاة إلىٰ عبادة القبور من المنتسبين إلىٰ العبادة أو العلم».

وبيَّن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أول شرك وقع في الأرض في قوم نوح كان سببه الغلو في الصالحين والجهل، فإن قوم نوح صنعوا تماثيل علىٰ صورِ صالحيهم؛ ليتذكروا نشاطهم في طاعة الله، ولم تُعبد أولًا، وجاء مَن بعدهم ونسي العلم فعبدوها .

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذا أولُ شركٍ حدث في الأرض، وهو الذي أوحاه الشيطان إلىٰ عُبَّاد القبور في هذه الأزمان، فإنه ألقىٰ إليهم أن البناء علىٰ القبور والعكوف عليها من محبة الصالحين وتعظيمهم، وأن الدعاء عندها أرجىٰ في الإجابة من الدعاء في المسجد الحرام والمساجد، فاعتادوها لذلك، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلىٰ الدعاء به والإقسام علىٰ الله به».

وقال العَلَّامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن الشرك الذي وقع في قوم نوح لم يزل في الناس إلىٰ يومنا هذا، فلم يزل في الناس مَن يعبد الأصنام والأوثان، ويغلو في الصالحين والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، يعبدهم مع الله، كما هو معلوم عند كل مَن نظرَ في أخبار العالم من عهد نوح إلىٰ يومنا هذا».

وقد أضل الشيطان الجاهلين وزَيَّن لهم أن الدعاء عند القبور مستجاب، وصار ذلك من أسباب الغلو في الموتىٰ، وصار هذا الغلو من أسباب الاستغاثة بالميت أو اتخاذه واسطة في دعاء الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «ما أحفظ -لا عن صاحب، ولا عن تابع، ولا عن إمام معروف- أنه استحب قصْدَ شيءٍ من القبور للدعاء عندها،

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (١/ ٦٣٨).
(٢) الفتاوىٰ البازية (٢/ ٦٨).
(٣) نقلًا عن منهاج التأسيس، للعلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ (ص١٦٦).

ولا روىٰ أحدٌ في ذلك شيئًا، لا عن النبي ﷺ، ولا عن الصحابة، ولا عن أحدٍ من الأئمة المعروفين.

وقد صنف الناس في الدعاء وأوقاته وأمكنته، وذكروا فيه الآثار، فما ذكر أحدٌ منهم في فضل الدعاء عند شيء من القبور حَرْفًا واحدًا، فيما أعلم، فكيف يجوز والحالة هذه أن يكون الدعاء عندها أجوب وأفضل؟ والسلف تنكره ولا تعرفه، وتنهىٰ عنه، ولا تأمر به؟!».

والنبي ﷺ حذَّر أُمَّته من الغلو في قبور الصالحين، ونهىٰ عن اتخاذها مساجد، فقال: «**لا تتخذوا القبور مساجد**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العلة في تحريم الصلاة عند القبور، وإنها ذريعة إلىٰ تعظيم مَن فيها بالعبادة، وإنها مظنة لاتخاذها أوثانًا، كما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أكره أن يُعظَّم مخلوقٌ، حتىٰ يجعل قبره مسجدًا مخافة الفتنة عليه وعلىٰ مَن بعده من الناس).

وذَكرَ هذا عن أبي بكر الأثرم وغيره من أصحاب أحمد وسائر العلماء، ثم ردَّ تعليلَ بعضِهم النهي عن اتخاذ القبور مساجد بالنجاسة أو مظنتها، ورده بوجوه منها: أن قبور الأنبياء أطهر البقاع، وقد لُعن مَن اتخذها مساجد، وتواتر الحديث بذلك».

وتوقير الأنبياء يكون في اتباعهم فيما دعوا إليه من التوحيد، والنهي عن الشرك، والنهي عن الغلو فيهم.

وقد أمر الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ أن يقول للناس: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠ – ٢٢].

---

(١) بواسطة منهاج التأسيس (ص١٤٦، ١٤٧).

فمَن اتخذ الأنبياء شركاء مع الله يدعوهم ويستغيث بهم، فهذا لم يتبعهم فيما دعوا إليه من توحيد الله والنهي عن الشرك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

فالأنبياء والرسل -صلوات الله عليه وسلامه عليهم- موالاتهم وتوقيرهم يكون باتباعهم فيما بُعثوا به من دعوة التوحيد، قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦]، فمَن اتبعهم في توحيد الله الذي دعوا إليه فهو الحنيف المسلم الموقر للأنبياء سادات الصالحين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الملائكة والأنبياء إذا نفىٰ عنهم كونهم آلهة معبودين، وبيَّن أن عبادتهم عملٌ باطل لا يُنتفع به، لمْ ينفِ ذلك ما يستحقونه من الإكرام والإجلال وعلو قدرهم عند الله تعالىٰ، والتبريء من عبادتهم ومن كونهم معبودين، لا من موالاتهم والإيمان بهم».

وسببُ شركِ كفار قريش هو غلوهم في تقليد آبائهم علىٰ الباطل، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ولا يزال التقليد بالباطل سببا لإصرار المستغيثين بالموتىٰ علىٰ شركهم، هداهم الله إلىٰ الاستغاثة بالله وحده الذي يملك الضر والنفع، ولا يملكه الأموات.

قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

وهؤلاء المقلدون أضلَّهم الأئمةُ المضلون بأمرهم لهم بالاستغاثة بالموتىٰ أو اتخاذهم وسائط في دعاء الله، زيَّنوا لهم شرك كفار قريش، قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ

(١) الإخنائية (ص٣٩٦).

ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

والله قد أمر عباده بدعائه ومسألته والاستغاثة به وطلب الحاجات منه، قال تعالىٰ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

والله لم يحتجب دون حاجات خَلقه، ولم يجعل بينه وبين خَلقه وسائط في مسألته والاستغاثة به، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]

وختَم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بالتحذير من الغلو، فذكَرَ قول رسول الله ﷺ: «**إياكم والغلو، فإنما أهلك مَن كان قبلكم الغلو**»، وقوله ﷺ: «**هلك المتنطعون**».

ومَن تأمل واقع الأُمَّة رأىٰ ما أصابها من الهلاك بسبب الغلو.

وأول مَن وقع في الغلو من هذه الأُمَّة الخوارج، فإنهم كانوا مجتهدين في العبادة وعلىٰ جهل، فتعالموا علىٰ الصحابة وكَفَّروهم.

وظهرَ الغلو في الصالحين في هذه الأُمَّة في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فادعىٰ فيه غالية الرافضة الألوهية، فحرقهم بالنار.

وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا خالف عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في صفة قتلهم، وهو وسائر الصحابة اتفقوا علىٰ قتلهم.

فالواجب: أن نكونَ أُمَّةً وسطًا بلا إفراط ولا تفريط، قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

شــرْحُ المســائل:

١) **أَنَّ مَنْ فَهِمَ هَذَا الْبَابَ وَبَابَيْنِ بَعْدَهُ، تَبَيَّنَ غُرْبَةُ الْإِسْلَامِ، وَرَأَىٰ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ وَتَقْلِيبِهِ لِلْقُلُوبِ الْعَجَبَ**: مالت قلوب المشركين عن توحيد الله بسبب غلوهم في الصالحين.

٢) **مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شِرْكٍ حَدَثَ فِي الْأَرْضِ؛ أَنَّهُ بِشُبْهَةِ الصَّالِحِينَ**: فالواجب علىٰ هذه الأُمَّة محاذرة أسباب شرك الأمم السابقة.

٣) **أَوَّل شَيْءٍ غُيِّرَ بِهِ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ؟ مَعَ مَعْرِفَةِ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُمْ**: هو الغلو في الصالحين.

٤) **قَبُولُ الْبِدَعِ مَعَ كَوْنِ الشَّرَائِعِ وَالْفِطَرِ تَرُدُّهَا**: لِتوهُّمِ ما فيها من المصالح.

٥) **أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلِّهُ: مَزْجُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ.**

٦) **فَالْأَوَّلُ: مَحَبَّةُ الصَّالِحِينَ.**

٧) **وَالثَّانِي: فِعْلُ أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّيْنِ شَيْئًا أَرَادُوا بِهِ خَيْرًا؛ فَظَنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَهُ**: فالشيطان زيَّن الغلو في الصالحين والشرك بهم مع الله في قالب موالاتهم وتوقيرهم. وزيَّن الشيطان لقوم نوح تصوير تماثيل الصالحين لتذكُّر عبادتهم، ثم عُبدت بعد ذلك.

٨) **تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ نُوحٍ**: فإن الشيطان ألقىٰ في قلوب قوم نوح أن مَن كان قَبْلكم يعبدون الأصنام، فعبدوها وانتصروا لها.

٩) **جِبِلَّةُ الْآدَمِيِّ فِي كَوْنِ الْحَقِّ يَنْقُصُ فِي قَلْبِهِ، وَالْبَاطِلِ يَزِيدُ**: فالواجب علىٰ المسلم: تنميةُ الحق والإيمان في قلبه.

١٠) **فِيهِ شَاهِدٌ لِمَا نُقِلَ عَنْ السَّلَفِ أَنَّ الْبِدَعَ سَبَبُ الْكُفْرِ**: وأنها أحبُّ إلىٰ إبليس من المعصية؛ لأن المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يُتاب منها، فإن المشركين من قوم نوح أصروا علىٰ شركهم والانتصار لأصنامهم وباطلهم ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

١١) **مَعْرِفَةُ الشَّيْطَانِ بِمَا تَؤُوْلُ إِلَيْهِ الْبِدْعَةُ؛ وَلَوْ حَسُنَ قَصْدُ الْفَاعِلِ**: فالذين صنعوا التماثيل من قوم نوح قصدوا تذكُّر عبادة الصالحين المُصوَّرين.

١٢) مَعْرِفَةُ الْقَاعِدَةِ الْكُلِّيَّةِ، وَهِيَ النَّهْيُ عَنْ الْغُلُوِّ، وَمَعْرِفَةُ مَا يَؤُوْلُ إِلَيْهِ: الغلو يؤول إلىٰ الهلاك.

١٣) مَضَرَّةُ الْعُكُوفِ عَلَىٰ الْقَبْرِ لِأَجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ: المقبرةُ دُورُ الأمواتِ، وليست مسجدًا للأحياء.

١٤) مَعْرِفَةُ النَّهْيِ عَنِ التَّمَاثِيلِ، وَالْحِكْمَةِ فِي إِزَالَتِهَا: لئلا تُعبد.

١٥) مَعْرِفَةُ شَأْنِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَشِدَّةُ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْهَا: فأول شركٍ وقع في الأرض كان سببه اتخاذ التماثيل طلبًا لمصلحة تذكُّر عبادة المُصوَّرين.

١٦) وَهِيَ أَعْجَبُ وَأَعْجَبُ: قِرَاءَتُهُمْ إِيَّاهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِمَعْنَىٰ الْكَلَامِ، وَكَوْنُ اللهِ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ حَتَّىٰ اعْتَقَدُوا أَنَّ فِعْلَ قَوْمِ نُوحٍ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّ مَا نَهَىٰ اللهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ هُوَ الْكُفْرُ الْمُبِيحُ لِلدَّمِ وَالْمَالِ: فالغلوُّ في الصالحين سببُ الشرك.

١٧) التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ: وآلَ الحالُ بهم إلىٰ عبادة الأصنام.

١٨) ظَنُّهُمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ صَوَّرُوا الصُّوَرَ أَرَادُوا ذَلِكَ: ألقىٰ ذلك الشيطان في نفوسهم.

١٩) الْبَيَانُ الْعَظِيمُ فِي قَوْلِهِ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ»، فَصَلَوَاتُ اللهُ وَسَلَامُهُ عَلَىٰ مَنْ بَلَّغَ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ: فالنبي ﷺ لم يرضَ بالغلو فيه وهو سيدُ ولدِ آدمَ، فكيف بمَن هو دونه؟!

٢٠) نَصِيحَتُهُ إِيَّانَا بِهَلَاكِ الْمُتَنَطِّعِينَ: فالواجبُ: مُحاذَرة الغلو والتنطع المُهلِك.

٢١) التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا لَمْ تُعْبَدْ حَتَّىٰ نُسِيَ الْعِلْمُ، فَفِيهَا بَيَانُ مَعْرِفَةِ قَدْرِ وُجُودِهِ، وَمَضَرَّةِ فَقْدِهِ: فالجهل سببُ الشرك.

٢٢) أَنَّ سَبَبَ فَقْدِ الْعِلْمِ: مَوْتُ الْعُلَمَاءِ: لأنهم هم الذين يُظهِرونه ويُؤَدُّونه للناس.

الْبَـابُ التَّـاسِعُ عَشَـر

بَـابُ مَا جَـاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُـلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبَـدَهُ؟!

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

◊ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: «**أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ**».

◊ فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ.

◊ وَلَهُمَا عَنْهَا، قَالَتْ: «لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ -وَهُوَ كَذَلِكَ-: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا». أَخْرَجَاهُ.

◊ وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا؛ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

◊ فَقَدْ نَهَىٰ عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ -وَهُوَ فِي السِّيَاقِ- مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ؛ وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهَا: «خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا.

◊ وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّىٰ فِيهِ يُسَمَّىٰ مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ: «**جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**».

◊ وَلِأَحْمَدَ -بِسَنَدٍ جَيِّدٍ- عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ**». وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ.

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) مَا ذَكَرَ الرَّسُولُ فِيمَنْ بَنَىٰ مَسْجِدًا يُعْبَدُ اللهُ فِيهِ عَلَىٰ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ وَلَوْ صَحَّتْ نِيَّةُ الْفَاعِلِ.

٢) النَّهْيُ عَنْ التَّمَاثِيلِ، وَغِلَظُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ.

٣) الْعِبْرَةُ فِي مُبَالَغَتِهِ ﷺ فِي ذَلِكَ: كَيْفَ بَيَّنَ لَهُمْ هَذَا أَوَّلًا، ثُمَّ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ قَالَ مَا قَالَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي السِّيَاقِ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا تَقَدَّمَ.

٤) نَهْيُهُ عَنْ فِعْلِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ الْقَبْرُ.

٥) أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ.

٦) لَعْنُهُ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ.

٧) أَنَّ مُرَادَهُ تَحْذِيرُهُ إِيَّانَا عَنْ قَبْرِهِ.

٨) الْعِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبْرَازِ قَبْرِهِ.

٩) مَعْنَىٰ اتِّخَاذِهَا مَسْجِدًا.

١٠) أَنَّهُ قَرَنَ بَيْنَ مَنِ اتَّخَذَهَا وَبَيْنَ مَنْ تَقُومُ عَلَيْهِمْ السَّاعَةُ، فَذَكَرَ الذَّرِيعَةَ إِلَىٰ الشِّرْكِ قَبْلَ وُقُوعِهِ مَعَ خَاتِمَتِهِ.

١١) ذِكْرُهُ فِي خُطْبَتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ: الرَّدَّ عَلَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا أَشَرُّ أَهْلِ الْبِدَعِ، بَلْ أَخْرَجَهُمْ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الثِّنْتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً، وَهُمُ الرَّافِضَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ، وَبِسَبَبِ الرَّافِضَةِ حَدَثَ الشِّرْكُ وَعِبَادَةُ الْقُبُورِ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ بَنَىٰ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ.

١٢) مَا بُلِيَ بِهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ النَّزْعِ.
١٣) مَا أُكْرِمَ بِهِ مِنَ الْخُلَّةِ.
١٤) التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا أَعْلَىٰ مَنْ الْمَحَبَّةِ.
١٥) التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الصِّدِّيقَ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ.
١٦) الْإِشَارَةُ إِلَىٰ خِلَافَتِهِ.

الشَّرح

اتخاذ القبور مساجد، والغلو في الصالحين من أسباب الشرك. وصناعة التماثيل كان السبب في أول شرك وقع في الأرض من قوم نوح.

وذَكرَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب الأحاديث في لعنة الله لمَن اتخذ القبور مساجد.

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لعنهم ﷺ علىٰ تحري الصلاة عندها، وإن كان المُصلِّي إنما يصلي لله، فمَن كان يصلي عند القبور ويتخذها مساجد فهو ملعون؛ لأنه ذريعة إلىٰ عبادتها، فكيف إذا عبد أهل القبور والغائبين بأنواع العبادة وسألهم ما لا قدرة لهم عليه؟!».

وحديث عائشة عن أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ: «**أن النصارىٰ إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا علىٰ قبره مسجدًا، وصوَّروا فيه صُوَرهم**»، فيه تحذير من شرك الأصنام والتماثيل.

وإنه لمَن سفه العقول أن يعبد الإنسان ما يصنعه من حجارة علىٰ صورة مخلوق مثله، قال تعالىٰ: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]،

---

(١) قرة عيون الموحدين (ص١١٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن الآية وردت في بيان استحقاق الخالق للعبادة؛ لانفراده بالخَلق، وإقامة الحجة علىٰ مَن يعبد ما لا يَخلق وهم يُخلقون، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]، أي: مَن لا يَخلق شيئًا وهم يُخلقون، وتَدَعُون عبادة مَن خَلَقكم وأعمالكم التي تعملون».

ذكرَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب موعظة النبي ﷺ لأُمَّته وهو في موته؛ بالتحذير من اتخاذ القبور مساجد، فذكرَ حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له علىٰ وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال وهو كذلك: «**لعنةُ اللهِ علىٰ اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يُحذِّر ما صنعوا، ولولا ذلك أُبرز قبره، غير أنه خشي أنْ يُتخذ مسجدًا، رواه البخاري ومسلم.

فالنبي ﷺ حذَّر أُمَّته طريق المغضوب عليهم والضالين، وأخبر أن التشبه بهم -باتخاذ القبور مساجد- من أسباب لعنة الله.

فسبيل الموحدين المتبعين لنبيهم ﷺ: التعبد لله حيث شرع، وعدم اتخاذ القبور مساجد، وسبيل المغضوب عليهم والضالين: اتخاذ القبور مساجد.

ومَن أراد الرحمة اتبع النبي ﷺ، ومَن رغب عن موعظته وتشبه باليهود والنصارىٰ خصوصًا في الشرك؛ فقد أخذ بأسباب لعنة الله وغضبه.

والواجب علىٰ المسلمين: تحقيق توحيدهم؛ بمخالفة أصحاب الجحيم في شركهم، فيكونون كما أمرهم الله بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٦٠).

فالمُنعَم عليهم باتباع الصراط المستقيم لا يَتَّخذون القبور مساجد.

وإنه من أعجب الأمور أن يأتي المخلوق بأشد الأشياء مَقْتًا وغضبًا إلىٰ الله مُتوهِّمًا أنه عبادة لرب العالمين، فيتخذ القبور مساجد وقد قال النبي ﷺ: «**اشتد غضبُ اللهِ علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، ويتعبد لله في المقابر، وقد نُهي عن الصلاة فيها، قال النبي ﷺ: «**الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحَمَّام**».

فمَن أتىٰ بهذه المنهيات والشركيات، فما عبَدَ اللهَ وأطاعه، وإنما عبدَ الشيطان واتبعه، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنه لا يُوصف بأنه: عابدٌ لله وعبده، والمستقيم علىٰ عبادته، إلا مَنِ انقطع إليه بكليته، وتبتل إليه تبتيلًا، لم يلتفت إلىٰ غيره، ولم يشرك به أحدًا في عبادته. وأنه وإن عبده وأشرك به غيره، فليس عابدًا لله، ولا عبدًا له».

فالواجب علىٰ المسلم: إخلاص العبادة لله بما شرع، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

والإخلاص لله: أن ترجوه وتخافه وترغب إليه وحده، ليس في قلبك رجاءٌ ولا رغبةٌ ولا توجُّهٌ إلىٰ ميت لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ولا نصرًا، ولا رزقًا.

واتخاذ القبور مساجد، والدعاء عندها وبها، مخالف لإجماع السابقين الأولين؛ خير الناس، والمؤمنُ يتبعهم بإحسان، لا يخالف ما أجمعوا عليه، فهذا سبيلُ المَرضِي عنهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٤١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «أمَّا زيارة المَشاهد والقبور لأجْل الصلاة عندها والدعاء عندها وبها، والتمسح بها وتقبيلها، وطلْب الحوائج من الرزق والنصر والهدىٰ عندها وبها، فهذا ليس مشروعًا باتفاق أئمة المسلمين؛ إذ هذا لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا أمرَ به، ولا رغَّب فيه، ولا تعلَّمه أحدٌ من الصحابة والتابعين وسائر أئمة المسلمين، بل ولا كانوا يبنون مشهدًا علىٰ قبر ولا مسجدًا ولا غيره، وإنما حدثت هذه المَشاهد بعد القرون المفضلة التي أثنىٰ عليها النبي ﷺ؛ القرن الذي بُعث فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وإنما انتشرت في دولة بني بويه ونحوهم من أهل البدع والجهل.

وقد نهىٰ النبي ﷺ عن ذلك، بل لعن مَن يفعله، كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال في مرضه الذي مات فيه: «**لعنَ اللهُ اليهودَ والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يُحذِّر ما صنعوا. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (ولولا ذلك لَأُبرز قبره، ولكن كره أن يُتخذ مسجدًا)».

وكما أن النبي ﷺ لم يشرع لأُمَّته البناء علىٰ القبور، ولا اتخاذ المقابر مساجد، ولم يشرع شدَّ الرحال إليها، فإنه لم يشرع الاستغاثة بالموتىٰ ولا اتخاذهم شفعاء في دعاء الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إنه لا يمكن أحدٌ أنْ يقول: إن النبي ﷺ شرع لأُمَّته أن يستغيثوا بميت، لا في جلبِ منفعة، ولا دفعِ مضرة، فلا شرع لهم أن يَدْعُوا ميتًا، ولا يسألوه، ولا يدعو به، ولا أن يستجيروا به، ولا يَدْعُوه، لا رغبةً ولا رهبةً، ولا يقول أحد لميت: أنا في حسبِكَ وجوارِكَ، وأنا أريد أن تفعل كذا وكذا، ولا أن يخطو إلىٰ قبر ميت خطوات، وأن يتوجه إلىٰ جهة قبره ويسأله، كما يفعل كثير من النصارىٰ وأشباه النصارىٰ من ضُلَّال هذه الأُمَّة».

---

(١) جامع المسائل، المجموعة الرابعة (ص١٦٣).

(٢) بواسطة كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص٢٩٤، ٢٩٥)، باختصار.

فنهي النبي ﷺ من البناء علىٰ القبور، ومن اتخاذها مساجد، ومن شدِّ الرحال إليها، ومن اتخاذها أعيادًا، أمْرٌ مُحكَمٌ لمْ يُنسخ، وقد ساق شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب ما يدل علىٰ ذلك، ومن ذلك حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، يقول: «**إنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»، رواه مسلم.

وذكرَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ لما نزل به قال: «**لعنةُ اللهِ علىٰ اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يُحذِّر ما صنعوا، رواه البخاري ومسلم.

قال الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ النصوصَ التي صحَّت عنه ﷺ بالنهي عن تعظيم القبور بكل نوع يؤدي إلىٰ الشرك ووسائله من الصلاة عندها وإليها، واتخاذها مساجدَ، وإيقاد السُّرج عليها، وشد الرحال إليها، وجعلها أعيادًا يُجتمع لها كما يُجتمع للعيد ونحو ذلك= صحيحةٌ صريحة مُحكَمة فيما دلت عليه، وقبور المعظمين مقصودة بذلك بالنص والعلة، ولا ريب أن هذا من أعظم المحاذير، وهو أصلُ أسبابِ الشرك والفتنة به في العالَم».

والمقصود بزيارة المقبرة هو تذكُّر الآخرة، والإحسان إلىٰ الميت بالدعاء والاستغفار له، وقد عكس المشركون هذا المقصود بدعاء الميت والاستشفاع به.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**ما من رَجُلٍ مسلم يموت، فيقوم علىٰ جنازته أربعون رجلًا، لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفَّعهم الله فيه**»، رواه مسلم.

---

(١) الصارم المنكي (ص٨٥١).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٧٥، ٣٧٦).

فهذا مقصود الصلاة على الميت، وهو الدعاء له، والاستغفار، والشفاعة فيه.

ومعلوم أنه في قَبْرِه أشدّ حاجة منه على نعشه، فإنه حينئذٍ مُعرَّض للسؤال وغيره. وقد كان ﷺ يقف على القبر بعد الدفن، فيقول: «**سَلُوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل**»؛ فعُلم أنه أحوج إلى الدعاء له بعد الدفن.

فإذا كنا على جنازته ندعو له، لا ندعو به، ونشفع له، لا نستشفع به، فبعد الدفن أَوْلى وأَحْرَى.

فبدَّلَ أهلُ البدع والشرك قولًا غير الذي قيل لهم، بدَّلوا الدعاءَ له بدعائه نفسه، والشفاعة له بالاستشفاع به، وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ إحسانًا إلى الميت وإحسانًا إلى الزائر وتذكيرًا بالآخرة، سؤالَ الميت، والإقسامَ به على الله».

فالمقابر دُورُ الموتى، وليست مسجدًا لعبادة الله بالصلاة فيها، لم يُشرع فيها إلا الإحسان إلى الميت؛ بالصلاة عليه لمَن لم يصلِّ عليه، وبالدعاء له، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلى على قبر امرأة سوداء كانت تَقُمُّ المسجد.

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «هذه صلاة الجنازة على الميت».

وقال ابن القيم[2]: «بخلاف سائر الصلوات، فإنها لم تُشرع في القبور ولا إليها؛ لأنها ذريعة إلى اتخاذها مساجد، وقد لعن رسول الله ﷺ مَن فعلَ ذلك».

وبيَّن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله معنى اتخاذ القبور مساجد المنهي عنه في قول النبي ﷺ: «**لا تتخذوا القبور مساجد**»، حيث قال[3]: «الصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبنِ مسجدًا».

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٣٢٠).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ٣٢٠).

(٣) كتاب التوحيد (ص٣٩).

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب(١): «وكل موضع قصدت الصلاة فيه، فقد اتُّخذ مسجدًا، بل كل موضع يُصلىٰ فيه يُسمىٰ مسجدًا، كما قال ﷺ: «**جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»».

والمسلم الحنيف هو الذي يقيم وجهه لله في بيوت الله حيث أمره الله، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «المَشاهد إنما يَعمُرها مَن يخشىٰ غير الله، ويرجو غير الله، لا يَعمُرها إلا مَن فيه نوع من الشرك».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «الصلاة عند القبور مطلقًا واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها، فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك، والتغليظ فيه».

ومَنِ اتخذ من قبر الميت مسجدًا يصلي ويَذكُر اللهَ فيه، ويعتاد المجيء إليه، والعكوف عنده، ويدعو عنده وبالميت= فقد اتخذه وثنًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «العكوف علىٰ القبور، والتمسح بها، وتقبيلها، والدعاء عندها وبها، ونحو ذلك هو أصل الشرك وعبادة الأوثان، ولهذا قال النبي ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**»».

فاتخاذ القبور مساجد هو من أعمال الضالين والمغضوب عليهم، وأما الحنفاء الموحدون فيعبدون الله بما أمر، لا يتخذون القبور مساجد، ولا يستغيثون بالموتىٰ، ولا يجعلون الموتىٰ وسائط في دعاء الله.

---

(١) كتاب التوحيد (ص٣٩).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢٨٢).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٨٤).
(٤) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٧٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قال الله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١]، فكان الضالون بل والمغضوب عليهم يبنون المساجد على قبور الأنبياء والصالحين، وقد نهى رسول الله ﷺ أُمَّته عن ذلك في غير موطن حتى في وقت مفارقته الدنيا بأبي هو وأمي».

والذين قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١] هم النصارى الكفار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فهؤلاء الذين اتخذوا على أهل الكهف مسجدًا كانوا من النصارى الذين لعنهم النبي ﷺ حيث قال: «**لعنَ اللهُ اليهودَ والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»».

ونصوص الوحي التي ذكرها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في لعنة الله لِمَن اتخذ القبور مساجد تدل على وجوب النصيحة للمسلمين في تحذيرهم من أسباب اللعنة، وتوجب على الناصحين استنقاذ عُبَّاد القبور من الشرك؛ بدعوتهم للتوحيد ولعبودية الله بما شرع.

وحديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ الذي أورده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في خاتمة الباب فيه دليل على أنَّ عُبَّاد القبور من شر الناس، قال النبي ﷺ: «**إن من شرار الناس مَن تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد**»، والساعة إنما تدرك الكفار بعد قبض أرواح المؤمنين، فتقوم الساعة حين لا يُقال في الأرض: الله.

فاحذر -أيها المسلم- من أسباب الشر، فعُبَّاد القبور أخبر النبي ﷺ أنهم والكفار في أغلظِ الشر سواء.

(١) التفسير (٣/ ٢٥٦).

(٢) الرد على البكري (٢/ ٤٧٣).

شـــرْحُ المســـائل:

١) **مَا ذَكَرَ الرَّسُولُ فِيمَنْ بَنَىٰ مَسْجِدًا يُعْبَدُ اللهُ فِيهِ عَلَىٰ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ وَلَوْ صَحَّتْ نِيَّةُ الْفَاعِلِ:** وصفهم بأنهم شرار الخلق، فالنية الخالصة تستلزم الاتباع للنبي ﷺ، لا مخالفته باتخاذ القبور مساجد.

٢) **النَّهْيُ عَنْ التَّمَاثِيلِ، وَغِلَظُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ:** أولُ شركٍ وقع في الأرض كان في عبادة الأصنام من التماثيل.

٣) **الْعِبْرَةُ فِي مُبَالَغَتِهِ ﷺ فِي ذَلِكَ: كَيْفَ بَيَّنَ لَهُمْ هَذَا أَوَّلًا، ثُمَّ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ قَالَ مَا قَالَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي السِّيَاقِ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا تَقَدَّمَ:** تحذيره ﷺ من الشرك لتحقيق التوحيد، ونهيه عن اتخاذ القبور مساجد وعن الأصنام من الأمر المُحكَم الذي لمْ يدخله النَّسْخُ.

٤) **نَهْيُهُ عَنْ فِعْلِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ الْقَبْرُ:** حيث قال: «**إنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**»، رواه مسلم.

٥) **أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ:** فاحذر طريق الضالين والمغضوب عليهم.

٦) **لَعْنُهُ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ:** فاحذر أغلظ أنواع اللعنة وأسباب الشرك.

٧) **أَنَّ مُرَادَهُ تَحْذِيرُهُ إِيَّانَا عَنْ قَبْرِهِ:** فالنهي عامٌّ عن جميع القبور.

٨) **الْعِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبْرَازِ قَبْرِهِ:** خشيةَ الغلو فيه.

٩) **مَعْنَىٰ اتِّخَاذِهَا مَسْجِدًا:** الصلاة والعبادة عندها.

١٠) **أَنَّهُ قَرَنَ بَيْنَ مَنِ اتَّخَذَهَا وَبَيْنَ مَنْ تَقُومُ عَلَيْهِمْ السَّاعَةُ، فَذَكَرَ الذَّرِيعَةَ إِلَىٰ الشِّرْكِ قَبْلَ وُقُوعِهِ مَعَ خَاتِمَتِهِ:** هم شرار الخَلق؛ لكُفرهم وشركهم.

١١) **ذِكْرُهُ فِي خُطْبَتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ: الرَّدَّ عَلَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا أَشَرُّ أَهْلِ الْبِدَعِ، بَلْ أَخْرَجَهُمْ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الثِّنْتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً، وَهُمُ الرَّافِضَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ، وَبِسَبَبِ الرَّافِضَةِ حَدَثَ الشِّرْكُ وَعِبَادَةُ الْقُبُورِ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ بَنَىٰ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ**: الجهمية يعبدون عدمًا، ولا يعبدون اللهَ؛ حيث كَفَرُوا بأسماء الله الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، والرافضة اتخذوا القبور مساجد.

١٢) **مَا بُلِيَ بِهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ النَّزْعِ**: زيادةٌ في حسناته ورفْعُ درجاته.

١٣) **مَا أُكْرِمَ بِهِ مِنَ الْخُلَّةِ**: تفضيلٌ من الله ﷻ له -صلوات الله وسلامه عليه-.

١٤) **التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا أَعْلَىٰ مِنَ الْمَحَبَّةِ**: هذا اصطفاء من الله له وللخليل سيد الحنفاء.

١٥) **التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الصِّدِّيقَ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ**: حيث قال النبي ﷺ: «**لو كنتُ مُتَّخذًا من أُمَّتِي خليلًا لاتخذتُ أبا بكر خليلًا**».

١٦) **الْإِشَارَةُ إِلَىٰ خِلَافَتِهِ**: لأنه أفضلهم.

❁ ❁ ❁

الْبَـــابُ الْعِشْــرُونَ

بَـــابُ مَا جَـــاءَ أَنَّ الْغُلُـــوَّ فِي قُبُـــورِ الصَّالِحِـــينَ يُصَيِّـــرُهَا أَوْثَـــانًا تُعْـــبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◈ رَوَىٰ مَالِكٌ فِي الْمُوطَّأ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

◈ وَلابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النَّجْم:١٩]، قَالَ: كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَىٰ قَبْرِهِ.

◈ وَكَذَا قَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ.

◈ وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»، رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.

فِيـــهِ مَسَـــائِلُ:

١) تَفْسِيرُ الْأَوْثَانِ.

٢) تَفْسِيرُ الْعِبَادَةِ.

٣) أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْتَعِذْ إِلَّا مِمَّا يُخَافُ وُقُوعُهُ.

٤) قَرْنُهُ بِهَذَا اتِّخَاذَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ.

٥) ذِكْرُ شِدَّةِ الْغَضَبِ مِنَ اللهِ.

٦) وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا: مَعْرِفَةُ صِفَةِ عِبَادَةِ اللَّاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الْأَوْثَانِ.

٧) مَعْرِفَةُ أَنَّهُ قَبْرُ رَجُلٍ صَالِحٍ.

٨) أَنَّهُ اِسْمُ صَاحِبِ الْقَبْرِ، وَذِكْرُ مَعْنَىٰ التَّسْمِيَةِ.

٩) لَعْنُهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ.

١٠) لَعْنُهُ مَنْ أَسْرَجَهَا.

الشَّرح

الغلو في القبور من أسباب الشرك، والموتىٰ لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، قد ماتوا وانقطع عملهم والله حيٌّ لا يموت، وهو الذي ينفع ويضر ويُحي ويُميت، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣].

وفي أحاديث الباب التي ذكرها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ما يدل علىٰ أنَّ شر الناس مَن اتَّخذوا قبور الأنبياء مساجد، وهذا من أسباب اشتداد غضب الله علىٰ مَن فعل ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «في الصحيح أنَّه قال ﷺ قبل أن يموت بخمس: «**إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

وفي الصحاح من غير وجهٍ أنه قال ﷺ في مرضِ موته: «**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، -يُحذِّر ما فعلوا-، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: (لولا ذلك لأُبرز قبره ولكن كره أن يُتَّخذ مسجدًا).

فمقابر الأنبياء والصالحين لا يجوز اتَّخاذها مساجد بالسنَّة الثابتة عن رسول الله ﷺ واتفاق المسلمين علىٰ ذلك».

---

(١) الإخنائية (ص ٩٥، ٩٦).

وقد حذَّر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أسباب الشرك بالغلو في القبور بما حصل للمشركين في الجاهلية من الغلو في قبر مَن كان يُطعِم الحُجَّاج السويق[1]، فصار قبره وثنًا بسبب الغلو فيه، وكان قبره (اللات) من أعظم أوثان الجاهلية.

قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم:١٩]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلُتُّ السَّوِيقَ للحَاجِّ» رواه البخاري، وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان يَلُتُّ لهم السويق فمات فعكفوا علىٰ قبره».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ثقيف كان فيهم اللات المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢١]، وقد ذكروا أنَّها مكان رَجُل كان يَلُتُّ السويق ويسقيه للحُجَّاج، فلما مات عكفوا علىٰ قبره، وصار ذلك وثنًا عظيمًا يُعبَد».

واتَّخاذ القبور مساجد المنهي عنه يشمل بناء المساجد عليها، ويشمل الصلاة في المقابر وعند القبور، فكلُّ موضعٍ قُصدتِ الصلاةُ فيه فقد اتُّخذ مسجدًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: (وَلَوْلا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ وَلَكِنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا)، ولم تقصد عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا مجرَّد بناء مسجد، فإنَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم يكونوا يبنوا حول قبره مسجدًا، وإنَّما قصدت أنَّهم خشوا أنَّ النَّاس يُصلُّون عند قبره، وكلُّ موضع قُصدت الصلاة فيه فقد اتُّخذ مسجدًا، بل كل موضع يُصلىٰ فيه فإنَّه يُسمىٰ مسجدًا، وإن لم يكن هناك بناء، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»».

---

(١) السويق: دقيق البُر مؤتدم بالسمن.

(٢) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٦/ ١٣٣).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٩٨).

وقد روىٰ أبو سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إِلَّا الْمَقْبَرَةَ وَالْحَمَّامَ**»، رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة والبزَّار وغيرهم، بأسانيد جيدة، ومَن تكلَّم فيه فما استوفىٰ طُرُقه».

وقبرُ النبي ﷺ في حجرة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا؛ لأن النبيَّ يُدفن حيث يموت، ومُنع الناس من الوصول إليه؛ خشية الغلو فيه، وهذا معنىٰ «وَلَوْلا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ»، أي: لدُفن في البقيع، وبعد وفاة الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وعن أبيها صار الدخول إلىٰ قبره ﷺ غير ممكن فقد سُدَّت الحجرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ(١): «دُفِن ﷺ في الحجرة، ومُنع النَّاس -أصحابه وغير أصحابه- من الدخول إلىٰ عند قبره، وإنَّما كان يدخل مَن يدخل إلىٰ عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وكانت ناحية في الحجرة عن القبر، وربما طَلَبَ منها أحيانًا بعضُ التابعين أن تريه القبر فتريه إياه، ليعرف السُّنَّة في القبور، وأنَّها تكون لاطية، لا مشرفة.

فلمَّا ماتت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا مُنِع النَّاس منعًا عامًّا، وكان الدُّخول ممكنًا مع وجود الباب، فلما سُدَّت الحجرة وبُنِي الحائط البرَّاني صار الدخول إلىٰ قبره، والزيارة له كما يُزار قبرُ غيره، غير مقدور، ولا مأمور».

والتعظيم للنبي ﷺ يكون باتِّباعه في النَّهي عن اتِّخاذ قبره وثنًا كما قال النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، فمَن عدلَ إلىٰ أسباب سخطِ الله ولعنته فهذا من ظلمه لنفسه وجهله بدينه، ومن تشبُّهه بالمغضوب عليهم والضالين، فإنَّ النبي ﷺ قال: «**لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**».

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام وعبادات أهل الشِّرك والنِّفاق (ص ٧٩).

قال الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ النصوص التي صحَّت عنه ﷺ بالنهي عن تعظيم القبور بكل نوع يؤدي إلىٰ الشرك ووسائله، من: الصلاة عندها وإليها، واتخاذها مساجد، وإيقاد السُّرُج عليها، وشدِّ الرحال إليها، وجعلها أعيادًا يُجتمع لها كما يُجْتَمع للعيد ونحو ذلك= صحيحة صريحة محكمة فيها دلَّت عليه».

وخير الناس وأفضلهم صحابة رسول الله ﷺ سلف الأُمَّة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين أخذوا علم الدين ومعانيه من رسول الله ﷺ كانوا يعبدون الله وحده، ويَدْعُونه وحده، ما كانوا يستغيثون بالموتىٰ، ولا يسألونهم، ولا يَدْعُونهم، ولا يتخذونهم وسائط في دعاء الله، ولا يتَّخذون قبورهم مساجد بل يمنعون من ذلك، فقد كانوا أئمة هُدىً ودُعاة توحيد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لم يكن علىٰ عهدهم -الصحابة- في الإسلام قبر نبي يُسافَرُ إليه، ولا يُقصد للدعاء عنده، أو لطلب بركته، أو شفاعته، أو غير ذلك بل أفضل الخَلق خاتم الرُّسل محمد ﷺ، وقبره عندهم محجوب لا يقصده أحد منهم لشيء من ذلك، وكذلك كان التابعون لهم بإحسان ومَن بعدهم من أئمَّة المسلمين».

وقد أخذ الصحابة بفقه هذا الحديث: «**اشتدَّ غضبُ الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وأعملوه في حق قبر غيره من الأنبياء والصالحين، فعمّوا قبر النبي أو الصالح (دانيال) الذي كان (بتستر)؛ لئلا يغلوا الناس في قبره ويتَّخذوه وثنًا.

قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن أبي خلدة خالد بن دينار: حدَّثنا أبو العالية قال: «لما افتتحنا (تستر) وجدنا في مال بيت الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلىٰ عمر بن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

(١) الصارم المنكي (ص ٨٥١).
(٢) الإخنائيَّة (ص ٢١٧).

فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية، فأنا أول رَجُل من العرب قرأه، قرأته مثلما أقرأ القرآن هذا.

فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟

قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم، وما هو كائن بعد.

قلت: فما صنعتم بالرجل؟

قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرًا متفرِّقة، فلما كان بالليل دفنَّاه وسوَّينا القبور كلها لنعمِّيه على الناس فلا ينشبونه(١)».

فالإجماع المعلوم المتيقَّن عن الصحابة رضي الله عنهم: سدُّ ذرائعِ الشرك ومنْع الغلو في القبور.

ومسجد الرسول ﷺ إنَّما يُشرَع الذهاب إليه لأداء العبادات المشروعة، فهذا هو العمل الصالح الذي يقبله الله، أما مَن قصده لفعل الشرك وأنواع البِدَع فهذا مما لا يأذن فيه الله، ويكون فاعل ذلك آثمًا من الظالمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمة رحمه الله(٢): «إنَّ السفر المشروع إلى مسجده يتضمَّن أن يُفْعَلَ في مسجده ما كان يُفْعَلَ في حياته وحياة خلفائه الراشدين من الصلاة والسلام عليه(٣)، والثناء والدُّعاء، كما يُفْعَلُ ذلك في سائر المساجد وسائر البِقاع وإن كان مسجده أفضل؛ فالمشروع فيه عبادة لله مأمورٌ بها، وأما الذي يفعله مَن سافر إلى قبر غيره فإنَّما هو من نوع الشرك كدعائهم وطلبِ الحوائج منهم، واتِّخاذ قبورهم مساجد وأعيادًا وأوثانًا، وهذا محرَّم بالنص والإجماع».

---

(١) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "إسنادٌ صحيح"، البداية والنهاية (٢/ ٣٧٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٢٦٧).

(٣) وذلك حين الدخول إلى المسجد: «اللهم صلِّي على محمد، اللهم افتح لي أبواب رحمتك».

والنبيُّ ﷺ نهىٰ عن الدفن ليلًا إلا مِن ضرورة، ومعنىٰ النهي وارد علىٰ سبب وهو: أن مَن قُبِر ليلًا كُفِّن في غير طائل، فإذا حصل إخلال أو تقصير في دفن الميت ليلًا ولم يُشيِّعه عدد من المسلمين تُرجىٰ شفاعتهم فيه، فهذا الذي يتناوله النهي عن دفن الميِّت ليلًا.

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ خطب يومًا فذكر رجلًا من أصحابه قُبِض فكُفِّن في كَفَنٍ غير طائل، وقُبِر ليلًا، فزجر النبيُّ ﷺ أن يُقبَر الرجل بالليل حتىٰ يُصلَّىٰ عليه، إلا أن يضطر إنسان إلىٰ ذلك، وقال النبي ﷺ: «**إِذَا كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُحْسِنْ كَفَنَهُ**» رواه مسلم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «جواز الدفن ليلًا كما دفن رسول الله ﷺ ذا البجادين ليلًا، وقد سُئِل أحمد عنه، فقال: وما بأس بذلك، وقال: أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُفِن ليلًا، وعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دفنَ فاطمة ليلًا.

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سمعنا صوت المساحي من آخر الليل في دفن النبي ﷺ. انتهىٰ، ودُفِن عثمان، وعائشة، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ليلًا.

وفي الترمذي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ **دَخَلَ** قبرًا **لَيْلًا فَأُسْرِجَ لَهُ سِرَاجٌ فَأَخَذَهُ مِنْ قِبَلِ الْقِبْلَةِ قَالَ**: «**رَحِمَكَ اللهُ إِنْ كُنْتَ لَأَوَّاهًا تَلَّاءً لِلْقُرْآنِ**»، قال الترمذي: حديثٌ حسن.

وفي البخاري أن رسول الله ﷺ سأل عن رجل فقال: «**مَن هنا؟**» قالوا: فلان دُفِن البارحة، فصَلَّىٰ عليه».

وحديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ لعن زائرات القبور يدل علىٰ تحريم زيارة النساء للقبور، وهذا التحريم سدًّا لذريعة الشرك، ولما هو معلوم من جزعهن وقلة صبرهن.

---

(١) زاد المعاد (ص ٥٣٧).

فإنْ قلتَ: إنَّ النساء لسن سواء، ففيهن صابرات، فالجواب: أن حكمة التحريم وهي الجزع والوقوع في النياحة والأمور المحرَّمة منتشرة في النساء ولا يُمكن التمييز بين نوع الصابرات والنائحات، فيُعلَّق الحُكمُ بالمظنَّة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة عُلِّق الحُكمُ بمظنَّتها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا(٢): «إنَّ المرأة إذا فُتِح لها هذا الباب أخرجها إلىٰ الجزع والندب والنياحة؛ لِمَا فيها من الضعف وقلة الصبر، وإذا كانت زيارة النساء مظنَّة وسببًا للأمور المحرمة، فإنه لا يمكن أن يُحدَّ المقدار الذي لا يفضي إلىٰ ذلك، ولا التمييز بين نوع ونوع، ومن أصول الشريعة: أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة عُلِّقَ الحكم بمظنتها فيحرم هذا الباب؛ سدًّا للذريعة، كما حُرِّمَ النظر إلىٰ الزينة الباطنة، وكما حُرِّم الخلوة بالأجنبية وغير ذلك، وليس في ذلك من المصلحة ما يُعارض هذه المفسدة، فإنه ليس في ذلك إلا دعاؤها للميت، وذلك ممكن في بيتها».

ومما جاء في النهي عن زيارة النساء القبور حديثُ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَإِذَا نِسْوَةٌ جُلُوسٌ، فَقَالَ: «**مَا يُجْلِسُكُنَّ؟**»، قُلْنَ: نَنْتَظِرُ الْجَنَازَةَ، قَالَ: «**هَلْ تُغَسِّلْنَ؟**»، قُلْنَ: لا، قَالَ: «**هَلْ تَحْمِلْنَ؟**»، قُلْنَ: لا، قَالَ: «**هَلْ تُدَلِّينَ فِيمَنْ يُدَلِّي؟**» قُلْنَ: لَا، قَالَ: «**فَارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ**» رواه ابن ماجه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «هذا يدل علىٰ أنَّ اتباعهم الجنازة وِزْرٌ، لا أجر لهن فيه؛ إذ لا مصلحة لهن ولا للميِّت في اتباعهن لها، بل فيه مفسدة للحي والميِّت».

---

(١) الفتاوىٰ الكبرىٰ (٦/ ١٠٥).

(٢) فتح المجيد (ص ٢٢٤، ٢٢٥).

(٣) تهذيب سنن أبي داود (٤/ ٣٤٩).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَبَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ -يعني ميِّتًا-، فَلَمَّا فَرَغنَا انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَانْصَرَفْنَا مَعَهُ، فَلَمَا حَاذَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ بابه وَقَفَ، فَإِذَا نَحْنُ بِامْرَأَةٍ مُقبلَةٍ قال: أَظُنُّه عرَفَهَا، فَلَمَّا ذَهَبَت إِذَا هِيَ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا أَخْرَجَكِ مِنْ بَيْتِكِ يَا فَاطِمَةُ؟**» قَالَتْ: أَتَيْتُ أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ فَرَحَّمْتُ إِلَيْهِمْ مَيِّتَهُمْ، أَوْ عَزَّيْتُهُمْ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَعَلَّكِ بَلَغْتِ مَعَهُمُ الْكُدَىٰ؟**» قَالَتْ: مَعَاذَ اللهِ! وَقَدْ سَمِعْتُكَ تَذْكُرُ فِيهَا مَا تَذْكُرُ. قَالَ: «**لَوْ بَلَغْتِ مَعَهُمُ الْكُدَىٰ مَا رَأَيْتِ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَرَاهَا أَبُو أُمِّكِ أَوْ أَبُو أَبِيكِ**» رواه أبو داود والنسائي(١).

قال ابن حبيب المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «يُكره خروجُ النساء في الجنائز وإن كُنَّ غير نوائِحَ ولا بَواكِيَ في جنائز أهل الخاصة من ذوي القرابة وغيرهم، وينبغي للإمام أن يمنعهن من ذلك، فقد أمر النبي ﷺ بطرد امرأة رآها في جنازة فطُردت حتىٰ لم يرها، وقال لنساءٍ رآهن في جنازة: «**أَتَحمِلْنَهُ فِيمَنْ يَحْمِلُهُ؟**» قُلْنَ: لَا، قَالَ: «**فَتُدْخِلْنَهُ قَبْرَهُ فِيمَنْ يُدْخِلُهُ؟**» قُلْنَ: لَا، قَالَ: «**فَارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ**».

وكان الحسن يطردهن، وإذا لم يرجعن لم يرجع، ويقول: لا نَدَعُ حقًّا لباطل.

وكان مسروق يَحْثِي في وجوههنَّ الترابَ ويطردهن، فإنْ رجعن وإلا رجع.

وقال النخعي: كانوا إذا خرجوا بالجنازة أغلقوا الأبواب علىٰ النساء.

وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ليس للنساء في الجنائز نصيبٌ».

أمَّا المُبِيحون والمُستَحِبُّون لزيارة النساء للقبور فتعلَّقوا بعدَّة أدلة، منها:

ما رواه مسلم في صحيحه من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيارَة القُبُورِ فَزُورُوها**»، قالوا: وقوله ﷺ: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ**» عامٌّ للرجال والنساء.

---

(١) قال المنذري: "حسن الإسناد"، الترغيب والترهيب (٤/ ١٨١).

(٢) رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام (٣/ ١٣٧٦/ ١٣٧٧).

فهذا يُسلَّم لهم حيث لا يكون دليلٌ صريح يقتضي عدم دخولهن في عموم الإذن بعد النهي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أحاديث التحريم من أظهر القرائن علىٰ عدم دخولهن في خطاب الذكور».

وقال ابن القيم[(٢)]: «كان في أول الإسلام قد نهىٰ عن زيارة القبور؛ صيانةً لجناب التوحيد، وقطعًا للتعلُّق بالأموات، وسدًّا لذريعة الشرك التي أصلها تعظيم القبور وعبادتها كما قال ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فلمَّا تمكَّن التوحيد من قلوبهم، واضمحلَّ الشرك، واستقر الدِّين أُذِن في زيارة يحصل بها مزيد من الإيمان، وتذكُّر ما خُلق العبدُ له من دار البقاء، فأُذِن حينئذٍ فيها، فكان نهيه عنها للمصلحة وإذنه فيها للمصلحة.

وأما النساء فإنَّ هذه المصلحة وإن كانت مطلوبة منهن لكن ما يُقارِن زيارتهن من المفاسد التي يعلمها الخاص والعام من فتنة الأحياء، وإيذاء الأموات، والفساد الذي لا سبيل إلىٰ دفعه إلا بمنعهنَّ منها، أعظم مفسدة من مصلحة يسيرة تحصل لهن بالزيارة، والشريعة مبناها علىٰ تحريم الفعل إذا كانت مفسدته أرجح من مصلحته، ورجحان هذه المفسدة لا خفاء به، فمنعهن من الزيارة من محاسن الشريعة».

واستدل المبيحون لزيارة النساء للقبور بحديث عبد الله بن أبي مليكة أنه قال لعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتِ؟ قَالَتْ: مِنْ قَبْرِ أَخِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَقُلْتُ لَهَا: أَلَيْسَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَهَىٰ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، كَانَ نَهَىٰ عَنْها ثُمَّ أَمَرَ بِزِيَارَتِهَا، رواه البيهقي من حديث يزيد بن زريع عن بسطام عن مسلم عن أبي التياح عن ابن أبي مليكة.

---

(١) تهذيب سنن أبي داود (٤/ ٣٤٩).

(٢) تهذيب سنن أبي داود (٤/ ٣٤٩).

قال: توفي عبد الرحمن بن أبي بكر بحبشي فحُمِل إلىٰ مكة فدُفن، فلما قدمت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أتت قبر عبد الرحمن فقالت:

وكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً ... مِنَ الدَّهْرِ حَتَّىٰ قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا

فَلَمَّا تفرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكًا ... لِطُولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

ثم قالت: والله لو حضرتكَ ما دُفنتَ إلا حيثُ متّ ولو شهدتكَ ما زرتكَ».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إنّما قدِمت مكة للحج فمرَّت علىٰ قبر أخيها في طريقها فوقفت عليه، وهذا لا بأس به، إنّما الكلام في قصدهن الخروج لزيارة القبور.

ولو قُدِّر أنّها عدلت إليه وقصدت زيارته، فهي قد قالت: (لو شهدتكَ لما زرتكَ)، وهذا يدل علىٰ أنّه من المستقر المعلوم عندها: أنّ النساء لا يُشرع لهن زيارة القبور وإلا لم يكن في قولها ذلك معنىٰ.

وأما رواية البيهقي وقولها: (نَهَىٰ عَنْها ثُمَّ أَمَرَ بِزِيَارَتِهَا)، فهي من رواية بسطام بن مسلم، ولو صحَّ فهي تأوَّلت ما تأوَّل غيرها من دخول النساء، والحجة في قول المعصوم لا في تأويل الراوي، وتأويله إنما يكون مقبولًا حيث لا يُعارضه ما هو أقوىٰ منه، وهذا قد عارضه أحاديث المنع».

واحتجَّ المبيحون لزيارة النساء القبور بما رواه ابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ فِي جِنَازَةٍ فَرَأَىٰ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امْرَأَةً، فَصَاحَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعْهَا يَا عُمَرُ، فَإِنَّ الْعَيْنَ دَامِعَةٌ، وَالنَّفْسَ مُصَابَةٌ، وَالْعَهْدَ قَرِيبٌ**».

قال الحافظ العيني رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «أخرج الحاكم هذا، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين. وفيه نظر؛ لأن البيهقي نصَّ علىٰ انقطاعه، وفي سنده سلمة بن الأزرق،

---

(١) تهذيب السنن (٤/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) عمدة القاري (٦/ ٤٢٧).

قال ابن القطان: سلمة هذا لا يُعرف حالُه، ولا أعرف أحدًا من مصنفي الرجال ذَكرَه».

واحتج المبيحون لزيارة النساء القبور بحديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الصحيحين قال: مرَّ النبيُّ ﷺ بامرأة عند قبرٍ تبكي على صبيٍّ لها فقال: «**اتَّقِ اللهَ واصْبِرِي**»، فقالت: وما تبالي بمصيبتي. فلما ذَهبَ قيل لها: إنه رسولُ الله ﷺ، فأخذها مثل الموت، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين، فقالت: يا رسول الله، لمْ أَعرفكَ، فقال: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَىٰ**»[1].

وهذا الدليل قلبه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ على المحتجين به، فقال[2]: «أمَّا حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فهو حُجَّة لنا فإنه لم يقرها بل أمرها بتقوى الله التي هي فِعلُ ما أمرَ به وتركُ ما نهى عنه، ومن جملتها: النهي عن الزيارة، وقال لها: «**اصْبِرِي**»، ومعلوم أنّ مجيئها إلى القبر وبكاءها منافٍ للصبر، فلمَّا أَبَتْ أن تَقْبَل منه ولم تَعْرفه انصرف عنها، فلمَّا عَلِمتْ أنه ﷺ هو الآمِرُ لها جاءته تعتذر إليه من مخالفة أمره، فأيُّ دليلٍ في هذا على جواز زيارة النساء؟».

وأنتَ إذا تأملتَ أدلة المبيحين لزيارة النساء القبور وجدت دلالتها محتملة غير صحيحة، وللإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تنبيه أصولي مهم لا بُدَّ من ملاحظته عند تقرير نسْخِ زيارة النساء للقبور، وهو أنّ نهي النبي ﷺ لهن عن ذلك مُعَلَّل بعِلَّتَين:

الأُولىٰ: زالت في حق الرجال والنساء، وهي: خشية الشرك في القبور.

---

(١) قال البغوي رَحِمَهُ اللهُ: "قوله: «عند الصدمة الأولى»، أي: عند فورة المصيبة وحموتها. والصدْم: ضرب الشيء الصُّلْب بمثله، يريد: أنَّ الصبر المحمود والمأجور عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة؛ لأنه إذا طالت الأيام وقع السُّلُو طبعًا فلم يؤجر" شرح السنة (٥/ ٤٤٨).

(٢) تهذيب السنن (٤/ ٣٥٠).

والثانية: الجزع وعدم الصبر، وهذه باقية في حق النساء، فلا يدخلن في النَّسْخ، ولا يرتفع الحُكْمُ في حقهن.

وعن أبي هريرة وحسَّان بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قالا: «**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**».

قال العَلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «التعبير في هذه الروايات بـ (زائرات القبور) يدل علىٰ عدم تخصيص النهي بالإكثار من الزيارة كما توهمه بعضهم من التعبير في الروايات الأخرىٰ بلفظ (زوَّارات القبور)».

وقال شيخنا العلامة محمد ابن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ[2]: "إن كانت (زوَّارات) للنسبة فلا إشكال، وإن كانت للمبالغة فإنَّ لفْظَ (زائرات) فيه زيادةُ علمٍ فيُؤخذ به؛ لأن (زائرات) يصدق بزيارةٍ واحدة، و(زوَّارات) في الكثير للمبالغة.

ومعلومٌ أن الوعيد إذا جاء مُعلَّقًا بزيارة واحدة ومُعلَّقًا بزيارات متعددة؛ فإن مع المُعلَّق بزيارةٍ واحدة زيادةُ عِلمٍ؛ لأنه يَحِقُّ الوعيد علىٰ مَن زار مرة واحدة علىٰ لفظ (زائرات) دون لفظ (زوَّارات)، ولو أخذنا بـ (زوَّارات) ألغينا دلالة (زائرات)».

وقال العَلَّامة المجدِّد محمد ابن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ[3]: «والتضعيف قد يُحمَل علىٰ كثرة الفاعلين لا علىٰ كثرة الفعل، فـ (زوَّارات) يعني: النساء إذا كُنَّ مائة كان فعلهن كثيرًا.

والتضعيف باعتبار الفاعل موجود في اللغة العربية، قال تعالىٰ: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ [ص:٥٠]، فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف؛ إذ الباب لا يُفتح إلا مرة واحدة، وأيضًا قراءة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِّحَتۡ﴾ [الزمر:٧٣] فهي مثلها.

---

(١) مجموع فتاوىٰ العلامة محمد بن إبراهيم (٣/ ٢٤٢).

(٢) الشرح الممتع (٥/ ٤٧٩).

(٣) شرح كتاب التوحيد (ص٤٣١)، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ المجلد التاسع.

فالرَّاجح: تحريم زيارة النساء للمقابر، وأنّها من كبائر الذنوب».

فالمقصود: أن عمومات النصوص في الرخصة في زيارة القبور لا تتناول النساء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «قد عُلم بالأحاديث الصحيحة أن هذا العموم لم يتناول النساء لنهي النبي ﷺ لهن عن اتِّباع الجنائز سواء كان نهي تحريم أو تنزيه، فإِذَنْ لم يدخلن في هذا العموم، فكذلك في ذلك بطريق الأَوْلىٰ، وكلاهما من جنسٍ واحد، فإن تشييع الجنازة من جنس زيارة القبور، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة:٨٤] فنهىٰ نبيَّه ﷺ عن الصلاة علىٰ المنافقين وعن القيام علىٰ قبورهم.

وكان دليل الخطاب وموجب التعليل أن المؤمنين يُصلَّىٰ عليهم ويُقام علىٰ قبورهم، وذلك كما قال أكثر المفسرين: هو القيام بالدعاء والاستغفار وهو مقصود زيارة قبور المؤمنين، فإذا كان النساء لم يدخلن في عموم اتباع الجنائز وما في ذلك من الصلاة علىٰ الميِّت، فلأن لا يدخلن في زيارة القبور التي غايتها دون الصلاة عليه بطريق الأَوْلىٰ، بخلاف ما إذا أمكن النساء أن يصلين علىٰ الميِّت بلا اتباع كما يصلين عليه في البيت فإن ذلك بمنزلة الدعاء له والاستغفار في البيت».

ومن الأمور المُرجِّحة لتحريم زيارة النساء للقبور هو: أنَّ أدلة التحريم نصوصه خاصة، ودليل إباحةِ زيارتهنَّ عمومه ضعيف دخول النساء فيه، والدليلُ الخاص يُخصِّص العامَّ من الحُكْم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إنَّ قوله ﷺ: «**فَزُورُوهَا**» صيغةُ تذكيرٍ، وصيغةُ التذكيرِ إنّما تتناول الرجال بالوضع، وقد تتناول النساءَ أيضًا علىٰ سبيل التغليب، لكن هذا فيه قولان:

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٤/ ٣٤٦، ٣٤٧).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٤/ ٣٤٤).

- قيل: إنّه يحتاج إلىٰ دليل منفصل.
- وقيل: إنّه يُحمَل علىٰ ذلك عند الإطلاق، وعلىٰ هذا فيكون دخولُ النساء بطريقِ العمومِ الضَّعيفِ والعامِّ، لا يُعَارِضُ الأدلةَ الخاصة المستفيضة في نهي النساء كما سنذكره إن شاء الله تعالىٰ، بل ولا ينسخها عند جمهور العلماء وإن عُلِم تقدُّم الخاص علىٰ العام».

وقال العَلَّامة المجدِّد محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «النهي له وجهان لكل وجه علة، فالنهي بالنسبة إلىٰ الجميع عن الزيارة مطلق، ثم أُذِن للرجال؛ لزوال العلة، ولِمَا فيه من الإحسان للميت بالدعاء له وتذكُّر الآخرة، ولم يُؤذَن للنساء لعلةٍ أخرىٰ لم تزل.

فالعلة الأولىٰ زالت برسوخ الإيمان وانقطاع التعلُّق بالقبور المسببة للوثنية لقوله: «**نَهَيْتُكُمْ**»، وهنا نهيٌ آخر خاص بالنساء وعلة أخرىٰ، وهو من أَجْلِ ما اتصفن به من الخَوَر والضعف وعدم الصبر، ولهذا في الحديث: «**ارجعنَ مأزُوراتٍ غيرَ مأجوراتٍ فإنكُنَّ تفتنَّ الحيَّ، وتُؤذينَ الْميِّتَ**».

فتنةُ الحيِّ ظاهرةٌ لاسيما الشباب، وإيذاؤهن الميِّت بالبكاء والصراخ».

وقال الحافظ أبو بكر الحازمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٥٨٤ هـ)[2]: «زيارة القبور مأذون فيها للرجال، اتفق علىٰ ذلك أهل العلم قاطبة، وأما النساء فقد روىٰ أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «**أن رسول الله ﷺ لعنَ زوَّارات القبور**».

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ**»، فلمَّا رخَّص؛ عمَّتِ الرخصةُ للرجال والنساء، ومنهم مَن كرهها للنساء، وقال: الإذن للرجال دون النساء. وفي الباب آثارٌ تدل علىٰ هذا المذهب.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ومقالات العلامة المفتي محمد بن إبراهيم آل الشيخ (٣/ ٢٣٩).
(٢) الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار (ص ٢٠١،٢٠٢).

ومنهم مَن قال: يُكره للنساء؛ لقلة صبرهن وكثرة جزعهن.

وأمَّا اتباعُ الجنازة: فلا رخصة لهن فيه؛ لحديث أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وغيره».

وقال سماحة المفتي محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «مالَ كثيرٌ من أهل العلم إلىٰ استمرار النهي عن زيارة القبور في حق النساء، فقال الحافظ المنذري -في الترغيب والترهيب-: (قد كان النبي ﷺ نهاهن عن زيارة القبور نهيًا عامًّا للرجال والنساء، ثم أَذِنَ للرجال في زيارتها، واستمر النهي في حق النساء).

وقال جامع اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية أبو الحسن البعلي: (ظاهر كلام أبي العباس -يعني: شيخ الإسلام- ترجيح التحريم؛ لاحتجاجه بلعنِ النبي ﷺ زائرات القبور، وتصحيحه إياه، ولا تصح دعوىٰ النسخ، بل هو -أي النهي- باقٍ علىٰ حُكْمِه، والمرأة لا تُشرع لها زيارة القبور، لا الزيارة الشرعية ولا غيرها)».

وعن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في زيارة النساء للقبور عدة روايات:

قال العَلَّامة إبراهيم بن محمد المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «هل يُكره للنساء؟ علىٰ روايتين:

إحداهما -وهي المذهب-: يُكره؛ لأن المرأة قليلة الصبر، فلا يؤمن تهييج حزنها برؤية الأحبة، فيحملها علىٰ فعلٍ مُحرَّم.

والثانية: يُباح؛ لأن عائشة زارت قبر أخيها عبد الرحمن، وقال لها ابن أبي مليكة: أليس كان نهىٰ عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، ثم أمر بزيارتها، رواه الأثرم، واحتجَّ به أحمد.

وعنه: يحرُم؛ لِمَا روىٰ أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ لعنَ زوَّارات القبور، رواه أحمد والترمذي وصححه».

---

(١) مجموع فتاوىٰ ورسائل العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ (٣/ ٢٤٣).

(٢) المبدع في شرح المقنع (٢/ ٢٨٤).

وقال العَلَّامة محمد بن عبد الله الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «اعلم أنّ الخلاف السابق حكاه أبو الخطاب في الهداية، والشيخان وغيرهم في الكراهة، وحكاه صاحب التلخيص في التحريم، ولعله أوفق لنص أحمد».

وقال العَلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ما ذكر هؤلاء من استمرار النهي في حق النساء هو ظاهر رواية الإمام أبي داود عن الإمام أحمد بن حنبل، وبه جزم صاحب المهذب وصاحب البيان من الشافعية.

قال أبو داود -في مسائل الإمام أحمد-: سألتُ أحمد عن زيارة النساء القبر، قال: لا، قلتُ: فالرجال أيزورون؟ قال: نعم.

ثم ذَكرَ حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ**»».

وحديثُ ابنِ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**»، فيه نهيٌ عن اتخاذ القبور مساجد، وفيه نهيٌ عن اتخاذ السُّرُج في المقابر.

والنهي عن اتخاذ السُّرُج في المقابر -والله أعلم- لئلا يكون ذلك سببًا في الجلوس والمكث في المقابر فوق مقدار الحاجة من الدفن وزيارة الميِّت للدعاء له وتذكُّر الآخرة، فالمقابر دُورُ الموتىٰ لا الأحياء، وخشية أن يكون المكث في المقابر ذريعة للشرك بالموتىٰ.

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «قوله: «**والسُّرُج**» هذا دليل علىٰ تحريم اتخاذ السُّرُج علىٰ القبور، قال أبو محمد المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لو أُبيح اتَّخاذ السُّرُج عليها لم يلعن مَن فَعَله؛ لأن فيه تضييعًا للمال في غير فائدة، وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام)».

---

(١) شرح مختصر الخرقي (٢/ ٣٧٠).

(٢) فتاوىٰ ورسائل سماحة المفتي محمد بن إبراهيم آل شيخ (٣/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٣) تيسير العزيز في شرح كتاب التوحيد (١/ ٧٠٥).

وسُئل العلامة المجدِّد عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل يجوز إضاءة المقابر والطرق التي بين القبور؟

فأجاب قائلًا[1]: «إذا كان لمصلحة الناس عند الدفن أو كان في السور فلا بأس، أما وضع السُّرُج والأنوار على القبور فلا يجوز؛ «**لأنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَعَنَ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**»».

وقال شيخنا العلامة المجدّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قوله: (السُّرُج في المقبرة): يعني أن تُعلَّق السُّرُج على القبور أو على جوانب المقبرة، وأمَّا إذا استصحب الناس سراجًا للدَّفْن فهذا جائز؛ لدعاء الحاجة له؛ ولأنّه غير مُستقرٍّ ولا ثابت بل هو يأتي مع المشيعين ويرجع معهم».

وقال النووي -في شرحِ المُهَذَّب (المجموع)-: «أمَّا النساء، فقال المصنف وصاحب البيان من الشافعية: لا تجوز لهنَّ الزيارةُ، وهو ظاهِرُ هذا الحديث»، يريد: حديثَ لعْنِ زائرات القبور.

ودَعْوَىٰ النَّسْخِ في نهي النساء عن زيارة القبور لا بُدَّ من تحريرها، فإنك لو تأملت كلام الفقهاء في النسخ لم ترَ أحدًا منهم أقام دليلًا على تأخُّر الرخصة في حق النساء، ومعلوم أنّ الدليل العام في الرخصة لزيارة القبور لا ينسخ الدليل الخاص في نهي النساء عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «العام إذا عُرِف أنّه بعد الخاص لم يكن ناسخًا له عند جمهور العلماء، وهو مذهب الشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه، وهو المعروف عند أصحابه فكيف إذا لم يُعلم أنّ هذا العام بعد الخاص؛ إذ قد يكون قوله: «**لَعَنَ اللهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ**» بعد إذنه للرجال في الزيارة، ويدل على ذلك أنّه قرنه بـ «**الْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**»، وذَكَرَ هذا بصيغة التذكير التي

---

(١) الفتاوىٰ البازية (١٣/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٢) المنتقىٰ (٤/ ٦٠).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٢٤/ ٣٥٣).

تتناول الرجال، وَلَعْنُ الزائراتِ جَعَله مختصًّا بالنساء، ومعلوم أنّ لعن اتخاذ المساجد والسُّرُج باقٍ مُحكَم كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، فكذلك الآخر».

والأدلة تأتلف بالقول بتخصيص النساء من عموم الإذن في قوله ﷺ: «**فزوروها**»، والجمع بين الأدلة كلها واجب؛ لأن فيه إعمالًا لها جميعًا بينما النَّسْخُ فيه تعطيلٌ لأحد الأدلة، ناهيك أنّ النسخ مع الاحتمال لا يجوز.

قال العَلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أمَّا دَعْوَىٰ نسْخ هذه الأحاديث بما في الحديث الصحيح: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا**» بناءً علىٰ أنّ الإناث يدخلن في خطاب الذكور، فيردّها أنّ محل دخولهن فيه حيث لم يُوجد دليلٌ صريح قاضٍ بعدم الدخول؛ كوجود أحاديث لعنة زائرات القبور هنا، فإنّ ذلك من أظهر القرائن علىٰ عدم تناول خطاب الإذن لهن».

وعملُ الصحابة مُرجِّح من مُرجِّحات تحريم زيارة النساء للقبور، فإنّ النساء في عهد النبي ﷺ لم يكنَّ يخرجن لزيارة القبور، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ولا كان النساء علىٰ عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين يخرجن إلىٰ زيارة القبور كما يخرج الرجال».

ونهي النساء عن اتباع الجنائز اكتفىٰ فيه النبي ﷺ بالنهي من غير تأكيد العزيمة في ذلك؛ لأن مجرد النهي كافٍ في التحريم.

قالت أم عطية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «نُهينا عن اتباع الجنائز، ولمْ يُعزم علينا».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «ولمَّا نهاهنَّ انتهين لطواعيتهن لله عَزَّ وَجَلَّ ولرسوله ﷺ، فاستغنين عن العزيمة عليهن، وقد دلَّتْ أحاديثُ لعنة الزائرات علىٰ العزيمة، فهي مُثبتِة للعزيمة فيجب تقديمها».

---

(١) مجموع فتاوىٰ العلامة المفتي محمد بن إبراهيم آل الشيخ (٣/ ٢٤٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٤/ ٣٤٥).

(٣) تهذيب سنن أبي داود (٤/ ٣٥٠).

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ الْأَوْثَانِ**: عبادة غير الله، ومن ذلك: اتخاذ القبور مساجد، والاستغاثة بالموتىٰ.

٢) **تَفْسِيرُ الْعِبَادَةِ**: اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

٣) **أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْتَعِذْ إِلَّا مِمَّا يُخَافُ وُقُوعُهُ**: فيجب الحذر من الغلو في قبور الأنبياء والصالحين.

٤) **قَرْنُهُ بِهَذَا اتِّخَاذَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ**: لأنه من أعظم أسباب الشرك.

٥) **ذِكْرُ شِدَّةِ الْغَضَبِ مِنْ اللهِ**: لغلظ الشرك؛ فإنه أكبر الكبائر.

٦) **وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا، مَعْرِفَةُ صِفَةِ عِبَادَةِ اللَّاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الْأَوْثَانِ**: لتعرفَ أن شرك الاستغاثة بالموتىٰ والغلو في قبور الصالحين كشرك الأولين، وهو نوعٌ منه.

٧) **مَعْرِفَةُ أَنَّهُ قَبْرُ رَجُلٍ صَالِحٍ**: فالغلو في قبور الصالحين من أعظم أسباب الشرك.

٨) **أَنَّهُ اِسْمُ صَاحِبِ الْقَبْرِ، وَذِكْرُ مَعْنَىٰ التَّسْمِيَةِ**: فإطعامُ الحُجَّاج عملٌ صالح، لا يوجب الغلو فيمن فَعله.

٩) **لَعْنُهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ**: فيه تحذيرٌ لهن من أسباب الشرك.

١٠) **لَعْنُهُ مَنْ أَسْرَجَهَا**: فالمقابر بيوت الموتىٰ -لا الأحياء-، فاحذرِ الزيارةَ غير الشرعية للقبور.

۞ ۞ ۞

الْبَـابُ الْحَـادِي وَالْعِشْـرُونَ

بَـابُ مَا جَـاءَ فِي حِمَايَـةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنَـابَ التَّوْحِـيدِ، وَسَـدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِـلُ إِلَى الشِّـرْكِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◈ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التَّوْبَة:١٢٩].

◈ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوْتَكُمْ قُبُوْرًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيْدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ تَسْلِيْمَكُمْ يَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُد بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

◈ وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا يَجِيْءُ إِلَىٰ فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيْهَا فَيَدْعُو؛ فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيْدًا، وَلَا بُيُوْتَكُمْ قُبُوْرًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ تَسْلِيْمَكُمْ لَيَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ**». رَوَاهُ فِي الْمُخْتَارَةِ.

فِيْـهِ مَسَـائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٌ.

٢) إِبْعَادُهُ أُمَّتَهُ عَنْ هَذَا الْحِمَىٰ غَايَةَ الْبُعْدِ.

٣) ذِكْرُ حِرْصِهِ عَلَيْنَا وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

٤) نَهْيُهُ عَنْ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَىٰ وَجْهٍ مَخْصُوصٍ، مَعَ أَنَّ زِيَارَتَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ.

٥) نَهْيُهُ عَنْ الْإِكْثَارِ مِنْ الزِّيَارَةِ.

٦) حَثُّهُ عَلَىٰ النَّافِلَةِ فِي الْبَيْتِ.

٧) أَنَّهُ مُتَقَرِّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَا يُصَلَّىٰ فِي الْمَقْبَرَةِ.

٨) تَعْلِيلُهُ ذَلِكَ بِأَنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ يَبْلُغُهُ وَإِنْ بَعُدَ، فَلَا حَاجَةَ إِلَىٰ مَا يَتَوَهَّمُهُ مَنْ أَرَادَ الْقُرْبَ.

٩) كَوْنُهُ ﷺ فِي الْبَرْزَخِ تُعْرَضُ عَلَيْهِ أَعْمَالُ أُمَّتِهِ فِي الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

الشَّرْح

حَرِصَ النبيُّ ﷺ علىٰ حفظِ توحيد الناس من الشرك، وحذَّر أُمَّته منه ومن وسائله، ونهاهم عن الغلو في قبره.

وما نهىٰ رسولُ الله ﷺ عن اتخاذ قبره وقبور الأنبياء والصالحين مساجد إلا لخير الناس بحفظ أديانهم وعقائدهم من أسباب الشرك، ورحمته بهم من شرور الشرك ووسائله.

قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

قال الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «تجريد التوحيد فإنّه ﷺ كان أحرص الخلق علىٰ تجريده حتىٰ قطع أسباب الشِّرك ووسائله من جميع الجهات، ونهىٰ عن عبادة الله بالتقرُّب إليه بالنوافل من الصلوات في الأوقات التي يسجد فيها عُبَّاد الشمس لها، بل قبل ذلك الوقت بعد أن تصلي الصبح والعصر؛ لئلا يتشبَّه الموحدون بهم في وقت عبادتهم.

(١) الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي (ص ٨٤٤).

ونهىٰ أن يُقال: ما شاء الله وشاء فلان، ونهىٰ أن يُحلف بغير الله، وأخبر أنَّ ذلك شركٌ، ونهىٰ أن يُصلَّىٰ إلىٰ القبر، أو يُتَّخذ مسجدًا أو عيدًا، أو يُوقد عليه سراج، وذمَّ مَن شركَ بين اسمه واسم ربِّه تعالىٰ في لفظٍ واحد، فقال له: «**بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ**»، بل مدارُ دِينه علىٰ هذا الأصل الذي هو قطب رحىٰ النجاة، ولم يُقرِّر أَحَدٌ ما قرَّره ﷺ بقوله وفِعله وهديه، وسد الذرائع المنافية له، فتعظيمه ﷺ بموافقته علىٰ ذلك لا بمناقضته فيه».

وقولُ النبيِّ ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا**»، نهىٰ عن أسباب الغلو في قبره، فإنَّ العيد اسم لما يَعُود ويتكرر، فمَن فعلَ ذلك خُشي عليه من الغلو.

وإذا نهىٰ النبيُّ ﷺ أن يُتخذ قبره عيدًا، فقبرُ غيره أَوْلىٰ ألا يُتَّخذ عيدًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ قَبْرَ رسولِ الله ﷺ أفضلُ قبرٍ علىٰ وجه الأرض، وقد نهىٰ عن اتخاذه عيدًا، فقبرُ غيره أَوْلىٰ بالنهي كائنًا مَن كان».

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يأتون مسجده في اليوم والليلة خمس مرات، والحجرة إلىٰ جانب المسجد لم يدخلها أحد منهم؛ لأنهم قد علموا أنّه نهاهم أن يتَّخذوا القبور مساجد، وأن يتَّخذوا قبره عيدًا أو وثنًا، وأنّه قال لهم: «**صَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ**»، وكذلك قد عَلِموا أنَّ صلاتهم وسلامهم عليه في المسجد أَوْلىٰ من عند قبره».

ومسجد رسول الله ﷺ مؤسَّس علىٰ التقوىٰ، والتقوىٰ توحيد الله، فيجب علىٰ وُلَاتِه وعلىٰ المصلين فيه تعاهده وحفظه بما تأسَّس عليه، فلا يجوز لأحد أن يشد الرحال إلىٰ قبر النبي ﷺ، وإنما يقصد المسلمون بسفرهم إلىٰ المدينة شد الرحال إلىٰ مسجد رسول الله ﷺ.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٧٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٣٠٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الذي يسافر ولا يقصد إلا مجرد القبر، إما أن يكون جاهلًا بشريعته وفضيلة مسجده وفضيلة السفر إليه، أو جاهلًا بالحال لا يعلم أنّه إنّما يصل إلىٰ مسجده، أو لا يعلم أن مسجده مؤسس علىٰ التقوىٰ، مقصود مُعظَّم قبل حصول القبر، وأنّه لمْ يُبنَ لأَجْلِ القبر، ولا حرمته وفضيلته وعظمته لأَجْلِه، فلا يتصوَّر أن يقصد مجرد القبر إلا مَن يكون جاهلًا بهذا أو بهذا أو بهذا».

والنبي ﷺ غَفَر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، فمن أَجْلِ هذا لمْ يَشرع أن يُتَّخذ قبره عيدًا، فيُدعىٰ له بالمغفرة والرحمة كما يفعل مَن زارَ قبْرَ غيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الزيارة التي جاءت بها الشريعة كما ذكره الأئمة من قولِ النبي ﷺ وفِعلِه، ليست من هذا النوع(٣)، بل مقصودها الدعاء للميت، كالصلاة علىٰ جنازته».

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «أما الرسول ﷺ فقَدْرُه أجلُّ وأعظم من أن يُزار قبره كما تُزار قبور سائر المؤمنين، فإنّ أولئك إذا حصل الزائر عند قبورهم وشاهد القبر فإنّه يحصل له من الرغبة في الدعاء للميت والترحم عليه والمحبَّة والمودَّة ما قد يكون أعظم مما لو كان غائبًا».

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٥): «إنّه لا يُصلىٰ علىٰ قبر النبي ﷺ؛ وذلك لعِظم قَدْرِه وحقِّه، لا لنقصِ ذلك، فإنّ الناس مأمورون أن يُحبوه ويُعظِّموه ويذكروه، ويَذْكُروا ما مَنَّ اللهُ به عليه وما منَّ به عليهم بسببه، ويُصلُّوا عليه ويُسلِّموا عليه في كل مكان،

---

(١) الإخنائية (ص ٦٧).

(٢) الإخنائية (ص ١١٩).

(٣) الخضوع للميت والذُل له.

(٤) الإخنائية (ص ١٢٠).

(٥) الإخنائية (ص ١٢٠، ١٢١).

وألا يفعلوا ذلك عند قبره أعظم مما يفعلوه في سائر البِقاع، فإنّه يفضي إلىٰ نقص ذلك في سائر البقاع إذا خُصَّ قبره بما لا يوجد عند غيره.

ومعلوم أنّه لا يمكن أن يكون أحد عند قبره في كل وقت -لو كان مما يُوصل إليه- فكيف إذا كان محجوبًا؟!

فتخصيصُ قبره بصلاةٍ عليه، أو سلام، أو دعاء، أو ثناء يقتضي هضْم ذلك ونقصه في سائر البقاع؛ فينقص إيمانهم به، وتوسلهم بالإيمان به، ويفوتهم حظٌّ عظيم من كرامة الله لهم بقيامهم بحقه، مع أنّ ذلك ذريعة إلىٰ الشرك؛ فكان في تخصيص قبره بما لا يختص به قبر غيره مفسدة وفوات مصلحة».

وأثرُ زَيْن العابدين عليِّ بنِ الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورضي عن أبيه يدل علىٰ أنّ سادات آل البيت المتقدمين كانوا يزجرون الناس عن الغلو في قبر سيد آل البيت صلوات الله وسلامه عليه، وهم بلا ريب أعظم الناس حُبًّا وتوقيرًا للنبي ﷺ وموالاةً له.

زَجرَ عليُّ بن الحسين الناسَ عن الدعاء عند قبر النبي ﷺ؛ لئلا يعتقدوا خصوصية استجابة الدعاء عنده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هذا عليُّ بن الحسين زين العابدين وهو من أجلِّ التابعين علمًا ودينًا، حتىٰ قال الزهري: ما رأيتُ هاشميًّا مثله، وهو يذكر هذا الحديث بإسناده ولفظه: «**لَا تَتَّخِذُوا بَيْتِي عِيْدًا فَإِنَّ تَسْلِيمُكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَمَا كُنْتُم**»، وهذا يقتضي أنّه لا مزيَّة للسلام عليه عند بيته كما لا مزيَّة للصلاة عليه عند بيته».

وكذلك الحال بالنسبة للحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنّه رأىٰ سهيل بن أبي سهيل عند القبر، فناداه وهو في بيت فاطمة يتعشىٰ فقال: هلمَّ إلىٰ العشاء، فقال سهيل: لا أُريده، فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟! فقال سهيل:

---

(١) الإخنائية (ص ٢٦٥)

سلّمت على النبيِّ ﷺ، فقال: إذا دخلتَ المسجد فسلِّم عليه، ثم قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَتَّخِذُوا بَيْتِي عِيْدًا وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيائِهِمْ مَسَاجِدَ، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ مَا كُنْتُمْ، مَا أَنْتُمْ وَمَنْ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَّا سَوَاءٌ**»[1].

قال الحافظ ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «انظر هذه السُّنة كيف مَخْرَجها من أهل المدينة وأهل البيت من رواية عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وابنه الحسن وابني ابنتيه عليِّ بن الحسين زين العابدين، والحسن بن الحسن شيخ بني هاشم في زمانه الذين لهم من رسول الله ﷺ قُرْبُ النسب وقربُ الدار».

فسادات آل البيت المتقدمون كانوا دعاةَ توحيدٍ، قال عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأبي الهياج الأسدي: «**أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَىٰ مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ لَا تَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ ولَا صُورة إِلَّا طَمَسْتَهَا**»، رواه مسلم.

ومعنىٰ قول النبيِّ ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيوتَكُمْ قُبُورًا**» أي: صلُّوا في بيوتكم النوافل، ولا تشبِّهوها بالمقابر التي نُهي عن الصلاة فيها، فـ «**أفضلُ صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**»؛ كما قال النبي ﷺ.

فتضمنت هذه الجملة من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمران:

- النهي عن الصلاة في المقابر.
- والحث علىٰ الصلاة في البيوت.

---

(١) رواه سعيد بن منصور، وأبو يعلىٰ (١/ ٣٦١ – رقم ٢٠٩)، وله شاهد عند أحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبي داود (ص ٢٩٦ – رقم ٢٠٤٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمة رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذه الأحاديث معروفة عند أهل العلم جاءت من وجوه حسان يصدق بعضها بعضًا". الإخنائية (ص ٣٤٦).

(٢) الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي (ص١٩٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قوله: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**»؛ أي: لا تُعطِّلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور. فأمَرَ بتحرِّي النافلة في البيوت، ونهىٰ عن تحرّي العبادة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارىٰ وأشباههم، ثم إنّه عقَّب النهي عن اتخاذه عيدًا بقوله: «**وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ مَا كُنْتُمْ**»، يُشير بذلك إلىٰ أنّ ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبُعدكم، فلا حاجة بكم إلىٰ اتخاذه عيدًا.

وقد حرَّف هذه الأحاديثَ بعضُ مَن أخذَ شبهًا من النصارىٰ بالشرك، وشبهًا من اليهود بالتحريف، فقال: هذا أمرَ بملازمة قبره، والعكوف عنده، واعتياد قصده وانتيابه، ونهىٰ أن يُجعل كالعيد الذي إنّما يكون في العام مرةً أو مرتين، فكأنّه قال: لا تجعلوه بمنزلة العيد الذي يكون من الحوْل إلىٰ الحول، واقصدوه كلَّ ساعةٍ وكلَّ وقت!

وهذا مراغمة ومحادّة لله ومناقضة لما قصده الرسول ﷺ، وقَلْبٌ للحقائق، ونسبة الرسول ﷺ إلىٰ التدليس والتلبيس -بعد التناقض- فقاتَلَ اللهُ أهلَ الباطل أنَّىٰ يُؤْفكون!

ولا ريب أنّ مَنْ أمرَ الناس باعتياد أمْرٍ وملازمته وكثرة انتيابه بقوله: «**لَا تَجْعَلُوهُ عِيْدًا**» فهو إلىٰ التلبيس -وضدِّ البيان- أقرب منه إلىٰ الدلالة والبيان، فإن لم يكن هذا تنقيصًا فليس للتنقيص حقيقة فينا، كمَن يرمي أنصار رسول الله ﷺ وحزبه بدائه ومُصابه، وينسل كأنّه بريء!

ولا ريب أنّ ارتكاب كلِّ كبيرة -بعد الشرك- أسهلُ إثمًا، وأخفُّ عقوبةً من تعاطي مثل ذلك في دِينه وسنَّته، وهكذا غُيِّرتْ ديانات الرسل ﷺ، ولولا أنّ الله أقام لدينه الأنصار والأعوان الذابين عنه لجرىٰ عليه ما جرىٰ علىٰ الأديان قبله.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٦١، ٣٦٢).

ولو أراد رسول الله ﷺ ما قاله هؤلاء الضُّلال، لم يَنْهَ عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ويلعنْ فاعل ذلك، فإنّه إذا لعنَ مَن اتَّخذها مساجد يُعبد الله فيها، فكيف يأمر بملازمتها والعكوف عندها، وأن يُعتاد قصدها وانتيابها، ولا تُجعل كالعيد الذي يجيء من الحَوْل إلىٰ الحول؟! وكيف يَسأل ربَّه ألا يَجعلَ قبره وثنًا يُعبَد؟! وكيف يقول أعلم الخَلقِ بذلك: (ولولا ذلك لأُبرز قبره، ولكن خُشي أن يُتَّخذ مسجدًا)؟! وكيف يقول: «**لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ**»؟! وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضُّلال الذين جمعوا بين الشرك والتحريف؟!».

وقوله ﷺ: «**وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُمَا كُنْتُم**» هذا من الثناء عليه، فهو صلوات الله وسلامه عليه يُصلي اللهُ عليه والملائكة والمؤمنون، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]، وهو إحسان له؛ لأنه دعا إلىٰ كل خير، وكان سببًا في هداية الخَلق إلىٰ توحيد الله وعبوديته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قالوا -العلماء-: ولأنَّ الأمرَ بالصلاة عليه في مقابلة إحسانه إلىٰ الأُمَّة، وتعليمهم، وإرشادهم، وهدايتهم، وما حصل لهم ببركته ﷺ من سعادة الدنيا والآخرة».

وأما معنىٰ الصلاة علىٰ النبي ﷺ فقد قال التابعي المفسِّر العلامة أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صلاةُ اللهِ علىٰ رسوله: ثناؤه عليه عند الملائكة»، ذَكرَه البخاري تعليقًا مجزومًا به.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الصلاة المأمور بها فيها، هي الطلب من الله تعالىٰ ما أخبَرَ به عن صلاتِه وصلاةِ ملائكته؛ وهي ثناءٌ عليه، وإظهارٌ لفضله وشرفه،

(١) جلاء الأفهام (ص ٥٤٩).
(٢) جلاء الأفهام (ص ٢٦٢).

وإرادة تكريمه وتقريبه، فهي تتضمن الخبر والطلب، وسُمِّي هذا السؤال والدعاء منا نحن صلاةً عليه».

شَـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٌ**: وهو دالٌّ علىٰ أنّ ما أمر الله ﷻ به ورسوله ﷺ هو خيرٌ ورحمةٌ لنا.

٢) **إِبْعَادُهُ أُمَّتَهُ عَنْ هَذَا الْحِمَىٰ غَايَةَ الْبُعْدِ**: فالشرك ووسائله كلها محرَّمة.

٣) **ذِكْرُ حِرْصِهِ عَلَيْنَا وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ**: حيث علَّمنا ما يحفظ علينا ديننا.

٤) **نَهْيُهُ عَنْ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَىٰ وَجْهٍ مَخْصُوصٍ، مَعَ أَنَّ زِيَارَتَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ**: فيجب علىٰ كل مسلم: التفريق بين الزيارة البدعية والشركية والزيارة الشرعية.

٥) **نَهْيُهُ عَنْ الْإِكْثَارِ مِنْ الزِّيَارَةِ**: سدًّا لذريعة الغلو فيه.

٦) **حَثُّهُ عَلَىٰ النَّافِلَةِ فِي الْبَيْتِ**: إقامةً لذِكر الله.

٧) **أَنَّهُ مُتَقَرِّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَا يُصَلَّىٰ فِي الْمَقْبَرَةِ**: فيجب الأخذ بفهم السلف.

٨) **تَعْلِيلُهُ ذَلِكَ بِأَنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ يَبْلُغُهُ وَإِنْ بَعُدَ، فَلَا حَاجَةَ إِلَىٰ مَا يَتَوَهَّمُهُ مَنْ أَرَادَ الْقُرْبَ**: فلا خصوصية للصلاة علىٰ النبي ﷺ عند القبر.

٩) **كَوْنُهُ ﷺ فِي الْبَرْزَخِ تُعْرَضُ عَلَيْهِ أَعْمَالُ أُمَّتِهِ فِي الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ**: وهذا فيه حثٌّ علىٰ فضائل الأعمال المشروعة التي من أفضلها الصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد ﷺ.


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَابُ الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

◊ وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠].

◊ وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

◊ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: «فَمَنْ؟!». أَخْرَجَاهُ.

◊ وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ زَوَىٰ لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

◊ وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّىٰ تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ ﷻ».

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ.

٢) تَفْسِيرُ آيَةِ الْمَائِدَةِ.

٣) تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ.

٤) وَهِيَ أَهَمُّهَا: مَا مَعْنَىٰ الْإِيمَانِ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؟ هَلْ هُوَ اعْتِقَادُ قَلْبٍ؟ أَوْ هُوَ مُوَافَقَةُ أَصْحَابِهَا مَعَ بُغْضِهَا وَمَعْرِفَةِ بُطْلَانِهَا؟

٥) قَوْلُهُمْ: إِنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ كُفْرَهُمْ: أَهْدَىٰ سَبِيلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

٦) وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ بِالتَّرْجَمَةِ: أَنَّ هَذَا لَا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا تَقَرَّرَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ.

٧) تَصْرِيحُهُ بِوُقُوعِهَا -أَعْنِي: عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ- فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي جُمُوعٍ كَثِيرَةٍ.

٨) الْعَجَبُ الْعُجَابُ: خُرُوجُ مَنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ، مِثْلُ الْمُخْتَارِ مَعَ تَكَلُّمِهِ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَتَصْرِيحِهِ أَنَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَفِيهِ أَنَّ مُحَمَّدًا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَمَعَ هَذَا يُصَدَّقُ فِي هَذَا كُلِّهِ مَعَ التَّضَادِّ الْوَاضِحِ، وَقَدْ خَرَجَ الْمُخْتَارُ فِي آخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَتَبِعَهُ فِئَامٌ كَثِيرَةٌ.

٩) الْبِشَارَةُ بِأَنَّ الْحَقَّ لَا يَزُولُ بِالْكُلِّيَّةِ كَمَا زَالَ فِيمَا مَضَىٰ، بَلْ لَا تَزَالُ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ.

١٠) الْآيَةُ الْعُظْمَىٰ أَنَّهُمْ مَعَ قِلَّتِهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ.

١١) أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ.

١٢) مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ، مِنْهَا:

١٣) إِخْبَارُهُ بِأَنَّ اللهَ زَوَىٰ لَهُ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ، وَأَخْبَرَ بِمَعْنَىٰ ذَلِكَ، فَوَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ بِخِلَافِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ.

١٤) وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ أُعْطِيَ الْكَنْزَيْنِ وَإِخْبَارُهُ بِإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ لِأُمَّتِهِ فِي الِاثْنَتَيْنِ وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ مَنَعَ الثَّالِثَةُ.

١٥) وَإِخْبَارُهُ بِوُقُوعِ السَّيْفِ، وَأَنَّهُ لَا يُرْفَعُ إِذَا وَقَعَ.

١٦) وَإِخْبَارُهُ بِإِهْلَاكِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَسَبْيِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَخَوْفِهِ عَلَىٰ أُمَّتِهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ.

١٧) وَإِخْبَاره بِظُهُورِ الْمُتَنَبِّئِينَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ.

١٨) وَإِخْبَارُهُ بِبَقَاءِ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ، وَكُلُّ هَذَا وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ، مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مِنْ أَبْعَدِ مَا يَكُونُ فِي الْعُقُولِ.

١٩) حَصْرُهُ الْخَوْفِ عَلَىٰ أُمَّتِهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ.

٢٠) التَّنْبِيهُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

الشَّرح

هذا الباب في التحذير من الشرك، ذكر فيه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ النصوص من القرآن والسُّنة الدالَّة علىٰ بقاء الشرك في الأرض إلىٰ قيام الساعة؛ ليَحْذَره المسلمون، وليقوموا بواجبهم في الدعوة إلىٰ التوحيد والتحذير من الشرك.

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ(١) : «أراد المصنف بهذه الترجمة الردَّ علىٰ عُبَّاد القبور الذين يفعلون الشرك ويقولون: إنه لا يقع في هذه الأمَّة المحمدية وهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٧٣٩).

فبيَّن في هذا الباب من كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ ما يدل علىٰ وقوع الشرك في هذه الأمّة، ورجوع كثير منها إلىٰ عبادة الأوثان، وإن كان طائفةٌ منها لا تزال علىٰ الحق لا يضرهم مَن خذلهم حتىٰ يأتي أمْر الله ﷻ».

والأئمة المضلون من المبتدعين لبّسوا علىٰ الناس، وزينوا لهم شركهم، وبرَّروه لهم بأنَّ الشرك قد انْمَحَىٰ بفتح مكة ولن يَعُود، فاستروح الجُهَّال إلىٰ شركهم بتقليد دعاة الضَّلال بالباطل.

فإنْ قيل: فما جوابكم عن حديث جابر رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»، رواه مسلم؟

فالجواب: أنَّ ظنَّ الشيطانِ لا يَلزم أن يكون مطابقًا للواقع.

فمَن زعم أن الشرك انْمَحَىٰ بفتح مكة فقد ضلَّ، والنبي ﷺ يقول: «**الشرك في هذه الأمّة أخفىٰ من دبيب النمل**»، قالوا: وكيف ننجو منه يا رسول الله؟ قال: «**قل: اللهم إني أعوذ بك أنْ أُشرِكَ بكَ وأنا أَعْلم، وأستغفركَ لِمَا لا أَعْلم**»، صحَّحه ابن حبان.

وقد خاف النبي ﷺ علىٰ صحابته وأمّته الشرك أعظم من خوفه عليهم من المسيح الدجال، فتحذير الأمّة منه هو من أوجب الواجبات.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**» قالوا: بلىٰ، قال: «**الشرك الخَفِي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لِمَا يرىٰ من نظرِ رَجُل**»، رواه أحمد.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتىٰ تضطرب أَلْيَات نساء دَوْس علىٰ ذي الخَلَصة**».

وعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يذهب الليل والنهار حتىٰ تُعبد اللات والعُزَّىٰ**»، رواه مسلم.

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في هذا الباب ما يدل علىٰ أن أناسًا من هذه الأمّة سيعبدون الأوثان، في زيادة البُرقاني علىٰ صحيح مسلم لحديث ثوبان: «**لا تقوم الساعة حتىٰ يَلحقَ حيٌّ من أمّتي بالمشركين، وحتىٰ تعبدَ فئامٌ من أمّتي الأوثان**».

وإذا أخبرنا الله بضلال وشرك أهل الكتاب، وأخبرنا النبي ﷺ بأنه سيكون في أمّته مَن يتشبه بهم، كان في ذلك تحذير لنا من مشابهتهم عمومًا، وتحذيرٌ لنا من مشابهتهم في أعظم ضلالهم وهو الشرك خصوصًا.

من أجْل هذا ساق شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بعض النصوص الدالة علىٰ شرك أهل الكتاب، من ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١) : «قال أهل اللغة: كل ما عُبد من دون الله من حجرٍ أو صورة أو شيطان، فهو جِبْت وطاغوت.

فعلىٰ هذا؛ إيمان اليهود بالجبت والطاغوت سجودهم للصنم، وطاعتهم للشيطان في ذلك.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: الجِبْت: الأصنام.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الطاغوت: الشيطان».

وذكر شيخ الإسلام أيضًا في التحذير من مشابهة المشركين قول الله تعالىٰ في اليهود: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، فالموحدون يَحْذَرون مشابهة المشركين من أهل الكتاب، خصوصًا اليهود عبدة الطاغوت.

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٥٣٣، ٥٣٤).

وفي الآيتين اللتين ذكرهما شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في اليهود والنصارىٰ تبيينٌ لضلالهم في الشرك، وانحرافهم عن الملة الحنيفية، قال تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وحذَّر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب من وقوع الشرك إذا كان له أعوان من ذي القوة والسلطان يُقِيمُونه، فذَكرَ قول الله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «بيوت المقابر لم يمدح الله شيئًا منها، ولم يذكر ذلك إلا في قصة مَن لعنهم النبي ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١]، فهؤلاء الذين اتخذوا علىٰ أهل الكهف مسجدًا كانوا من النصارىٰ الذين لعنهم النبي ﷺ حيث قال: «**لعنَ اللهُ اليهودَ والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وفي رواية: «**والصالحين**».

والأمّة المرحومة يجب أن تَحْذَر التشبه بالضالين والمغضوب عليهم، خصوصًا فيما يكون من أعمال الشرك، وما يكون سببًا في اللعنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «فقد نهىٰ عن اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته، ثم إنه لعنَ -وهو في السِّياق- مَن فعَل ذلك من أهل الكتاب؛ ليحذِّر أمّته أن يفعلوا ذلك».

وقول النبي ﷺ: «**لتتبعن سَنَن مَن كان قبلكم**» من دلائل نبوته ﷺ، فإنه وقع كما أخبر، فقد صار في أمّتنا مَن يأخذ بقوانينهم ويضاهي بها أحكام الله، فيتشبه بملاحدة الكافرين في طاعة متبوعيهم في تحليل ما حرَّم الله أو تحريم ما أحلَّ الله،

---

(١) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٧٢، ٤٧٣).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص٤٤٢.

كما أخبرنا اللهُ عن شرك أهل الكتاب: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

وحديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لتتبعن سَنَن مَن كان قبلكم**» فيه نهيٌّ وزجرٌ عن التشبه بأهل الكتاب، وواجب المسلمين تحقيق الشهادتين بالإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ، والمتابعة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالأمّةُ تتبع خير البريَّة في تلقِّي الدِّين، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ[١] : «القُذَّة: بضمِّ القاف واحدةُ القُذَذ، وهي رِيش السهم، وله قُذَّتان متساويتان، أي: لتَفْعَلُنَّ أفعالَهم، ولتتبعنَّ طرائقَهم حتىٰ تُشبِهوهم وتحاذوهم كما تُشبِه قُذَّةُ السهمِ القُذَّةَ الأخرىٰ، ثم إنَّ هذا لفْظ خبر، معناه: النهي عن متابعتهم».

وعندما رأىٰ الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقوامًا يتتبعون آثار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنهاهم وزجرهم عن التشبه بأهل الكتاب.

فقد روىٰ سعيد بن منصور في سُنَنِه: حدَّثنا أبو معاوية، حدثنا الأعْمَش عن مَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ عن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «خرجنا معه في حَجَّة فقرأ بنا في الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش: ١] في الثانية، فلما رجع من حجته رأىٰ الناس ابتدروا المسجد، فقال: ما هذا؟ قالوا: مسجد صلىٰ فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: هكذا هلكَ أهلُ الكتاب قبلكم؛ اتخذوا آثار أنبيائهم بِيَعًا، مَن عَرَضَتْ له منكم فيه الصلاة فليُصلِّ، ومَن لم تَعْرِضْ له فليمضِ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢] : «كَرِه عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اتخاذ مصلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيدًا، وبيَّن أن أهل الكتاب إنما هلكوا بمثل هذا».

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٧٤٧، ٧٤٨).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص٤٩٦.

ومن الجهل اعتقاد أنَّ الشرك مخصوص بعبادة اللَّات والعُزَّىٰ ومناة، وهذا جهلٌ بمعاني القرآن والسُّنة، ومخالفةٌ لفهم السلف خير الناس لها، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] : «كفىٰ بهذه الآية نورًا وبرهانًا ونجاةً، وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك ومَوَادِّه لمَن عَقَلَهَا.

والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوعٍ وفي قومٍ قد خَلَوا من قبل ولمْ يُعْقِبُوا وارثًا، وهذا هو الذي يَحُول بين القلب وبين فهمِ القرآن.

وَلَعَمْرُ اللهِ، إن كان أولئك قد خَلَوا فقد وَرِثَهم مَن هو مثلهم، أو شرٌّ منهم، أو دونهم، وتناوُلُ القرآنِ لهم كتناوُلِه لأولئك».

وفي قول النبي ﷺ لمَن سأله التبرك بالشجر: «**قلتم كما قال بنو إسرائيل لموسىٰ:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]» تنبيهٌ إلىٰ حقائق الشرك، وأنه لا يختص بعبادة حجرٍ أو صنمٍ مخصوص، أو التبرك به، فاتخاذُ الأنداد شركٌ وإنِ اختلف المدعو أو المعبود مع الله.

وشرُّ أنواع الشركِ: الاستغاثةُ بالموتىٰ ودعاؤهم، أو اتخاذهم شفعاء في دعاء الله، وهذا غالب شركِ الناس في زماننا.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] : «إن هذا الذي وقع فيه الناس من هذا الشرك، إنه الشرك الذي بَعثَ اللهُ رسله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وأنزل كتبه بالنهي عنه، وأنه الشرك الذي لا يغفره الله لمَن لم يتب منه».

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٨٠).

(٢) المقامات ص١٠.

وقال العَلَّامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الشرك الذي وقع في قوم نوح لم يزل في الناس إلىٰ يومنا هذا، فلم يزل في الناس مَن يعبد الأصنام والأوثان، ويغلو في الصالحين والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ».

فالشرك مسماه حقيقته، مَن أتىٰ بحقيقة الشرك فهو مشرك، لا ينفعه دعواه أنه ليس كذلك، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الشرك والكفر هو شركٌ وكفرٌ لحقيقته ومعناه، لا لاسمه ولفظه، فمَن سجد لمخلوق وقال: ليس هذا بسجود له، هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة كما أُقبِّلها بالفم، أو هذا إكرام، لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجودًا لغير الله، فليسمِّه بما شاء، وكذلك مَن ذبحَ للشيطان ودعاه، واستعاذ به، وتقرَّب إليه بما يحب، فقد عبده، وإن لم يسمِّ ذلك عبادة».

والشرك: هو ما دلَّ الوحي علىٰ حقيقته، إثباته أو نفيه ليس بالدعاوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

فمَن صرف عبادةً لغير الله فقد أشرك، قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ومَن دعا غير الله فقد أشرك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

ومَن تحقَّق بالتوحيد وجرَّد العبودية لله، والاستعانة به وحده لا شريك له فذلك الذي بَرِئ من الشرك واجتنبه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

---

(١) الفتاوىٰ البازية (٢/ ٦٨).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٠١).

(٣) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (١/ ٨٨، ٨٩).

[الفاتحة: ٥] فيه إخلاص العبادة لله، والاستعانة به، وأنَّ المؤمنين لا يعبدون إلا الله، ولا يستعينون إلا بالله.

فمَن دعا غير الله من المخلوقين أو استعان بهم من أهل القبور أو غيرهم، لم يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ولا يحقق ذلك إلا مَن فرَّق بين الزيارة الشرعية والزيارة البدعية.

فإنَّ الزيارةَ الشرعية عبادةٌ لله ﷻ، وطاعة لرسوله ﷺ، وتوحيد لله، وإحسانٌ إلىٰ عباده، وعملٌ صالح من الزائر يُثاب عليه.

والزيارةُ البدعية شركٌ بالخالق، وظلمٌ للمخلوقات، وظلمٌ للنفس».

علىٰ كلِّ حالٍ: هذا الباب فيه حثٌّ علىٰ طلبِ علمِ التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وفِقهِ مُسمَّاه، وفهْمِ أنواع ما يضاده.

ومَن تلبيس إبليس: أنه ينفخ في أوليائه صفاته من الغرور والكبر والتعالم فيوهم أتباعه أنهم علىٰ الحق، وأنهم موحدون، ويقطعهم عن طلبِ علمِ ما ينفعهم، خصوصًا في أوجب الواجبات من توحيد الله.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن قول الجاهل: التوحيد فَهِمْنَاه، إنَّ هذا من أكبر الجهل ومكائد الشيطان».

وفي خاتمة الباب: حذَّر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الأئمة المضلين؛ لأنهم هم الذين يزينون للناس الشرك والبدع والضلال، قال النبي ﷺ: «**إنما أخاف علىٰ أمّتي الأئمة المضلين**».

قال العَلَّامة المجدد عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «من المصائب أنَّ كثيرًا ممَّن ينتسب للعلم هو الداعي إلىٰ هذا الباطل والشرك لجهله، يُنسب إلىٰ العلم وهو

---

(١) كشف الشبهات ص٤٩.

(٢) دروس وفتاوىٰ في المسجد الحرام ص١١٦.

أجهل من حمار أهله، فيدعو إلىٰ الشرك بالله، ويدعو للنذر للبدوي، ويزين هذا للعامة؛ لجهله وضلاله وقلة بصيرته، مع أن العامة ينسبون له العلم، وهو أجهل منهم، لا حول ولا قوة إلا بالله، نسأل الله العافية والسلامة».

وتلبيس الأئمة المضلين وضلالهم وشركهم وبدعهم يدفعه الله بمَن يصطفيهم ويستعملهم في حفظِ الدِّين وتبيينه، وهذا ما تضمنه الحديث نفسه الذي ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في رواية البرقاني في التحذير من الأئمة المضلين، حيث جاء في آخر الحديث: «**ولا تزال طائفة من أمّتي علىٰ الحق منصورة، لا يضرهم مَن خذلهم حتىٰ يأتي أمرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**».

وهذه سُنَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في دفع الباطل بالحق، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقد بُشِّرنا بظهور هذا الدين بالعلم والحجة، وبالسيف والسنان، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، وهذا معنىٰ ما تضمنه حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أورده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب حيث جاء فيه أنَّ النبي ﷺ قال: «**إن الله زوىٰ لي الأرض فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإن أمّتي سيبلغ مُلكُها ما زُوي لي منها**»، رواه مسلم.

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ**: أهل الكتاب ومَن تشبَّه بهم يؤمنون بالشرك والطاغوت.

٢) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْمَائِدَةِ**: اليهود ومَن تشبَّه بهم عبدةُ الطاغوت.

٣) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ**: اتخاذ المساجد علىٰ القبور هو دِين اليهود والنصارىٰ المُبدَّل.

٤) **وَهِيَ أَهَمُّهَا: مَا مَعْنَىٰ الْإِيمَانِ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؟ هَلْ هُوَ اعْتِقَادُ قَلْبٍ؟ أَوْ هُوَ مُوَافَقَةُ أَصْحَابِهَا مَعَ بُغْضِهَا وَمَعْرِفَةِ بُطْلَانِهَا؟**: الإيمان بالجبت والطاغوت هو الشرك بأنواعه، لا يختص بنوع، وكله يرجع إلىٰ عبادة مَن دون الله، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾

٥) **قَوْلُهُمْ: إِنَّ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ كُفْرَهُمْ: أَهْدَىٰ سَبِيلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**: هذا منهج اليهود ومَن تشبه بهم، حيث كانوا يقولون لمشركي قريش: أنتم أهدىٰ من محمد ﷺ وأصحابه.

٦) **وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ بِالتَّرْجَمَةِ: أَنَّ هَذَا لا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا تَقَرَّرَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ**: هذا ما قضاه اللهُ كونًا، وقضىٰ شرعًا وجوب إفراده بالتوحيد، قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ونهىٰ الشرع عن التشبه بأهل الكتاب، فكونوا من أتباع الصراط المستقيم، وخالِفوا أصحاب الجحيم.

٧) **تَصْرِيحُهُ بِوُقُوعِهَا -أَعْنِي: عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ- فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي جُمُوعٍ كَثِيرَةٍ**: فاحذر متابعة المشركين في شركهم ولو كانوا كثيرًا.

٨) **الْعَجَبُ الْعُجَابُ: خُرُوجُ مَنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ، مِثْلُ الْمُخْتَارِ مَعَ تَكَلُّمِهِ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَتَصْرِيحِهِ أَنَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَفِيهِ أَنَّ مُحَمَّدًا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَمَعَ هَذَا يُصَدَّقُ فِي هَذَا كُلِّهِ مَعَ التَّضَادِّ الْوَاضِحِ، وَقَدْ خَرَجَ الْمُخْتَارُ فِي آخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَتَبِعَهُ فِئَامٌ كَثِيرَةٌ**: مَنِ ادَّعىٰ النبوة فهو كافر وإن قال هو من هذه الأمّة، قال النبي ﷺ: «**لا نبيَّ بعدي**».

٩) **الْبِشَارَةُ بِأَنَّ الْحَقَّ لا يَزُولُ بِالْكُلِّيَّةِ كَمَا زَالَ فِيمَا مَضَىٰ، بَلْ لا تَزَالُ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ**: لأنَّ الله تكفَّل بحفظِ الدِّين، ووُكِل بحفظه أقوامٌ يستعملهم اللهُ تعالىٰ في القيام بالحق ونصرته.

١٠) **الْآيَةُ الْعُظْمَىٰ أَنَّهُمْ مَعَ قِلَّتِهِمْ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ**: لأن الله يتولاهم في نصرة الحق، ويتولاهم تثبيتًا عليه.

١١) أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: فكُنْ من الطائفة المنصورة، وانصر الحق، وأعْرِض عن الجاهلين.

١٢) مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ، مِنْهَا:

- إِخْبَارُهُ بِأَنَّ اللهَ زَوَىٰ لَهُ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ، وَأَخْبَرَ بِمَعْنَىٰ ذَلِكَ، فَوَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ بِخِلَافِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ.
- وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ أُعْطِيَ الْكَنْزَيْنِ وَإِخْبَارُهُ بِإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ لِأُمَّتِهِ فِي الِاثْنَتَيْنِ وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ مَنَعَ الثَّالِثَةَ.
- وَإِخْبَارُهُ بِوُقُوعِ السَّيْفِ، وَأَنَّهُ لا يُرْفَعُ إِذَا وَقَعَ.
- وَإِخْبَارُهُ بِإِهْلَاكِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَسَبْيِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَخَوْفِهِ عَلَىٰ أُمَّتِهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ.
- وَإِخْبَاره بِظُهُورِ الْمُتَنَبِّئِينَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ.
- وَإِخْبَارُهُ بِبَقَاءِ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ، وَكُلُّ هَذَا وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ، مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مِنْ أَبْعَدِ مَا يَكُونُ فِي الْعُقُولِ: فوقعَ الشركُ، وظهرَ المتنبئون، وتَشَبَّه أقوامٌ من هذه الأمّة باليهود والنصارىٰ، فاحذروا الضَّلال واتبعوا الحق من ربكم، وكونوا من الطائفة المنصورة علمًا واعتقادًا وعملًا ودعوةً وجهادًا.

١٣) حَصْرُهُ الْخَوْفِ عَلَىٰ أُمَّتِهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ: لأنه أشدُّ ضررًا في إفساد الدين.

١٤) التَّنْبِيهُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ: من ذلك: الاستغاثة بالموتىٰ، وبناء المساجد علىٰ قبورهم.

الْبَــابُ الثَّــالِثُ وَالْعِشْــرُونَ

بَــابُ مَا جَـاءَ فِي السِّحْـرِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

◊ وَقَوْلِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

◊ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الجبتُ: السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ».

◊ وَقَالَ جَابِرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ».

◊ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**».

◊ وَعَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعًا: «**حَدُّ السَّاحِرِ: ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «الصَّحِيحُ: أَنَّهُ مَوْقُوفٌ».

◊ وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبَدَةَ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ، قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ.

◊ وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ.

◊ وَكَذَا صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ.

◊ قَالَ أَحْمَدُ: «عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ.

٢) تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ.

٣) تَفْسِيرُ الْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا.

٤) أَنَّ الطَّاغُوتَ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْجِنِّ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ.

٥) مَعْرِفَةُ السَّبْعِ الْمُوبِقَاتِ الْمَخْصُوصَةِ بِالنَّهْيِ.

٦) أَنَّ السَّاحِرَ يَكْفُرُ.

٧) أَنَّهُ يُقْتَلُ وَلَا يُسْتَتَابُ.

٨) وُجُودُ هَذَا فِي الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ عَهْدِ عُمَرَ، فَكَيْفَ بَعْدَهُ؟!

الشَّرح

يُطلق السِّحر علىٰ الصَّرْف، كما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: جاء رجلان من المشرق فخطبا، فقال النبي ﷺ: «**إنَّ مِنَ البيان لسِحْرًا**»، رواه البخاري.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «العرب تطلق لفْظ السِّحر علىٰ الصرف، تقول: ما سَحَركَ عن كذا؟ أي: ما صَرَفكَ عنه؟».

ويُطلق السِّحر علىٰ ما خفي سببُه ولَطُف، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فسُمِّي الوقت الذي قبل الفجر بالسَّحَر لخفائه، فإنه يقع في آخر الليل، وسُمِّي السُّحور سُحُورًا، لكونه يقع خفيًّا آخر الليل، وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قُبض رسول الله ﷺ بين سَحْرِي ونحري، رواه البخاري ومسلم.

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢٠٢).

والساحر كافر، والأدلة على ذلك:

١) قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، يدل على أن سليمان لو كان ساحرًا -وحاشاه من ذلك- لكان كافرًا.

٢) وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهذه الآية صريحة في كفرِ مُعلِّم السحر.

٣) وقوله تعالى عن هاروت وماروت: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

٤) وقوله سبحانه: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهنا نفى عنه الخَلَاق المُطْلَق، أي: النصيب المطلق، ونفي النصيب في الآخرة بالكلية لا يكون إلا للكافر.

٥) وقوله سبحانه في آخر الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣]، والإيمان يقابل الكفر.

٦) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، فنفى جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكد ذلك بالتعميم في الأمكنة بقوله: ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾، وذلك دليل على كفره، لأن الفلاح لا يُنفى بالكلية نفيًا عامًّا إلا عمن لا خير فيه، وهو الكافر(١).

٧) وقول النبي ﷺ: «**مَن عقدَ عقدةً ثم نفث فيها فقد سحرَ، ومَن سحرَ فقد أشرك، ومَن تعلَّق شيئًا وُكل إليه**»، رواه النسائي(٢).

٨) وقول رسول الله ﷺ: «**مَن أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدَّقه بما يقول؛ فقد كفرَ بما أُنزل على محمد** ﷺ»، رواه البزار(٣).

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٤٧٩).

(٢) إسناده غير متصل.

(٣) قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناد صحيح»، تفسير القرآن العظيم (١/ ١٤٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أكثر العلماء علىٰ أن الساحر كافر».

ومن العلماء مَن ذهب إلىٰ الاستفصال فلم يطلق القول بتكفيره، قال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «عملُ السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عدَّه النبي ﷺ من السبع الموبقات، ومنه ما يكون كفرًا، ومنه ما لا يكون كفرًا، بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعلٌ يقتضي الكفر فهو كفرٌ، وإلا فلا».

وقال العَلَّامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «التحقيق في هذه المسألة -إن شاء الله تعالىٰ- أن السحر نوعان -كما تقدَّم-، منه ما هو كفرٌ، ومنه ما لا يبلغ بصاحبه الكفر».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «مَن كان سِحْرُه بواسطة الشياطين فإنه يَكْفُر، ومَن كان سِحْرُه بالأدوية والعقاقير ونحوها فلا يَكْفُر، ولكن يُعتبر عاصيًا متعديًا».

وذكرَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب حُكْمَ الساحر في فقهِ الصحابة، فذكر عن جندب بن عبد الله البجلي، والفاروق عمر، وحفصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أنَّ حُكْمَ الساحر القتل.

والساحر يُقتل لكفره، أو لأجْل إفساده في الأرض، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[5]: «قد قيل في قتل الساحر، فإن أكثر العلماء علىٰ أنه يُقتل، وقد رُوي عن جندب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ موقوفًا ومرفوعًا: «**إنّ حدَّ الساحر ضربة بالسيف**»، رواه الترمذي.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٩/ ٣٨٤).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٢٤).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٤٩٧).

(٤) القول المفيد (٢/ ٦).

(٥) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٣٤٦، ٣٤٧).

وعن عمر وعثمان وحفصة وعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وغيرهم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مثله.

قال بعض العلماء: لأجْل الكفر.

وقال بعضهم: لأجْل الفساد في الأرض».

والسِّحرُ حِيَلٌ وتخييل، لكنه لا يقلب الأعيان، فذلك من خصائص ربوبية الله وحده، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

قال العَلَّامة أبو أحمد محمد بن علي الكرجي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «قوله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] دليلٌ علىٰ أن أمْرَ السحرة في أفعالهم من تغيير خَلقِ الصُّور- تخييلٌ لا حقيقة، فمَن زعم أنهم يقدرون علىٰ تغيير الصور وتحويلها عما خلقها الله إلىٰ غيرها فقد كفر، لمساواتهم بأفعال رب العالمين».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إن السحر يؤثر بلا شك، لكنه لا يقلب الأعيان إلىٰ أعيان أخرىٰ؛ لأنه لا يقدر علىٰ ذلك إلا الله عَزَّ وَجَلَّ».

والسحر له حقيقة يفسد بها إدراك المسحور، ويؤثر في عقله، وفي بغضه وكراهيته، وإقباله ونفوره، ويؤثر في بدن المسحور وربما قتله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «قد دلَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، وحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا المذكور؛ علىٰ تأثير السحر، وأن له

---

(١) نكت القرآن الدالة علىٰ البيان (٢/ ٢٨٩).

(٢) القول المفيد (٢/ ٦).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٧٤٦).

حقيقة، وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة، لا في مرض، ولا قتلٍ، ولا حلٍّ، ولا عقدٍ، قالوا: وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرين، لا حقيقة له سوىٰ ذلك.

وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء، وأهل التفسير والحديث، وأرباب القلوب من أهل التصوف، وما يعرفه عامة العقلاء.

والسحر الذي يُؤثِّر مرضًا وثقلًا، وحبًّا وبغضًا، ونزيفًا، وغير ذلك من الآثار؛ موجود تَعْرِفه عامة الناس، وكثير منهم قد علمه ذوقًا، بما أُصيب به منه».

وقال ابن القيم أيضًا(١): «الحبال والعصي التبستها الشياطين، فقلبتها كتقلب الحية، فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها، والشياطين هم الذين يقلبونها.

وإما أن يكون التغيير حدث في الرائي حتىٰ رأىٰ الحبال والعصي تتحرك وهي ساكنة في أنفسها.

ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا، فتارةً يتصرف في نفس الرائي وإحساسه حتىٰ يريه الشيء بخلاف ما هو به، وتارة يتصرف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانية حتىٰ يتصرف فيها».

وحذَّر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من التشبه باليهود والكافرين الذين يُعظِّمون السحر، ويضارون به الناس في أديانهم وأبدانهم، وذكر أنه من أسباب لعنة الله، حيث ذكرَ قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٤٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان والوَثَن، وهذه حالُ كثيرٍ من المنتسبين إلىٰ الملة، يُعظِّمون السحر والشرك، ويُرجِّحون الكفار علىٰ كثير من المؤمنين المتمسكين بالشريعة».

وقال العَلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، وبه قال الشعبي.

وقال قتادة: الجبت: الشيطان، والطاغوت: الكاهن.

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا -في رواية الكلبي[٣] عنه- أنه قال: هما اسما رَجُلَين من اليهود، فالجبت: حُيَي بن أخطب، والطاغوت: كَعْب بن الأشرف.

وفي رواية أخرىٰ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن: الجبت: الساحر بلغة الحبشة فعُرِّب.

وذَكَرَ عبدُ الله بن وَهْب، عن مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: الطاغوت: كلُّ ما يُعبد من دون الله، وقرأ قوله تعالىٰ: ﴿ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]، فقيل له: ما الجبت؟ فقال: سمعتُ أنه الكاهن».

وتفسير الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للجبت بالسحر، هو من طريقة السلف بتفسير الشيء بذِكرِ بعض أفراده، والجبت أعمُّ من ذلك.

والساحر طاغوتٌ؛ لأنه تجاوَز حدَّه بالكفر والشرك والأذىٰ للخَلق.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «يعني: أن السحر فَرْدٌ من أفراد الجبت، والشيطان فردٌ من أفراد الطاغوت، وإلا فإن التعريف العام للطاغوت ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل ما تجاوَز به العبد حده من معبودٍ أو متبوع أو مُطاع».

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (٥/ ٢٦٦).
(٢) تفسير القرآن (١/ ٤٣٥، ٤٣٦).
(٣) رواية الكلبي ضعيفة.
(٤) تفسير سورة النساء (١/ ٤٠٨).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] دالٌّ علىٰ أن السحر متلقًّى عن اليهود.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أصلُ السحر متلقىٰ من اليهود، ولهذا سحروا النبي ﷺ».

وهذا فرعٌ من اعتقادهم الكفري الشركي، وعلومهم الضالة.

وضلالهم وكفرهم في تعلُّمهم السحر وتعليمه تغلظ بنسبته إلىٰ نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وحاشا سليمان من هذا الكذب والافتراء، فإنَّ علومَ الأنبياء: التوحيدُ وليس الشرك والكفر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وسببُ سِحر اليهود شدة حسدهم لخَلق الله علىٰ ما آتاهم الله من فضله، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «اليهود أسحر الناس وأحسدهم، فإنهم لشدة خبثهم فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم».

والسحر من أغلظ وأعظم الكبائر، ذَكره النبي ﷺ بعد الشرك، بل هو من فروع الشرك؛ لأن الساحر إنما يصنع سِحْرَه بالاستعانة بالشياطين، والشياطين لا تُعِينُ إلا مَن يشرك بالله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحق، وأكْل الربا، وأكْل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات**».

---

(١) تفسير سورة النساء (١/ ٤١١).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٧٥٧).

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن الساحر لا بد وأن يَكْفُر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وما للشيطان الملعون غرضٌ في تعليمه الإنسان السحر إلا ليشرك به».

وحدُّ الساحر: القتلُ، هذا فقهُ الصحابة، ولا تُقبل توبته في قول بعض العلماء؛ لأنه زنديق.

قال العَلَّامة أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إن الساحر عند مالك كالزنديق؛ لأن العمل عنده بالسحر كفرٌ مُستَسرٌّ به، فلا تُقبل توبة الساحر، كما لا تُقبل توبة الزنديق؛ إذ لا طريق لنا إلىٰ معرفة صِدْق توبته».

وقال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «إن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم يستتيبوهم».

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ**: نفىٰ اللهُ النصيبَ عن الساحر في الآخرة؛ وذلك يقتضي كُفْره.

٢) **تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ**: أن استعمال السحر هو عملُ الكافر، خصوصًا اليهود الذين يؤمنون بالجِبْت والطاغوت.

٣) **تَفْسِيرُ الْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا**: الجِبْت هو الشرك.

٤) والطاغوت: هو كلُّ ما تجاوَز به العبدُ حدَّه، ومنه الساحر.

٥) **أَنَّ الطَّاغُوتَ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْجِنِّ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ**: فالجن كالإنس منهم المؤمنون ومنهم الكافرون.

---

(١) الكبائر (ص٤٥).

(٢) المفهم (٥/ ٥٧٤).

(٣) تيسير العزيز الحميد (١/ ٧٩٥).

٦) **مَعْرِفَةُ السَّبْعِ الْمُوبِقَاتِ الْمَخْصُوصَةِ بِالنَّهْيِ**: وهي الشرك، والسحر، والقتل، والربا، وأَكْل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات.

٧) **أَنَّ السَّاحِرَ يَكْفُرُ**: كُفْرُه من جهة استعمال الشياطين، التي تُعِين مَن يشرك بالله.

٨) **أَنَّهُ يُقْتَلُ وَلَا يُسْتَتَابُ**: وهذا فقهُ الصحابة ﵃.

٩) **وُجُودُ هَذَا فِي الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ عَهْدِ عُمَرَ، فَكَيْفَ بَعْدَهُ؟!**: لوجود اليهود في المدينة، وهم الأصل في هذا الشر، ولا يزال في الناس ممَّن يَكْفُر ويشرك بالله، ويتشبه باليهود.

۞ ۞ ۞

الْبَـــابُ الــرَّابِعُ وَالْعِشْـرُونَ

بَــابُ بَيَــانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْــوَاعِ السِّحْــرِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

- قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ؛ مِنَ الْجِبْتِ**».
- قَالَ عَوْفٌ: «الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرْضِ».
- وَالْجِبْتُ -قَالَ الْحَسَنُ-: «رَنَّةُ الشَّيْطَانِ». إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ، وَلِأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ الْمُسْنَدُ مِنْهُ.
- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ؛ زَادَ مَا زَادَ**»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.
- وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**».
- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ؛ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.
- وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**».

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) أَنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ.

٢) تَفْسِيرُ الْعِيَافَةِ وَالطَّرْقِ.

٣) أَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ مِنْ نَوْعِ السِّحْرِ.

٤) الْعَقْدُ مَعَ النَّفْثِ مِنْ ذَلِكَ.

٥) أَنَّ النَّمِيمَةَ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ.

٦) أَنَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضَ الْفَصَاحَةِ.

الشَّـرْح

هذا الباب تفصيل لأنواع السِّحْر، فإنَّ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ ذكرَ في الباب السابق حُكْمَ السِّحر، وحدَّ الساحِر، وهنا ذكرَ أنواع السِّحر.

ودلَّت أحاديث الباب علىٰ بعض أنواع السحر، وهي:

١) الطَّرْق.

٢) التنجيم.

٣) العُقَد.

وسِحْرُ العُقَد ذَكَرَه اللهُ في القرآن، وأمرنا بالاستعاذة منه، فقال سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ هن الساحرات، يَعْقِدْنَ الحبال وغيرها، وتنفث بقراءة مُطَلْسَمَة فيها أسماء الشياطين علىٰ كل عُقْدَة تعقد ثم تنفث، وهي بنفسِها الخبيثة تريد شخصًا مُعيَّنًا، فيؤثِّر هذا السحر بالنسبة للمسحور.

(١) تفسير جزء عم (ص٣٥٣).

وذَكرَ اللهُ النفاثات دون النفَّاثِين؛ لأن الغالب أن الذي يستعمل هذا النوع من السحر هن النساء، فلهذا قال: ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، ويحتمل أن يُقال: إن النفاثات، يعني: الأنفس النفاثات، فيشمل الرجال والنساء».

وقال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وَجْهُ إدخال السحر في أبواب التوحيد أن كثيرًا من أقسامه لا يتأتىٰ إلا بالشرك والتوسل بالأرواح الشيطانية، إلىٰ مقاصد الساحر، فلا يتم للعبد توحيدٌ حتىٰ يدع السحر كله قليله وكثيره.

ولهذا قرنه -السحر- الشارعُ بالشرك، فالسحر يدخل في الشرك من جهتين:

من جهة ما فيه من استخدام الشياطين، ومن التعلق بهم، وربما تقرَّب إليهم بما يحبون ليقوموا بخدمته ومطلوبه.

ومن جهة ما فيه من دعوىٰ علمِ الغيب، ودعوىٰ مشاركة الله في علمه، وسلوك الطرق المفضية إلىٰ ذلك، وذلك من شُعَب الشرك والكفر.

وفيه أيضًا من التصرفات المُحرَّمة، والأفعال القبيحة؛ كالقتل، والتفريق بين المتحابين، والصرف والعطف، والسعي في تغيير العقول، وهذا من أفظع المحرمات، وذلك من الشرك ووسائله، ولذلك تعيَّن قتلُ الساحر لشدة مضرته وإفساده».

وحديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**مَنِ اقتبسَ شعبةً من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**»، دالٌّ علىٰ أن التنجيم من السحر، وهو من علوم الصابئة المشركين عبدة الكواكب والنجوم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «السحر مُحرَّم بالكتاب والسُّنة والإجماع؛

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص٨٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣٥/ ١٧١).

وذلك أن النجوم التي من السحر نوعان:

- أحدهما: علمي، وهو الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث، من جنس الاستقسام بالأزلام.
- الثاني: عملي، وهو الذي يقولون: إنه الْقُوَىٰ السماوية بالقُوَىٰ الْمُنْفَعِلَة الأرضية، كالطلاسم ونحوها، وهذا من أرفع أنواع السحر.

وكلُّ ما حرَّمه اللهُ ﷻ ورسوله ﷺ فضررُه أعظم من نفعه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «الْمُنَجِّمُ يدخل في اسم العَرَّاف عند بعض العلماء، وعند بعضهم هو في معناه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «المنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء، وَحُكِيَ ذلك عن العرب. وعند آخرين هو من جنس الكاهن وأسوأ حالًا منه، فَلَحِقَ به من جهة المعنىٰ».

علىٰ كلِّ حالٍ النبي ﷺ سُئل عن الكُهّان، فقال: «**ليسوا بشيء**»، رواه البخاري.

فعلومُهم ليست بشيء، ومن ذلك ما يخبرون به عن المغيبات، وليسوا بشيء، فلا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، فضلًا عن أن يملكوه لغيرهم.

وعِلمُ التنجيم المُحرَّم هو من علوم أهل الكتاب، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «أمَّا (الجبت)، فقال محمد بن إسحاق، عن حسان بن فائد، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (الجبت): السحر، و(الطاغوت): الشيطان.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣٥/ ١٩٣).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣٥/ ١٩٣، ١٩٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٧٢٠).

وهكذا رُوي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن، والضحاك، والسدي.

وعن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن، وعطية: (الجبت): الشيطان، زاد ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: بالحبشية.

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أيضًا: (الجبت): الشرك، وعنه: (الجبت): الأصنام.

وعن الشعبي: (الجبت): الكاهن».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «روىٰ أبو داود في سننه بإسناد حسن، عن قبيصة بن مخارق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**العِيافَة، والطَّرْق، والطِّيَرة، من الجِبْت**».

قال عوف راوي الحديث: (العيافة: زجْرُ الطير، والطرق: الخطُّ يُخَطُّ في الأرض)، وقيل بالعكس.

فإذا كان الخط ونحوه الذي هو من فروع النَّجَّامَة من الجبت، فكيف بِالنَّجَّامَة؟!».

وكان في المدينة ابنُ صياد، كاهن يهودي دَجَّال من الدَّجَاجِلَة، حاجَّه النبي ﷺ وأظهر أنه ليس بشيء، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال له: «**ماذا ترىٰ؟**» قال ابن صَيَّاد: يأتيني صادقٌ وكاذب، قال النبي ﷺ: «**خلط عليك الأمر؟**»، قال النبي ﷺ: «**إني قد خَبَأْتُ لكَ خَبِيئًا**»، قال ابن صياد: هو الدُّخُّ، قال النبي ﷺ: «**اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ**».

والمسيح الدجال الذي دجله شرٌّ من ابن صياد، قال فيه النبي ﷺ بعدما ذَكر المغيرة بن شعبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ما يخشاه من ضره: «**هو أهون علىٰ الله من ذلك**»، رواه البخاري.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣٥/ ١٩٢، ١٩٣).

وسحرة فرعون أخبرنا الله ﷻ أنهم جاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ، فألقىٰ موسىٰ عليه السلام عصاه بأمر الله وقدرته، فأبطلت سِحْرهم، وقد ذَكرَ اللهُ لنا ذلك مفصَّلًا في القرآن في أكثر من موضع؛ تطميناً لنفوس المؤمنين بأن كيد الكافرين وأعوانهم من السحرة يبطله الله بحوله وقوته التي لا تُغلب ولا يقوم لها شيء.

فالغلبة والظهور لله وأوليائه وورثة الأنبياء والمُرسَلين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

واللهُ ﷻ بعد أن ذكرَ ما كان من شأن الصراع بين التوحيد والشرك، والإسلام والكفر، خاطبنا بقوله: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وهو خطاب موسىٰ عليه السلام لقومه، وهو خطاب الله لنا بتبيين الأسباب التي ينال بها التمكين في الأرض.

فالسحر يُبطِله اللهُ، والأرواح الخبيثة التي تَصْنع السحر تَعْلم أنه سيَضْمَحِل، بل ويبطل الله شرَّه بكلماته الشرعية والكونية، قال تعالىٰ: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٨، ١١٩].

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رحمه الله(١): «أي: حقِيرِين، قد اضمحل باطلهم، وتلاشىٰ سحرهم».

وقد ذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في هذا الكتاب من قبل أنواعًا أخرىٰ من السحر في الباب السابع، وهو التِّوَلة، حيث ساق حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الرُّقَىٰ والتَّمائم والتِّوَلة شركٌ**»، رواه أحمد وأبو داود.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٣٠٧).

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «التولة: نوعٌ من السحر، وهو تحبيب المرأة إلىٰ الزوج».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «التولة: شيء يُعلِّقونه علىٰ الزوج، يزعمون أنه يحبب الزوجة إلىٰ زوجها، والزوج إلىٰ امرأته، وهذا شركٌ؛ لأنه ليس بسبب شرعي ولا قدري للمحبة».

والتولة -والله أعلم- هو من أنواع سحر الصرف والعطف، وهذا من عملِ الشيطان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «يقولون: عطف، ومحبة، وتهييج، ونحو ذلك، كالتفريق بين المرء وزوجه، وذلك من السحر».

وقول النبي ﷺ: «**مَنِ اقتبسَ شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**»، يدل علىٰ أن تعلُّم التنجيم المحرم زيادة في الإثم بقدر ما تزودوا منه.

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «كلما زاد من علم النجوم زاد له من الإثم مثل إثم الساحر، أو زاد اقتباس شعب السحر ما زاد اقتباس علم النجوم».

وحذر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من النميمة؛ لأنها في معنىٰ السحر من جهة التفريق والإفساد بين الناس والمضارة بهم، وهذا من عنايته بمعاني ومقاصد الشريعة، وكلٌّ من النمام والساحر مضار بأديان الناس ودنياهم، ومن المفسدين بين الناس، المضارين بالمسلمين.

فقد أورد شيخ الإسلام في هذا المعنىٰ حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هي النميمة، الْقَالَةُ بين الناس**».

---

(١) الكبائر (ص٤٦).

(٢) شرح كتاب التوحيد (ص١٧٢)، مطبوع ضمن مجموع فتاوىٰ الشيخ، المجلد التاسع.

(٣) أقسام المعزمين (ص٢١).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢/ ٨١٣).

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «العَضْه: بفتح المُهْمَلة وسُكون المُعْجَمة، ثم فسَّرها بقوله: «**هي النميمة، القالة بين الناس**» فأُطلق عليها العضة؛ لأن النَّمَّام يعمل عمل الساحر.

وذكرَ ابنُ عبد البر عن يحيىٰ بن أبي كثير قال: يُفسِد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر.

وقال أبو الخطاب في عيون المسائل: ومن السحر: السعي بالنميمة والإفساد بين الناس.

قال ابن حزم: واتفقوا علىٰ تحريم الغِيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة».

وحذَّر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيانه لأنواع السحر من الجدال لنصرة الباطل، حيث ذكر حديث ابن عمر: «**إنَّ من البيان لسحرًا**»؛ لأنَّ مَن أُوتي جدلًا واستعمله في نصرة الباطل صرف الناس إلىٰ الضلال ببلاغته المضلة وزخرفته للباطل.

شـرْحُ المسـائل:

١) **أَنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ**: هذه بعض أنواع السحر، فاحذرها.

٢) **تَفْسِيرُ الْعِيَافَةِ وَالطَّرْقِ**: سبق شرح هذه الأعمال الشيطانية.

٣) **أَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ مِنْ نَوْعِ السِّحْرِ**: فليَحْذره المسلم.

٤) **أَنَّ الْعَقْدُ مَعَ النَّفْثِ مِنْ ذَلِكَ**: نفوس خبيثة تنفث خبثها بالكفر.

٥) **أَنَّ النَّمِيمَةَ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ**: حيث يشملها معنىٰ التفريق.

٦) **أَنَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضَ الْفَصَاحَةِ**: بعض الفصاحة، وهو ما كان بالقول بالباطل، ونصرة للباطل، فهو يَصرِف الناس إلىٰ الباطل.

---

(١) قرة عيون الموحدين (ص١٤٣، ١٤٤).

الْبَابُ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**».
- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.
- وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ -وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِهِمَا- عَن النبي: «**مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ**». وَلِأَبِي يَعْلَىٰ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا.
- وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ**». رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.
- وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ دُونَ قَوْلِهِ: «**وَمَنْ أَتَىٰ...**» إلىٰ آخره.
- قال الْبَغَوِيُّ: «الْعَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَىٰ الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ».
- وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.
- وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

◊ وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «الْعَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ وَالْمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ».

◊ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ أَبَا جَادٍ، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ-: «مَا أَرَىٰ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ».

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) أَنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ تَصْدِيقُ الْكَاهِنِ مَعَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ.

٢) التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ كُفْرٌ.

٣) ذِكْرُ مَنْ تُكُهِّنَ لَهُ.

٤) ذِكْرُ مَنْ تُطُيِّرَ لَهُ.

٥) ذِكْرُ مَنْ سُحِرَ لَهُ.

٦) ذِكْرُ مَنْ تَعَلَّمَ أَبَا جَادٍ.

٧) ذِكْرُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْكَاهِنِ وَالْعَرَّافِ.

الشَّرْح

الكُهَّان أقوام يستعينون بالشياطين التي تسترق السمع في السماء، فيخبرون بما سمعوا، ويَكْذِب الكهان معها مائة كذبة.

وقد نهىٰ النبي ﷺ عن إتيان الكهان، قال معاوية بن الحكم السُّلمي: يا رسول الله، إن منا رجالًا يأتون الكهان، قال: «**فلا تأتهم**»، رواه مسلم.

وإتيان الكُهان والمنجمين والعرافين والسحرة هو من إعانتهم علىٰ الشرك والكفر، فإنهم يتكهنون ويسحرون لقضاء حوائج مَن يأتيهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وقال النبي ﷺ: «**ليس منا مَن تطيَّر أو تُطير له، أو تكهَّن أو تُكهِّن له، أو سَحرَ، أو سُحِر له**»، رواه البزار، قال شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «بإسنادٍ جيد».

وأمَّا خبرُ: «**تعلَّموا السِّحْرَ، ولا تَعْمَلُوا به**»، فهو كذبٌ.

قال العَلَّامة المجدد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «هذا الحديث باطل، لا أصل له، ولا يجوز تعلُّم السحر، ولا العمل به، وذلك منكَر، بل كفرٌ وضلال، وقد بيّن الله إنكاره للسحر في كتابه الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢، ١٠٣]، فأوضح سبحانه في هذه الآيات أن السحر كفرٌ، وأنّه من تعليم الشياطين».

والكهان والسحرة اعتاضوا عن الإسلام والتوحيد والإيمان بالكفر والشرك والظلم للحُلْوَان الذي يأخذونه من الناس، وهذا زادهم إلىٰ النار، وما لهم في الآخرة من نصيب.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال العَلَّامة المجدد عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «المعنىٰ: باعوا أنفسهم للشيطان بهذا السحر».

---

(١) كتاب التوحيد (ص٥١).

(٢) الفتاوىٰ البازية (٦/ ٤٦٧، ٤٦٨).

(٣) الفتاوىٰ البازية (٦/ ٤٦٨).

وقد ذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ الناس يقصدون العرَّاف ليخبرهم عن المسروق ومكان الضالة[١]، فاحذر الشرك والكهان المشركين، فالله عَزَّ وَجَلَّ إذا أراد ردَّ ضالتك أو المسروق منك هيَّأ أسباب ذلك، فاطلب حاجاتك من الله بتوحيده والاستعانة به، واحذر خسارة الدِّين والدنيا بالشرك، فإن ما تدركه بالشرك لا يُبارَك فيه.

والكاهن يعطي الشيطان الذي يعينه علىٰ كهانته ما يطلبه منه من الشرك، والشيطان يعين الكاهن علىٰ إخباره بالمغيبات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الشيطان هو نفسه خبيث، فإذا تقرب صاحب العزائم والأقسام وكتب الروحانيات السحرية وأمثال ذلك إليهم بما يحبونه من الكفر والشرك صار ذلك كالرشوة والبِرْطِيل لهم، فيقضون بعض أغراضه».

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[٣]: «إياكم والكهانة، فإن الكهانة تدعو إلىٰ الشرك».

فالكاهن يطيع الشياطين بما تأمره به من الشرك بالله ومعصيته، ومَن يأتي الكُهَّان يطيع الكاهن فيما يأمره به من الشرك ومعصية الله، ويتكسب الكاهن بالشرك بادعاء علم الغيب، وقد قال النبي ﷺ: «**حُلْوَان الكاهن خبيث**».

فالكافر والمشرك يأتي الكاهنَ، فيصدِّقه بما يقول، فيكون وليًّا مُتَّبِعًا له وللشياطين التي تعينه علىٰ كذبه وإخباره بالمغيبات، قال رسول الله ﷺ: «**مَن أتىٰ كاهنًا فصدَّقه بما يقول، فقد كفرَ بما أُنزل علىٰ محمد**».

(١) كتاب التوحيد (ص٥١).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٣٤).
(٣) رموز الكنوز (٦/ ٧٠).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنّ الناس قسمان: أتباع الكهنة، وأتباع رُسُل الله، فلا يجتمع في العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء، بل يبعد عن رسول الله ﷺ بقدر قربه من الكاهن، ويُكذِّب الرسول ﷺ بقدر تصديقه للكاهن».

ومَن له حاجَة فليطلبها من ربه، ومَن توكل على الله كفاه، وأغناه الله عن كذب الكهان، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

والكهان نعتهم النبي ﷺ بأنهم «**ليسوا بشيء**»، رواه البخاري، ومَن اعتمد علىٰ مَن كان كذلك فقد اعتمد علىٰ أخبار الشياطين، ومَن كان للشيطان وليًّا فقد خسر خسرانًا مبينًا.

وأخبر النبي ﷺ أن الكاهن الذي يخبر بما ألقاه إليه مسترق السمع يَكْذِب معها مائة كذبة، وهذا يدلُّكَ علىٰ ما بين الشرك والكذب من التلازم.

ومات نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولم تَعْلَم الجن بموته حتىٰ تبيَّنت الجن أنهم لا يَعْلَمون الغيب، فالكهان كما أخبر النبي ﷺ: «**ليسوا بشيء**».

قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

والكاهن في المعنىٰ الخاص: هو مَن يستعين بالشياطين لمعرفة الغيب، وفي معناه: مَن يدعي علم الغيب بالنظر في النجوم ومواقعها، وكذلك مَن يدعي علم ذلك بالخط في الأرض.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «العرَّاف اسمٌ للكاهن والرَّمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطُّرُق».

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٤٥٣).

(٢) كتاب التوحيد (ص٥١، ٥٢).

وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا فرق بين المُنَجِّم والكاهن؛ إذ كلٌّ واحدٍ منهما يدعي الإخبار بالغيوب، وكيف يُسَلَّمُ للمنجمين ما يدَّعونه، وَأَحَدُهُمْ علىٰ التحقيق ما يَعْرِف ما حدث في منزله، ولا ما يُصْلِحُ أهلَهُ وولدَهُ».

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوم يكتبون أبا جاد، وينظرون في النجوم: «ما أرىٰ مَن فعل ذلك له عند الله من خلاق».

ومن الكهانة التي كان عليها المشركون في الجاهلية: الاستقسام بالأزلام، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يطلبون بها علم ما قُسم لهم في الغيب».

وكان في كل حي من أحياء العرب في الجاهلية كاهن يتحاكم إليه المشركون، ويخبرهم بالمغيبات.

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الكهانة من علوم الجاهلية، وكانت الشياطين تسترق السمع، فتلقيه إلىٰ أوليائها من الكهنة، فأبطلها الله تعالىٰ بالإسلام، وحرس السماوات بالنجوم والشهب، ومنع الشياطين من استراق السمع».

والكاهن قد جمع أنواعًا من الشرور، وهي:

١) الاستعانة بالشياطين.
٢) الشرك والكفر بالله.
٣) ادعاء علم الغيب.
٤) الحكم بغير ما أنزل الله.
٥) أكل أموال الناس بالباطل.
٦) الظلم.

---

(١) القول في علم النجوم (ص١٩٤).
(٢) زاد المعاد (ص٣٢٣).
(٣) القول في علم النجوم (ص١٩١).

٧) التعاون على الإثم والعدوان.

٨) الكذب: وهذه خاصية الكهان، فإنهم يخبرون بما ألقته إليهم الشياطين، ويكذبون معها مائة كذبة.

٩) التشبه بخاصية الله فيما انفرد به من علم الغيب.

وأبان شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حُكمِ إتيان الكهان، فذكر حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «**مَن أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد**»، رواه أبو داود.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «(ما) عامة في كل ما يقول، حتى ما يحتمل أنه صدقَ، فإنه لا يجوز أنْ يُصدِّقه؛ لأن الأصل فيهم الكذب».

وقال شيخنا العثيمين(٢): «قوله: «**كفرَ بما أُنزل على محمد**»، وجه ذلك: أن ما أُنزل على محمد قال الله تعالى فيه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وهذا من أقوى طرق الحصر؛ لأن فيه النفي والإثبات، فالذي يُصدِّق الكاهن في علم الغيب وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، فهو كافر كفرًا أكبر مخرجًا من الملة».

فإتيان الكهان من أسباب الشرك، وتصديقهم فيما يدَّعونه من عِلم الغيب كُفْرٌ أكبر، وطاعتهم فيما يأمرون به من الشرك؛ كفرٌ مُخرِج من الملة.

وقوله ﷺ: «**مَن أتى عرَّافًا، فسأله عن شيء، فصدَّقه لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا**»، دالٌّ على أن إتيان الكهان يحبط صلوات أربعين يومًا.

(١) شرح كتاب التوحيد (ص٥٣٦)، المجلد التاسع من مجموع الفتاوى.
(٢) شرح كتاب التوحيد (ص٥٣٨)، المجلد التاسع من مجموع الفتاوى.

شـرْحُ المسـائل:

١) **أَنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ تَصْدِيقُ الْكَاهِنِ مَعَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ**: لأن الله أخبر باختصاصه بعلم الغيب، فلا يعلمه كاهن ولا شيطان.

٢) **التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ كُفْرٌ**: لأنه تكذيب بالقرآن.

٣) **ذِكْرُ مَنْ تُكُهِّنَ لَهُ**: براءةُ النبي ﷺ منه.

٤) **ذِكْرُ مَنْ تُطُيِّرَ لَهُ**: براءةُ النبي ﷺ منه.

٥) **ذِكْرُ مَنْ سُحِرَ لَهُ**: فالكاهن والمُتَكَهَّن له في الإثم سواء، وهكذا الساحر ومَن سُحر له، والمُتطيِّر ومَن تُطيِّر له.

٦) **ذِكْرُ مَنْ تَعَلَّمَ أَبَا جَادٍ**: كمُتعلِّم السحر، لا نصيب له في الآخرة.

٧) **ذِكْرُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْكَاهِنِ وَالْعَرَّافِ**: كلٌّ منهم يدَّعي علم الغيب، ويختلفون في وسائل ما يستدلون به على ذلك.

الْبَـــابُ السَّـــادِسُ وَالْعِشْـــرُونَ

بَــابُ مَا جَــاءَ فِي النُّشْــرَةِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◈ عَنْ جَابِرٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ، فَقَالَ: «**هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**».
رَوَاهُ أَحْمَدُ -بِسَنَدٍ جَيِّدٍ- وَأَبُو دَاوُدَ، وَقَالَ: سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؛ فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ.

◈ وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ: قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤَخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ؛ أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ؟ قَالَ: «لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ». انْتَهَىٰ.

◈ وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَحُلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ».

◈ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ:

- أَحَدُهُمَا: حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَىٰ الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ.
- وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ، وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَالدَّعَوَاتِ، وَالأَدْوِيَةِ الْمُبَاحَةِ؛ فَهَذَا جَائِزٌ».

فِيْـهِ مَسَـائِلُ:

١) النَّهْيُ عَنِ النُّشْرَةِ.

٢) الْفَرَقُ بَيْنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَالْمُرَخَّصِ فِيهِ، مِمَّا يُزِيلُ الْإِشْكَالَ.

الشَّرْح

النُّشْرَة هي: حلُّ السحر عن المسحور، **وهي نوعان:**

النوع الأول: وهو متفق على مشروعيته، وهو حلُّ السحر بالرقية بالقرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] و﴿مِنَ﴾ في هذه الآية لبيان الجنس، فينفع التداوي بجميع آي القرآن، بإذن الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «﴿مِنَ﴾ هنا لبيان الجنس، لا للتبعيض، فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية المتقدمة: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم يُنزِل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من السماء شفاءً قط: أعم، ولا أنفع، ولا أعظم، ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن».

وأخص ما يُتداوىٰ به من القرآن في حلِّ السحر هي المُعَوِّذات، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أنفع ما يُستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله علىٰ رسوله ﷺ في إذهاب ذلك، وهما المعوذتان، وفي الحديث: «**ما تَعوَّذ المُتعوِّذ بمثلهما**»، وكذلك قراءة آية الكرسي، فإنها مطردة الشيطان».

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**أن النبي ﷺ كان ينفث علىٰ نفسه في مرضه الذي قُبض فيه بالمعوذات**»، رواه البخاري.

---

(١) الجواب الكافي (ص١٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٤٨).

قال العَلَّامة محمد بن مفلح المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «من أعظم ما يُتَحَصَّنُ به من السحر، ومن أنفع علاج له -بعد وقوعه- التوجه إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتوكُّل القلب والاعتماد عليه، والتعوذ والدعاء، وهذا هو السبب الذي لم يصح عن النبي ﷺ أنه استعمل شيئًا قبله، بل قد يقال: لم يصح أنه استعمل شيئًا غيره.

وهو الغاية القصوىٰ، والنهاية العظمىٰ، ولهذا في الخبر أنه لم يخرجه، وإنما دفنه؛ لئلا يفضي ذلك إلىٰ مفسدةٍ وَانْتِشَارِهَا، لا لتوقُّف الشفاء والعافية عليه».

النوع الثاني: وهو مُختَلَف في مشروعيته، وهو حلُّ السحر بسحرٍ مثله، فهذا النوع من النشرة حرَّمه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الصحابة وغيره، لحديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ سُئل عن النشرة؟ فقال: «**هي من عملِ الشيطان**»، رواه أحمد[(٢)].

وأجاز جماعة من السلف هذا النوع من النشرة، وهم:

١) سعيد بن المسيب: فقد قال له قتادة: رَجُل به طبٌّ، أو: يُؤخذ عن امرأته، أيُحلُّ عنه أو يُنشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم يُنْهَ عنه[(٣)].

٢) الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: لا بأس بالنشرة[(٤)].

٣) البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث قال في صحيحه: «كتاب الطب: باب: هل يستخرج السحر؟»، وساق أثر سعيد بن المسيب.

---

(١) الآداب الشرعية (٣/ ٩٨، ٩٩).

(٢) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «سنده حسن»، فتح الباري (١٠/ ٢٣٣).

(٣) ذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به، كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر؟ (ص١٠١٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٤٨)، وعلق الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ هذا الأثر بقوله: «وكره ذلك الحسن البصري».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا على فقهِ البخاري من هذا التبويب[١]: «كذا أورد الترجمة بالاستفهام، إشارةً إلى الاختلاف، وصدَّر بما نقله عن سعيد بن المسيب من الجواز؛ إشارةً إلى ترجيحه».

٤) ابن الجوزي: قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «النشرة: حلُّ السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا مَن يعرف السحر».

٥) الطبري[٣].

٦) الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حيث قال[٤]: «هذا هو المعتمد، ويُجاب عن الحديث والأثر، بأن قوله: «**النشرة من عمل الشيطان**»، إشارة إلى أصلها، ويختلف الحُكْمُ بالقصد، فمَن قصد بها خيرًا كان خيرًا، وإلا فهو شرٌّ».

والتحقيقُ: أنَّ النشرةَ بالسِّحر حرامٌ؛ لأن السحرة أصحاب أحوال شيطانية، ويشركون بالله، لتعينهم الشياطين لحل السحر عن المسحور، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]، ولأن الله يقول في شأن تعلُّم السحر: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: «إن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية».

وقد أَذِن اللهُ في التداوي بالحلال، ونهى عن التداوي بالحرام، فقال النبي ﷺ: «**عِبادَ اللهِ، تداووا، ولا تتداووا بحرام**»، وقال النبي ﷺ: «**لم يجعل الله شفاء أمّتي في حرام**»، رواه مسلم.

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٣٣).
(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٣٣).
(٣) الآداب الشرعية (٣/ ٧٧).
(٤) فتح الباري (١٠/ ٢٣٣).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٨٢).

شــرْحُ المســائل:

١) **النَّهْيُ عَنِ النُّشْرَةِ**: التي هي من عملِ الشيطان.

٢) **الْفَرَقُ بَيْنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَالْمُرَخَّصِ فِيهِ، مِمَّا يُزِيلُ الْإِشْكَالَ**: حلُّ السِّحر بقراءة القرآن مشروع، وحلُّه بسحرٍ مثله لا يجوز.

۞ ۞ ۞

الْبَــابُ السَّــابِعُ وَالْعِشْــرُونَ

بَــابُ مَا جَــاءَ فِي التَّطَــيُّرِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].
- وَقَوْلِهِ: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ [يس: ١٩].
- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا عَدْوَىٰ، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ**». أَخْرَجَاهُ.
- زَادَ مُسْلِمٌ: «**وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ**».
- وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا عَدْوَىٰ، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ**» قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: «**الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**».
- وَلِأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**أَحْسَنُهَا: الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ؛ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ**».
- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا؛ وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ.
- وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ**»، قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**».
- وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ**».

فِيْـهِ مَسَـائِلُ:

١) التَّنْبِيهُ عَلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾، مَعَ قَوْلِهِ: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾.

٢) نَفْيُ الْعَدْوَىٰ.

٣) نَفْيُ الطِّيَرَةِ.

٤) نَفْيُ الْهَامَةِ.

٥) نَفْيُ الصَّفَرِ.

٦) أَنَّ الْفَأْلَ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مُسْتَحَبٌّ.

٧) تَفْسِيرُ الْفَأْلِ.

٨) أَنَّ الْوَاقِعَ فِي الْقَلْبِ مِنْ ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لَا يَضُرُّ؛ بَلْ يُذْهِبُهُ اللهُ بِالتَّوَكُّلِ.

٩) ذِكْرُ مَا يَقُولُ مَنْ وَجَدَهُ.

١٠) التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الطِّيَرَةَ شِرْكٌ.

١١) تَفْسِيرُ الطِّيَرَةِ الْمَذْمُومَةِ.

الشَّرْح

استفتحَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الباب بقول الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وهذه الآية في قوم فرعون، فإنهم كانوا إذا أصابتهم سَعة وعافية. قالوا: نحن جديرون بذلك، وإذا أصابهم بلاءٌ وضِيقٌ وقَحْطٌ قالوا: هذا بسبب شؤم موسىٰ وأصحابه، فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده(١).

وفي قول النبي ﷺ: «لا طِيَرَة»، نفيٌ لِما لم يجعله الله سببًا في حصول المقادير.

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٢).

وهنا لا بُدَّ من تحقيق الإيمان بالقَدَر، قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ: «**قدَّر اللهُ مقاديرَ الخلائق قبل أن يَخْلُقَ السماوات والأرض بخمسين ألف سَنة، وكان عرشُه علىٰ الماء**»، رواه مسلم.

ومن ضرورات التكليف: ما يبتلي اللهُ به عباده من الخير والشر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فلا بُدَّ أن تجري في العِباد سُنَّة الله في خَلقه من السرَّاء والضرَّاء، فهذه لا يُقال فيها طِيَرَة لمَن كان محققًا للعبودية والطاعة لله، بل هذه عبودية الموحدين في جميع الأحوال، فهم ليسوا ممن يعبد الله علىٰ حَرْف، بل هم مؤمنون كما قال النبي ﷺ: «**عجبًا لأمرِ المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابته سرَّاء شكرَ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبرَ فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن**»، رواه مسلم من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وطائِرُ كلِّ إنسانٍ عملُه، وتقوىٰ الله سببٌ للخيرات، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ومَن آمَن وعَمِل صالحًا فقد أخَذَ بأسباب الحياة الطيبة، والدنيا لا تصفو من غير كَدَرٍ، فمَن حقَّقَ التوحيد كفاه الله وتوَلَّاه، قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وبهذا يَظْهَر أنَّ طائِرَ كلِّ إنسانٍ عملُه، قال تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]، فنصيبُ الإنسان وحَظُّه من الخير والشر بحسب عملِه، فسبيلُ السعادة وإدراك الخير في الدنيا والآخرة في تقوىٰ الله، والعمل الصالح، وحُسْن الظن بالله، والتوكل عليه حق التوكل، وهذا ما نبَّه إليه النبي ﷺ في قوله: «**لَوْ أَنَّكُمْ**

كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»، رواه الترمذي وصحَّحه ابنُ حِبَّان من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «هذه سُنَّة الله في عِباده، فما دُفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرَّج الله كربه بالتوحيد.

فلا يُلقِي في الكُرَب العِظام إلا الشرك، ولا يُنجي منها إلا التوحيد، فهو مَفزَعُ الخَلِيقَة ومَلْجَؤُها وحِصْنُها وغِياثُها».

فأَزِمَّةُ الأمور بيد الله، وهو الذي يُقدِّر المقادير، وهو الذي يدفع البلاء ويكشف الضراء، وحظ المُسْلِم من حفْظِ الله، ونصرُه ومعيتُه بمقدار تحقُّقه بالتوحيد والإيمان، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «التوحيد حِصنُ الله الأعظم الذي مَن دخله كان من الآمنين».

والتشاؤم من المستقبل خشيةَ الفقر أو المرض أو غيره؛ هذا من التطير الذي لا يجوز، والواجب علىٰ المسلم: بذْلُ أسباب الخير، والتوكل علىٰ الله، وحُسْن الظن به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «السُّنة في أسباب الخير والشر أن يفعل العبد عند أسباب الخير الظاهرة والأعمال الصالحة ما يجلب الله به الخير، وعند أسباب الشر الظاهرة من العبادات ما يدفع الله به عنه الشر، فأما ما يخفىٰ من الأسباب فليس العبد مأمورًا بأن يتكلف معرفته، بل إذا فعَلَ ما أُمر به وترَكَ ما حَظَرَ؛ كفاه اللهُ مُؤْنَة الشر، ويَسَّر له أسباب الخير، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ

(١) الفوائد ص٧٣.
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٠٩).
(٣) مجموع الفتاوىٰ (٣٥/ ١٧٠).

حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]».

وهذا الباب ارتباطه بالإيمان بالقَدَر معلوم، فعقيدة المسلمين ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١]، فالمقادير قضاها الله كونًا، «**والمؤمن إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن**»، كما قال النبي ﷺ، فيما رواه مسلم في صحيحه.

وعقيدة المسلم بيَّنها النبي ﷺ في وصيته لابن عباس رضي الله عنهما حيث قال له وللأمّة: «**اعلمْ أنّ الأمّة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك فلن ينفعوك إلا بشيءٍ كتبه اللهُ لكَ، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك فلن يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليكَ**».

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله(١): «ثبت عن النبي ﷺ أنه نهىٰ عن التطير، وقال: «**لا طيرة**»، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية يتطيرون، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بالتوكل علىٰ الله؛ لأنه لا شيءَ في حُكْمِهِ إلَّا ما شاءَ، ولا يعلم الغيب غيره».

وأقسام الناس باعتبار إثبات ما جعله الله سببًا ونفيه ثلاث، قال ابن القيم رحمه الله(٢): «فالمقامات ثلاثة:

١) أحدها: تجريد التوحيد وإثبات الأسباب، وهذا هو الذي جاءت به الشرائع، وهو مطابق للواقع في نفس الأمر.

٢) والثاني: الشرك في الأسباب بالمعبود كما هو حال المشركين علىٰ اختلاف أصنافهم.

---

(١) التمهيد (٢٤/ ١٩٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٥٩٢، ١٥٩٣).

٣) والثالث: إنكار الأسباب بالكلية؛ محافظةً من مُنكِرها علىٰ التوحيد.

فالمنحرفون طرفان مذمومان: إما قادِحٌ في التوحيد بالأسباب، وإما مُنكِر للأسباب بالتوحيد.

والحق غير ذلك، وهو إثباتُ التوحيد والأسباب ورَبْطُ أحدهما بالآخَر، فالأسباب محلُّ حُكْمِه الدِّيني والكوني، والحُكْمان عَلَيْهَا يجريان، بل عَلَيْهَا يترتب الأمر والنهي والثواب والعقاب، ورضىٰ الرب، وسخطه ولعنته، وكرامته، والتوحيد تجريد الربوبية والإلهية عن كل شرك.

فإنكارُ الأسبابِ إنكارُ الحكمةِ، والشركُ بها قدحٌ في توحيده، وإثباتها، والتعلُّق بالسبب، والتوكل عليه، والثقة به، والخوف منه، والرجاء له وحده هو محضُ التوحيد والمعرفة، تُفرِّق بين ما أثبته الرسول ﷺ وبين ما نفاه، وبين ما أبطله وبين ما اعتبره، فهذا لونٌ وهذا لونٌ، واللهُ الموفق للصواب».

والمقصود: أن الإنسان يتوكل علىٰ الله ويقوم بالأسباب النافعة المشروعة في جلب المنافع ودفع المضار، ولا يترك نفسه لتستولي عليها هواجس ووساوس التطيّر، أو يستسلم لتخرصات الكهان والمنجمين والعرافين، لذلك ساق المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**مَن ردَّته الطيرةُ عن حاجته، فقد أشرك**»، رواه أحمد.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «البحث عن أسباب الشرِّ من النظر في النجوم ونحوها؛ هو من الطيرة المنهي عنها، والباحثون عن ذلك غالبًا لا يشتغلون بما يدفع البلاء من الطاعات، بل يأمرون بلزوم المنزل وترْك الحركة، وهذا لا يمنع نفوذ القضاء والقدر.

(١) لطائف المعارف ص١٤١.

ومنهم مَن يشتغل بالمعاصي؛ وهذا مما يُقوِّي وقوع البلاء ونفوذه، والذي جاءت به الشريعة هو تركُ البحث عن ذلك، والإعراض عنه، والاشتغال بما يدفع البلاء، من: الدعاء، والذِّكر، والصدقة، وتحقيق التوكل علىٰ الله ﷻ، والإيمان بقضائه وقَدَرِه».

وأوهام الشرك هي مادة التطير وأصله، وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: يا رسول الله، ومنا أناس يتطيرون، فقال: «**ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنه**».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أخبر أنَّ تأذِّيَه وتشاؤمَه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته، لا في المُتطيَّر به، فوَهْمُه وخوْفُه وإشراكه هو الذي يُطيِّره ويَصدُّه، لا ما رآه وسمعه».

والتطيرُ من كيدِ الشيطان للإنسان؛ يريد أن يُدخِلَ عليه الحزن بما يشاهده أو يسمعه فيتطير به، فيوقعه في الحزن والشرك، قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقوْلُ النبي ﷺ: «**لا عدوىٰ**»، هذا نفيٌ لاعتقاد الجاهلية وتحذيرٌ منه، فإنهم في الجاهلية كانوا يعتقدون أن المرض فاعل مُؤثِّر بنَفْسِه، وهذا شركٌ في الربوبية، وقد أزال النبي ﷺ هذا النوع من اعتقاد الجاهلية من نفوس الناس، وبيَّن لهم أن الله ﷻ وحده الذي قدَّر إصابة المريض، وعندما سأله الناس عن عدوىٰ الجرب يصيب الإبل فيُعْدِيها، فقال النبي ﷺ: «**فمَن أعدىٰ الأول؟!**».

ومعلومٌ أنَّ بعضَ الإبل السليمة تخالط الجرباء ولا تصيبها عدوىٰ، فالسبب يُقدِّره الله في العدوىٰ، لا يستقل بنفسه في حصول الوباء والمرض.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٤).

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إن قوله: «**لا عدوىٰ**» علىٰ الوجه الذي كانوا يعتقدونه في الجاهلية من إضافة الفعل إلىٰ غير الله تعالىٰ، وأن هذه الأمراض تُعدِي بطبعها، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سببًا لحدوث ذلك، ولهذا قال: «**فرَّ من المَجْذُوم كما تَفِرُّ من الأسد**»، وقال: «**لا يُورَدُ مُمْرِضٌ علىٰ مُصِحٍّ**»، وقال في الطاعون: «**مَن سَمِعَ به بأرضٍ فلا يُقْدِم عليه**».

وكلُّ ذلك بتقدير الله تعالىٰ، كما قال: «**فمَن أعدىٰ الأول؟!**»؛ يُشِير إلىٰ أنَّ الأولَ إنما جَرِبَ بقضاء الله وقدَرِه، فكذلك الثاني وما بعده».

وقوله ﷺ: «**ولا طيرة**»، هذا نفيٌ للتطير الذي كان الناس عليه في الجاهلية من التشاؤم بالأمكنة والأزمنة، أو رؤية الطير، أو بعض أنواعه، فإن هذا كله لا أثر له في مقادير الله التي يُقدِّرها الله وحده لا شريك له.

فرؤية المسلم ما يَكْرَه من طيرٍ أو سماعه لا تضره، قال النبي ﷺ: «**إذا رأىٰ أحدُكم ما يَكْره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»، رواه أحمد وأبو داود من حديث عروة بن عامر القرشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وزاد أبو القاسم البغوي: «**ولا تضر مسلمًا**».

وفي صحيح ابن حبان عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**لا طيرة، والطيرة علىٰ مَن تطير**».

وقال إبراهيم النخعي: قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تضر الطيرة إلا مَن تطير».

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «معنىٰ هذا: أن مَن تطير تطيرًا منهيًّا

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٢/ ٨٦٢، ٨٦٣).
(٢) لطائف المعارف ص١٤٣.

عنه، وهو أن يعتمد علىٰ ما يسمعه أو يراه مما يتطير به حتىٰ يمنعه مما يريد من حاجته، فإنه قد يصيبه ما يَكْرهه.

فأما مَن توكل علىٰ الله، ووثق به، بحيث علق قلبَهُ بالله خوفًا ورجاءً، وقطعه عن الالتفات إلىٰ هذه الأسباب المخوفة، وقال ما أُمِر به من هذه الكلمات ومضىٰ؛ فإنه لا يضره ذلك».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الطيرة بابٌ من الشرك، وإلقاء الشيطان، وتخويفه، ووسوسته، يَكْبُر ويَعْظُم شأنُها علىٰ مَن أَتْبَعَها نفْسه، واشتغل بها، وأكثر العناية بها. وتذهب وتضمحل عمَّن لم يلتفت إليها، ولا ألقىٰ إليها باله، ولا شغل بها نفْسه وفِكْره».

وكان من ضلال الناس في الجاهلية: التشاؤم بالأزمنة، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أما تخصيص الشؤم بزمانٍ دون زمان، كشهرِ صَفَر أو غيره، فغير صحيح، وإنما الزمان كله خَلْقُ الله تعالىٰ، وفيه تقع أفعال بني آدم.

فكلُّ زمانٍ شغله المؤمن بطاعة الله فهو زمانٌ مبارك عليه، وكلُّ زمان شغله العبد بمعصية الله فهو شؤم عليه».

فاشتغال المسلم بما يدفع عنه السوء يكون بالالتجاء إلىٰ مَن بيده الضر والنفع، وبالقيام بالعمل النافع وما توجبه العقيدة الصحيحة من التوكل علىٰ الله والالتجاء إليه.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «أمَرَ النبي ﷺ عند انعقاد أسباب العذاب السماوية المخوفة -كالكسوف- بأعمال البر، من: الصلاة، والدعاء، والصدقة، والعتق؛ حتىٰ يُكشف ذلك عن الناس.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٤٧٢).

(٢) لطائف المعارف ص١٤٩.

(٣) لطائف المعارف ص١٤٣.

وهذا كله مما يدل على أن الأسباب المكروهة إذا وُجدت فإن المشروع الاشتغال بما يُرجىٰ به دفْع العذاب المخوف منها من أعمال الطاعات، والدعاء، وتحقيق التوكل علىٰ الله والثقة به، فإن هذه الأسباب كلها مقتضيات لا موجبات، ولها موانع تمنعها، فأعمال البر والتقوىٰ والدعاء والتوكل من أعظم ما يُستدفع به».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)]: «إن الطيرة علىٰ مَن تطير، ولكن نصبَ اللهُ سبحانه لها أسبابًا يدفع بها موجبها وضررها، من: التوكل عليه، وحسن الظن به، وإعراض قلبه عن الطيرة، وعدم التفاته إليها وخوفه منها، وثقته بالله عَزَّ وَجَلَّ».

وموافقة القَدَر للتطير لا تدل علىٰ أنه سببٌ له، وقد يبتلي اللهُ المتطيِّر بما تطيَّر لسوء ظنه بربه وعدم توكله عليه، فالله هو الذي يُقدِّر المقادير، وقد نفىٰ النبي ﷺ أن تكون الطيرة سببًا للمقادير فقال: «**لا عدوىٰ ولا طيرة**»، وهكذا كسفت الشمس يوم مات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فتحدث الناس أن الشمس كسفت لذلك، فقال النبي ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم شيئًا من ذلك فافزعوا إلىٰ الصلاة**»، متفق عليه.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «وأما قوله ﷺ: «**لا هامة**»، فهو نفيٌ لِما كانت الجاهلية تعتقده أن الميت إذا مات صارت روحه أو عظامه (هامة)، وهو طائر يطير، وهو شبيه باعتقاد أهل التناسخ أن أرواح الموتىٰ تنتقل إلىٰ أجساد حيوانات من غير بعث ولا نشور، وكل هذه اعتقادات باطلة جاء الإسلام بإبطالها وتكذيبها.

ولكن الذي جاءت به الشريعة «**أن أرواح الشهداء في حواصلِ طيرٍ خُضْر تأكل من ثمار الجنة، وترد من أنهار الجنة، إلىٰ أن يردها الله تعالىٰ إلىٰ أجسادها يوم القيامة**».

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٥٦٥).

(٢) لطائف المعارف ص١٤٥، ١٤٦.

ورُوي أيضًا: «إن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتىٰ يرجعها الله إلىٰ أجسادها يوم القيامة»».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ (١): «أما قوله ﷺ: «ولا صفر»، فاختُلف في تفسيره، فقال كثير من المتقدمين: الصفر: داءٌ في البطن، يُقال: إنه دود فيه كبار كالحيات، وكانوا يعتقدون أنه يُعدِي، فنفىٰ ذلك النبي ﷺ. وممن قال هذا من العلماء: ابن عُيَينة، والإمام أحمد، وغيرهما.

ولكن لو كان كذلك لكان هذا داخلًا في قوله: «لا عدوىٰ»، وقد يُقال: هو من عطفِ الخاص علىٰ العام، وخصَّه بالذِّكر لاشتهاره عندهم بالعدوىٰ.

وقالت طائفة: بل المراد بـ (صفر) شهر صفر، ثم اختلفوا في تفسيره، علىٰ قولين:

أحدهما: أن المراد نفي ما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء، فكانوا يُحِلُّون المُحرَّم ويُحرِّمون صفر مكانه، وهذا قول مالك.

والثاني: أن المراد أن أهل الجاهلية كانوا يستشئمون بصفر ويقولون: إنه شهر مشؤوم، فأبطل النبي ﷺ ذلك، وهذا حكاه أبو داود عن محمد بن راشد المكحولي، عمن سمعه يقول ذلك، ولعل هذا القول أشبه الأقوال».

وقال الحافظ ابن رجب أيضًا(٢): «وكذلك تشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة، وقد قيل: إن أصله أن طاعونًا وقع في شوال في سنة من السنين، فمات فيه كثير من العرائس، فتشاءم بذلك أهل الجاهلية.

وقد ورد الشرع بإبطاله، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنىٰ بي في شوال، فأيُّ نسائه كان أَحْظَىٰ عنده مني؟!).

---

(١) لطائف المعارف ص١٤٦، ١٤٧.

(٢) لطائف المعارف ص١٤٧.

وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تستحب أن تُدخِلَ نساءها في شوال، وتزوج النبي ﷺ أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في شوال أيضًا».

وأما قوله ﷺ: «**ولا نوء**»، فهذا نفيٌ لتأثير منازل الكواكب والنجوم في الحوادث الأرضية، فمَنِ اعتقدَ ذلك فقد أشرك شركًا أكبر في الربوبية، فالكواكب والنجوم مخلوقات مُسَيَّرة بأمر الله، لا تَخْلق، ولا تُقدِّر أحوالَ وأفعالَ الخَلق في الأرض.

وفي هذا نهيٌ عن أن يتشاءم الناس بمنازل الكواكب والنجوم.

وقوله ﷺ: «**ولا غول**»، هو إبطال لزعم العرب في الجاهلية تلوُّن الجن والشياطين بالصور المختلفة وإضلالها لهم في الطريق[١].

ومقامات الموحدين في التوكل على الله ومحاذرة الشرك، هو من تحققهم بأن الله وحده الذي ينفع ويضر، وهو وحده الذي يُقدِّر المقادير، فيقومون بعبودية الله، ويسعون في مصالحهم الدنيوية، كل ذلك بحسب ما أَذِن الله في فعله، لا يصدهم عن ذلك رؤية طير، ولا منازل الكواكب، ولا غيره.

قال عكرمة: كنا جلوسًا عند ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فمرَّ طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير، فقال له ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لا خير، ولا شر»[٢].

وخرج طاووس مع صاحبٍ له في سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خير، فقال طاووس: أيُّ خيرٍ عند هذا أو شر؟! لا تُصَاحِبني[٣].

وقال ابن عبد الحكم: لمَّا خرج عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ من المدينة، قال مُزاحِم: فنظرتُ فإذا القمر في الدبران، فكرهتُ أن أقول له، فقلتُ: ألا تنظر إلى

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢/ ٨٧٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢/ ٨٦٧).

(٣) جامع معمر، المطبوع مع مصنف عبدالرزاق (١٠/ ٤٠٦-رقم ١٩٥١٣).

القمر ما أحسن استواءه في هذه الليلة!

قال: فنظر عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإذا هو في الدبران، فقال: كأنكَ أردتَ أنْ تُعْلِمَني أن القمر في الدبران، يا مزاحم، إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر، وَلَكنَّا نخرج بالله الواحد القهار[١].

وأمَّا قول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وما منا إلا»، أراد هجوم وساوس التطير إليه، وأنه لم يتطير لتوكله على الله وتوحيده.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قال ابن مسعود: (وما منا إلا)، يعني: مَن يقارب التطير، (ولكنَّ اللهَ يُذهِبه بالتوكل)».

والطيرة أبطلها النبي ﷺ، واسْتَحَبَّ الفَأْلَ؛ لأنه كَلِمٌ طيِّبٌ، ومن أسباب سرور النفس، بخلاف الطيرة التي هي وساوس الشياطين وتحزن النفوس.

فالفأل الحَسَن والكلمة الطيبة مما يُقوِّي النفوس ويبعث عزائمها على فعل الخيرات، والطيرة مما تحزن النفوس وتثبط الإنسان عن فعل الطاعات وأداء آماله الدنيوية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أخبر ﷺ في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن الفأل من الطيرة، وهو خيرها، فقال: «**لا طيرة، وخَيْرُهاالفأل**».

فأبطل الطيرة، وأخبر أن الفأل منها ولكنه خَيْرُها، ففصل بين الفأل والطيرة لِما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفْع أحدهما ومضرة الآخر.

ونظيرُ هذا منْعُه من الرِّقاء بالشرك وإذنه في الرقية إذا لم تكن شركًا؛ لِما فيها من المنفعة الخالية عن المفسدة».

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٤٨٩، ١٤٩٠).
(٢) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٥٥٤).
(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٥).

فالفُرْقَان بين الطيرة والفأل الحَسَن فائدته عظيمة، فالفأل الحسن تحديثٌ للنفس بما يُوجِب سرورها وانبعاث عزماتها على الطاعات، والتطير يقطع الإنسان عن السعي في مصالحه الدينية والدنيوية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله ﷺ: «**لا طيرة، وخيرها الفأل**»، ينفي عن الفأل مذهب الطيرة من تأثير أو فعل أو شركة، ويخلص الفأل منها.

وفي الفرقان بينهما فائدة كبيرة، وهي: أن التطير هو التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفره وامتنع بها مما عزم عليه؛ فقد قرع باب الشرك، بل وَلَجَه، وبَرِيء من التوكل على الله، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله، والتطير مما يراه أو يسمعه، وذلك قاطِعٌ له عن مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾، ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾، فيصير قلبه متعلقًا بغير الله عبادةً وتوكلًا، فيفسد عليه قلبه وإيمانه وحاله، ويبقى هدفًا لسهام الطيرة، ويُساق إليه من كل أَوْبٍ، ويقيض له الشيطان من ذلك ما يُفسِد عليه دِينه ودنياه.

وكم هلك بذلك وخسر الدنيا والآخرة؟!

فأين هذا من الفأل الصالح السار للقلوب، المؤيد للآمال، الفاتح باب الرجاء، المُسكِّن للخوف، الرابط للجأش، الباعث على الاستعانة بالله، والتوكل عليه، والاستبشار المقوي لأمله السار لنفسه، فهذا ضد الطيرة.

فالفأل يفضي بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد، والطيرة تفضي بصاحبها إلى المعصية والشرك، فلهذا استحب ﷺ الفأل وأبطل الطيرة».

أبطل النبي ﷺ الطيرة وأعجبه الفأل، والسعيد هو مَن لم تستحوذ عليه الوساوس الجالبة للحزن المانعة من كل خير.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٦، ٢٤٧).

عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا عدوىٰ، ولا طيرة، ويعجبني الفأل**»، قالوا: وما الفأل؟ قال: «**الكلمة الطيبة يسمعها أحدكم**».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إن النبي ﷺ كان يعجبه الفأل الحسن فلا ريب في ثبوت ذلك عنه، وقد قرن ذلك بإبطال الطيرة كما في الصحيحين من حديث الزهري عن عبيد بن عبد الله، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا طيرة، وخيرها الفأل**»، قالوا: وما الفأل، يا رسول الله؟ قال: «**الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**».

فابتدأهم النبي ﷺ بإزالة الشبهة وإبطال الطيرة؛ لئلا يتوهموها عليه في إعجابه بالفأل الصالح.

وليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضىٰ الطبيعة وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلىٰ ما يلائمها ويوافقها مما ينفعها».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الفَرْقِ بين الطيرة والفأل(٢): «واللهُ سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن، ومحبته، وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم السلام والفلاح والنجاح والتهنئة والبشرىٰ والفوز والظفر والغنم والربح والطيب ونيل الأمنية والفرح والغَوث والعز والغنىٰ وأمثالها.

فإذا قَرَعت هذه الأسماءُ الأسماعَ استبشرت بها النفسُ، وانشرح لها الصدر، وقوي بها القلب، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال؛ فأحزنها ذلك، وأثار لها خوفًا وطيرة وانكماشًا وانقباضًا عما قصدتْ له وعزمتْ عليه؛ فأورث لها ذلك ضررًا في الدنيا، ونقصًا في الإيمان، ومقارفة للشرك».

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٤).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٤).

وأمَّا قوله ﷺ: «**إن يكن الشؤم ففي ثلاثة: المرأة، والفرس، والدار**»، فإن هذه الثلاثة أعظم الأشياء مُلَازَمة للإنسان.

أمَّا المرأة: فبركتها تسخير الله لها للخير والطاعة، وتيسيرها لأسباب الألفة وحسن العشرة للزوج.

وبركةُ كلِّ شيءٍ صلاحُه فيما خُلق له، وكلُّ مَن كان في ذلك أمكن كان أعظم بركة.

والمسلم يستجلب بركة الزوجة: بسؤال الله ذلك، وبالتفاؤل بذلك، واستصحاب التَّقْوَىٰ في كل الأحوال، وإن كَرِه من زَوْجِه خُلُقًا رَضِي منها آخر.

ومعنىٰ الحديث: أن حُسْن الاختيار لهذه الثلاث من أسباب البركة وانتفاء الشؤم، خصوصًا المرأة، قال النبي ﷺ: «**فاظفر بذات الدِّين تَرِبَتْ يداكَ**»، متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وحُسْن اختيار الدابة فيما أُعدت له من الركوب، والجهاد هو من أسباب بركة الانتفاع بها.

أمَّا الدَّار: فيسكن المسلم حيث يكون السَّكَنُ حَسَنًا، وجِوَاره حسنًا، وعمارته بطاعة الله هو من أسباب بركة الدار.

وقد شكىٰ ناس من المدينة إلىٰ رسول الله ﷺ ما دخل عليهم من النقص في الأموال والأنفس حين سكنوا دارهم، فقال: «**دعوها ذميمة**»، رواه مالك في الموطأ.

قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «هذا -عندي والله أعلم- قاله لقوم خشي عليهم التزام الطيرة، فأجابهم بهذا مُنكِرًا لقولهم».

---

(١) التمهيد (٢٤/ ٦٩).

وحاصِلُ ما دلَّ عليه هذا الباب: هو الحث علىٰ اتخاذ الأسباب المشروعة في جلب المنافع ودفْع المضار، وترك الالتفات إلىٰ ما لا حقيقة له من الوساوس واعتقادات الجاهلية.

عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذُكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «**أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأىٰ أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»، رواه أبو داود، وصحَّحه شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

فالمسلم هو الذي يعتصم بالله، ولا يلتفت إلىٰ ما لا يضر ولا ينفع، ويسأل الله الحسنات ودفع السيئات، فإنه لا حول ولا قوة إلا به.

فالتوكل علىٰ الله يُذهِب الشرك، ولا إله إلا الله.

شـــرْحُ الـمســـائل:

١) **التَّنْبِيهُ عَلَىٰ قَوْلِهِ**: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]، **مَعَ قَوْلِهِ**: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ [يس: ١٩]: فعملُ الإنسانِ هو طائره، فالأعمال الصالحة بركةٌ وفألُ خيرٍ، والسيئات شؤم وخسار.

٢) **نَفْيُ الْعَدْوَىٰ**: فالمرض ليس فاعلًا مُؤَثِّرًا بنفسه، وإنما هو بقضاء الله وقدره.

٣) **نَفْيُ الطِّيَرَةِ**: فلا يتشاءم المسلم بما لا حقيقة له، فالله وحده هو الذي يأتي بالحسنات ويدفع السيئات.

٤) **نَفْيُ الْهَامَةِ**: فروح الميت لا تتناسخ إلىٰ مخلوق آخر.

٥) **نَفْيُ الصَّفَرِ**: التشاؤم بالأزمنة والأمكنة تَطَيُّر لا حقيقةَ له.

٦) **أَنَّ الْفَأْلَ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مُسْتَحَبٌّ**: الفأل ليس من الطيرة، فالفأل الحسن تحديثٌ للنفس بما يُوجِب سرورها، والتطير يقطع الإنسان عن العمل الصالح في دِينه ودنياه.

٧) **تَفْسِيرُ الْفَأْلِ**: وهو تحديث النفس بالخير، وحُسْن الظن بالله.

٨) **أَنَّ الْوَاقِعَ فِي الْقَلْبِ مِنْ ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لَا يَضُرُّ؛ بَلْ يُذْهِبُهُ اللهُ بِالتَّوَكُّلِ**: فالثقة بالله والاطمئنان إلىٰ كفايته تدفع وساوس التطير.

٩) **ذِكْرُ مَا يَقُولُ مَنْ وَجَدَهُ**: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك.

١٠) **التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الطِّيَرَةَ شِرْكٌ**: ودواؤه بضده من التوكل علىٰ الله.

١١) **تَفْسِيرُ الطِّيَرَةِ الْمَذْمُومَةِ**: وهو الخوف من الأوهام، وتعطيل العمل لوساوسَ لا حقيقة لها.

۞ ۞ ۞


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَــابُ الثَّــامِنُ وَالْعِشْــرُونَ

بَــابُ مَا جَـاءَ فِي التَّنْجِـيمِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: «قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَىٰ بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ». انْتَهَىٰ.

◊ وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ. ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا.

◊ وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ.

◊ وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ.

فِيــهِ مَسَــائِلُ:

١) الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ النُّجُومِ.

٢) الرَّدُّ عَلَىٰ مَنْ زَعَمَ غَيْرَ ذَلِكَ.

٣) ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ.

٤) الْوَعِيدُ فِيمَنْ صَدَّقَ بِشَيْءٍ مِنَ السِّحْرِ، وَلَوْ عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ.

الشَّرح

أطلقَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحُكْم في تبويبه لهذا الباب؛ لأن عِلْمَ التنجيم منه ما هو حلال ومنه ما هو حرام.

فالاستدلال بالنجوم علىٰ الجهات هذا من أنواع علم التنجيم الجائز والمشروع، وتعلُّمه فرضٌ لمعرفة جهة القِبلة.

أما اعتقاد أنَّ الأحوال العلوية سببٌ للحوادث الأرضية فهذا شرك، فليست النجوم سببًا للحوادث الأرضية، فهي مخلوقةٌ مربوبةٌ لله، مُسَيَّرة بأمره، ليس لها من أمرها شيء فضلًا عن أن يكون لها تأثير في الأرض، واللهُ وحده خالق السماء والأرض وما فيها من أفعال وأحوال.

فالنافع من علم التنجيم ما أعان علىٰ معرفة الجهات، والاستدلال لجهة القِبلة، وما كان سببًا في الانتفاع من سنة الله الكونية في معرفة أوقات الخِصْب، وأوقات إقبال النهار وإدباره، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

قال الحافظ الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجائز من علم التنجيم(١): «العلم بأسماء الكواكب ومناظرها ومطالعها ومساقطها وسيرها والاهتداء بها.

وانتقال العرب عن مياهها لأوقاتها، وتخيرهم الأزمان لنتاج مواشيها، وضرابهم الفحول، ومعرفتهم بالأمطار علىٰ اختلافها، واستدلالهم علىٰ محمودها ومذمومها، والتوصل إلىٰ جهة القِبلة بالنجوم، ومعرفة مواقيت الصلاة وساعات الليل بظهورها وأُفُولها.

وقد جاء كثيرٌ من ذلك في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وفي الآثار عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن أخيار الصحابة والتابعين ومَن بعدهم من العلماء الخالِفِين».

---

(١) القول في علم النجوم ص١٢٦.

وقال الخطيب البغدادي[1] : «هو العلم الصادق النافع، وبه يكون الاهتداء في ظلمات البر والبحر، والنجاة من حيرة الضلال، فكم من أقوام أشفىٰ بهم ذلك علىٰ الهلاك فأنجاهم الله تعالىٰ بالاستدلال بنجمٍ أَمُّوه[2]، ووجهٍ قصدوه، وبه يُعرف وقت النتاج، ووقتُ تَأْبير النخل، ووقت بيع الثمرة، وإقبال الخير وإدباره، وأمارات الخِصْب والجَدَب، وعلامات السحائب الماطرة، والسحائب المُخْلِفَة، والبروق الصادقة والكاذبة، وبه ينتقلون عن المَحَاضِر إلىٰ المياه، وعن المياه إلىٰ المحاضر».

والاستدلال بمواقع النجوم علىٰ الأحوال الأرضية، وادعاء علم الغيب هو من علوم الصَّابِئَة الكافرين، وليس شيء من ذلك له تأثير في الحوادث الأرضية، فإن الله هو وحده الذي يُقدِّر المقادير، وهو وحده الذي يَعْلم الغيب، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥].

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3] : «التنجيم نوعان: نوع يُسمىٰ علم التأثير؛ وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية علىٰ الحوادث الكونية، فهذا باطل ودعوىٰ لمشاركة الله في علم الغيب الذي انفرد به، أو تصديق لمَن ادَّعىٰ ذلك، وهذا ينافي التوحيد؛ لِمَا فيه من هذه الدعوىٰ الباطلة، ولِمَا فيه من تعلُّق القلب بغير الله، ولِمَا فيه من فساد العقل؛ لأن سلوك الطرق الباطلة وتصديقها من مفسدات العقول والأديان».

فمن علمِ التنجيم المُحرَّم: الاستدلال بالحوادث العُلْوِيَّة علىٰ الحوادث الأرضية، وقد كُسفت الشمس يوم موت إبراهيم ابن النبي ﷺ، فتحدَّث الناسُ أنَّ الشمس كُسفت لموت إبراهيم، فقال النبي ﷺ: «**إنَّ الشمس والقمر آيتان من**

(١) القول في علم النجوم ص١٦١، ١٦٢.

(٢) بمعرفة دلالته علىٰ الجهة.

(٣) القول السديد شرح كتاب التوحيد ص٩٣، ٩٤.

آيات الله لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتم شيئًا من ذلك فافزعوا إلىٰ الصلاة»، متفقٌ عليه.

ومن علمِ التنجيم المحرَّم: نِسبةُ أفعال الله إلىٰ النجوم والأَنْوَاء والكواكب، وهذا شرك في الربوبية، قال النبي ﷺ -فيما يرويه عن ربِّه ﷻ-: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**»، متفقٌ عليه من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

ومن علمِ التنجيم المُحرَّم: الاستغاثة بالنجوم وطلب الفضل منها، وهذا من الشرك الأكبر، فإنَّ الله هو وحده الذي يَخْلق ويرزق، فقد روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**».

ومن التنجيم الباطل والاعتقادات الضالة في رؤية النجوم والكواكب والتكهن بما يقع من الحوادث المستقبلية: اعتقاد بعض العامة وتكهنهم من صفة قوس قزح بما يكون.

قال العَلَّامة مرعي الكرمي الحنبلي رحمه الله[1] : «قَوْس قُزَح من آيات الله، قال ابن حامِد: ودعوىٰ العامة: إن غلبت حمرته كانت الفتن والدماء، وإن غلبت خضرته كان الرخاء والسرور، هذَيَان».

وقد ضل أقوام في شرك الصابئة، وقصدوا النجوم بالعبادة، والاستدلال بمواقعها علىٰ ما يكون من الحوادث في الأرض، تعالىٰ الله عما يشركون.

(١) غاية المنتهىٰ في جمع الإقناع والمنتهىٰ (١/ ٢٥٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١) : «إنَّ من الناس مَن يسجد للشمس وغيرها من الكواكب، ويدعو لها بأنواع الأدعية والتسبيحات، ويلبس لها من اللباس والخواتم ما يظن مناسبته لها، ويتحرىٰ الأوقات والأمكنة والأبخرة المناسبة لها في زعمه.

وهذا من أعظم أسباب الشرك الذي ضل به كثير من الأولين والآخرين، حتىٰ شاع ذلك في كثير ممن ينتسب إلىٰ الإسلام، وصنف فيه بعض المشهورين كتابًا سماه: (السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم)، علىٰ مذهب المشركين والصابئة، والمشركين من العرب وغيرهم».

ابتدأ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ باب ما جاء في التنجيم بأثر قتادة؛ ليُبيِّن ما يجوز من علم التنجيم وما لا يجوز.

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: خلقَ اللهُ هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدىٰ بها، فمَن تأوَّل فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلَّف ما لا علم له به.

وقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فيجب علىٰ الناس معرفة مواقيت عباداتهم كالصوم والحج من خلال معرفة أهلَّة الشهور.

وكذلك يجب علىٰ الناس معرفة مواقيت صلواتهم بمعرفة زوال الشمس وغروبها، قال تعالىٰ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ اختلاف السلف في تعلُّم منازل القمر، ويبدو -والله أعلم- أنَّ الخلاف إذا اعتُبِرت جهاته ظهر الانفكاك في

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص٥١٣.

تحريم أنواعه المحرمة، وإباحة ما يجوز من أنواعه، وبذلك تأتلف أقوال السلف، والله أعلم.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَرِه قتادة تعلُّم منازل القمر، ولم يُرخِّص ابن عيينة فيه، ذَكَرَه حَرْبٌ عنهما.

ورخَّص في تعلُّم المنازل أحمد وإسحاق».

وقال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١) : «روىٰ ابن المنذر عن مجاهد أنه كان لا يرىٰ بأسًا أن يتعلم الرجل منازل القمر، قلتُ: لأنه لا محذور في ذلك.

وعن إبراهيم: أنَّه كان لا يرىٰ بأسًا أن يتعلم الرجل من النجوم ما يُهتدىٰ به، رواه ابن المنذر.

قال ابن رجب: والمأذون في تعلُّمه علم التسيير، لا علم التأثير، فإنه باطلٌ مُحرَّمٌ قليله وكثيره.

وأمَّا علمُ التسيير فيُتعلَّم منه ما يُحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القِبلة، والطرق جائزٌ عند الجمهور، وما زاد عليه لا حاجة إليه لشغله عمَّا هو أهم منه».

وعلم التسيير الجائز من علم التنجيم قسمان، قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢) : «علم التسيير، وهذا ينقسم إلىٰ قسمين:

◊ الأول: أن يُستدل بسيرها علىٰ المصالح الدينية، فهذا مطلوب، وإذا كان يُعِينُ علىٰ مصالح دينية واجبة كان تعلُّمها واجبًا، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم علىٰ جهة القِبلة، فالنجم الفلاني يكون ثلث الليل قبله، والنجم الفلاني يكون ربع الليل قبله، فهذا فيه فائدة عظيمة.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢/ ٩٠٨، ٩٠٩).

(٢) شرح كتاب التوحيد ص٥٨٥، ٥٨٦ المطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ، المجلد التاسع.

◈ الثاني: أن يُستدل بسيرها علىٰ المصالح الدنيوية، فهذا لا بأس به، وهو نوعان:

- النوع الأول: أن يستدل بها علىٰ الجهات، كمعرفة أنَّ القطب يقع شمالًا، والجدي وهو قريبٌ منه يدور حوله شمالًا، وهكذا، فهذا جائز، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

- النوع الثاني: أن يستدل بها علىٰ الفصول، وهو ما يُعرف بتعلم منازل القمر، فهذا كَرِهَه بعضُ السلف، وأباحه آخرون.

والذين كرهوه قالوا: يُخشىٰ إذا قيل طلع النجم الفلاني فهو وقت الشتاء أو الصيف أنَّ بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد أو بالحر أو بالرياح.

والصحيح: عدمُ الكراهة كما سيأتي إن شاء الله».

النجوم والكواكب مواقعها في السماء، وهي بالنسبة للسماء كالقناديل المعلقة فيها، في جنب عظمة السماوات.

وما الأرض والسماوات السَّبْع بالنسبة للعرش إلا كحلقة أُلقيت في أرضٍ فَلاة، وما كل هذه المخلوقات إلا وهو يتصاغر ويخضع لعظمة الله، وإذا أقام الله القيامة أباد الأرض والسماوات والنجوم والشمس والقمر، وخضعت المخلوقات كلها لله، فما أجهلَ من عبدَ مخلوقًا مربوبًا لله!

والشمس التي هي من أعظم المخلوقات تسجد لله في كل يوم، فـ ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

قال النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه حين غربت الشمس: «**أتدري أين تذهب؟**» قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنها تذهب حتىٰ تسجد تحت العرش، فتستأذن فيُؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يُقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيُقال لها: ارجعي من حيث جئتِ، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالىٰ:** ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]»، رواه البخاري.

وقد نهىٰ النبي ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ نهيًا عن مشابهة الكفار الذين يسجدون للشمس، وسدًّا لذريعة الشرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١) : «لأن الكفار يسجدون للشمس حينئذ، فسَدَّ الذريعة، وحسَمَ المادة بألا يُصلَّىٰ في هذه الساعة، وإن كان المصلي لا يصلي إلا لله، ولا يدعو إلا الله».

وسيرُ النجوم والكواكب بأمر الله، وتسخيرها لمنافع الخَلق، كل ذلك دالٌّ علىٰ عظمة الله، وأنَّ كل مخلوق مربوب لله، وليس له حقٌّ في الألوهية، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢) : «يُنبِّه تعالىٰ عباده علىٰ آياته العظام، ومِنَنِه الجِسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السماوات، نورًا وضياءً للمهتدين بها في الظلمات، وكلٌّ منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالىٰ فيه، يسير بحركةٍ مقدَّرةٍ لا يزيد عليها ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢] أي: لَدلالات علىٰ قدرته تعالىٰ الباهرة، وسلطانه العظيم، لقومٍ يعقلون عن الله، ويفهمون حُجَجه».

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص٥١٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٢٨).

وكل هذا دالٌّ علىٰ سفاهة عقول المشركين الذين عبدوا مخلوقات الله، تعالىٰ الله عما يشركون.

قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١) : «نزَّه نفسه عن شركِ مَن عُبِد معه غيره من الأصنام التي لا تَخلق شيئًا وهم يُخلَقون، فكيف ناسب أن يُعبد معه غيره، وهو المستقل بالخَلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يُعبد وحده لا شريك له».

فالموحدون شهدوا ربوبية الله في خَلقه، في خَلقِ السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، فعبدوه وحده.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢) : «إنه كما تفرَّد بربوبية المشرق والمغرب وحده فكذلك يجب أن يُفرَد بالربوبية والتوكل عليه وحده.

فليس للمشرق والمغرب ربٌّ سواه، فكذلك ينبغي ألا يُتَّخذ إلهٌ ولا وكيلٌ سواه؛ ولذلك قال موسىٰ لفرعون حين سأله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، فقال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤].

وفي ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب تنبيهٌ علىٰ ربوبيته السماوات وما حوته من الشمس والقمر والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين، وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه».

وفي محاجَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للنمرود والصابئة أقوىٰ البرهان علىٰ بطلان إلهية مَن هو مربوبٌ لله، يُسيِّره كيف شاء في طلوعه وأُفُوله.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٢٤).

(٢) التبيان في أيمان القرآن ص٢٨٩، ٢٩٠.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١) : «تضمن الدليلان اللَّذان استدل بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جملة بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية، لا في حال حياته ولا بعد موته، فإنَّ له ربًّا قادرًا قاهرًا متصرفًا فيه أحياه وأماته، ومَن كان كذلك فكيف يكون إلهًا حتىٰ يُتخذ الصنم علىٰ صورته ويُعبد من دونه؟!

وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحِس هذه الشمس، وهي مربوبةٌ مدبَّرةٌ مُسخَّرةٌ لا تصرُّف لها في نفسها بوجهٍ ما؛ بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيئته، فهي مربوبةٌ مسخرةٌ مدبَّرةٌ، لا إلهًا يُعبد من دون الله».

ونظرُ إبراهيمَ في السماء وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] لم يكن استدلالًا بالنجوم علىٰ صحته ومرضه -حاشاه وهو سيد الحنفاء-، وإنما كان من معاريض الكلام للاعتذار عن مشاركة المشركين في عيدهم؛ لينفرد بتكسير أصنامهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(٢) : «إنما كانت النظرة التي نظرها في النجوم من معاريض الأفعال، كما كان قوله: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله عن امرأته سارة: (هذه أختي) من معاريض المقال؛ ليتوصل بها إلىٰ غرضه من كسر الأصنام، كما توصل بتعريضه بقوله: (هذه أختي) إلىٰ خلاصها من يد الفاجر.

ولمَّا غَلُظ فهْمُ هذا علىٰ كثير من الناس وكَثُفَتْ طباعهم عن إدراكه ظنوا أن نظره في النجوم ليستنبط منها عِلْمَ الأحكام، وعَلِم أنَّ نَجْمَه وطَالِعَه يقضي عليه بالسقم، وحاشا الله أن يُظنَّ ذلك بخليله ﷺ أو بأحدٍ من أتباعه».

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٤٠١).

(٢) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٣٨٣).

وشركُ الصابئة كان في تعظيم النجوم وعبادتها، والحنفاء يعبدون الله وحده، ويميلون عن عبادة النجوم وتعظيمها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١) : «أقوىٰ السببين في الشرك الواقع في العالم وهو الشرك بالنجوم وتعظيمها، واعتقاد أنها أحياء ناطقة، ولها روحانيات تتنزل علىٰ عابديها ومخاطبيها، فصوَّروا لها الصور الأرضية، ثم جعلوا عبادتها وتعظيمها ذريعة إلىٰ عبادة تلك الكواكب واستنزال روحانياتها.

وكانت الشياطين تتنزل عليهم وتخاطبهم وتكلمهم وتريهم من العجائب ما يدعوهم إلىٰ بذل نفوسهم وأولادهم وأموالهم لتلك الأجسام والتقرب إليها.

وكان مبدأ هذا الشرك تعظيم الكواكب، وظنُّ السُّعُود والنُّحوس وحصول الخير والشر في العالم منها، وهذا شركُ خَوَاصِّ المشركين، وأرباب النظر منهم، وهو شركُ قومِ إبراهيم».

وختمَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بذكر وعيد المُنجِّم، فذكر حديث أبي موسىٰ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدقٌ بالسحر**»، رواه أحمد وصحَّحه ابن حبان.

ومدمن الخمر ليس بكافر؛ لأن النبي ﷺ قال فيمن كان كذلك من الصحابة: «**إنه يحب الله ورسوله**»، وقاطع الرحم ليس بكافر، فهذان الصنفان لا يدخلون الجنة دخول أَوَّليًّا لا يسبقه عذاب إنْ لم تتداركهم أسباب المغفرة والتوبة.

أما (مصدقٌ بالسحر) فمناسبة هذا الحديث للباب ذِكْرُ وعيدِ عِلم التنجيم المُحرَّم، وقد قال النبي ﷺ: «**مَن اقتبس شعبةً من النجوم فقد اقتبس شعبةً من السحر، زاد ما زاد**».

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٣٨٠).

فمَن كان تنجيمه مُحرَّمًا بتعلم السحر واستعماله وتحضير الشياطين، واستدعاء روحانيات الكواكب إلىٰ الهياكل التي صنعها المنجمون، فهؤلاء كفار مشركون، لا يدخلون الجنة أبدًا، ليسوا كعصاة المؤمنين.

فالتنجيم بتعلم السحر والعمل به كفرٌ، قال الموفق أبو محمد المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١) : «قال أصحابنا: ويكفر بتعلم السحر، والعمل به، لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فدلَّ هذا علىٰ أنه يكفر بتعلمه».

فالمنجمون عبدة النجوم والشياطين شِرْكُهم وكُفْرُهم جمَعَ أنواعًا من الضلال المخرج من الملة: عبادة النجوم، وطاعة الشياطين التي يستدعونها، والشياطين لا تُعِين إلا مَن يشرك بالله، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١٠٠]، واستعمالهم للسحر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢) : «هؤلاء يجمعون بين الجبت الذي هو السحر، والشرك الذي هو عبادة الطاغوت، كما يجمعون بين السحر ودعوة الكواكب، وهذا مما يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام -بل ودِين جميع الرسل- أنه شركٌ مُحرَّم؛ بل هذا من أعظم أنواع الشرك الذي بُعثت الرسل بالنهي عنه، ومخاطبة إبراهيم الخليل ﷺ لقومه كانت في نحو هذا الشرك».

(١) الكافي في فقه الإمام أحمد ص٨٤٧.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص٥١٤.

شــرْحُ المســائل:

١) **الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ النُّجُومِ**: زينةً للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدىٰ بها.

٢) **الرَّدُّ عَلَىٰ مَنْ زَعَمَ غَيْرَ ذَلِكَ**: من مشركي الصابئة عبدة الكواكب.

٣) **ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلَ**: علم التسيير جائز، ومنه ما هو واجب لمعرفة جهة القِبلة، ومواقيت الصيام والحج.

٤) **الْوَعِيدُ فِيمَنْ صَدَّقَ بِشَيْءٍ مِنْ السِّحْرِ، وَلَوْ عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ**: فالواجب الكفر بالطاغوت وعلوم الشياطين.

۞ ۞ ۞

الْبَــابُ التَّــاسِعُ وَالْعِشْــرُونَ

بَــابُ مَا جَــاءَ فِي الِاسْتِسْــقَاءِ بِالْأَنْــوَاءِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◈ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

◈ وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**».

◈ وَقَالَ: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا؛ تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

◈ وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّىٰ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ، عَلَىٰ إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**».

◈ وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مَعْنَاهُ، وَفِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥ – ٨٢].

فِيْـهِ مَسَـائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ الْوَاقِعَةِ.

٢) ذِكْرُ الْأَرْبَعِ الَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ.

٣) ذِكْرُ الْكُفْرِ فِي بَعْضِهَا.

٤) أَنَّ مِنَ الْكُفْرِ مَا لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ.

٥) قَوْلُهُ: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ**»؛ بِسَبَبِ نُزُولِ النِّعْمَةِ.

٦) التَّفَطُّنُ لِلْإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

٧) التَّفَطُّنُ لِلْكُفْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

٨) التَّفَطُّنُ لِقَوْلِهِ: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءَ كَذَا وَكَذَا».

٩) إِخْرَاجُ الْعَالِمِ لِلْمُتَعَلِّمِ الْمَسْأَلَةَ بِالِاسْتِفْهَامِ عَنْهَا؛ لِقَوْلِهِ: «**أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**».

١٠) وَعِيدُ النَّائِحَةِ.

الشَّرْح

هذا الباب في توحيد الربوبية، وهو توحيد الله بأفعاله، ذكر فيه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ التحذير من نسبة أفعال الله إلىٰ غيره.

وحذَّر فيه شيخ الإسلام من الاستسقاء بالنجوم، فالذي يُرسِل الرياح ويغيث البلاد والعباد هو الله وحده.

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه، وإنما السبب: عناية المولىٰ، ورحمته،

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص٩٦).

وحاجة العِباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال، فيُنزِل عليهم الغَيث بحِكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم».

استفتح شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ البابَ بقوله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]؛ للتحذير من جعْلِ الكفر والشرك موضع الشكر والتوحيد، وذلك بنسبة النِّعم إلىٰ غير خالقها ومُسْدِيها.

ومَن نسبَ نِعَم الله إلىٰ غيره فهو كافر، وهذا ما بيَّنه شيخ الإسلام مستدلًا بحديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: صلىٰ لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، علىٰ إثر سماء كانت من الليل، فلمَّا انصرف أقبلَ علىٰ الناس، فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما مَن قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأمَّا مَن قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»، متفق عليه.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، قراءة لعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ).

قال الحافظ عبد الرزاق الرَّسْعَني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «فالمعنىٰ: وتجعلون شُكْرَ رِزقكم ونعمة الله عليكم بالقرآن، التكذيب.

والذي عليه ابنُ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وجمهور المُفسِّرين: أنّ هذه الآيات نزلت في الأنواء ونسبتهم السقيا إليها، وأنّ المراد بالرزق: المطر، علىٰ معنىٰ: وتجعلون شُكْرَ ما يرزقكم الله من المطر أنكم تُكذِّبون بكونه من الله تعالىٰ، حيث تنسبونه إلىٰ النجوم».

والاستسقاء بالأنواء متضمن للشرك بالربوبية والألوهية، ففيه نسبةُ أفعال الله إلىٰ غيره، فالله وحده هو الذي يُرسِل الرياح وينزل الغيث، وتعليق الرجاء والرغبة

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٧/ ٦٢٠).

والقصد بالأنواء شركٌ في الألوهية، وإذا تضمن الاستسقاء بالأنواء دعاءها كان هذا الشرك مُغلَّظًا؛ لتضمنه أنواعًا من الشرك.

قال شيخنا العلامة المجدد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الاستسقاء بالأنواء ينقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر، وله صورتان:

الأولىٰ: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نوء كذا! اسقنا أو أغثنا، وما أشبه ذلك، فهذا شرك أكبر؛ لأنه دعا غير الله، ودعاء غير الله من الشرك الأكبر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة علىٰ النهي عن دعاء غير الله، وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلىٰ هذه الأنواء علىٰ أنها هي الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يَدْعُها، فهذا شرك أكبر في الربوبية، والأول في العبادة؛ لأن الدعاء من العبادة، وهو متضمن للشرك في الربوبية؛ لأنه لا يَدْعُها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضي الحاجة.

القسم الثاني: شركٌ أصغر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سببًا مع اعتقاده أن الله هو الخالق الفاعل؛ لأنّ كلَّ مَن جعل سببًا لم يجعله الله سببًا لا بوحيه ولا بِقَدَرِه، فهو مشرك شركًا أصغر».

والمُوحِّدون شهدوا افتقار المخلوقين جميعًا إلىٰ ربهم، وغَوْثه، فهو الذي ينزل الغيث، ويرحم البلاد والعباد، ويجعل سقياه رحمةً لا عذابًا، وهذا الذي جعل قلوب الموحدين تتأله لله رغبةً ورجاءً، بالاستسقاء به وحده.

---

(١) شرح كتاب التوحيد (ص٥٩٧، ٥٩٨)، المطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ، المجلد العاشر.

وهذا الذي أوجب للمسلمين شُكْر الله علىٰ نعمه، ومن جملتها المطر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وكان من شُكْرِ الموحدين نسبة المطر إلىٰ الله، فلم ينسبوه إلىٰ الأنواء.

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «النظر إلىٰ فقر المخلوقات كلها، واضطرارها إلىٰ ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طَرْفة عين، خصوصًا ما تشاهده في نفسك من أدلة الافتقار وقوة الاضطرار.

وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلىٰ الله في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه. ويوجب له قوة التوكل علىٰ ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه، وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوي التعبد، فإن الدعاء مخ العبادة وخالصها.

وكذلك التفكر في كثرة نِعَمِ الله وآلائه العامة والخاصة التي لا يخلو منها مخلوقٌ طَرْفة عين، فإنّ هذا يدعو إلىٰ الإيمان.

ولهذا دعا اللهُ الرسولَ ﷺ والمؤمنين إلىٰ شُكْرِه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فالإيمان يدعو إلىٰ الشكر، والشكر ينمو به الإيمان، فكل منهما ملازم وملزوم للآخر».

والمسلم يَحْذَر من اعتقادِ وقولِ وعملِ المشرك، فلا يقول لنزول المطر: صدقَ نوء كذا وكذا، فالأنواء -منازل القمر- مخلوقة مربوبة لله تجري بأمره، لا تأثير لها في نزول المطر، فالذي يرسل الرياح وينشئ السحاب وينزل المطر هو الله.

والمؤمنون الموحدون شهدوا توحيد الله في خَلقِ السحاب، وإرسال الرياح، وإنزال الغيث، وإنبات الزرع، وإخراج الثمرات، وسقيا الناس والبهائم،

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٧٩ – ٨١).

وأوجب ذلك لهم عبوديته وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

وشهود المؤمنين هذا التوحيد جعلهم شاكرين لله وحده، علىٰ نعمه، فنسبوها إليه اعتقادًا وعلمًا ومعرفة، ولهجوا بشكره بألسنتهم، وقاموا بحق شكرها بعبودية الله وحده.

ورؤية نعمة الله في أسباب رزق عباده؛ أوجَبَ للموحدين توحيد الله في أفعاله، وشُكْره بعبوديته وحده، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [لقمان: ١٠، ١١].

فنسبةُ أفعالِ الله وأنعامه إلىٰ غيره شركٌ وظلمٌ عظيم.

وفي قول النبي ﷺ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**»، تحذير من اعتقادات وأعمال الجاهلية، ولشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُصنَّف خاص في ذلك.

والاستسقاء بالنُّجوم جهلٌ وجاهلية، فالشرك منشؤه القول علىٰ الله بغير علم، والمسلم يبني اعتقاده علىٰ العلم الصحيح الدال علىٰ التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

والنياحة إن وقعت جزعًا بسبب قلة الصبر وضعف العقل، فهو من كبائر الذنوب، وإن وقعت اعتراضًا علىٰ القَدَر فهو كفرٌ.

وفي قول النبي ﷺ: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تُقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جَرَبٍ**» تحذير من الوعيد الشديد في النياحة، وحثٌّ على التوبة منها.

وسربال القطران: ثيابٌ تزيد في إحاطة النار واشتعاله بالبدن، عافانا الله.

والفخر بالأحساب والطعن في الأنساب من أخلاق الجاهلية، والمسلم يهتدي بالقرآن والسُّنة فتتزكى أخلاقه، ويكف أذاه عن الخَلق، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عز وجل قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ**»، رواه أبو داود والترمذي، وحسَّنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «أضاف العُبِّيَّة والفخر إلى الجاهلية يَذُمّها بذلك».

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْوَاقِعَةِ**: يَحْذَر المسلم أن يجعل موضع شُكْرِه لله كفرًا به بنسبة إنعامه إلى غيره.

٢) **ذِكْرُ الْأَرْبَعِ الَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ**: الاستسقاء بالنجوم، والنياحة، والفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب.

٣) **ذِكْرُ الْكُفْرِ فِي بَعْضِهَا**: الاستسقاء بالنجوم، والنياحة إذا كان كفرًا بالقَدَر.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٥١).

٤) **أَنَّ مِنَ الْكُفْرِ مَا لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ**: هو بعض أنواع الكفر العملي.

٥) **قَوْلُهُ**: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ**»؛ **بِسَبَبِ نُزُولِ النِّعْمَةِ**: فالمؤمن ينسب النعم إلىٰ الله ويُؤدِّي حقَّها؛ شكرًا لله، والكافر ينسبها لغير الله.

٦) **التَّفَطُّنُ لِلْإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ**: وهو توحيد الله بأفعاله.

٧) **التَّفَطُّنُ لِلْكُفْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ**: وهو نسبة أفعال الله لغيره.

٨) **التَّفَطُّنُ لِقَوْلِهِ**: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءَ كَذَا وَكَذَا»: هذا من اعتقاد الجاهلية الشركي، فالأنواء مخلوقة مربوبة تجري بأمر الله، لا تأثير لها في نزول المطر، فالذي يرسل الرياح وينشئ السحاب وينزل المطر هو الله.

٩) **إِخْرَاجُ الْعَالِمِ لِلْمُتَعَلِّمِ الْمَسْأَلَةَ بِالِاسْتِفْهَامِ عَنْهَا؛ لِقَوْلِهِ**: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»: فالسؤالات والأجوبة من أنفعِ طُرُق التعليم، فإنها تسترعي انتباه المتعلم، وتجعل ذهنه حاضرًا لتلقي المعلومة.

١٠) **وَعِيدُ النَّائِحَةِ**: تكون ثيابها من قطران؛ فيزاد اشتعالها بالنار.

۞ ۞ ۞

الْبَــابُ الثَّــلَاثُــونَ

بَــابٌ: قَــوْلُ اللهِ تَعَــالَىٰ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾

[البقرة: ١٦٥].

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**». أَخْرَجَاهُ.

- وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ؛ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

- وَفِي رِوَايَةٍ: «**لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّىٰ ..**» إِلَىٰ آخِرِهِ.

- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللهِ، وَوَالَىٰ فِي اللهِ، وَعَادَىٰ فِي اللهِ؛ فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ -وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ- حَتَّىٰ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَىٰ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لا يُجْدِي عَلَىٰ أَهْلِهِ شَيْئًا**». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

◈ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، قَالَ: «الْمَوَدَّةُ».

فِيْـهِ مَسَـائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ.

٢) تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَة.

٣) وُجُوبُ مَحَبَّتِهِ ﷺ عَلَىٰ النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ.

٤) أَنَّ نَفْيَ الْإِيمَانِ لَا يَدُلُّ عَلَىٰ الْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلَامِ.

٥) أَنَّ لِلْإِيمَانِ حَلَاوَةٌ قَدْ يَجِدُهَا الْإِنْسَانُ، وَقَدْ لَا يَجِدُهَا.

٦) أَعْمَالُ الْقَلْبِ الْأَرْبَعِ الَّتِي لَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ إِلَّا بِهَا، وَلَا يَجِدُ أَحَدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِهَا.

٧) فَهْمُ الصَّحَابِيِّ لِلْوَاقِعِ أَنَّ عَامَّةَ الْمُؤَاخَاةِ عَلَىٰ أَمْرِ الدُّنْيَا.

٨) تَفْسِيرُ ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

٩) أَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يُحِبُّ اللهَ حُبًّا شَدِيدًا.

١٠) الْوَعِيدُ عَلَىٰ مَنْ كَانَتِ الثَّمَانِيَةُ عِنْدَهُ أَحَبَّ مِنْ دِينِهِ.

١١) أَنَّ مَنِ اتَّخَذَ نِدًّا تُسَاوِي مَحَبَّتُهُ مَحَبَّةَ اللهِ؛ فَهُوَ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ.

الشَّرح

حبُّ الله ﷻ هو الأساس في عبوديته والتأله له، والله ﷻ وحده الذي يُحبُّ لذاته؛ لكمال نعوته، ولإحسانه إلىٰ خَلقه.

ومحبَّة الله ﷻ ورسوله ﷺ هي الأصل والأساس الذي يتحقَّق به الإيمان، فهي عِلمٌ وعملٌ واعتقادُ القلب الموجب لعمل الجوارح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «محبَّة الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله ﷺ من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله، وأجَلِّ قواعده، بل هي أصلُ كلِّ عمل من أعمال الإيمان والدِّين، كما أنَّ التَّصديق به أصل كلِّ قولٍ من أقوال الإيمان والدِّين».

وقال شيخ الإسلام[٢]: «جميع الأعمال الإيمانيَّة الدِّينيَّة لا تصدر إلَّا عن محبَّة الله تعالىٰ».

وذلك لأنَّ المحبة هي الباعث للطاعة، وهي المحرِّك للإرادة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعْلَ المحبوبات، فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات».

وقال العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «أصلُ التوحيد وروحه: إخلاص المحبَّة لله وحده، وهي أصل التألُّه والتعبُّد له، بل هي حقيقة العبادة، ولا يتم التوحيد حتىٰ تكُمل محبة العبد لربه، وتسبق محبته جميع المحابّ وتغلبها، ويكون لها الحكم بحيث تكون سائر محابّ العبد تبعًا لهذه المحبَّة التي بها سعادةُ العبدِ وفلاحُه».

وقال شيخنا العلامة محمد العيثمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: «أصلُ الأعمال كلها هو المحبة، فالإنسان لا يعمل إلا لما يحب؛ إما لجلب منفعة، أو لدفع مضرة».

ومحبةُ الله تألُّهٌ له، وعبودية، وطاعة، وخضوع له، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

(١) التُّحفة العراقية في الأعمال القلبيَّة (ص٣٧٣).

(٢) التُّحفة العراقية في الأعمال القلبيَّة (ص٣٧٣).

(٣) العبودية (ص٩٥).

(٤) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص٩٨).

(٥) شرح كتاب التوحيد (ص٦٢٣)، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ المجلد العاشر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العبادة المأمور بها تتضمن معنىٰ الذل ومعنىٰ الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالىٰ، بغاية المحبة له».

وعبودية الله هي تألُّه له محبَّةً، وتعظيمًا، وإجلالًا، وخوفًا، ورغبةً، ورهبةً، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الإله هو: الذي يَأْلَهُه القلب بكمال الحب، والتعظيم، والإجلال، والإكرام، والخوف، والرجاء».

وقال شيخ الإسلام[3]: «كلما ازداد القلب حبًّا لله، ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية، ازداد له حبًّا وفضَّله عما سواه.

والقلب فقير بالذات إلىٰ الله من وجهين:

- من جهة العبادة، وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلة.

فالقلب لا يَصْلح، ولا يُفْلِح، ولا يَنْعم، ولا يُسَر، ولا يَلْتذ، ولا يَطِيب، ولا يَسْكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه».

وتحقيق التوحيد يكون بإخلاص المحبة لله عَزَّ وَجَلَّ، فيقصد المسلم ربه، لا يلتفت إلىٰ غيره، ويحب المرء لا يحبه إلا لله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «إخلاص الحب لله، بحيث يكون الله هو غاية مراده، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنّما يحبه لأَجْلِه، لا يُحِبُّ شيئًا لذاته إلا الله.

ومتىٰ لم يحصل له هذا، لم يكن قد حقَّق حقيقة: (لا إله إلا الله)، ولا حقَّق التوحيد والعبودية والمحبة لله، وكان فيه من نقصِ التوحيد والإيمان، بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك».

---

(١) العبودية (ص٤٨).

(٢) العبودية (ص٥٣).

(٣) العبودية (ص٩٧).

(٤) العبودية (ص٩٧، ٩٨).

ومحبة الله ﷻ تكون بالتألُّه له وعبوديته وحده، وإجلاله وتعظيمه، ومناجاته ودعاؤه وذِكره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «حبُّ الله تعالىٰ هو الكمال المطلوب من معرفته، وهو من تمام عبادته، فإنَّ العبادة متضمِّنة لكمال الحبِّ مع كمال الذلِّ، وهذا حقيقة دِين إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إمام الحنفاء، الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

والأمَّة هو الذي يُؤْتمُّ به، كما أنَّ القدوة هو الذي يُقتدىٰ به، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

وإبراهيم الخليل هو الذي عادىٰ هؤلاء؛ كالنمرود وغيره.

فنَفْسُ عبادةِ الله وحده ومحبَّته وتعظيمه، هو من أعظم كمال النفْسِ وسعادتها، لا أنَّ سعادتها في مجرد العلم الخالي عن حبٍّ وعبادةٍ وتألُّه».

ومحبة الله ﷻ هي تألُّهٌ له بإخلاص، وإيثار مراضيه علىٰ ما يُسخِط الخَلق، وموالاةٌ فيه، ومعاداةٌ فيه، وإقبالٌ عليه، والتفاتٌ عمَّا سواه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الذي يَحْصُل لأهل الإيمان عند تجريدِ توحيدِ قلوبِهم إلىٰ الله وإقبالهم عليه دون ما سواه، بحيث يكونون حنفاء له، مخلصين له الدِّين، لا يحبُّون شيئًا إلَّا له، ولا يتوكَّلون إلا عليه، ولا يوالون إلا فيه، ولا يعادون إلا له، ولا يسألون إلا إيَّاه، ولا يرجون إلا إيَّاه، ولا يخافون إلا إيَّاه، يعبدونه ويستعينون له وبه، بحيث يكونون عند الحق بلا خَلْق، وعند الخَلْق بلا هَوىٰ، قد فَنِيَتْ عنهم إرادة ما سواه بإرادته، ومحبَّة ما سواه بمحبَّته، وخوْف ما سواه بخوفه، ورجاء ما سواه برجائه، ودعاء ما سواه بدعائه، وهو أمرٌ لا يَعْرِفُه

(١) الصفدية (٢/ ٢٣٤).
(٢) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٦٤٧، ٦٤٨).

بالذوق والوَجْد إلَّا مَن له نصيبٌ.

وما من مؤمن إلا له منه نصيب، وهذا هو حقيقة الإسلام الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب، وهو قُطْبُ القرآن الذي تدور عليه رَحَاه».

ومحبة الله ﷻ ترجع إلىٰ اتباع رسول الله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١]، وكلُّ الأوصاف المترتبة علىٰ حبِّ الله إنما ترجع إلىٰ هذا المعنىٰ الكلِّي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «اتباع سنَّة رسوله ﷺ وشريعته باطنًا وظاهرًا هي موجب محبَّة الله، كما أنَّ الجهاد في سبيله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه هو حقيقتها، كما في الحديث: «**أوثق عُرَىٰ الإيمان: الحبُّ في الله، والبغض في الله**».

والمخالفة لشرع الله هو من التأله لهَوىٰ النفس، قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «المُخالِف لِمَا بعثَ اللهُ ﷻ به رسوله ﷺ من عبادته وحده، وطاعته وطاعة رسوله، لا يكون مُتَّبِعًا لِدِينٍ شرعه اللهُ أبدًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩]، بل يكون متبعًا لـ ﴿هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، قال تعالىٰ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورىٰ: ٢١]».

---

(١) التحفة العراقيَّة في الأعمال القلبيَّة (ص٤٤٦).

(٢) العبودية (ص٦٩).

ومحبَّة الله تُدرك بطاعته في أداء فرائضه والنَّوافل، فقد روىٰ البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**قال الله تعالىٰ: ما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتىٰ أحبَّه**».

واللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُحبُّ عِبادَه المؤمنين لتوحيدهم وعبوديتهم له، ويحبُّه عبادُه المؤمنون إجلالًا وتعظيمًا وتألُّهًا له، قال تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «المحبَّة لا تنفكُّ عن تعظيمٍ وإجلالٍ للمحبوب، ولكن يُضاف إلىٰ كلِّ ذات بحسب ما تقتضيه خصائص تلك الذَّات، فمحبَّة العبد لربِّه تستلزم إجلاله وتعظيمه، وكذلك محبَّة الرسول ﷺ تستلزم توقيره، وتعزيزه، وإجلاله.

وكذلك محبَّة الوالدين، والعلماء، وملوك العدل.

وأمَّا محبَّة الربِّ عبده فإنَّها تستلزم إعزازه لعبده، وإكرامه إيَّاه، والتنويه بذِكْره، وإلقاء التعظيم والمهابة له في قلوب أوليائه، فهذا المعنىٰ ثابت في محبَّته وحمده لعبده، سُمِّي تعظيمًا وإجلالًا، أو لم يُسَمَّ».

ومحبةُ اللهِ تنشأ من معرفته، فمَن عرَفَ أسماء الله وكمال نعوته وصفاته واعتقدَ حقائقها؛ أَخْلَصَ تألُّهَهُ للهِ محبةً وتعظيمًا، ولم يشرك مع الله أحدًا في ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ولحبهم لله، وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم، وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئًا، بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويَلْجَؤون في جميع أمورهم إليه».

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٥٣٧، ٥٣٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٩٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قال تعالىٰ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فبيَّن سبحانه أنّ المشركين بربهم الذين يتخذون من دون الله أندادًا، وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله، فالذين آمنوا أشد حبًّا لله منهم لله ولأوثانهم؛ لأن المؤمنين أعلم بالله، والحب يتبع العلم، ولأنّ المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده، وأولئك جعلوا بعض حبهم لغيره وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب».

ابتدأ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ ليبيِّن أنَّ أساسَ التوحيدِ إنّما هو في تأله القلوب محبةً لله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «المحبَّة هي: أصلُ عقْدِ الإيمان الذي لا يدخل فيه الداخل إلَّا بها، ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلَّا بها، فليشتغل بها العبد أو ليُعرض عنها.

ومَن لم يتحقَّق بها علمًا وحالًا وعملًا لم يتحقَّق بشهادة أن لا إله إلا الله، فإنّها سرُّها وحقيقتها ومعناها، وإن أبىٰ ذلك الجاحدون، وقَصُر عن عِلْمه الجاهلون.

فإنَّ الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبِّها، وتخضع له، وتذلُّ له، وتخافه، وترجوه، وتنيب إليه في شدائدها، وتَدْعُوه في مهمَّاتها، وتتوكَّل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه، وتطمئنُّ بذِكره، وتَسْكُن إلىٰ حبِّه، وليس ذلك إلَّا لله وحده، ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونِقْمَتِه، فهذه المسألة قطبُ رَحَىٰ الدِّين الذي عليه مداره».

ومتىٰ تحقَّق القلبُ بمحبة الله تألُّهًا وعبودية، صارت إراداته في مراضي الله، وموالاته فيه، وأهواؤه تبعًا لِمَا يحبه الله وما شرعه.

---

(١) التفسير (١/ ٣٩٤).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٣٢٠).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ تحقُّقَ القلبِ بمعنىٰ (لا إله إلا الله)، وصِدْقه فيها، وإخلاصه بها، يقتضي أن يُرَسِّخَ فيه تَأَلُّهَ الله وحده، إجلالًا، وهيبةً، ومخافةً، ومحبَّةً، ورجاءً، وتعظيمًا، وتوكُّلًا، ويمتلئ بذلك، وينتفي عنه تألُّه ما سواه من المخلوقين.

ومتىٰ كان كذلك، لم يَبْقَ فيه محبَّة، ولا إرادة، ولا طَلَبٌ لغير ما يريدُ اللهُ ويحبُّه ويطلبه، وينتفي بذلك من القلب جميع أهواء النفوس وإراداتها، ووساوس الشيطان، فمَن أحبَّ شيئًا وأطاعه، وأحبَّ عليه وأبغض عليه؛ فهو إلهُهُ.

فمَن كان لا يحبُّ ولا يبغضُ إلا لله، ولا يُوالي ولا يُعادي إلا له، فاللهُ إلهُهُ حقًّا، ومَن أحبَّ لهواه، وأبغض له، ووالىٰ عليه، وعادىٰ عليه، فإلهه هواه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، قال الحسن: هو الذي لا يَهْوَىٰ شيئًا إلا رَكِبَهُ، وقال قتادة: هو الذي كلما هَوَىٰ شيئًا ركبه، وكلما اشتهىٰ شيئًا أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورعٌ ولا تقوىٰ».

والعبودية لله وحده إنّما هي عن محبة له.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ ما شَرَعه سبحانه وأمَرَ به يُحِبُّهُ ويرضاه، وما نَهَىٰ عنه فإنَّه يَكْرَهه وَيُبْغِضُهُ؛ لمنافاته لما يحبّه ويرضاه، فهو يحب ضِدَّهُ، فعَادَ دِينه الأَمْرِيُّ كلّه إلىٰ محبته ورضاه.

ودِينُ العبدِ لله به إنّما يُقْبَلُ إذا كان عن محبةٍ ورِضَا، كما قال النبيُّ ﷺ: **«ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا»**.

فهذا الدِّينُ قائمٌ بالمحبَّة، وبسببها شُرِع، ولأجلها شُرِع، وعليها أُسِّس».

والنفس لها أهواء مذمومة، وإرادات تخالف محبَّة الله والإخلاص له، فالواجب علىٰ المسلم حفْظُ قَلْبِهِ من كلِّ ما يضاد محبَّة الله وينافي الإخلاص له،

(١) جامع العلوم والحكم (ص٣٩٦).
(٢) الجواب الكافي (ص٤٧٩).

وتنقيته من شوائب الشرك والأهواء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «كثيرًا ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يُفْسِدُ عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها له، وإخلاص دِينها له، كما قال شدَّاد بن أَوْس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا نعايا العرب! يا نعايا العرب! إنّ أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية.

وقيل لأبي داود السجستاني: وما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة.

وعن كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال «**ما ذئبان جائعان أُرسلا في زريبةِ غنمٍ بأفسد لها من حرْصِ المرء علىٰ المالِ والشَّرف لِدِينه**»، قال الترمذي: حديث حسنٌ صحيح.

فبيَّن صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ الحرص علىٰ المال والشرف في إفساد الدين، لا ينقص عن إفساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، يدل علىٰ أنّ حُبَّ غير الله تألُّهًا وعبوديةً شركٌ وتنديد، ومَن فيه التفاتٌ إلىٰ غير الله، فيه من الشرك بحسب التفاته إلىٰ مَن دون الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «متىٰ كان يُحِبُّ غير الله لذاته، أو يلتفت إلىٰ غير الله أنّه يُعِينُه، كان عبدًا لِمَا أحبَّه، وعبدًا لما رجاه، بحسب حبه له ورجائه إياه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «أصل الأعمال الدينية حب الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أنّ أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله.

---

(١) العبودية (ص١٢٢، ١٢٣).

(٢) العبودية (ص٩٨).

(٣) الجواب الكافي (ص٤٥٥).

وكلّ إرادة تمنع كمال الحبّ لله ورسوله وتزاحم هذه المحبة، أو شبهة تمنع كمال التصديق، فهي معارضة لأصل الإيمان أو مُضعِفة له. فإنْ قويت حتىٰ عارضت أصل الحبّ والتصديق كانت كفرًا وشركًا أكبر، وإن لم تعارضه قدحتْ في كماله، وأثّرت فيه ضعفًا وفُتُورًا في العزيمة والطلب، وهي تَحْجُبُ الواصِلَ، وَتَقْطَعُ الطالب، وَتُنكِّسُ الراغب».

وقال شيخنا العلامة محمد العيثمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «محبة العبادة، هي التي توجب التذلل والتعظيم، وأن يقوم بقلب الإنسان من إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضي أن يمتثل أمره ويجتنب نهيه، وهذه خاصة بالله، فمَن أحبَّ مع الله غيره محبة عبادة، فهو مشرك شركًا أكبر».

وتضمن قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، التحذير من أن يكون الحب الطبيعي المأذون فيه للآباء والذرية والزوجات والأموال صادًّا عن حب الله وطاعته وأداء عبوديته وواجباته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «المحبة الطبيعية، وهي ميل الإنسان إلىٰ ما يُلَائِمُ طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد، فتلك لا تُذَمّ إلا إذا ألهَتْ عن ذِكر الله وشغلتْ عن محبته، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]».

---

(١) شرح كتاب التوحيد (ص٦٢٣)، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ المجلد العاشر.
(٢) الجواب الكافي (ص٤٤٤).

وشهوات النفس ودواعيها ووساوس الشيطان إذا استولت علىٰ القلب أضعفت محبَّة الله، وأوقعته في مخالفة أمر الله ونهيه.

وعلاج ذلك بتزكية القلب من دَغَلِ الإرادات المذمومة، وتنميته بالإخلاص لله ومحبته والإنابة إليه، وإيثار مراضيه علَىٰ معاصيه، حتىٰ يكون الله أحبَّ إليه ممَّا سواه.

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وذلك يقتضي تعظيم أمره ونهيه، واتباعه في ذلك دون مَن سواه، ومَن كان كذلك فقد أحب الله، كما في آية المحبة».

وقد جعلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عبوديتَهُ سببَ زكاءِ النفوس، وتوحيدَه -بإخلاص الإقبال عليه والالتفات عمَّا سواه- موجبًا لأن يكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أحبَّ إلىٰ النفوس مما سواه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «امتحنَ -اللهُ- العبادَ بمجاهدة أنفسهم علىٰ الصبر وإيثار ما عنده، وشرع لهم من أوراد وعبادات في ليلهم ونهارهم، ما يستعينون به علىٰ محاربة داعي النفس والشيطان، من الصلوات الخمس وتوابعها من الصيام، والحج، والجهاد الظاهر والباطن».

وحديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجدَ بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحِبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله، وأنْ يَكْرَه أن يَعُودَ في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يَكْره أن يُقذف في النار**»، ذَكرَه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ليبيِّن أنّه إذا كان القلب سليمًا ممتلئًا من محبَّة الله وتعظيمه وإجلاله لم يُقدِّم هواه علىٰ طاعة الله، ولم يُؤْثِر ما يُسْخِط الله علىٰ مراضيه.

(١) قُرَّة عيون الموحدين (ص١٦٥).
(٢) الكلام علىٰ مسألة السماع (ص١٥٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنّ القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له، لم يكن شيءٌ أحبَّ إليه من ذلك حتىٰ يُقدِّمَه عليه، وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشاء، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فإنّ المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه من محبة غيره؛ إذ ليس عن القلب السليم أحلىٰ ولا ألذَّ ولا أطيب ولا أسَرَّ ولا أنْعَمَ من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له، وإخلاصه الدِّين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلىٰ الله، فيصير القلب منيبًا إلىٰ الله، خائفًا منه، راغبًا راهبًا، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]؛ إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه، أو حصول مرغوبه، فلا يكون عبدًا لله ومُحِبَّه إلا بين خوفٍ ورجاء، كما قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وإذا كان العبد مخلصًا لله، اجتباه ربه، فأحيا قلبه واجتذبه إليه، فيصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء».

وبالاستدلال بآية التوبة وحديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أراد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان ما تستلزمه محبة الله ورسوله من الطاعة لهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «مَن كان مُحِبًّا لله لزم أن يتبع الرسول، فيصدِّقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسىٰ به فيما فعل، ومَن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله؛ فيحبه الله.

---

(١) العبودية (ص١٢٣، ١٢٤).

(٢) العبودية (ص٩٤، ٩٥).

وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله، وذلك لأنّ الجهاد حقيقة الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفْعِ ما يبغضه الله من (الكفر والفسوق والعصيان)، وقد قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤]، فتوعَّد مَن كان أهلُه ومالُه أحبَّ إليه من اللهِ ورسولِه والجهادِ في سبيله، بهذا الوعيد.

بل قد ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنّه قال: «**والذي نَفْسِي بيده، لا يُؤْمِن أحدُكم حتىٰ أكونَ أحبَّ إليه من وَلَدِه ووالده والناس أجمعين**».

ومحبة الله ﷻ تتأسس علىٰ طاعته والموالاة فيه، ودفع ضد ذلك، وهذا الذي نبّه عليه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فيكون الله ورسوله أحب للمؤمن مما سواهما، وأن يُحب المرء لله، وأن يكره الكفر كما يكره أن يلقىٰ في النار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «حلاوة الإيمان المتضمِّنة من اللذة والفرح ما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الإيمان، تتبع كمال محبَّة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفريعها، ودفع ضدِّها.

فـ (تكميلها) أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، فإنّ محبَّة الله ورسوله لا يُكتفىٰ فيها بأصل الحبِّ، بل لابدَّ أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، كما تقدَّم.

و(تفريعها) أن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلَّا لله.

و(دفع ضدِّها) أن يكره ضدَّ الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٠٥، ٢٠٦).

والموالاة في التوحيد والبراءة من الشرك هو أساس الإيمان بالله، وهو حنيفية التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤].

قال العَلَّامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ أصل الأصول كلِّها الذي يترتَّب عليه إعقاد الأرحام ووَشَائِج الأنساب، وغير ذلك.

فإذا عُدِم أصلُ الأصول الذي يُوصل الأرحام بفرع ينتمي إليه، لم يكن لذلك الفرع مادَّة من الحقِّ تصله، ولا أسٌّ يبتني ذلك الفرع عليه، وهذا فهو مشيرٌ إلىٰ ألَّا يَوادَّ مشركًا ولا كافرًا، وإن كان ذا نسَبٍ منه؛ بُنُوَّة، أو أُخُوَّة، أو رَحِمٍ قريبةٍ؛ إذ نسَبُ إبراهيمَ من آزَرَ أقرب في صلة الأنساب، ومع ذلك لم يَعْتَدَّ بذلك شيئًا.

وفيه أيضًا تنبيهٌ علىٰ أنَّ ذا الرحم إذا كان فاسقًا، فإنَّه يتعيَّن أن يشاه المؤمن، وإن كان يشيه علىٰ مقدار فِسْقِه، كما أنَّه يتعيَّن أن يودَّ الرجل بصلاحه وإن كان لا نسب بينه وبينه».

فتوحيدُ اللهِ يستلزم موالاته وموالاة المؤمنين به الموحِّدين له، ويستلزم البراءة من الشرك والمشركين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «بيَّن سبحانه أنَّ الإيمان له لوازم وله أضداد موجودة تستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء أضداده، ومن أضداده: مُوادَّة مَن حادَّ الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٣٢٢).
(٢) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٥٢٠).

وبيَّن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع نصوص هذا الباب من آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ وأثر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عقيدة الولاء والبراء في الله، وأنّها مُؤسَّسة علىٰ الحب في الله والبغض في الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(1): «أَمَرَنا اللهُ أن نتأسَّىٰ بإبراهيم والذين معه؛ إذ تبرَّؤوا من المشركين وممَّا يعبدونه من دون الله، وقال الخليل: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

والبراءةُ ضدُّ الولاية، وأصلُ البراءة البغض، وأصل الولاية الحبُّ، وهذا لأنّ حقيقة التوحيد ألَّا يُحَبَّ إلَّا الله، ويُحِبّ ما يحبُّه اللهُ لله، فلا يحبُّ إلا لله، ولا يُبغِض إلا لله، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]».

ومجموع النصوص التي ذكرها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب تدل علىٰ أنواع المحبة.

قال العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(2): «اعلم أنَّ أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التي هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المحبة في الله، وهي محبَّة أنبياء الله ورسله وأتباعهم، ومحبة ما يحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرهم، وهذه تابعة لمحبَّة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله، وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر وحجر وبشر ومَلَكٍ، وغيرها، وهي أصل الشرك وأساسه.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٤٦٥).

(٢) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص٩٩).

وهنا قِسمٌ رابع: وهو المحبة الطبيعية التي تتبع ما يلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونكاح ولباس وعشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة، فإنْ أعانت علىٰ محبة الله وطاعته دخلت في باب العبادات، وإنْ صدَّت عن ذلك وتُوسِّلَ بها إلىٰ ما لا يحبه الله دخلَتْ في المنهيات، وإلَّا بقيت من أقسام المباحات».

وفي خاتمة الباب ذَكرَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنّه قال: «قد صارت عامة مؤاخاة الناس علىٰ أمر الدنيا، وذلك لا يجدي علىٰ أهله شيئًا»؛ حثًّا للناس علىٰ بناء مؤاخاتهم علىٰ ما يجدي في الدنيا والآخرة وهو المؤاخاة لله، فما كان لله فهو عبادة، وهو إخوةُ دِينٍ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وما كان لله فهو الموافق لشرع الله، الذي كله خير.

والموالاة للدنيا أو لحَمِيّة، أو عَصَبِيّة، أو جَاهِلِيّة، يَمْقُتها اللهُ، ولا يبارِك فيها، وتكون شرًّا علىٰ المتوالين لغير الله، وتكون أعمالهم عليهم إثمًا وَوِزْرًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنّ أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يحبُّ النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخلصًا لله، وأبو طالب عمُّه كان يحبُّه وينصره لهواه، لا لله، فتقبّل اللهُ عمَلَ أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأنزل فيه ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧ - ٢١]، وأمَّا أبو طالب فلم يتقبَّل الله عمله، بل أدخله النار؛ لأنَّه كان مشركًا عاملًا لغير الله.

وأبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم يطلب أجْرَه وجزاءه من الخَلق، لا من النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا من غيره، بل آمَنَ به، وأحبَّه، وكَلأه، وأعانه بنفسه وماله متقرِّبًا بذلك إلىٰ الله، وطالبًا الأجر من الله».

فأثرُ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا تذكير بالإخوة الإيمانية، وتحذير من الإخوة الدنيوية.

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ١٠٤، ١٠٥).

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنّ المؤاخاة علىٰ أمر الدنيا لا يُجْدي علىٰ أهله شيئًا، أي: لا ينفعهم أصْلًا بل يَضُرُّهُمْ، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

فهذا حالُ كلِّ خُلَّةٍ ومحبَّة كانت في الدنيا علىٰ غير طاعة الله، فإنَّها تَعُود عداوةً وندامةً يوم القيامة، بخلاف المحبَّةِ والخُلَّةِ علىٰ طاعة الله، فإنّها من أعظم القُربات، كما جاء في حديث السَّبْعةِ الذين يُظلُّهم اللهُ في ظلِّه يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ، قال النبي ﷺ: «**ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا علىٰ ذلك، وتفرَّقا عليه**»».

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، قال: المودَّة.

قال العَلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ أي: الوصلات في الدنيا من القرابات والصداقات».

فكلُّ الصِّلات والأسباب والمَوَدَّات والمحبة إذا كانت في غير الله، ولم تكن لله عادت وَبَالًا وخَسَارًا وحسرةً عليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «كل ما أُحِبَّ لغير الله فمحبته فاسدة، وما عُظِّمَ بغير أمْرِ الله؛ فتعظيمه باطل».

ومع اعتياد الشرك ضلَّ المشركون في عبادة غير الله، وتعبدوا بحب الأنداد، كما فعل اليهود الذين اتخذوا إلهًا من عجلٍ صنعوه من حُليٍّ سرقوه من القبط، قال تعالىٰ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٢/ ٩٦٥).
(٢) تفسير القرآن (١/ ١٦٥).
(٣) العبودية (ص٤٩).

وغلاة المشركين صاروا مُبْغِضِين لله، مُحِبِّين ما اتخذوه ندًّا لله، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥]، وهؤلاء لا شكَّ أنَّ شركهم أغلظ من أصحاب المحبة الشركية، الذين أَشْرَكُوا في حبهم مع الله أندادهم.

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ:** الموحدون أخلصوا محبَّتهم لله، والمشركون أحبوا الأنداد مع الله.

٢) **تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَة:** وعيدُ مَن آثَر محبَّة غير الله عليه.

٣) **وُجُوبُ مَحَبَّتِهِ ﷺ عَلَىٰ النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ:** لنفي الإيمان عمن لم يكن كذلك.

٤) **أَنَّ نَفْيَ الْإِيمَانِ لا يَدُلُّ عَلَىٰ الْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلَامِ:** إذا لم يكن نفيًا لأصل الإيمان.

٥) **أَنَّ لِلْإِيمَانِ حَلَاوَةٌ قَدْ يَجِدُهَا الْإِنْسَانُ، وَقَدْ لا يَجِدُهَا:** حلاوة الإيمان استلذاذ عبودية الله وطاعته، ومَن قرَّت عينُه بالله فذلك الذي وجد حلاوة الإيمان.

٦) **أَعْمَالُ الْقَلْبِ الْأَرْبَعِ الَّتِي لا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ إِلَّا بِهَا، وَلا يَجِدُ أَحَدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِهَا:** الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله.

٧) **فَهْمُ الصَّحَابِيِّ لِلْوَاقِعِ أَنَّ عَامَّةَ الْمُؤَاخَاةِ عَلَىٰ أَمْرِ الدُّنْيَا:** المقصود من فقهِ الواقع مناصحة المسلمين في أسباب صلاحه.

٨) **تَفْسِيرُ** ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦]: أي تقطعت بهم يوم القيامة موادتهم في غير الله.

٩) **أَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يُحِبُّ اللهَ حُبًّا شَدِيدًا:** حبُّ الموحدين أَخْلَصُ وأشدُّ؛ لأنّه لا شركة فيه لأحدٍ مع الله.

١٠) **الْوَعِيدُ عَلَىٰ مَنْ كَانَتِ الثَّمَانِيَةُ عِنْدَهُ أَحَبَّ مِنْ دِينِهِ**: فلا تشغلك المحبة الطبيعية للوالدين والذرية والأموال عن عبودية الله، بل اجعلها عَوْنًا علىٰ طاعته.

١١) **أَنَّ مَنِ اتَّخَذَ نِدًّا تُسَاوِي مَحَبَّتُهُ مَحَبَّةَ اللهِ؛ فَهُوَ الشِّرْكُ الأَكْبَرُ**: فالتألُّه حُبًّا وانقيادًا إنّما يكون لله وحده.

۞ ۞ ۞


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَــابُ الْحَــادِي وَالثَّــلَاثُــونَ

بَــابٌ: قَــوْلُ اللهِ تَعَــالَى:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

[آل عمران: ١٧٥].

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨].

◊ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

◊ وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَىٰ رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَىٰ مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ**».

◊ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَىٰ عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ؛ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ.

فِيْهِ مَسَائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ.

٢) تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَة.

٣) تَفْسِيرُ آيَةِ الْعَنْكَبُوتِ.

٤) أَنَّ الْيَقِينَ يَضْعُفُ وَيَقْوَىٰ.

٥) عَلَامَةُ ضَعْفِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الثَّلَاثُ.

٦) أَنَّ إِخْلَاصَ الْخَوْفِ للهِ مِنَ الْفَرَائِضِ.

٧) ذِكْرُ ثَوَابِ مَنْ فَعَلَهُ.

٨) ذِكْرُ عِقَابِ مَنْ تَرَكَهُ.

الشَّرْح

الخوف من الله في الدنيا هو الطريق الموصل إلىٰ الأمن التام في الدنيا والبَرْزَخ وعرَصَات يوم القيامة، ومجاوزة الصراط حتىٰ دخول الجنة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «كان الخوف في الدنيا أنفع لهم، فبه وصلوا إلىٰ الأمن التام، فإنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يجمع علىٰ عبده مخافتين ولا أَمْنَيْن، فمَن خافه في الدنيا أَمَّنَه يوم القيامة، ومَنْ أَمَّنَه في الدنيا ولم يُخِفْه، أخافه في الآخرة، وناهيك شرفًا وفضلًا بمقامٍ ثمرتُه الأمن الدائم المطلق».

والمؤمنون نعتهم الإيمان بالله وخشيته والكفر بما يُعبد من دونه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٥٩].

---

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٣٥، ٦٣٦).

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في صفة عبادة الموحدِّين: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لا يُمْكِن لأحدٍ قط أن يَصِلَ ما أَمَرَ اللهُ بوصله إلا بخشيته، ومتىٰ ترحَّلت الخشية من القلب انقطعت هذه الوُصَلُ».

وقال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الخوف من أفضل مقامات الدِّين وأجلِّها، فلذلك نبَّه المُصنِّف علىٰ وجوب إخلاصه لله تعالىٰ.

وقد ذَكَرَه اللهُ تعالىٰ في كتابه عن سادات المُقرَّبين من الملائكة والأنبياء والصالحين، قال الله تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وأَمَرَ بإخلاصه له، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢]».

وخشية الله تنشأ من العِلم به، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): « الخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، فهي خوفٌ مقرون بمعرفة، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية**»».

---

(١) عُدَّة الصابرين وذخيرة الشَّاكرين (ص٥٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص٤٨٣، ٤٨٤).

(٣) مدارج السالكين (ص٣١٧).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن معرفة الشيء المحبوب، تقتضي حُبَّهُ، ومعرفة المُعظَّم تقتضي تعظيمَهُ، ومعرفة المُخَوَّف تقتضي خوفَهُ، فَنَفْسُ العِلم، والتصديق بالله، وما له من الأسماء الحسنىٰ، والصفات العُلَىٰ، تُوجِب محبَّةَ القلب له وتعظيمه وخشيته، وذلك يوجب إرادة طاعته، وكراهة معصيته».

وخوفُ التألُّه لا يكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ وحده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أما العبادة وما يناسبها من التوكل والخوف ونحو ذلك، فلا تكون إلا لله وحده، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «الإله هو: الذي يَأْلَهُهُ القلب بكمال الحب، والتعظيم، والإجلال، والإكرام، والخوف، والرجاء».

فخوفُ التألُّه عبودية القلب، وصَرْفُها لغير الله شركٌ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «الخوف عبودية القلب، فلا تصلح إلا لله وحده؛ كالذلِّ، والمحبة، والإنابة، والتوكل، والرجاء، وغيرها من عبودية القلب».

والتأله لله عَزَّوَجَلَّ يكون محبةً له، وخوفًا، ورجاءً.

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن عبدَ اللهَ بالحب وحده فهو زنديق، ومَن عبدَ الله بالخوف وحده فهو حَرُورِيٌّ، ومَن عبدَ الله بالرجاء وحده فهو مُرْجِئٌ، ومَن عبدَ الله بالحب والخوف والرجاء فهو مُؤْمِن».

---

(١) شرح حديث جبريل (ص٤٠٧).

(٢) العبودية (ص٤٩).

(٣) العبودية (ص٥٣).

(٤) طريق الهجرتين (ص٣٢٦).

وسادات الأولياء والأتقياء من الأنبياء كانوا يعبدون الله حُبًّا وخوفًا ورجاءً، قال تعالىٰ في وصف عبوديتهم له: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإنّ الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه.

والخائف يَفِرُّ من الخوف لينال المحبوب، قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]».

ابتدأ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ ليبيِّن أن الخوف من الله توحيدٌ، وأنَّ خَوْفَ مَن دونه تألُّهًا شركٌ وتنديد.

ومن أعظم ما يكيد الشيطان عباد الله المؤمنين تخويفهم؛ ليثبطهم عن كل خيرٍ، وطاعةٍ، وأمْرٍ بمعروف، ونهيٍ عن مُنكَرٍ، وجهادٍ في سبيل الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «هذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله تعالىٰ سبحانه عنه بهذا، فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

والمعنىٰ عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه، قال قتادة: (يعظمهم في صدوركم)، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوفُ أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٦١، ٦٢).
(٢) بدائع التفسير (١/ ٢٥٧، ٢٥٨).

ومَن كان من أولياء الله ألقىٰ الله في قلبه الثبات والطمأنينة لتوحيده، وجعل الخوف والرعب في قلب عدوِّه المشرك، قال تعالىٰ: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنه يُؤيِّد حزْبَه بجندٍ من الرعب ينتصرون به علىٰ أعدائهم، وذلك الرعب بسبب ما في قلوبهم من الشرك بالله، وعلىٰ قدر الشرك يكون الرعب.

فالمشرك بالله أشدُّ شيء خوفًا ورعبًا، والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بالشرك، لهم الأمن والهُدىٰ والفلاح، والمشرك له الخوف والضلال والشقاء».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، دليل علىٰ أن الخوف من الله من حقائق التوحيد والإيمان بالله.

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أمرَ تعالىٰ بإخلاص هذا الخوف له، وأخبر أنَّ ذلك شرطٌ في الإيمان، فمَن لمْ يأتِ به لمْ يأتِ بالإيمان الواجب، ففيه أنّ إخلاص الخوف لله من الفرائض».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «يُفهم من الآية أنّ الخوف من الشيطان وأوليائه منافٍ للإيمان، فإن كان الخوف يؤدي إلىٰ الشرك فهو منافٍ لأصله، وإلا فهو منافٍ لكماله».

والخوف من الله متضمن رجاءه وحبه، وكلُّ أَحَدٍ إذا خِفْتَهُ فررتَ منه، إلا الله، فإنك إذا خفته آوَيْتَ إليه؛ لأنه يفرح بإنابة خَلقِه إليه، فيفر الموحدون إليه لطمأنينتهم لعفوه ورحمته.

---

(١) بدائع التفسير (١/ ٢٤٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٢/ ٩٧٥).

(٣) شرح كتاب التوحيد (ص٦٥١)، المطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ، المجلد العاشر.

فالخوفُ متضمن للرجاء، والحب لله هو من أسباب اعتدال أحوال الخَلق أجمعين، فلا يقنط الخَلقُ بالخوف، ولا يجرِّئهم الرجاء وحده على محارم الله، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الخشية أبدًا متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطًا، كما أنّ الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله».

وذَكرَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نصوص هذا الباب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، ليبيِّن أن خشية الله تستلزم رجاءه، والتوكل عليه، وعبوديته بإقامة شرائع وأركان الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «بيَّنَ أنَّ عُمَّارَ المساجد هم الذين لا يخشون إلا الله، ومَن لم يَخْشَ إلا الله فلا يرجو ويتوكل إلا عليه، فإنّ الرجاء والخوف متلازمان».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، دالٌّ على أنّ الإيمان بالله يستلزم الإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، دالٌّ على أن حقيقة الإيمان بالله تستلزم الإتيان بشُعَبِ الإيمان التي من آكدها الصلاة.

---

(١) الإيمان الكبير (ص١٧٤).
(٢) تفسير شيخ الإسلام (٣/ ٣٢٧).

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أخبر تعالىٰ أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشية دون مَن سواه، فلا تكون المساجد عامرةً إلا بالإيمان الذي معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع».

وذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نصوص هذا الباب قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، ليبيِّن أن الابتلاء من ضرورة التكليف في الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فلا يجزع المؤمن لذلك، ويصبر علىٰ الإيمان بالله، فيُصبِّره الله ويُثبِّته، ويحفظ عليه دِينه، قال النبي ﷺ: «**ومَن يتصبَّر يُصبِّره الله**»، رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «اللهُ حكيمٌ يمتحن عباده بما يتبين به تحقق الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمد: ٣١]».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «الفتنة كِيرُ القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

فالفتنة قسَّمت الناس إلىٰ صادقٍ وكاذب، ومُؤْمِنٍ ومنافق، وطيبٍ وخبيث،

---

(١) قرة عيون الموحدين (ص١٦٨).
(٢) شرح كتاب التوحيد (ص٦٥٥)، المطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ، المجلد العاشر.
(٣) إغاثة اللهفان (٢/ ٨٨٣).

فمَن صبر عليها كانت رحمةً في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومَن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠]، فُرْقانٌ وبيانٌ لحال المؤمنين من المنافقين في الابتلاءات والشدائد.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هؤلاء إذا أُوذوا في الله ارتدوا علىٰ أدبارهم، ووافقوا مَن آذاهم، ولكنهم إذا أصاب المؤمنين نصرٌ قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ يعني: فنريد أن يحصل لنا ما حصل لكم من الغنيمة، قال الله تعالىٰ ردًّا عليهم: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، الجواب: بلىٰ».

والمسلم إذا عَلِم سُنَّة اللهِ في خَلقِه، وفَرْق ما بين الحياة الدنيا والآخرة، كان هذا عونًا له علىٰ الصبر علىٰ طاعة الله، وعن نهيه، والصبر علىٰ أقداره، فيكون بذلك عبدًا شكورًا ممن يُورِثهم اللهُ الجنة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «من رحمته سبحانه بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمةً وحِمْيةً، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغني الحميد، ولا بخلًا منه عليهم بما نهاهم عنه، فهو الجَوَادُ الكريم.

ومن رحمته: أن نَغّص عليهم الدنيا وكدَّرها؛ لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلىٰ ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم.

(١) تفسير سورة العنكبوت (ص٤٥).
(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٠٣).

ومن رحمته بهم: أن حذَّرهم نَفْسَه؛ لئلا يغتروا به، ويعاملوه بما لا تَحْسُنُ معاملته به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، قال غير واحد من السلف: من رأفته بالعباد: حذَّرهم من نفسه؛ لئلا يغتروا به».

وأفادنا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن خشية الله واليقين بكفايته تجعل المسلم مطيعًا لله ﷻ، مُعْرِضًا عن طاعة المخلوقين في معصية الله، حيث ساق في هذا الباب حديث أبي سعيد مرفوعًا: «**إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَىٰ رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَىٰ مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ**».

فالواجب علىٰ المسلم: طاعة الله، ونصرة الحق، واستشعار مَعِيَّة الله، فإن الله ينصر مَن ينصره، ويجعل في قلبه أسباب الثبات علىٰ الحق، من الطمأنينة بذِكره والثقة بكفايته.

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «من دواعي الصبر: الثقة بالله وبوعده، فإن الله وعد الصابرين العون والنصر، وأنه معهم في كل أحوالهم، ومَن كان الله معه فلوِ اجتمعَ عليه مَن بأقطارها لم يخف إلا الله.

ومما يُعِين علىٰ الصبر والثبات: الأمر الثاني: وهو التوكل علىٰ الله، وقوة الاعتماد عليه، والتضرع إليه في طلب النصر، والإكثار من ذِكره، كما قال تعالىٰ هنا حيث رتَّب علىٰ هذا الفلاحَ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]».

فاليقين أصلُ الإيمان، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «اليقين الإيمان كله»، فمَن قَوِيَ يقينُه بالله أخلص أعماله له، وآثَرَ مرضاته، وتوكل عليه.

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (ص١١١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «اليقين يتضمن القيام بأمر الله تعالىٰ وما وعَدَ الله به أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخَلقِه وتدبيره. فإذا أرضيتهم -المخلوقين- بسخط الله ولم تكن موقنًا لا بوعده ولا برزقه فإنه إنّما يحمل الإنسان علىٰ ذلك إمَّا ميلٌ إلىٰ ما في أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإمَّا ضعفُ تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيتَ اللهَ نصرك ورزقك وكفاك مؤنتهم، وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفًا منهم ورجاءً لهم، وذلك من ضعف اليقين.

وأما إذا لم يُقدِّر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمر في ذلك إلىٰ الله، لا لهم، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «متىٰ وصل اليقين إلىٰ القلب، امتلأ نورًا وإشراقًا وانتفىٰ عنه كلُّ رَيْبٍ وشكٍّ، وسَخَطٍ، وهمٍّ وغمٍّ، فامتلأ محبةً لله، وخوفًا منه، ورضًا به، وشكرًا له، وتوكلًا عليه، وإنابةً إليه، فهو مادة جميع المقامات».

وحثَّ الناصحون للإسلام علىٰ تنمية اليقين في نفوس المسلمين؛ ليحققوا توحيدهم.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «من علامات صدق الإيمان أن لا يخشىٰ إلا الله في كل ما يقول ويفعل.

ومَن أراد أن يصحح هذا المسير، فليتأمل قول الرسول ﷺ: «**واعلمْ أنَّ الأمَّة لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»».

---

(١) بواسطة: قرة عيون الموحدين (ص١٧١).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١١٨، ١١٩).

(٣) شرح كتاب التوحيد (ص٦٥٣)، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ، المجلد العاشر.

ومنزلة اليقين في تحقق المسلم بكلمة التوحيد عند مفارقة الدنيا هي من أسباب دخوله الجنة، قال النبيُّ ﷺ: «**مَن كان آخر كلامه: «لا إله إلا الله»، دخل الجنة**»، رواه أبو داود.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادةٌ من عبدٍ مُوقِن بها، عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلَّت بعد عِزِّها، وخرج منها حرصها علىٰ الدنيا وفضولها، واستخذت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت له وأرجىٰ ما كانت لعفوه، ومغفرته، ورحمته، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همُّها علىٰ مَن أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجَّه العبدُ وجهه بكليته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمِّه عليه، فاستسلم له وحده ظاهرًا وباطنًا، واستوىٰ سرُّه وعلانيته، فقال: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه، وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلىٰ ما سواه، قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم علىٰ ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة، فصارت نُصْبَ عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره.

فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهَّرته من ذنوبه، وأدخلته علىٰ ربه؛ لأنه لقي ربه بشهادةٍ صادقة خالصة، وافق ظاهِرُها باطِنَها وسِرُّها علانيتها».

والدِّين مراتبه: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وتفاضُل المسلمين في هذه المراتب بحسب يقينهم بـ «لا إله إلا الله» وتحققهم بها، وكان رسول الله ﷺ سيِّد المؤمنين يقينًا وتحققًا بتوحيد الله، فقال عن نفسه: «**أَمَا واللهِ، إني أخشاكم لله وأتقاكم له**».

---

(١) الفوائد (ص٧٧، ٧٨).

وكان الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيِّد الأمَّة بعد نبيها ﷺ، قال الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو وُزِن إيمانُ أبي بكر بالأمَّة، لرجح به»، رواه إسحاق في مسنده.

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أراد المعنىٰ القائم بقلبه، من قوة إيمانه وصفاء بصيرته، وتحقيقه في تصديقه».

والمسلمون كلهم يؤمنون بالله ويرجون جنته ويخافون ناره، وهم متفاوتون في العمل بما يُدخِلهم الجنة ويباعدهم من النار بحسب يقينهم وإيمانهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «الإيمان الحقيقي هو الذي يحمل صاحبه علىٰ فعل ما ينفعه، وترك ما يضره، فإذا لم يفعل هذا، ولم يترك هذا، لم يكن إيمانه علىٰ الحقيقة، وإنما معه من الإيمان بحسب ذلك.

فإن المؤمن بالنار -حقيقة الإيمان حتىٰ كأنه يراها-: لا يسلك طريقها الموصلة إليها، فضلًا عن أن يسعىٰ فيها بجهده.

والمؤمن بالجنة -حقيقة الإيمان-: لا تطاوعه نفسه أن يقعد عن طلبها، وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه فيما يسعىٰ فيه في الدنيا من المنافع، أو التخلص من المضار».

ورضا الناس بسخط الله من أعظم أسبابه الطمع في الجاه والمال، وقد صار ذلك سببًا لإلحاد بعض الدعوات الحزبية حتىٰ صار شعار دعوتهم وثورتهم: «الحرية قبل الشريعة!»، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

والواجب علىٰ المسلم الانحياز إلىٰ الله، وإيثار مرضاته علىٰ سخطه بمرضاة الناس، والصبر علىٰ ذلك من عزم الأمور.

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٣١٤).
(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٨٤٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إذا كان الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله ﷺ في جانب، فاحذر أن تكون من الجانب الآخر، فإنّ ذلك يفضي إلىٰ المشاقة والمحادة، وهذا أصلها ومنه اشتقاقها، فإن المشاقة أن يكون في شقٍّ ومَن يخالفه في شقٍّ، والمحادة أن يكون في حدٍّ وهو في حدٍّ. ولا تستسهل هذا، فإن مبادئه تجر إلىٰ غايته، وقليله يدعو إلىٰ كثيره!

وكُنْ في الجانب الذي فيه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ورسولُه ﷺ، وإنْ كان الناسُ كلُّهم في الجانب الآخر، فإنَّ لذلك عواقِب هي أحمدُ العواقب وأفضلها، وليس للعبد أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته».

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في خاتمة الباب ما يبيِّن عاقبة خشية الله، وتقديم مراضيه علىٰ إرادات المخلوقين، لتطمئن نفوس الموحدين إلىٰ ولاية الله، ويزدادوا إيمانًا ويقينًا وثقةً بحسن العاقبة في عبودية الله، فذكر حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَىٰ عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ؛ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»، رواه ابن حبان في صحيحه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «علينا أن نخاف الله، فلا نخاف أحدًا إلا الله، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١].

فعلينا أن نخاف الله ونتقيه في الناس، فلا نظلمهم بقلوبنا ولا جوارحنا، ونؤدي إليهم حُقُوقَهُم بقلوبنا وجوارحنا، ولا نخافهم في الله فنترك ما أمر الله به ورسوله خيفةً منهم.

---

(١) الفوائد (ص١٦٧).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٢٣٣).

ومَن لَزِمَ هذه الطريقة كانت العاقبة له، كما كتبت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلىٰ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أمَّا بعدُ: فَإِنَّهُ مَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ وَعَادَ حَامِدُهُ مِنْ النَّاسِ ذَامًّا، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَىٰ عَنْهُ النَّاسَ).

فالمؤمن لا تكون فِكْرَتُهُ وقصده إلا رضا ربه، واجتناب سخطه، والعاقبة له، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وبيان حُسْن العاقبة في تحقيق التوحيد من أوضح ما يكون من منهج سيد الحنفاء في الدعوة إلىٰ الله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وبِسَبْرِ نصوص الوحي يتبين لنا الخوف الشرعي من المُحرَّم.

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «أحدها: خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرضٍ أو فقر أو قتل، ونحو ذلك بقدرته ومشيئته، سواء ادعىٰ أن ذلك كرامة للمخوف بالشفاعة، أو علىٰ سبيل الاستقلال، فهذا الخوف لا يجوز تعلُّقه بغير الله أصلًا؛ لأن هذا من لوازم الإلهية، فمَن اتخذ مع الله ندًّا يخافه هذا الخوف فهو مشرك.

وهذا هو الذي كان المشركون يعتقدونه في أصنامهم وآلهتهم، ولهذا يخوفون بها أولياء الرحمن، كما خوفوا إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال لهم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠، ٨١]، وقال تعالىٰ عن قوم

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٢/ ٩٧١ – ٩٧٤)، باختصار

هود أنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦].

القسم الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بغير عذر إلا الخوف من الناس، فهذا مُحرَّم، وهو الذي نزلت فيه الآية المُتَرْجَم لها، وهو الذي جاء فيه الحديث: «**إنَّ الله تعالىٰ يقول للعبد يوم القيامة، ما منعك إذ رأيتَ المُنكَر أن لا تغيره، فيقول: يا ربِّ خشيتُ الناسَ، فيقول: إياي كنتُ أحقَّ أنْ تَخْشَىٰ**»، رواه أحمد.

الثالث: خوفُ وعيدِ الله الذي توعَّد به العصاة، وهو الذي قال الله فيه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، وهذا الخوف من أعلىٰ مراتب الإيمان.

قِسْمٌ رابع: وهو الخوف الطبيعي، كالخوف من عدوٍّ، وسبعٍ، وهدمٍ، أو غرق ونحو ذلك، فهذا لا يُذم، وهو الذي ذَكره الله سبحانه عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]».

وتزكية النفوس بالفرار إلىٰ الله، وتنمية القلوب من تعظيم الله وخشيته وإجلاله والحياء منه؛ من أسباب استقامتها علىٰ أمر الله الشرعي وصبرها علىٰ قدر الله الكوني.

قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

قال ابن القيم رحمه الله(١): «القلب خُلق لعبادة الله تعالىٰ، التي تجمع محبته،

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٨٧٦)، بتصرف.

وتعظيمه، والخضوع والذل له، والوقوف مع أمْرِه ونهيِه ومَحَابِّه ومَساخِطه، فإذا كان في القلب وجدان حلاوة الإيمان وذوق طعمه، أغناه ذلك عن محبة الأنداد وتأليهها».

وجهاد النفس علىٰ الانقياد لأمر الله ونهيه هو من أسباب زكائها، قال النبي ﷺ: «**المجاهِدُ مَن جاهَدَ نفسه علىٰ طاعة الله**».

ودواعي العصيان: نفس الإنسان، وشيطانه، وهواه، ودنياه، فلا يتركها حتىٰ يجاهد هذه الأربعة حق الجهاد[1].

ودواعي النفس والشيطان يجاهدها المسلم بباعث الفطرة والعقل والدِّين.

والقلب وعاء الإرادات، وله إدراكه الذي إذا تغذىٰ بحقائق القرآن صار راغبًا في الخير مُعرِضًا عن الشر، خائفًا من ربه، قال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «القرآن شفاء لما في الصدور، ومَن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرىٰ الأشياء علىٰ ما هي عليه، وفيه من الحكمة، والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والقَصصِ التي فيها عِبرة ما يُوجِبُ صلاحَ القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره، فيبقىٰ القلب محبًّا للرشاد مبغضًا لِلْغَيِّ، بعد أن كان مريدًا للغي مبغضًا للرشاد.

فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتىٰ يَصْلُحَ القلب فتصلح إرادته، ويعود إلىٰ فطرته التي فُطِرَ عليها كما يعود البدن إلىٰ الحال الطبيعي، ويَغْتَذِي القلبُ من الإيمان والقرآن بما يُزَكِّيهِ وَيُؤَيِّدُهُ، كما يغتذي البدن بما يُنَمِّيهِ وَيُقَوِّمُهُ، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن».

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٦٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٩٥، ٩٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا سُبُل تنمية خشية الله في النفس[(١)]: «أنْ يُحاسِبَ نفسه، ويطالبها بالخشية لله، والحذر، والمراقبة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَن ازداد علمًا ولم يزدد هُدًىٰ؛ لم يزدد من الله إلا بعدًا)».

وذَكَرَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ جملة من أسباب تقوية باعث الدِّين، وهي[(٢)]:

١) إجلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ يُعصىٰ وهو يرىٰ ويسمع، ومَن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبُه لذلك البتة.

٢) مشهد محبته سبحانه، فيترك معصيته محبةً له.

٣) مشهد النعمة والإحسان، فإنَّ الكريم لا يُعامِل بالإساءة مَن أحسن إليه، وإنما يفعل هذا لئامُ الناس، فليمنعه مشهد إحسان الله ونعمته عن معصيته.

٤) مشهد الغضب والانتقام، فإنَّ الربَّ تعالىٰ إذا تمادىٰ العبدُ في معصيته غَضِب، وإذا غَضِب لم يَقُمْ لغضبه شيء.

٥) مشهد الفوات، وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة، وما يَحْدُث له بها من كلِّ اسمٍ مذموم عقلًا وشرعًا وعُرْفًا، وتزول عنه من الأسماء الممدوحة شرعًا وعقلًا وعرفًا.

٦) المَسَرَّة والفرح بطاعة الله؛ أحمدُ عاقبة من اتباع هوىٰ النفس والشيطان.

٧) إيثار ما وعدَ اللهُ سبحانه به من ترْكِ المحارم لأجْلِه، خيرٌ من اتباع الهوىٰ.

٨) مشهد المعية، واستحضار كون الإنسان بعين الله.

٩) مشهد المعاجلة، والخوف من أن يعاجله الأجل.

---

(١) شرح حديث جبريل (ص٥٨٨).

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص١٠٢ – ١١٣)، باختصار.

١٠) مشهد البلاء، فإن البلاء في الحقيقة: الذنوب وعواقبها، والعافية هي الطاعات وعواقبها.

١١) اعتياد مجاهدة الهوىٰ.

١٢) كفُّ الباطن عن حديث النفس.

١٣) قطعُ أسباب موافقة الهوىٰ.

١٤) دفعُ وساوس الشيطان بالتفكر في آيات اللهِ الشرعية والكونية.

١٥) التفكر في الدنيا وسرعة زوالها.

١٦) التعرض لنفحات الله.

١٧) الانجذاب إلىٰ الرفيق الأعلىٰ.

١٨) تفريغ القلب وتنقيته من الدَّغَل من إرادات السوء وخواطره.

١٩) طلبُ الكمالِ والعِزِّ والأمنِ من الخوف؛ بطاعة الله.

٢٠) الهرب من مظان الفتنة.

هذا الدواء لأسباب ضعفِ البصيرة واتباعِ الهوىٰ، ومَنِ ارْتَاضَ علىٰ طاعة الله وآثَرَ مراضيه؛ كانت نفْسُه مطمئنةً، لا تأمره إلا بخيرٍ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العبد في هذه الدار مفتون بشهواته، ونفْسِه الأمارة، وشيطانه المُغوِي المُزيِّن، وقرنائه، وما يراه ويشاهده مما يعجز صبرُه عنه، ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين، وضعف القلب، ومرارة الصبر، وذوق حلاوة العاجل، وميل النفس إلىٰ زهرة الحياة الدنيا، وكون العِوَض مُؤجَّلًا في دارٍ أخرىٰ غير هذه الدار التي منها خُلق، وفيها نشأ، فهو مُكلَّفٌ بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيبٍ طُلب منه الإيمان به».

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٨٨٦).

والدِّين كله في العلم النافع والعمل الصالح، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، والمسلم هو الذي يطلب العلم النافع ويأتي بالعمل الصالح.

وبهذا يتبين: ضرورةُ كلِّ مسلمٍ إلىٰ معرفة صراط الله المستقيم، وهذا بيَّنه النبي ﷺ، فيجب علىٰ المسلم طلبُ عِلمِه.

وضرورةُ كلِّ مسلم إلىٰ إعانة الله له باتباع صراطه معلومةٌ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «كان العبد أحوج شيء إلىٰ أن يسأل الله تعالىٰ كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم: تعريفًا وبيانًا، وإرشادًا وإلهامًا، وتوفيقًا وإعانةً، فيعلمه ويعرفه، ثم يجعله مريدًا له قاصدًا لاتباعه، فيخرج بذلك عن طريقة ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، الذين عدلوا عنه علىٰ عمدٍ وعلمٍ، و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، الذين عدلوا عنه عن جهلٍ وضَلالٍ».

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ**: المؤمنون توحيدهم جعلهم يخافون الله، لا يخافون الشيطان ولا أولياءه.

٢) **تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَة**: خشية الله تستلزم العمل الصالح.

٣) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْعَنْكَبُوتِ**: المسلم يستعين بالله في الصبر علىٰ طاعته، وعن معصيته، وعلىٰ أقدار الله.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٤٠).

٤) **أَنَّ الْيَقِينَ يَضْعُفُ وَيَقْوَىٰ**: فمَن أراد الخير لنفسه فلْيَسْعَ في تنمية يقينه.

٥) **عَلَامَةُ ضَعْفِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الثَّلَاثُ**: رضا الناس بسخط الله، وحمدهم علىٰ رزق الله، وذمهم علىٰ ما لم يُؤْتِك الله.

٦) **أَنَّ إِخْلَاصَ الْخَوْفِ للهِ مِنَ الْفَرَائِضِ**: لقوله تعالىٰ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

٧) **ذِكْرُ ثَوَابِ مَنْ فَعَلَهُ**: رضا اللهُ عنه، وإرضاءُ الناسِ عنه.

٨) **ذِكْرُ عِقَابِ مَنْ تَرَكَهُ**: سخطُ اللهِ والناسُ عليه.

۞ ۞ ۞

الْبَـاب الثَّـانِي وَالثَّـلَاثُـونَ

بَـابٌ: قَـوْلُ اللهِ تَعَـالَى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◊ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

◊ وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

◊ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

◊ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «(حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ)؛ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.

فِيْـهِ مَسَـائِلُ:

١) أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنَ الْفَرَائِضِ.

٢) أَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ الْإِيمَانِ.

٣) تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَنْفَالِ.

٤) تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِي آخِرِهَا.

٥) تَفْسِيرُ آيَةِ الطَّلَاقِ.

٦) عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ ﷺ فِي الشَّدَائِدِ.

الشَّرح

التوكل علىٰ الله ﷻ مقامٌ يستصحبه المسلم دهرَهُ كله، في ليله ونهاره؛ لأنّ الحفظ الإلهي هو الغاية، ومتىٰ وُكل الإنسان إلىٰ نفسه وُكل إلىٰ ضعفٍ ونقصٍ.

والتوكل من علم القلب وعمله، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنّ التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله، أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأنّ غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله فسكونه إلىٰ وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، وأنّ رضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

فبهذين الأصلين يتحقق التوكّل، وهما جِماعُه، وإن كان التوكّل أدخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوكل عمل القلب، ولكن لابدّ فيه من العلم: وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته.

والمقصود: أنّ القلب متىٰ كان علىٰ الحق كان أعظم لطمأنينته، ووثوقه بأنّ الله وليه وناصره، وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل علىٰ ربه؟».

وإذا كان التوكل من علم القلب وعمله، فلا يصح أن تقول لمخلوق: «توكلتُ علىٰ الله ثُمَّ عليكَ».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الخوف عبودية القلب، فلا تصلح إلا لله وحده؛ كالذلِّ، والمحبة، والإنابة، والتوكل، والرجاء، وغيرها من عبودية القلب».

---

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٥٦٠، ٥٦١).

(٢) طريق الهجرتين (ص٣٢٦).

ابتدأ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ باب التوكل بما يدل علىٰ أنّه مُؤَسَّسٌ علىٰ الإيمان بالله.

فقال: «بابٌ: قولُ الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]»؛ ليبيِّن أنّ التوكل علىٰ الله يكون عن الإيمان بالله، فكلُّ مَن كان أعظم إيمانًا بالله كان أقوىٰ توكلًا عليه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هو -أي: التوكل- من لوازم الإيمان ومقتضياته.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فجعل التوكّل شرطًا في الإيمان، فدلّ علىٰ انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكّل.

وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، فجعل دليل صحة الإسلام التوكل.

وقال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، فذِكرُ اسمِ الإيمان هَهُنا دُون سائر أسمائهم دليلٌ علىٰ استدعاء الإيمان للتوكّل، وأنّ قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قَوِيَ إيمانُ العبد كان توكُّله أقوىٰ، وإذا ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَ التوكّل، وإذا كان التوكّل ضعيفًا، فهو دليلٌ علىٰ ضعفِ الإيمان ولا بدّ».

وعقيدة التوكل علىٰ الله في مشيئته الإلهية في حصول الأشياء، والثقةُ به، ورجاؤه، واليقين بأنّ الأسباب لا يكون موجبها إلا بأمر الله، وأنّ الله لو شاء منع اقتضاءَها، وقدرّ أسبابًا تضادها وتمانعها؛ تجعل المسلم يطمئن إلىٰ الله وحده، لا يرجو الأسباب، وإنّما يرجو مُسبِّب الأسباب، ويعمل بالأسباب دُون تعلُّقِ قلَبْه بها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قد جمعَ النبيُّ ﷺ بين هذين الأصلين في الحديث

---

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٥٥٧).

الصحيح حيث يقول: «**احرصْ علىٰ ما ينفعكَ، واستعنْ بالله، ولا تعجزْ**»، فأمَرَه بالحرص علىٰ الأسباب، والاستعانة بالمُسبِّب، ونهاه عن العجز، وهو نوعان:

- تقصير في الأسباب، وعدم الحرص عليها.
- وتقصير في الاستعانة بالله، وترك تجريدها.

فالدين كله، ظاهره وباطنه، شرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوية»(١).

واللهُ سبحانه هو الذي جعل الأسباب مُسبِّبات لأمورها، وهو سبحانه الذي يسر الأسباب، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم لا سهْلَ إلا ما جعلتَهُ سَهْلًا، وأنتَ تجعل الحَزْنَ إذا شئتْ سَهْلًا**».

والله يُيسر الأمور بأسباب تقتضي ذلك، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ – ٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «حقيقة (اليُسْرىٰ)، أنَّها الخَلَّةُ والحالَةُ السَّهْلَةُ النافعةُ الواقعة له، وهي ضِدُّ العُسْرَىٰ، وذلك يتضمَّنُ تيسيره للخير وأسبابه، فيُجْرِي الخيرَ ويُيسِّرُه علىٰ قلبه، ونيتِه، ولسانه، وجوارحه، فتصير خصال الخير وأسبابه ميسَّرةً عليه، مذلَّلةً له، مُنقادةً لا تستعصي عليه، ولا تستصعب؛ لأنَّه مُهيَّأ لها، ميسَّرٌ لفعلها، يسلك سُبُلها ذُلُلًا، وتنقاد له علمًا وعملًا».

وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «يجتمع في المجاهد في سبيله شيئان: كمال القصد، وكمال العمل.

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٩٣).

(٢) التبيان في أيمان القرآن (ص٩٥، ٩٦).

(٣) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٤٢، ١٤٣).

◊ فالأول: أنّ مقصوده هو الله، فهو معبوده ومحبوبه.

◊ والثاني: أنّه يستفرغ مقدوره في تحصيل هذا المقصود.

فهذا يُهدَىٰ سُبُلَ الله».

فالواجب علىٰ المسلم: تجريد القلب من شوائب الالتفات والرجاء لغير الله.

والواجب علىٰ المسلم: تحقيق التوحيد، فيكون قوله «لا إله إلا الله» مستشعرًا علمه أنه لا يكشف الضر إلا الله، ولا يأتي بالنعمة إلا الله، فمَن كان هكذا حالُه اعتقادًا جازمًا وعبوديةً خالصة لله؛ كان عابدًا متوكلًا علىٰ الله، ممتثلًا قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣][1].

وفي أدلة هذا الباب ذَكَرَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ جزاء التوكل؛ وهو كفاية الله، يتوكل المؤمنون علىٰ مَن إليه الأمر كله، حيث قال[2]: «وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «جعلَ التوكّل سببًا للكفاية»، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «وهل التوكّل إلا محض العبودية التي جزاؤها الكفاية».

والإعراض عن الله عبادةً واستعانةً شركٌ وخذلان، وليس لهؤلاء من دُون الله وليٌّ ولا نصير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[5]: «إنّ اعتماده علىٰ المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته، فإنّه يُخذل من تلك الجهة، وهذا أيضًا معلوم بالاعتبار

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٦٠١).
(٢) كتاب التوحيد (ص٦٣).
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٢/ ٥٦٣).
(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٢/ ٥٦٣).
(٥) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٤٩٠)، ط- الكتاب الإسلامي.

والاستقراء، ما علَّق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذله، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]».

والدين كله في عبادة الله والاستعانة به، قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فمَن تحقَّق بالاستعانة بالله وحده وعبادته وحده، فذلك المؤمن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولىٰ والآخرة».

فالواجب علىٰ المسلم: إخلاص عبوديته لله وحده لا شريك له، والاستعانة بربه وحده، وتنقية قلبه من شوائب الشرك والالتفات لغير الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ الناس في عبادته واستعانته علىٰ أربعة أقسام:

١) فالمؤمنون المتقون، هم له وبه، يعبدونه ويستعينونه.

٢) وطائفة تعبده من غير استعانة ولا صبر، فتجد عند أحدهم تحرِّيًا للطاعة والورع، ولزوم السُّنة، لكن ليس لهم توكل واستعانة وصبر، بل فيهم عجزٌ وجزعٌ.

٣) وطائفة فيهم استعانة وتوكل وصبر، من غير استقامة علىٰ الأمر ولا متابعة للسُّنة، ولا عاقبة لهم، فإنهم ليسوا من المتقين، والعاقبة للتقوىٰ.

٤) وشر الأقسام مَن لا يعبده ولا يستعينه».

والتوكل علىٰ الله، لا شركة فيه لأحَدٍ مع الله.

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٦٥).

(٢) التدمرية (ص٢٣٤، ٢٣٥) باختصار، وتصرف يسير.

حذرّ شيخ الإسلام من الجزع والعجز، فإنه مفسد للدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «جعلَ التوكل علىٰ الله وحده بقوله: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٥٩]، ولم يقل: ورسوله، كما قال في وصف الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في الآية الأخرىٰ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ومثله قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، أي: حسبك وحسب المؤمنين».

فإخلاص التوكل لله وحده، ونفي تعلُّق القلب بغير الله هو من تحقيق التوحيد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، فإنّها تنفي عن قلبه ألوهية ما سوىٰ الحق، وتثبت في قلبه ألوهية الحق.

فيكون نافيًا لألوهية كل شيء من المخلوقات، مثبتًا لألوهية رب العالمين ورب الأرض والسموات، وذلك يتضمن اجتماع القلب علىٰ الله وعلىٰ مفارقة ما سواه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «من تحقيق التوحيد أن يُعلم أنّ الله تعالىٰ أثبت له حقًّا لا يشركه فيه مخلوق؛ كالعبادة، والتوكل، والخوف، والخشية، والتقوىٰ».

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «أما التوكل فعلىٰ الله وحده، فلهذا قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٥٩]، ولم يقولوا: حسبنا اللهُ ورسولُه، كما قالوا: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٥٩]، فإنّ الحسيب هو الكافي، واللهُ وحده كافي عِباده، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]».

---

(١) العبودية (ص١٤٩).

(٢) العبودية (ص١٣٥).

(٣) التدمرية (ص١٩٩).

(٤) جامع المسائل، المجموعة الرابعة (ص٢٩٨).

وعلَّمَ النبيُّ ﷺ ابنَ عباس رضي الله عنهما والأمَّة توحيدَ التوكل علىٰ الله وحده، وخوفه، ورجاءَه وحده حيث قال له: «**اعلمْ أنَّ الأمَّة لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا علىٰ أن يضروك فلن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**».

والتوكل علىٰ الله وحده عبادةٌ في ذاتها، فإنّ قصْدَ القلب ورغبته إلىٰ الله من أجَلِّ الطاعات.

والتوكل علىٰ الله استعانةٌ، فبذلك يعينه الله علىٰ كل خير، وييسره لليسرىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «إنّ الاستعانة بالله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، والدعاء له، هي التي تُقوِّي العبد، وتُيسِّر عليه الأمور، ولهذا قال بعض السلف: مَن سرَّه أن يكون أقوىٰ الناس فليتوكل علىٰ الله».

ومَن شهد أنّ الله وحده مقدِّر المقادير، ومسبِّب الأسباب، ومَبدأ الأمور منه، وتمامها عليه؛ كان دائم الرجاء لله والتوكل عليه، وهذا حال الموحدين. ومَن كان رجاؤه متعلقًا بالأسباب فهذا ربما لا يلجأ إلىٰ ربه إلا إذا أَيِسَ من الناس.

قال الحافظ أبو بكر الآجري رحمه الله فيمن كان هذا شأنه(٢): «إنْ نَابَتْهُ نائبةٌ سبق إلىٰ قلبه الفزع إلىٰ العباد، والاستعانة بهم، يطلب من ربه الفرج إذا أيس من الفرج من قِبَل الخَلق».

ودعا سيد الحنفاء خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام الخَلقَ إلىٰ إخلاص التوكل لله، ورجائه، والافتقار إليه وحده، فمَن قطع رجاءه من كل شيء إلا من الله آتاه الله ما شاء، وكفاه بما آتاه عن عبودية ما سواه.

---

(١) التحفة العراقية في الإعمال القلبية (ص٣٤٠).
(٢) أخلاق العلماء (ص١٣٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «يُروىٰ عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: الطمع فقرٌ، واليأس غنىٰ، وإنَّ أحدكم إذا يئس من شيء، استغنىٰ عنه.

وهذا أمرٌ يجده الإنسان من نفسه، فإنّ الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه، ولا يطمع فيه، ولا يبقىٰ قلبه فقيرًا إليه، ولا إلىٰ مَن يفعله. وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه، فإنّ قلبه يتعلق به، فيصير فقيرًا إلىٰ حصوله، وإلىٰ مَن يظن أنّه سبب في حصوله، وهذا في المال والجاه والصور، وغير ذلك.

قال الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فالعبد لا بد له من رزق، وهو محتاج إلىٰ ذلك، فإذا طلب رزقه من الله صار عبدًا لله، فقيرًا إليه، وإذا طلبه من مخلوق صار عبدًا لذلك المخلوق فقيرًا إليه».

وقد أخطأ أقوام في مفهوم التوكل، فوعظهم اللهُ بوجوب الأخذ بالأسباب، فإنّ أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون، فإذا وصلوا مكة سألوا الناس، فأنزل الله ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، رواه البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «مَن فعلَ ما أُمر به من التزود فاستعان به علىٰ طاعة الله وأَحْسَنَ منه إلىٰ مَن يكون محتاجًا؛ كان مطيعًا لله في هذين الأمرين، بخلاف مَن ترك ذلك ملتفتًا إلىٰ أزواد الحجيج، كَلًّا علىٰ الناس. وإن كان مع هذا قَلْبُهُ غير ملتفتٍ إلىٰ مُعيَّنٍ فهو ملتفت إلىٰ الجملة، لكن إن كان المُتَزَوِّدُ غير قائم بما يجب عليه من التوكل علىٰ الله ومواساة المحتاج، فقد يكون في تركه لِمَا أُمِر به من جنس هذا التارك للتزود المأمور به».

---

(١) العبودية (ص٨٢).

(٢) التفسير (١/ ٤٧٨).

فالواجب علىٰ المسلم: أن يأخذ بالأسباب، ويُعلِّق رجاءه بالله، لا بالأسباب، فيكون القلب متوكلًا علىٰ الله، معتمدًا عليه، لا علىٰ الأسباب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الذي يُحقِّقُ التوكُّل: القيام بالأسباب المأمور بها، فمَن عطَّلها لم يصح توكُّلُه، كما أنّ القيام بالأسباب المفضية إلىٰ حصول الخير يُحقِّق رجاءه، فمَن لم يقم بها كان رجاؤه تمنِّيًا، كما أنّ مَن عطَّلها يكون توكله عجزًا، وعجزه توكُّلًا.

وسرُّ التوكُّل وحقيقته هو اعتماد القلب علىٰ الله وحده، فلا يضرُّهُ مباشرة الأسباب، مع خلوِّ القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: (توكَّلْتُ علىٰ الله) مع اعتماده علىٰ غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكُّل اللسان شيء وتوكُّل القلب شيء».

التوكل علىٰ الله مع فعلِ الأسباب من أسباب حصول الأمور وتيسيرها، فربما أتىٰ المسلم بالأسباب وقدرّ الله معارضات تمنع حصولها، فالتوفيق من الله، قال شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الحاجة والفقر إلىٰ الله ثابتة مع فعلِ السبب، إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سببٌ تام لحصول المطلوب».

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «فمَن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل وأخل بواجب التوحيد، ولهذا يُخذل أمثال هؤلاء».

---

(١) الفوائد (ص٢١٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ١٧٩).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ١٧٩).

والذي يُحقق لك مقام التوكل شهودك حاجة كل مخلوق إلىٰ الله ﷻ، وأن الخير كله بيديه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «القرآن مملوء من ذِكر حاجة العباد إلىٰ الله دون ما سواه، ومن ذِكر نعمائه عليهم، ومن ذِكر ما وعدهم به في الآخرة من صنوف النعيم واللذات، وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقِّق التوكل علىٰ الله، والشكر له، ومحبته علىٰ إحسانه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ تحقيق لتوحيد الألوهية، فإنّ الخير لا مُوجِبَ له إلا بمشيئة الله، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والمُعَوِّقَ له من العبد هو ذنوبه، وما كان خارجًا عن قدرة العبد فهو من الله، وإن كانت أفعال العباد بقَدَر الله تعالىٰ، لكن الله تعالىٰ جعلَ فعْلَ المأمور وترْكَ المحظور سببًا للنجاة والسعادة.

فشهادة التوحيد تفتح باب الخير، والاستغفار له من الذنوب يغلق باب الشر، ولهذا ينبغي للعبد ألا يعلق رجاءه إلا بالله، ولا يخاف من الله أن يظلمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]».

وأوجب الأمور بقصد الله في التوكل: التوكل عليه في الهداية، وحِفْظ الدِّين، والجهاد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «إنّ التوكل أعم من التوكل في مصالح الدين أو الدنيا، فإنّ المُتوكِّل يتوكل علىٰ الله سبحانه في صلاح قلبه ودينه،

(١) طريق الهجرتين (ص١٧٢).
(٢) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٥٧٩).
(٣) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٣١٤).

وحفظ إيمانه وزيادته، وهذا أهم الأمور إليه، ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، كما في قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أعظم التوكُّل عليه: التوكُّل في الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعة الرسول ﷺ، وجهاد أهل الباطل، فهذا توكُّل الرُّسُلِ وخاصَّة أتباعهم».

وفي خاتمة هذا الباب، ذكرَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مقامات سادات الحنفاء في التوكل علىٰ الله، مقام الخليل إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار، ومقام الخليل محمد ﷺ حين تحزّب الكفار لقتاله، وهذا تعليم بالتَّأَسِّي بسادات الموحدين في التوكل علىٰ الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «هو المسئول، المستعان به، المتوكَّل عليه، فهو إلهه الذي لا إله له غيره، وهو ربه الذي لا رب له سواه. ولا تتم عبوديته -المخلوق- لله إلا بهذين، فمتىٰ كان يحب غير الله لذاته، أو يلتفت إلىٰ غير الله أنّه يعينه، كان عبدًا لما أحبه، وعبدًا لما رجاه، بحسب حبه له ورجائه إياه، وإذا لم يحب أحدًا لذاته إلا الله، وأي شيء أحبه سواه، فإنّما أحبه له، ولم يرجُ قط شيئًا إلا الله.

وإذا فعل ما فعل من الأسباب، أو حصَّل ما حصّل منها كان مشاهدًا أنّ الله هو الذي خَلقها وقدرَّها وسخَّرها له، وأنّ كل ما في السماوات والأرض فالله ربه ومليكه وخالقه ومُسخِّره، وهو مفتقر إليه. كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قُسم له من ذلك.

(١) الفوائد (ص١٢٥).

(٢) العبودية (ص٩٨، ٩٩).

والناس في هذا علىٰ درجات متفاوتة لا يحصي طُرُقها إلا الله.

فأكمل الخَلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلىٰ الله وأقواهم وأهداهم: أتمهم عبودية لله من هذا الوجه.

وهذا هو حقيقة دين الإسلام».

شـــرْحُ المســائل:

١) **أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنَ الْفَرَائِضِ**: هو من التوحيد.

٢) **أَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ الْإِيمَانِ**: فالإيمان بالله يُوجِب التوكل عليه.

٣) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَنْفَالِ**: قلوب المؤمنين وَجِلَة من ذِكر الله، وهي مادة إيمانهم، وهم متوكلون علىٰ ربهم.

٤) **تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِي آخِرِهَا**: أنّ صفة المؤمنين التوكل علىٰ الله.

٥) **تَفْسِيرُ آيَةِ الطَّلَاقِ**: كفاية الله لمَن توكَّل عليه.

٦) **عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ ﷺ فِي الشَّدَائِدِ**: من حققها حالًا ومقالًا نجَّاه اللهُ في الشدائد، وتولَّاه في السراء والضراء.


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosailimiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَـــابُ الثَّـــالِثُ وَالثَّـــلَاثُـــونَ

بَـــابٌ: قَـــوْلُ اللهِ تَعَـــالَى:

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾

[الأعراف: ٩٩].

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

◊ وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ؛ فَقَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ**».

◊ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.

فِيْـــهِ مَسَـــائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ.

٢) تَفْسِيرُ آيَةِ الْحِجْرِ.

٣) شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِيمَنْ أَمِنَ مَكَرَ اللهِ.

٤) شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي الْقُنُوطِ.

الشَّرح

الإقامة على أسباب سَخَطِ الله سببها الغفلةُ والغرورُ بأمن الله، وهذا تعرُّضٌ لأسباب عذاب الله، وهذا الذي حذَّر منه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ووعظَ بقول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

والأمن من مكر الله يأتي من ضعفِ الإيمان، وضعفِ عظمةِ اللهِ ووقارِه في قلوب القاسية قلوبهم، وهؤلاء ضعفُ عظمةِ اللهِ في قلوبهم سبَبُه إِلْفُهم للذنوب والمعاصي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من عقوبات الذنوب أنّها تُضعِف في القلب تعظيمَ الرب جَلَّ جَلَالُهُ، وتضعف وقاره في قلب العبد».

وقال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنّ الأمن من مكر الله، يدل على ضعف الإيمان، فلا يبالي صاحبه بما تركَ من الواجبات، وفعلَ من المحرمات؛ لعدم خوفه من الله بما فعلَ أو تركَ، وهذا من أعظم الذنوب وأجمعها للعيوب».

وقال العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «للأمن من مكر الله أيضًا سببان مهلكان:

أحدهما: إعراض العبد عن الدِّين وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك، فلا يزال مُعرِضًا غافلًا مقصِّرًا عن الواجبات، منهمكًا في المحرمات،

(١) الجواب الكافي (ص٢٠٣).
(٢) قرّة عيون الموحدين (ص١٧٥).
(٣) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص١٠٧).

حتىٰ يضمحل خوف الله من قلبه، ولا يبقىٰ في قلبه من الإيمان شيء؛ لأنّ الإيمان يحمل علىٰ خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروي.

السبب الثاني: أن يكون العبد عابدًا جاهلًا معجبًا بنفسه مغرورًا بعمله فلا يزال به جهله حتىٰ يُدِلَّ بعمله ويزول الخوف عنه، ويرىٰ أنَّ له عند الله المقامات العالية، فيصير آمنًّا من مكر الله مُتَّكِلًا علىٰ نفسه الضعيفة المَهِينة، ومن هنا يُخذل ويُحَالُ بينه وبين التوفيق؛ إذ هو الذي جنىٰ علىٰ نفسه».

والإيمان بالله ﷻ هو الأساس في الرجاء لرحمته، والخوف من مكره، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هذا من باب قَرْنِ الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالىٰ بين الترغيب والترهيب كثيرًا؛ لتبقىٰ النفوس بين الرجاء والخوف».

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكرَ في نصوص هذا الباب ما يجب أن يكون عليه حال المسلم من الخوف من الله والرجاء له، فابتدأ هذا الباب بقوله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ثم أتبعه بقوله سبحانه: ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

فالواجب علىٰ المسلم أن يجمع بين الخوف والرجاء ما دام حيًّا، فيخاف اللهَ فيكون ذلك زاجرًا له عن المعاصي، ويرجو رحمةَ الله فيكون مسارعًا في الخيرات.

قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٨١).

قال بلال بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «كما ترجون رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما تؤدون من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فكذلك أشفقوا من عذاب الله بما تنتهكون من معاصي الله عَزَّوَجَلَّ».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لا تتمُّ العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكفُّ عن المناهي، وبالرجاء يُكثِر من الطاعات».

ومن أسباب الهلكة: قسوةُ القلب عن ذِكر الله، واللهو بالمعاصي والمنكرات، فهذا الإعراض عن الله شرودٌ عن رحمته.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «إياكم والإعراض عن ذِكر الله، فإنّ مَن أعرضَ عن ذِكره فقدِ اغترَّ أكبر الغرَّة، وأعوزَ أشد العوَز، وعظم مِنْ أعظم الذنوب، ولهذا قال تعالىٰ متهددًا لمَن فعلَ ذلك ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام».

ومن أسباب الهلاك: الاغترار بأمن الله وحِلْمه، وربما صار ذلك من دواعي الإصرار علىٰ أسباب سخط الله ومَقْتِه، وكان ذلك أمنًا من مكر الله.

قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «مَن أطال عِنانَ الأمن في الغِرَّة، طَوىٰ عِذَار الحذر في المـُهْلة، ومَن لم يُعوِّل علىٰ طرق النجاة، كان بمنزلة قلة الاكتراث من الله مَقِيتًا، وصار في أمْنِه المحذور مثل نسجِ العنكبوت، لا يأمن عليها نفْسَه».

---

(١) اليقين، مجموع مؤلفات ابن أبي الدنيا (١/ ٣٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٦٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ١٤٩).
(٤) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ١٣٥).

فالواجب عليك -أيها المسلم-: السعي في فِكاك رقبتك من النار؛ وذلك بمجاهدة نفسك في طاعة الله، قال النبيُّ ﷺ: «**المجاهد مَن جاهَدَ نفْسَه في طاعة الله**»، رواه أحمد والترمذي وقال: (حديثٌ حسنٌ صحيح).

قال العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرهها، ويجاهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة، حتىٰ تذهب وتضمحل، ويبقىٰ القلب خالصًا صافيًا، ليس فيه إلا ما ينفع الناس، من العلم بالحق وإيثاره».

ولولا أنّ الله حليم لعاجل خَلْقه بعذابه وعقابه، واللهُ عَزَّ وَجَلَّ علم أنّ عباده الموحدين يذنبون غفلة، لا مراغمة له، فيحثهم تقواهم علىٰ الفرار منه إليه، قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم**».

قال العَلَّامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «عظمته التي لا يقوم لها شيء، لا يوازيها إلا حِلْمه تعالىٰ وجلَّ جلاله، ويقتضي اتباع العظمة بذِكر الحِلم أيضًا: أنّ الناطق بهذا القول يتخوف أن يكون قد عصىٰ الله سبحانه وأغضبه، لما خطرَ في قلبه خوفٌ لغيره؛ فخافَ من سَخَطِه، فأتبعَ ذلك بما تداركه، بقوله: (وهو العظيم الحليم).

وفيه أيضًا: أنّ المُتجرِّئ عليك، الذي أخافك، إنّما تجرَّأ عليك بحُكمِ الله سبحانه، لا أنّه قَدِر أن يفعل ذلك مرغمةً».

وإذا تأملتَ -أيُّها المسلمُ- اقتران الاستغفار بالتوحيد، علمتَ أنه لا يستغني أحد عن الاستغفار، فالمسلم دائم الإنابة إلىٰ ربه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٣٦).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (٣/ ٨٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «تارةً يجمع بين التوحيد والاستغفار، فقال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

فهذان الأمران جِماع الدين، كما يُروىٰ أنّ الشيطان قال: أهلكتُ بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلَّا الله والاستغفار، فلما رأيتُ ذلك، بَثَثْتُ فيهم الأهواء، فهم يُذنبون ولا يتوبون؛ لأنّهم يحسبون أنّهم يُحْسِنون صنعًا.

وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فالتوحيد هو جماع الدين، الذي هو أصلُه وفرعُه ولُبُّه، وهو الخير كلُّه، والاستغفار يزيل الشرَّ كلَّه، فيحصل من هذين جميعُ الخَيْر، وزوال جميع الشرّ.

وكلُّ ما يصيب المؤمن من الشرِّ، فإنّما هو بذنوبه، والاستغفار يمحو الذنوب، فيُزيلُ العذاب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]».

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أتىٰ من السُّنة ما يدل علىٰ معنىٰ ما ذَكره من آيات القرآن في هذا الباب، فذَكرَ حديثَ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنّ رسول الله ﷺ سُئل عن الكبائر فقال: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ**».

وذكرَ معنىٰ ذلك من المأثور عن علماء الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فقال: وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «من أكبر الكبائر: الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»، رواه الطبري(٢).

---

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) وصححه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (٣/ ٨٠).

وأثرُ ابن مسعود هذا في معنىٰ حديث ابن عباس، وإنّما كان القنوط من رحمة الله من أكبر الكبائر؛ لأنّه سوءُ ظنٍّ بالله.

وما الذي يُقنِّطك من رحمة الله؟!

إنّه الشيطان، وهو الذي قد وَسْوَس إليك بالمعصية وساقك إليها، ثم يريد أن يُقنِّطك من رحمة الله، فلا تتوب فتكون من أهل النار، فاحذرِ الشيطانَ، قبل فِعل المعصية وبعدها.

والقنوط من رحمة الله هلكةٌ؛ لأنّ العبد إذا أيس وقنط من رحمة الله، وتوهم أنّه لا سبيل له إلىٰ عفو الله ورحمته؛ استكثر من الذنوب، ومات علىٰ سوء الظن بالله.

القنوط من رحمة الله هو أنّ العبد إذا تراكمت عليه الذنوب، أيس من رحمة الله، فيقول: قد استوجبتُ النارَ، فيترك العمل من: الصلاة، والصوم، والاستغفار، فيهلك(١).

قال المدائني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قارَفَ الزهري ذنبًا، فاستوحش منه، وهام علىٰ وجهه، وترك أهله وماله، فلما اجتمع بعليِّ بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال له: يا زهري! قنوطُكَ من رحمة الله التي وسعت كل شيء، أعظمُ من ذنبك!

فقال الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وفي رواية: أنّه أصاب دمًا خطأً، فأمره عليٌّ بالتوبة والاستغفار، وأن يبعث الدِّية إلىٰ أهله.

فكان الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: عليُّ بن الحسين أعظم الناس عليَّ مِنَّةً(٢).

---

(١) نوادر الأصول (١/ ٢١٨).

(٢) البداية والنهاية (١٢/ ٤٩٠).

والله ﷻ وَدُودٌ بعباده، يدعوهم إلىٰ أسباب رحمته.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم، إنّك ما دعوتني، ورجوتني، غفرتُ لك علىٰ ما كان منك ولا أبالي.**

يا ابن آدم، لو بَلَغَتْ ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرتُ لك.

يا ابن آدم، لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقُرابها مغفرة»، رواه الترمذي، وقال: حديث حسَنٌ.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[(١)]: «إنّ هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وُضع ذرَّة منها علىٰ جبال الذنوب والخطايا لَقَلَبها حسنات».

وهذا الحديث يدل علىٰ أن التوحيد يمنع من الإصرار علىٰ المعصية، فيكون التوحيد سببًا في إنابة العبد إلىٰ ربه، وتوحيده سببًا في تكفير ذنوبه.

قال ابن القيم رحمه الله[(٢)]: «إنّ من لم يشرك بالله شيئًا يستحيل أن يلقىٰ الله بقُراب الأرض خطايا، مُصرًّا عليها، غير تائب منها، مع كمال توحيده الذي هو غاية الحب والخضوع، والذل والخوف والرجاء للرب تعالىٰ».

والواجب علىٰ المسلمين أفرادًا وشعوبًا: الأخذ بأسباب رحمة الله والابتعاد عن أسباب سخطه، وإذا حصل من أحَدٍ تقصيرٌ أو تفريطٌ أو سيئةٌ سعىٰ في دفع آثارها بالاستغفار والأعمال الصالحة، والانتهاء عن أسباب سخطِ الله.

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص٤٧٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٦٨).

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا حصلت له المغفرة اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة، التي هي آثار الذنوب التي قد غُفرت، واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة، حصل علىٰ كل خير في الدنيا والآخرة».

والرجاء لرحمة الله لا يكون إلا بالقيام بالسبب المُوجِب لرحمة الله، وتأمَّلْ هذا في أرجىٰ آية في كتاب الله، حيث لم يُقنِّط اللهُ عِبادَه من رحمته، وأمرهم بأسباب إدراكها بالإنابة والتوبة والخضوع له بتحقيق التوحيد وفِعْل الطاعات وتَرْك المُحرَّمات، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣ – ٥٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ودُّه سبحانه هو لمَن تاب إليه وأناب إليه، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فلا يستوحش أهل الذنوب، وينفرون منه كأنّهم حُمُرٌ مُسْتنْفِرة، فإنّه ودود رحيم بالمؤمنين، يُحبُّ التوابين، ويحبُّ المتطهرين.

ولهذا قال شعيب: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]، فذَكرَ ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾ في الموضعين؛ لبيان مودَّته للمُذنِب إذا تاب إليه، بخلاف القاسي الجافي الغليظ الذي لا وُدَّ فيه».

فالحاصلُ: أنَّ دِين الله وسطٌ، لا نُجرِّئ الناسَ علىٰ سخطِ الله، ولا نُقنِّطهم من رحمة الله.

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٩).
(٢) النبوات (١/ ٣٦٩).

وهذه الوسطية هي منهجية سادات الأمَّة، قال أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الفقيه هو الذي لا يقنِّط الناس، ولا يُجرِّئهم على معصية الله»، رواه الدارمي.

ووسطيتنا في التحذير من اليأس من روح الله والقنوط من رحمته والتخويف من أسباب سخط الله، اعتقادٌ دلَّ عليه نصوص القرآن والسُّنة، ومن وسطيتنا في ذلك: أننا لا نَحْكُم على عموم المسلمين بالكفر أو البدعة أو الفسق، قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن قال: هلَكَ الناسُ، فهو أهلكهم**»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمقصود: أن يأخذ الأفراد والشعوب بأسباب الأمن، فتحقيقُ التوحيد وإقامة شرائع الإسلام وشعائره؛ أمانٌ واطمئنان، وثوابُه من الله، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ**: الاحتراز من سخطِ الله والأمن من الإقامة على أسباب غضبه.

٢) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْحِجْرِ**: القنوط من رحمة الله جهلٌ بالله وسوءُ ظنٍّ به.

٣) **شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِيمَنْ أَمِنَ مَكَرَ اللهِ**: هو من الكبائر.

٤) **شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي الْقُنُوطِ**: هو من أكبر الكبائر.

الْبَـــابُ الــرَّابِعُ وَالثَّــلَاثُــونَ

بَــابٌ: مِنَ الإِيمَـــانِ بِاللهِ الصَّــبْرُ عَلَى أَقْــدَارِ اللهِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◈ وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

◈ قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ فَيَرْضَىٰ وَيُسَلِّمُ».

◈ وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ**».

◈ وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ**».

◈ وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ؛ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ؛ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّىٰ يُوافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

◈ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**». حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ التَّغَابُنِ.

٢) أَنَّ هَذَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ.

٣) الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ.

٤) شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِيمَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ.

٥) عَلَامَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ.

٦) عَلَامَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ.

٧) عَلَامَةُ حُبِّ اللهِ لِلْعَبْدِ.

٨) تَحْرِيمُ السُّخْطِ.

٩) ثَوَابُ الرِّضَا بِالْبَلَاءِ.

الشَّرح

هذا بابٌ في نوعٍ خاصٍّ من الإيمان بالقَدَر وهو الصبر على أقدار الله، وهو من الإيمان بالقدر خيره وشره.

والنصوص التي ذكرها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في هذا الباب تبيِّن ما يجب اعتقاده في ذلك.

«وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ فَيَرْضَىٰ وَيُسَلِّمُ»». معنىٰ الآية بتفسير السلف أنّ إيمان المسلم بقضاء الله وقدره طمأنينة للقلب، فلا يسخط المؤمن ولا يجزع، ولا يقول إلا خيرًا؛ لأنّه لن يصيب المسلم إلا ما كتب الله له.

والآية مبيِّنة أن الإيمان بالله هو الباعث علىٰ الصبر علىٰ أقداره، وهذا نوعٌ عظيم من أنواع العبودية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «تفويض الأمر إليه ردُّهُ إلىٰ الله سبحانه، وذلك يوجب سكون القلب وطمأنينته، والرضا بما يقضيه ويختاره له مما يحبه ويرضاه، والتفويض من أشرف مقامات العبودية».

---

(١) زاد المعاد (ص٦٨١، ٦٨٢).

والصبر لأقدار الله هو نعتُ المُخْبِتِين من عباد الله الموحدين، قال تعالىٰ: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المُخبِت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده».

وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ [الحج: ٣٥] من البأساء والضراء وأنواع الأذىٰ، فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم، محتسبين ثوابه، مُرْتَقِبين أجْرَه».

هذا حالُ المؤمنين؛ الصبر علىٰ أقدار الله، أمَّا مَن عبدَ الله في السراء وارتدَّ في الضراء فهذا لا خلاق له، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾، قال مجاهد وقتادة: علىٰ شكٍّ.

وأصلُه من حَرْفِ الشيء، وهو طَرَفُه، كأنّه لشدة قلقه واضطرابه وعدم استقراره وتمكنه في الدين علىٰ حَرْفٍ منه.

﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ﴾ رخاء وعافية ﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ﴾ وسكن وثبت علىٰ الدين بذلك الخير، ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ ابتلاءٌ واختبار بقلَّة مالٍ وجدبٍ ومرضٍ ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٦٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٦٦).
(٣) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ١٧، ١٨).

وَجۡهِهِۦ﴾؛ ارتدّ إلىٰ وجهه الذي كان عليه من الكفر، ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا﴾ حيث لم يظفر بسُؤْلِه، ﴿وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ بكفره بالله وبرسوله.

وقرأتُ ليعقوب من رواية زيد عنه (خاسر الدنيا)، بأَلِفٍ والنصب على الحال، و(الآخرة) بالجر.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الظاهر لمَن له أدنىٰ مُسْكَةٍ من دراية وهداية.

قال المُفسِّرون[(١)]: نزلتْ في أعاريبَ كانوا يَقْدُمون المدينة علىٰ النبيِّ ﷺ، فكان أحدهم إذا صحَّ جسمه، ونُتجَتْ فرسه، وكَثُرتْ ماشيته، وولدت امرأته غلامًا سويًّا؛ اطمأنَّ، وقال: ما أصبتُ منذ دخلتُ في دِين هذا إلا خيرًا، وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبتُ إلا شرًّا، وانقلب».

وحذَّر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من التشبه بالكافرين في الجزع عند المصائب، خصوصًا عند فوات النفوس، فذكر حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**اثنتان في الناس هما بهما كفرٌ: الطعن في النَّسَب، والنياحة علىٰ الميت**»، وحديث ابن مسعود مرفوعًا: «**ليس مِنَّا مَن ضربَ الحدود، وشَّق الجيوب، ودعا بدعْوىٰ الجاهلية**»، فأفاد الحديثان أن الجزع عند المصائب كفرٌ عملي من أعمال الجاهلية.

ولا ينبغي لمسلم أن يجزع لموتِ عزيزٍ، فإنّ كل نفس ذائقة الموت، ولكل أجَلٍ كتاب، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وإذا مات الشخص علىٰ الإسلام مات علىٰ الخير كله، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مسندًا موقوفًا عليه، كتاب التفسير، سورة الحج، باب ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍ﴾، (ص٨٢٦- رقم ٤٧٤٢).

وكان النبي ﷺ يسأل الله الخلف فيمَن مات من قرابته المسلمين، فإنّه بعد وفاة حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في أُحُد، أسلمَ أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يوم الفتح قبل دخول رسول الله ﷺ مكة، فقال النبي ﷺ: «**أرجو أن يكون خلفًا من حمزة**»[1].

ومات ابنٌ لأبي طلحة، فصلىٰ مع النبي ﷺ وأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «**لعله أن يُبارك لهما في ليلتهما**»، رواه البخاري.

قال ابن عينية: فقال رجل من الأنصار: فرأيتُ لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن.

ومات إبراهيم، فقال النبي ﷺ: «**تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يُسخِط الرب، وإنّا بكَ يا إبراهيمُ لمحزونون**»، رواه البخاري ومسلم.

والإيمان بالقدر هو من توحيد الله في أفعاله، فهو من توحيد الربوبية، وهو موجب توحيد العبودية؛ لأنّ المسلم إذا اعتقد الضر والنفع من الله وحده أوجب له ذلك إفراده بالطاعة وحفظ حدوده، وذلك من أسباب تولي الله له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[2]: «الله جعل فعْلَ المأمور وترْكَ المحظور سببًا للنجاة والسعادة، فشهادة التوحيد تفتح باب الخير، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر.

ولهذا ينبغي للعبد أن لا يُعلِّق رجاءه إلا بالله، ولا يخاف من الله أن يظلمه، فإنّ الله لا يظلم الناس شيئًا، ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون، بل يخاف أن يجزيه بذنوبه، وهذا معنىٰ ما رُوي عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّه قال: (لا يَرْجُوَنَّ عبدٌ إلا ربَّه، ولا يَخَافَنَّ إلا ذنبه)».

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ص٨٠٦).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٥٦).

فالمسلم يسعىٰ في بذل الأسباب الجالبة للخير الدافعة للسوء.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تُصْرف كثير من أسباب الشر: بالتوكل، والدعاء، والصدقة، والذِّكر، والاستغفار، والعِتْق، والصِّلة. وتُصرف كثير من أسباب الخير بعد انعقادها بضدِّ ذلك، فلِلَّه كم من خيرٍ انعقدَ سببُه ثم صُرف عن العبد بأسبابٍ أَحْدَثها منعتْ حصولَه، وهو يشاهد السبب حتىٰ كأنّه يأخذ باليد، وكم من شرٍّ انعقد سببه ثم صُرف عن العبد بأسباب أحدثها منعتْ حصولَه».

والمصائب والابتلاءات الكونية علّمنا النبي ﷺ كيفية دفع شرورها، فقد كُسفت الشمس في عهده، فقال: «**إذا رأيتم منها شيئًا فصلوا، وادعوا، حتىٰ ينكشف ما بكم**»، متفق عليه من حديث أبي مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وعن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قالت: «**لقد أمر النبي ﷺ بالعتاقة في كسوف الشمس**»، رواه البخاري.

قال الحافظ ابن الملقن رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «معنىٰ «**فصلوا وادعوا حتىٰ ينكشف ما بكم**»: بادروا بالصلاة والدعاء، وأسرعوا إليهما حتىٰ يزول عنكم هذا العارض، الذي يُخاف كونه مقدمة عذاب أو وجود عذاب».

ومن حكمة الله في ابتلاء عباده بالمصائب: استخراج عبوديتهم في السراء والضراء، قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «قوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي: نختبركم بالمصائب تارةً وبالنِّعم أخرىٰ، لننظر مَن يشكر ومَن يكفر، ومَن يصبر ومَن يَقْنط، كما قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَنَبْلُوكُم﴾ يقول:

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٠٣).
(٢) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٤/ ٢٨٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٦١).

نبتليكم: ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾: بالشدة والرخاء، والصحة والسُّقْم، والغِنىٰ والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدىٰ والضلال.

وقوله: ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ أي: فنجازيكم بأعمالكم».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنّه جمعَ للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم، وهي: الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم».

وعن صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**عَجبًا لأمر المؤمن، إنّ أمره كله خير: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمسلم**»، رواه مسلم.

ومن حكمة الله في ابتلاء عباده بالمصائب تكفير سيئاتهم، ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدريِّ وأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبيِّ ﷺ قال: «**ما يصيب المُسْلِمَ من نَصَبٍ، ولا وَصَبٍ، ولا هَمٍّ، ولا حُزْنٍ، ولا أذًىٰ، ولا غَمٍّ، حتىٰ الشوكة يُشاكُهَا، إلا كَفَّرَ اللهُ بها من خطاياه**».

وليس معنىٰ هذا أنّ الإنسان يستدعي لنفسه البلاء، بل يسأل الله العافية، وتكفير الذنوب بالتوبة من فعلِ العبد أفضل من تكفيرها بالمصائب التي وقعت بغير اختياره.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الثواب علىٰ المصائب التي يُبتلىٰ العبد بها بغير اختياره، كالمرض والألم ونحوهما.

---

(١) عدّة الصابرين (ص١٣٠).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٢/ ٦٠٧، ٦٠٨).

وأمَّا أن يكون عبادةً مأمورًا بتحصيلها وطلبها، فلا.

ففرْق بين ما يُثاب عليه العبد من المأمورات، وما يثاب عليه من البليَّات».

فتكفير الذنوب بالتوبة أكمل من تكفيرها بالمصائب، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «زوال أثرها -أي: الذنوب- بالتوبة النصوح أعظم من زوال أثرها بالعقوبة، فإذا بدلت بعد زواله بالعقوبة حسنات، فلأن تُبدَّل بعد زوالها بالتوبة حسنات أَوْلَىٰ وأَحْرَىٰ.

وتأثير التوبة في هذا المحور والتبديل أقوىٰ من تأثير العقوبة؛ لأنّ التوبة فعلٌ اختياري أتىٰ به العبد طوعًا ومحَبَّةً لله، وفَرَقًا منه. وأمَّا العقوبة فالتكفير بها من جنس التكفير بالمصائب التي تصبه بغير اختياره، بل بفعل الله.

ولا ريب أن تأثير الأفعال الاختيارية التي يحبها الله ويرضاها في محو الذنوب، أعظم من تأثير المصائب التي تناله بغير اختياره».

ويجب أن يعرف المسلم سُنَّة الله الكونية في الدار الدنيا، وفَرْقُ ما بينها وبين الدار الآخرة، فالدنيا خُلقت علىٰ كَدَرٍ، والدار الآخرة صَفْوٌ من كل نقصٍ وكدرٍ.

واللهُ جعلَ للمخلوق أسبابًا يدفع بها الابتلاءات والمصائب أو يخففها،

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الحازم هو الذي ينازع ويدافع الأقدار المؤلمة بما يدفعها قبل نزولها، أو يرفعها بعد نزولها، أو يخففها بالطُّرُق المباحة أو المأمور بها، فإن أعياه ذلك استسلم للقدر، ورضي بقضاء الله، وسلّم لأمره، ولهذا قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (نَفِرُّ من قَدَرِ اللهِ إلىٰ قَدَرِ الله).

كذلك يفر العبد مما يكرهه الله باطنًا وظاهرًا إلىٰ ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا، ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

ويَفِرُّ من أسباب الهلاك والعَطب والضرر إلىٰ أسباب النجاة والسلامة وحصول النفع.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٢/ ٥٤٥).

(٢) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص٣١).

ولكن الشأن في معرفة الأسباب النافعة والضارة، ثم في سلوك خير الأمرين ومدافعة أشد الضررين، واللهُ الموفق وحده».

والحياة الطيبة تكون بالإيمان بالله، وإسلام الوجه له، والاهتداء بالقرآن، وإقامة شرائع الله وشعائره.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إنّ الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يُحيي القلوبَ الحياةَ الطَّيِّبة، وكمالَ الحياة في الجَنَّة، والرسولُ ﷺ داعٍ إلىٰ الإيمان وإلىٰ الجَنَّة، فهو داعٍ إلىٰ الحياة في الدُّنيا والآخرة».

والله عَزَّ وَجَلَّ (ليس إليه الشر)، فالشر في المَقضِي، وليس في فِعْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «تأمل قول النبي ﷺ: «**ماضٍ فيَّ حُكْمك، عدْلٌ فيَّ قضاؤك**»، كيف ذَكرَ العدلَ في القضاء مع الحُكْم النافذ، وفي ذلك ردٌّ لقول الطائفتين: القَدَرِيَّة والجَبْرِيَّة، فإنّ العدل الذي أثبتته القدرية منافٍ للتوحيد، معطل لكمال قدرة الرب وعموم مشيئته، والعدل الذي أثبتته الجبرية منافٍ للحكمة والرحمة ولحقيقة العدل.

والعدل الذي هو اسمه وصفته ونعته سبحانه خارج عن هذا وهذا، ولم يعرفه إلا الرسل وأتباعهم، ولهذا قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦]، فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرفه في خَلقِه كيف شاء، ثم أخبر أنّه في هذا التصرف والحُكْم علىٰ صراطٍ مستقيم».

وابتلاء البلاد والعباد هو جزاء قدري.

---

(١) الفوائد (ص١٢٩).

(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٠٢).

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

والسبب الذي يأمن به العباد والبلاد من الشقاء والشرور والمخاوف والابتلاءات والمصائب: توحيد الله وطاعته، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ﴾، أي: يخلطوا ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾: الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلىٰ الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ مطلقًا، لا بشركٍ ولا بمعاصٍ حصل لهم الأمن التام والهداية التامة.

وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنّهم يعملون السيئات، حصل لهم أصلُ الهداية وأصلُ الأمن وإن لم يحصل لهم كمالهما، ومفهوم الآية الكريمة؛ أنّ الذين لم يحصل لهم الأمران لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء».

وختم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ الباب بقول النبيِّ ﷺ: «**إنّ عِظَمَ الجزاء مع عِظَمِ البلاء، وإنّ الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمَن رَضِي فله الرضا، ومَن سَخِط فله السُّخط**»، وهذا الحديث يفيد أن من الابتلاء ما ليس عن سخطٍ من الله، وإنّما هو لرفعة درجات المُبْتَلىٰ، وفَرْقٌ ما بين هذا الابتلاء وبين ابتلاء المُعذَّبين، فالأنبياء والصالحون ابتلاؤهم يختلف عن الكافرين ومَن تشبَّه بهم.

ولا ينبغي لأحَدٍ أن يستدعي البلاء لنفسه، بل يسأل الله العافية، فإذا قضىٰ الله شيئًا من المصائب أو البلاء، لزم الصبر والاستغفار والإنابة إلىٰ الله، وسأله رفْعَ الضر وكشفه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٦٦).

قال النبيُّ ﷺ: «**سلوا الله العفو والعافية والمعافاة**»، رواه أبو يَعْلَىٰ، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناده جيد».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «هذا السؤال يتضمن العفو عمَّا مضىٰ، والعافية في الحال، والمعافاة في المستقبل بدوام العافية واستمرارها».

وقال مطرِّف بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «لأنْ أُعَافَىٰ فأشكر أَحَبُّ إليَّ من أنْ أُبْتَلىٰ فأصبر».

وقال عمر بن السكن(٣):«كنتُ عند سفيان بن عيينة، فقام إليه رجل من بغداد، فقال: يا أبا محمد، أخبرني عن قول مُطَرِّف: (لأن أُعافىٰ فأشكر أحبُّ إليَّ من أن أُبتلىٰ فأصبر)، أهو أحب إليك أم قول أخيه أبي العلاء: اللهُمَّ رضيتُ لنفسي ما رضيتَ لي؟

قال: فسكت عنه سكتة، ثم قال: قول مُطرِّف أحبُّ إليَّ.

فقال الرجل: كيف وقد رضي هذا لنفسه ما رضيه الله له؟!

فقال سفيان: إنّي قرأتُ القرآن، فوجدت صفة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مع العافية التي كان فيها ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، فاستوت الصِّفتان، وهذا مُعافَىٰ، وهذا مُبْتلىٰ، فوجدتُ الشُّكر قد قام مقام الصَّبر، فلما اعتدلا، كانت العافية مع الشُّكر أحبُّ إليَّ من البلاء مع الصَّبْر».

(١) عدّة الصابرين (ص٢٢٠).
(٢) عدّة الصابرين (ص١٩٢).
(٣) تهذيب الكمال (٣/ ٢٢٧).

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ التَّغَابُنِ**: المؤمنُ مُخبِتُ القلب، صابِرٌ علىٰ أقدار الله.

٢) **أَنَّ هَذَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ**: الإيمان بالله لازِمٌ للإيمان بالقدر خيره وشره.

٣) **الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ**: كفرٌ عملي، من أخلاق الجاهلية.

٤) **شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِيمَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ**: الصبر علىٰ أقدار الله نجاة من الوعيد علىٰ أعمال الجاهلية.

٥) **عَلَامَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ**: تكفير سيئاته في الدنيا قبل الآخرة.

٦) **عَلَامَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ**: تأخير عذابه إلىٰ الدار الآخرة.

٧) **عَلَامَةُ حُبِّ اللهِ لِلْعَبْدِ**: توليه في أحواله كلها.

٨) **تَحْرِيمُ السُّخْطِ**: فالواجب الصبر علىٰ أقدار الله.

٩) **ثَوَابُ الرِّضَا بِالْبَلَاءِ**: رِضَا اللهِ عنه.

الْبَــابُ الْخَامِـسُ وَالثَّــلَاثُــونَ

بَــابُ مَا جَــاءَ فِي الرِّيَــاءِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◈ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

◈ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

◈ وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**». قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ.

فِيـهِ مَسَـائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ.

٢) هَذَا الْأَمْرُ الْعَظِيمُ فِي رَدِّ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَيْءٌ لِغَيْرِ اللهِ.

٣) ذِكْرُ السَّبَبِ الْمُوجِبِ لِذَلِكَ، وَهُوَ كَمَالُ الْغِنَىٰ.

٤) أَنَّ مِنَ الْأَسْبَابِ أَنَّهُ تَعَالَىٰ خَيْرُ الشُّرَكَاءِ.

٥) خَوْفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ مِنَ الرِّيَاءِ.

٦) أَنَّهُ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَنَّ يُصَلِّي الْمَرْءُ للهِ، لَكِنْ يُزَيِّنُهَا؛ لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ.

الشَّرح

الرياء هو: قصدُ غيرِ الله بالعمل، وهو شركٌ، سمَّاه النبي ﷺ بالشرك الخفي؛ لأن العمل ظاهره حسن وباطنه سيء لقصد غير الله.

والدِّين حقيقته إخلاص العبادة لله، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وحقيقة حنيفية التوحيد: الإقبال علىٰ الله وقصده وحده، والإعراض عما سواه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قد فسر إسلام الوجه لله بما يتضمن إخلاص قصده لله، وهو مُحْسِن بالعمل الصالح المأمور به، وهذان الأصلان جِماع الدين: أن لا نعبد إلا الله، وأن نعبده بما شرع، لا نعبده بالبدع».

وكلما قوي الإخلاص لله في قلب المسلم دفع إرادات السوء من الرياء وغيره عن قلبه، وصقل قلبه بقصد الله وحده.

وكان الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئًا»، رواه أحمد في الزهد.

ومَن عملَ عملًا أشرك فيه غير الله معه، فاللهُ غنيٌّ عن عمله الشركي، لا يقبله، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»، رواه مسلم.

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (١/ ٣٠٨).

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لمَّا كان المرائي قاصدًا بعمله الله تعالىٰ وغيره، كان قد جعل لله تعالىٰ شريكًا، فإذا كان كذلك، فالله تعالىٰ هو الغني علىٰ الإطلاق.

والشركاء بل جميعُ الخَلق فقراء إليه بكل اعتبار، فلا يليق بكرمه وغناه التام أن يقبل العمل الذي جعل له فيه شريك، فإن كماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكرمه وغناه يوجب ألا يقبل ذلك.

ولا يلزم من اسم التفضيل إثبات غنىٰ للشركاء، فقد تقع المفاضلة بين الشيئين وإن كان أحدهما لا فضل فيه، كقوله تعالىٰ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] وقوله تعالىٰ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الله لا يَقْبَلُ عملًا له فيه شركٌ أبدًا، ولا يقبل إلا العمل الخالص له وحده، فكما أنه الخالق وحده، فكيف تَصْرِف شيئًا من حقه إلىٰ غيره؟! فهذا ليس عدلًا، ولهذا قال الله عن لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]».

وقال العَلَّامة محمد العثيمين[(٣)]: «المراد بـ (شركه): عمله الذي أشرك فيه، وليس المراد شريكه؛ لأن الشريك الذي أشرك به مع الله قد لا يتركه، كمَن أشرك نبيًّا أو وليًّا، فإن الله لا يترك ذلك النبي والولي».

واتباع الهوىٰ هو من أسباب الرياء.

وكلما استولت إرادات الدنيا علىٰ القلب اجتذبته إلىٰ الرياء وما تهوىٰ الأنفس.

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٢/ ١٠٤٨، ١٠٤٩).
(٢) شرح كتاب التوحيد (ص٧١٠)، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ، المجلد العاشر.
(٣) شرح كتاب التوحيد (ص٧١١)، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ، المجلد العاشر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «القلب الذي لم يُخلِص لله، فإنّ فيه طلبًا وإرادة وحبًّا مطلقًا، فيهوىٰ كل ما يسنح له ويتشبث بما يهواه، كالغصن، أيّ نسيمٍ مرَّ به عطفه وأماله».

ومَن ذاقَ طعْمَ الإيمان لم يكن شيء أحب إليه من إخلاص العمل لله وحده لا شريك له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له، لم يكن عنده شيء قط أحلىٰ من ذلك، ولا ألذ ولا أمتع ولا أطيب».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(٣): «ليس عند القلب السليم أحلىٰ ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له، وإخلاصه الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلىٰ الله، فيصير القلب منيبًا إلىٰ الله، خائفًا منه، راغبًا راهبًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٣]».

فالواجب علىٰ كل مسلم تنقية قلبه من دَغَلِ الإرادات المذمومة، وهذا لا يكون إلا بتحقيق التوحيد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «تحقيق شهادة أن (لا إله إلا الله)، فإنها تنفي عن قلبه ألوهية ما سوىٰ الحق، وتُثبت في قلبه ألوهية الحق».

---

(١) العبودية (ص١٢٤).

(٢) العبودية (ص٩٠).

(٣) العبودية (ص١٢٣).

(٤) العبودية (ص١٣٥).

وقال شيخ الإسلام في ثمرة ذلك وعائدته[1]: «اجتماع القلب علىٰ الله، وعلىٰ مفارقة ما سواه».

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قالوا: هو السليم مما سوىٰ الله، أو مما سوىٰ إرادة الله، أو مما سوىٰ محبة الله».

وقال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «الرياء آفة عظيمة، ويحتاج إلىٰ علاج شديد، وتمرين النفس علىٰ الإخلاص، ومجاهدته في مدافعة خواطر الرياء والأغراض الضارة، والاستعانة بالله علىٰ دَفْعِها، لعل الله يخلص إيمان العبد ويحقق توحيده».

والرياء، والعُجْب، والمَنُّ علىٰ الله بالعمل، من محبطات العمل فاحذرها،

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «محبطات الأعمال ومفسداتها أكثر من أن تُحصر، وليس الشأن في العمل، إنّما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه.

فالرياء -وإن دقَّ- محبط للعمل، وهو أبواب كثيرة لا تُحصر، وكون العمل غير مقيد باتباع السُّنة أيضًا موجب لكونه باطلًا، والمَنُّ به علىٰ الله تعالىٰ بقلبه مفسد له».

ومَن كان خالصًا لله في أعماله وأثنىٰ عليه الناس خيرًا، فهذا يَسُرُّ النفْسَ ولا يغرها، ولا يزال المسلم زاهدًا من ثناء الناس، راغبًا فيما عند الله، محتسبًا ثوابه ورضاه.

---

(١) العبودية (ص١٣٥).

(٢) العبودية (ص١٢٧).

(٣) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص١١٣).

(٤) الوابل الصيب (ص٢٠ – ٢٢).

عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل: يا رسول الله، أرأيتَ الرجلَ يعمل العمل من الخير، ويحمده أو يحبه الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجِلُ بشرىٰ المؤمن**»، رواه مسلم.

قال الحافظ النووي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «قال العلماء: معناه: هذه البشرىٰ المعجلة له بالخير، وهي دليلٌ علىٰ رضاء الله تعالىٰ عنه، ومحبته له، فيحببه إلىٰ الخَلق، كما سبق في الحديث، ثم يُوضع له القبول في الأرض، هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرُّض منه لحمدهم، وإلا فالتعرض مذموم».

وثواب الأعمال يكون موفورًا بالإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ والمتابعة للنبي ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٤]، وقال النبي ﷺ: «**مَن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه**»، متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَىٰ مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**».

وقول النبي ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونية**»، دليل علىٰ أن ثواب الأعمال الصالحة يتضاعف بحسب ما يقوم في القلب من الإخلاص.

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «رُبَّ عملٍ صغير تُعظِّمه النيةُ، ورُبَّ عملٍ كبير تُصغِّره النيةُ».

---

(١) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص١٨٧١).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص٢٠).

وفي قول النبي ﷺ عن الرياء: «**الشرك الخفي**»، تنبيه إلىٰ حقيقة العبودية التي أصلها صلاح الباطن المستلزم صلاح الظاهر، قال تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الحج: ٣٧]، فحقيقة التقوىٰ إخلاص العمل لله ﷻ لا شريك له باتباع النبي ﷺ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن لله علىٰ العبد عبوديتين: عبودية باطنة وعبودية ظاهرة، فله علىٰ قلبه عبودية، وعلىٰ لسانه وجوارحه عبودية، فقيامه بصورة العبودية الظاهرة مع تعريه عن حقيقة العبودية الباطنة مما لا يُقرِّبه إلىٰ ربه، ولا يُوجِب له الثواب وقبول عمله، فإن المقصود امتحان القلوب وابتلاء السرائر، فعملُ القلب هو روحُ العبودية ولبُّها، فإذا خلا عملُ الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح.

والنية هي عملُ القلب الذي هو مَلِكُ الأعضاء، والمقصود بالأمر والنهي».

فالإتيان بحقوق العبادات الباطنة والظاهرة هو حقيقة العبودية، وذلك لا يكون إلا بإخلاص النية لله، وجمعية القلب علىٰ الله، والإعراض عن سواه قصدًا وإرادةً وثناءً، وبأداء العبادة علىٰ صفتها التي أدَّاها رسولُ الله ﷺ، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ووصْفُ النبيِّ ﷺ للرياء بالشرك الخفي، دليلٌ علىٰ أنه: «**أخفىٰ من دَبيبِ النمل**»، فليحذرِ المسلمُ من مسارقته إلىٰ نياته وإراداته وأعماله.

فالواجب علىٰ المسلم: حفْظُ قلبِه ومحاذَرةُ كيْد الشيطان ووسوسته مما يلقيه في النفوس من الإرادات المذمومة والنيات الفاسدة، وهو مع الإنسان لا يفارقه ولا يَفْتر عن إغوائه، فهذا العدو المتربص شرُّ ما علىٰ المسلم.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٦٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنّ الخواطر والهواجس ثلاثة أنواع: رحمانية، وشيطانية، ونفسانية».

والمسلم إذا اعتصم بالله كفاه شرَّ الشيطان ووسوسته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

والشرك الخفي يسارق إلىٰ أجَلِّ الطاعات وأفضلها وأكثرها ثوابًا ليُفْسِدَها الشيطانُ بالرياء وقصْدِ غير الله، وإذا حَبِط عملُ المسلم واعتاد العمل رياءً ولغير الله فهو من جِثِيِّ جهنم.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي ذَكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحذيرٌ من ذلك، قال النبي ﷺ: «**الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته؛ لِمَا يرىٰ من نظرِ رَجُلٍ**»، رواه أحمد.

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ**»، رواه مسلم.

والمسلم إذا قام مخلصًا لله عَزَّ وَجَلَّ في عبادته فلا يلتفت إلىٰ وساوس الشيطان التي تريد صرف نيته إلىٰ الرياء، وليجاهد الوساوس الشيطانية.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٣٧).

قال عبد الرحمن بن شريح رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «مَن قام إلىٰ شيء من الخير لا يريد به إلا الله، ثم عرض له مَن يريد أن يرائيه بذلك، أعطاه اللهُ الأصلَ، ووضعَ عنه الفرع.

ومَن قام إلىٰ شيء من الخير لا يريد به إلا المراءاة، ثم فكَّر أو بَدَا له يُحوِّل آخر ذلك لله أعطاه اللهُ الفرعَ، ووضعَ عنه الأصل».

وإذا قام المسلم إلىٰ عبادة الله مخلصًا له وحده فلا يدع العمل خشية أن يُقال: مراءٍ، قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العمل لأجْلِ الناس شركٌ، وتركُه لهم رياء».

وجمعية القلب على الله تدفع الرياء ولا تقطع عن العمل، قال تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وأَبْدَىٰ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الصدقة بحضرة النبي ﷺ؛ طاعةً لله.

قال شيخ المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «ما منها -أي: الأعمال- لله تعالىٰ وما منها لغيره، وذلك إنما يفترق عند ابتداء العبد فيه وفي أول حال دخول فيه، فإذا كان ابتداؤه فيه لله لم يَضْرُرْهُ بعد ذلك ما عَرَض في نفسه وخطر بقلبه من حديث النفس ووسواس الشيطان، ولا يُزِيلُهُ عن حُكمِه إعجابُ المرء باطلاع العباد عليه بعد تَقَضِّيهِ وَمُضِيِّه علىٰ ما نَدَبَهُ اللهُ إليه خاليًا مما نهاه عنه وكَرِهَهُ له، ولا سُرُورُهُ بذلك، وإنما المكروه من ذلك أن يَبْتَدِئَهُ بالنية المكروه ابتداؤه بها، أو يعمله وهو في حالِ شُغْلِه به غير مُخْلِصٍ لله، فذلك الذي يستحق عامِلُه عليه من ربه العقاب، وَيَبْطُلُ أن يكون له عليه من الثواب.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال المتقدمون من أهل العلم والسلف من أهل الفضل».

---

(١) قيام الليل، مجموع مؤلفات ابن أبي الدنيا (١/ ٣٠٢ - رقم ٢٧٨).
(٢) تهذيب الآثار، مسند الفاروق (٢/ ١٢٥).

شَرْحُ المسائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ**: إخلاص التوحيد لله يدفع الرياء.

٢) **هَذَا الْأَمْرُ الْعَظِيمُ فِي رَدِّ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَيْءٌ لِغَيْرِ اللهِ**: الرياء من أعظم محبطات الأعمال.

٣) **ذِكْرُ السَّبَبِ الْمُوجِبِ لِذَلِكَ، وَهُوَ كَمَالُ الْغِنَىٰ**: فالله غنيٌّ عن عباده، ولا يَرْضىٰ لعباده الكفر والشرك.

٤) **أَنَّ مِنَ الْأَسْبَابِ أَنَّهُ تَعَالَىٰ خَيْرُ الشُّرَكَاءِ**: ما عند الله خيرٌ وأبقىٰ مما عند الأنداد.

٥) **خَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ مِنَ الرِّيَاءِ**: فنحن أحرىٰ بالخوف منه.

٦) **أَنَّهُ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَنَّ يُصَلِّي الْمَرْءُ للهِ، لَكِنْ يُزَيِّنُهَا؛ لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ**: إخلاص الصلاة لله؛ لأنها عبودية لله تُوجِب علىٰ المسلم إقبال القلب علىٰ الله، والالتفات عما سواه.

الْبَابُ السَّادِسُ وَالثَّلَاثُونَ

بَابٌ: مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◊ وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

◊ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَىٰ لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**».

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ.
٢) تَفْسِيرُ آيَةِ هُودٍ.
٣) تَسْمِيَةُ الْإِنْسَانِ الْمُسْلِمِ عَبْدَ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْخَمِيصَةِ.
٤) تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ.
٥) قَوْلُهُ: «**تَعِسَ وَانْتَكَسَ**».
٦) قَوْلُهُ: «**وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**».
٧) الثَّنَاءُ عَلَىٰ الْمُجَاهِدِ الْمَوْصُوفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ.

الشَّرح

إخلاص العمل لله ﷻ هو أساس التوحيد، فمَن تحقَّق بالتوحيد كان عملُه لله، وكان توحيده موجبًا لعبادة ربه كما أمر سبحانه باتباع نبيه ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وشجرة التوحيد الزكية في قلب المؤمن ثمارُها: صِدْقُ الإرادات، وإخلاص النيات لله تعالىٰ، وطِيبُ الأقوال والأعمال، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

والكافر بضد ذلك، أعماله صادرة عن قصْدِ الدنيا، فهي الأساس لأعماله؛ لأن قلبه خواء من الإيمان بالله وتوحيده، ولذلك حذَّرنا اللهُ من التشبه به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الكلمة الطيبة هي التوحيد، وهي كالشجرة، والأعمال ثمارها في كل وقت.

فجميع الأعمال الحسنة تُضاعف لصاحبها، وجميعها من عبادة الله وحده، وهي من فروع قول: (لا إله إلا الله)، فإن الإيمان قولٌ وعملٌ، قال النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وستون -أو بضع وسبعون- شُعْبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق**».

فمَن قال الحسنة (لا إله إلا الله) لم يُرِدْ أنَّ هذه الكلمة وحدها هي الحسنة دون العمل بمقتضاها، بل هي عنده الشجرة الجامعة، والأعمال داخلةٌ فيها وفروعٌ لها.

وكذلك السيئة هي العمل لغير الله، وهذا هو الشرك، فإن الإنسان همَّام حارِثٌ

---

(١) تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ١٢١).

لا بد له من عملٍ، ولا بد له من مقصودٍ معبود يعمل لأجله، فالعمل لله: هو الإخلاص والتوحيد له، والعمل لغيره هو الشرك، وإن عمل لله ولغيره فذلك أيضًا شركٌ».

والذنوب كلها جزء من الشرك، وهي من فروعه، فإنها جميعها طاعة للشيطان واتباع لخطواته، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

ومَن استصحب العمل لغير الله، ومات علىٰ ذلك كان من المُخلَّدِين في النار.

قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الله سبحانه ذكرَ جزاء مَن يريد بعمله الحياة وزينتها وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا حبط ما ينجو به وبطل لمْ يَبْقَ معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يُرِدْ به الحياة الدنيا وزينتها بل أراد به الله ورسوله والدار الآخرة، لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل، وأنجاه إيمانه من الخلود في النار، وإنْ دخلَها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة.

فالإيمان إيمانان:

إيمانٌ يمنع دخول النار، وهو الإيمان الباعث علىٰ أن تكون الأعمال لله يُبتغىٰ بها وجهه وثوابه.

وإيمان يمنع الخلود في النار، فإن كان مع المرائي شيء منه، وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حُكْمُ نظائرها من آيات الوعيد، واللهُ الموفق».

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص٣٢٠، ٣٢١.

وقد يكون عملُ المسلم خالصًا، وتَرِدُ عليه نيات تنافي وتضاد الإخلاص، فالمُوحِّد يدفع إرادة غير الله بتجريد الإخلاص لله ﷻ والإنابة إليه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «اللهُ تعالىٰ قد علَّق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا، فإذا تجرَّدت الإرادتان تجرَّد موجبهما ومقتضاهما، وإن اجتمعتا فحُكمُ اجتماعهما حُكمُ اجتماع البِر والفجور، والطاعة والمعصية، والإيمان والشرك في العبد.

وقد قال تعالىٰ لخير الخَلق بعد الرسول ﷺ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وهذا خطابٌ للذين شهدوا معه الوقعة، ولم يكن فيهم منافق، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (ما شعرتُ أنَّ أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتىٰ كان يوم أُحُد، ونزلتْ هذه الآية).

والذين أُريدوا في هذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم علىٰ تركِ المركز والإقبال علىٰ كسب الغنائم، بخلاف مَن كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لَوْنٌ وإرادة هؤلاء لَوْنٌ».

وحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «تَعِسَ عبدُ الدرهم، تَعِسَ عبدُ الدينار» فيه تبيين لحقيقة العبودية، وهو رِقُّ القلب، وفيه تحذير من أن يغمر حبُّ الدنيا قلْبَ العبد فتكون أعماله فيما غمر قلبه، وربما مع المداومة علىٰ ذلك صار المخلوق عبدًا للدنيا، بحسب ما استحوذ من إرادة الدنيا علىٰ قلبه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «سمَّاه النبيُّ ﷺ: عبد الدرهم، وعبد الدينار، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذَكَرَ ما فيه دعاءً وخبرًا، وهو قوله: «**تَعِسَ**

---

(١) عدة الصابرين ص٣٢٢.

(٢) العبودية ص٨٠، ٨١، ط- المكتب الإسلامي، ط- السابعة المجددة.

وانْتَكَس، وإذا شِيكَ فلا انتقش»، والنَّقْش: إخراج الشوكة من الرِّجل، والمنْقَاش: ما يُخرج به الشوكة.

وهذه حالُ مَن إذا أصابه شرٌّ لم يخرج منه ولم يفلح، لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حالُ مَن عبد المال.

وقد وصفَ ذلك بأنه إذا أُعطي رَضِي، وإذا مُنع سخط، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]، فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله.

وهكذا حالُ مَن كان متعلقًا برئاسة أو بصورة -ونحو ذلك من أهواء نفسه- إنْ حصلَ له رَضِي، وإن لم يحصل له سَخِطَ.

فهذا عبد ما يَهْوَاه من ذلك، وهو رَقِيقٌ له، إذِ الرِّقُ والعبودية في الحقيقة: هو رِقُّ القلب وعبوديته، فمَا استرقَّ القلبَ واستعبده؛ فالقلب عَبْدُه.

ولهذا يقال:

العبدُ حرٌّ ما قنع=والحرُّ عبدٌ ما طمع».

وابتداءُ العمل لغير الله مُبطِلٌ له ومُحبِطٌ لثوابه، وإذا كان العمل خالصًا لله ثم حصل فيه الرياء، فإنْ كان العمل ممَّا ينبني أوَّلُه علىٰ آخِره بَطُلَ العملُ كلُّه، وإلا كان البطلان حيث فسدتِ النيةُ.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «اعلمْ أنَّ العملَ لغير الله أقسام:

فتارةً يكون رياءً محضًا، بحيث لا يُراد به سوىٰ مراءاة المخلوقين لغرضٍ دنيوي، كحال المنافقين في صلاتهم، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [الماعون: ٤-٦].

---

(١) جامع العلوم والحِكم (١/ ٧٩).

وكذلك وصفَ اللهُ الكفارَ بالرياء في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمنٍ في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج، وغيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يَتَعدَّىٰ نفعُها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلمٌ أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل علىٰ بطلانه وحبوطه أيضًا، وفي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**».

فالنية أساس العمل، وأمْرُها عظيم، وحِفظُها من إرادة غير الله من أوجب الواجبات، فلا يركن الإنسان إلىٰ نفسه ويغرّه الشيطان بصلاح نيته، ثم يرسل الشيطان عليه وساوسه فتميل إرادته لغير الله وفيما لا يرضي الله، فحراسة القلب من خواطر السوء والرياء ضرورةٌ لحفظِ الدِّين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[1]: «إن الدِّين هو شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، فمَن قصد بالاعتقادات الدينية والأعمال الدينية غيرَ الله فهو شرك في ذلك، والشرك في هذه الأمّة أخفىٰ من دبيب النمل، والناس كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وإن كان شركًا دُون شركٍ وكفرًا دُون كفرٍ، لكن نَعْلَم مَن كان هكذا أنه ليس دينه كله لله، بل بعضه لغير الله، وإن زعم أن يكون دينه كله لله، وأن ما لم يكن من دينه لله فهو فيه مُتّبع هواه».

(١) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية ص٩٧، ٩٨.

شرح مسائل الباب:

١) **إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ:** وهذا عملُ المشركين، أما الموحدون فأعمالهم خالصة لله ﷻ، لا يشركون بالله في أعمالهم، بل يقصدون بها الله وحده لا شريك له.

٢) **تَفْسِيرُ آيَةِ هُودٍ:** وهو أنَّ مَن أراد الدنيا بأعمال الآخرة حَبِطَ عملُه، وإن كان هذا حاله دائمًا كان من الكافرين.

٣) **تَسْمِيَةُ الْإِنْسَانِ الْمُسْلِمِ عَبْدَ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْخَمِيصَةِ:** إذا رَقَّ قلبُه للدرهم والدينار؛ لأنَّ حقيقةَ العبوديةِ رِقُّ القلبِ.

٤) **تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ:** فمَن كان رضاه وسَخَطُه للدنيا كان لغير الله.

٥) **قَوْلُهُ: «تَعِسَ وَانْتَكَسَ»:** هذا حالُ مَن كان سَخَطُه ورضاه للدنيا، لا يهنأ بالسعادة، أمَّا مَن كان قصْدُه وعملُه في عبودية الله ﷻ قرَّت عينُه بربه، وأنس به، وكان في جنةٍ مُعجَّلة، وانشراحِ صدْرٍ، وراحةِ بالٍ.

٦) **قَوْلُهُ: «وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»:** مَن لم يستعن بالله وكانت إراداته لمحض الدنيا، لا يقدر علىٰ دفعِ أذىٰ الشوكة عن نفسه فضلًا عما سواها مما يقدِّره الله عليه.

٧) **الثَّنَاءُ عَلَىٰ الْمُجَاهِدِ الْمَوْصُوفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ:** وهو المخلص لله في أعماله وجهاده، سواء كان تابعًا أو متبوعًا؛ وذلك لأنه يُقاتِل لتكون كلمة الله هي العليا، لا يقاتل رياءً ولا سُمْعةً، ولا لطلبِ الجاه.

۞ ۞ ۞


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosailililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَابُ السَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ

بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ، أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ؛ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◊ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «يُوشِكُ أَنْ تنزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا!».

◊ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ؛ يَذْهَبُونَ إِلَىٰ رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشِّرْكُ؛ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ».

◊ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، قَالَ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟**»، فَقُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ النُّورِ.

٢) تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٌ.

٣) التَّنْبِيهُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَدِيٌّ.

٤) تَمْثِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَتَمْثِيلُ أَحْمَدَ بِسُفْيَانَ.

٥) تَغَيُّرُ الْأَحْوَالِ إِلَىٰ هَذِهِ الْغَايَةِ، حَتَّىٰ صَارَ عِنْدَ الْأَكْثَرِ عُبَادَةُ الرُّهْبَانِ هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، وَتَسْمِيَتُهَا وِلَايَةً، وَعِبَادَةُ الْأَحْبَارِ هِيَ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ، ثُمَّ تَغَيَّرَتْ الْحَالُ إِلَىٰ أَنَّ عُبِدَ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَعُبِدَ بِالْمَعْنَىٰ الثَّانِي مَنْ هُوَ مِنَ الْجَاهِلِينَ.

الشَّرح

التحليل والتحريم أحكام إلهية، لا يجوز لمسلم أن يضاد الله في أحكامه فيحل ما حرَّم اللهُ أو يحرِّم ما أحلَّ الله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١].

ومن شرِّ أنواع الشرك وأغلظه مضادة الله في أحكامه، ومضاهاة شرع الله في كل ما شرعه، يشرع المخلوق لكل أحكام الله ما يخالفها، ويجعله حُكْمًا لازِمًا للخَلق يتحاكمون إليه.

وذَكَرَ شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في هذا الباب ما يُبيِّن معنىٰ التوحيد في حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث أنكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرك النصارىٰ الذين اتخذوا أحبارهم أربابًا من دون الله، يُحلُّون لهم الحرام فيحلِّونه، ويحرِّمون عليهم الحلال فيحرِّمونه.

قال العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن الرب والإله هو الذي له الحُكمُ القَدَري، والحُكمُ الشرعي، والحُكمُ الجزائي، وهو الذي يُؤْلَه ويُعبد وحده لا شريك له، ويُطاع طاعةً مطلقةً فلا يُعصىٰ، بحيث تكون الطاعات كلُّها تبعًا لطاعته.

فإذا اتخذ العبدُ العلماءَ والأمراء علىٰ هذا الوجه، وجعل طاعتهم هي الأصل،

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص١١٨).

وطاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ تبعًا لها، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله يتألههم ويتحاكم إليهم، ويُقدِّم حُكمَهُم على حُكمِ الله ﷻ ورسوله ﷺ، فهذا هو الكفر بعينه، فإن الحُكمَّ كله لله، كما أنَّ العبادة كلها لله».

ومَن رضي بالله ربًّا تحاكم إلىٰ شرعه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أركان التوحيد: أن لا يَتَّخِذَ سواه ربًّا، ولا إلهًا، ولا غيرَه حَكَمًا».

واستدل ابن القيم بقوله تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال(٢): «أي: أفغير الله أبتغي مَن يَحْكُم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟!

وهذا كتابه سيد الحُكَّام، فكيف نتحاكم إلىٰ غير كتابه، وقد أنزله مُفَصَّلًا، مُبَيَّنًا كافيًا شافيًا؟!

وأنتَ إذا تأملتَ هذه الآيات الثلاث(٣) حق التأمل، رَأَيْتَهَا هي نفس الرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا».

فالواجب تحقيق الشهادتين؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والشهادتان حقيقتهما أن لا يعبد إلا الله وبإذنه، كما شرع وأرسل به محمدًا رسول الله ﷺ.

---

(١) مدا ج السالكين (ص٤٤٢، ٤٤٣).

(٢) مدا ج السالكين (ص٤٤٢، ٤٤٣).

(٣) قوله تعالىٰ: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤]، وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لا حرامَ إلا ما حرّمه الله ورسولُه ﷺ، ولا دِينَ إلا ما شرعه الله ورسولُه ﷺ، ولهذا ذمَّ اللهُ المشركين في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما؛ لكونهم حرَّموا ما لم يُحرِّمْهُ اللهُ، ولكونهم شرعوا دِينًا لم يأذن به الله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ...﴾ [الأنعام: ١٣٦] إلىٰ آخر السورة، وما ذَكَره في صدر سورة الأعراف.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورىٰ: ٢١]، وقد قال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، فأخبره أنه أرسله داعيًا إليه بإذنه.

فمَن دعا إلىٰ غير الله فقد أشرك، ومَن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع، والشرك بدعة، والمبتدع يَؤُول إلىٰ الشرك، ولمْ يُوجَد مبتدعٌ إلا وفيه نوعٌ من الشرك، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وكان من إشراكهم بهم أنهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرَّموا عليهم الحلال فأطاعوهم».

والله هو العليم الحكيم، ولا يرتاب مسلم أنه لا أعلم ولا أحكم من الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فالواجب الاتباع لأحكام الله، وعدم التقدم بين يدي القرآن وشرْعِ الله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «عليهم أن لا يقولوا حتىٰ يقولَ الرسولُ ﷺ ما بَلَّغَهُمْ عن الله، ولا يعملون إلا بما أَمَرَهُمْ به».

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٥٥٩، ٥٦٠).
(٢) مجموع كلام شيخ الإسلام في التفسير (٦/ ٤٣).

وتعطيلُ شرعِ الله وجعْلُ قوانين المربوبين حاكمة وقاضية على شرع الله من أسباب حبوط الأعمال، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «من الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته، فإنه سببٌ لحبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سُنَّته وما جاء به؟ أترىٰ ذلك موجبًا لقبول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطهما؟».

والحُكمُ بغير شرعِ الله مضادة لله في حُكمِه، فاللهُ أرسلَ الرسل وأنزل الكتب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، قال تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

واللهُ خلقَ الخَلقَ وأرسلَ الرسلَ وأنزلَ الكتب؛ لتجري أمور الخَلقِ على الصلاح والعدل، ومضادةُ اللهِ في شرعِه إفسادٌ للخَلق والخَلِيقَة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الحُكمُ بما أنزل الله فيه صلاح الدنيا والآخرة، والحُكم بغير ما أنزل الله فيه فساد الدنيا والآخرة».

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣١٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٣٠٢).

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ما فسدت أحوال العالم الإسلامي وغير الإسلامي إلا بالحُكمِ بغير ما أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولو كانت الأمَّةُ الإسلامية صادقةً في إرادة العزة والكرامة والسعادة والفلاح لرجعت إلىٰ الحُكمِ بكتاب الله؛ لأن الحُكمَ بالقوانين الوضعية المخالفة للشريعة لا شك أنه خسارة بنص القرآن؛ لأنها باطل، وما أنزل به القرآن فهو أحق، فيكون عليهم من الخسران بقدر ما خالفوا من الحق».

ونقلَ شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحذيرَ الإمامِ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ردِّ قوْلِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمخلوقٍ، وخوفه علىٰ مَن فعلَ ذلك من الزيغ والشرك، حيث قال: «لعله إذا ردَّ بعض قوله، أنْ يقعَ في قلبِه شيءٌ من الزيغ فيهلك»، واستدل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

والآية التي استدل بها الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ دالةٌ علىٰ المأثور من قول السلف: «البدع والمعاصي بريد الكفر».

قال أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إني أخشىٰ إن تركتُ شيئًا من أمر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أزيغ»، رواه البخاري ومسلم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣]، أي: عن أمرِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتُوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبل، وما خالفه فهو مردود علىٰ قائله وفاعله، كائنًا مَن كان».

---

(١) تفسير سورة العنكبوت (ص٣٠٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٢).

شــرْحُ المســائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ النُّورِ**: ردُّ أمرِ الله من أسباب الزيغ والشرك.

٢) **تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٌ**: اتخاذ المخلوق مُشرِّعًا شركٌ في الربوبية.

٣) **التَّنْبِيهُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَدِيٌّ**: التأله لله بطاعته والانقياد لأمرِه وحُكمِه.

٤) **تَمْثِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَتَمْثِيلُ أَحْمَدَ بِسُفْيَانَ**: قولُ العلماء تبعٌ لقول الله ﷻ ورسوله ﷺ، وكلٌّ هؤلاء المذكورين منهجهم كذلك.

٥) **تَغَيُّرُ الْأَحْوَالِ إِلَىٰ هَذِهِ الْغَايَةِ، حَتَّىٰ صَارَ عِنْدَ الْأَكْثَرِ عُبَادَةُ الرُّهْبَانِ هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، وَتَسْمِيَتُهَا وِلَايَةً، وَعِبَادَةُ الْأَحْبَارِ هِيَ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ، ثُمَّ تَغَيَّرَتْ الْحَالُ إِلَىٰ أَنَّ عُبِدَ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَعُبِدَ بِالْمَعْنَىٰ الثَّانِي مَنْ هُوَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**: اللهُ يُهيِّئ أسباب تجديد الدِّين حتىٰ يكون كله لله، باتخاذ الله ربًّا، وإلهًا، وحَكَمًا.

۞ ۞ ۞

الْبَابُ الثَّامِنُ وَالثَّلَاثُونَ

بَابٌ: قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

[النساء: ٦٠].

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

- وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].
- وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].
- وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].
- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**».
- قَالَ النَّوَوِيُّ: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ الْحُجَّةِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ».
- وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ؛ عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَىٰ الْيَهُودِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ؛ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النساء: ٦٠] الآيَةَ.
- وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: نَتَرَافَعُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ الآخَرُ: إِلَىٰ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَىٰ عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَه.

فِيْـهِ مَسَـائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَىٰ فَهْمِ الطَّاغُوتِ.

٢) تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١] الآيَةَ.

٣) تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

٤) تَفْسِيرُ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

٥) مَا قَالَ الشَّعْبِيُّ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ الْأُولَىٰ.

٦) تَفْسِيرُ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ.

٧) قِصَّةُ عُمَرَ مَعَ الْمُنَافِقِ.

٨) كَوْنُ الْإِيمَانِ لَا يَحْصُلُ لِأَحَدٍ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ.

الشَّرْح

لا يزال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيِّن معنىٰ التوحيد، ويشرح أركانه، ويبيِّن مقتضياته ومستلزماته.

فإن ركني كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» نفي الألوهية الباطلة عن غير الله، وإثبات الألوهية الحقة لله وحده لا شريك له.

والتوحيد إفراد الله بخصائصه وما يجب له، فكما أنه لا يُعبد إلا الله، فكذلك لا يُتخذ حَكَمٌ غيره.

من أجْلِ هذا ابتدأ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠]، أي: بالطاغوت، وهو دليل علىٰ أن التحاكم إلىٰ الطاغوت منافٍ للإيمان، مضادٌ له، فلا يصح الإيمان إلا بالكفر به وترْك التحاكم إليه، فمَن لم يَكْفُر بالطاغوت لم يُؤْمِن به».

وذَكرَ شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ حال المضللين الذين احتجوا علىٰ مضادة حُكمِ الله عَزَّوَجَلَّ بأنهم فعلوا ذلك بقصد الإصلاح، حيث ساق في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إذا كان هذا حالَ المنافقين يعتذرون عن أمرهم، ويلبسونه؛ لئلا يظن أنهم قصدوا المخالفة لحُكمِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو التسخط له، فكيف بمَن يصرِّح بما كان المنافقون يُضْمِرُونه».

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦١، ٦٢].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يحلفون ما أرادوا إلا الإحسان والتوفيق، كحالِ مَن يرفض اليوم أحكام الإسلام، ويَحْكُم بالقوانين المخالفة لها؛ زعمًا منه أن ذلك هو الإحسان الموافق لأحوال العصر».

والذي لا ريب فيه: أنَّ شرْع الله هو العدل والإحسان لكل زمان ومكان، والحرجُ والمشقة والظلم والعَنَتُ في خلافه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٢/ ١١٠٤).
(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٢/ ١١٠٧).

لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ ﴾ [الحجرات: ٧].

وذكرَ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يَزْجُر عن التحاكم إلىٰ غير الله، واعظًا بقوله تعالىٰ: ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «في الآية إشارة إلىٰ أن مَن ابتغىٰ غير حُكمِ الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فقد ابتغىٰ حُكْمَ الجاهلية كائنًا ما كان».

وكيف تطيب نفْسُ مُسلِمٍ بتعطيل شرْعِ الله وحُكمِه، وكلُّ مُسلِمٍ مُوقِنٌ أن أحكام الله عدلٌ وكمال ومصلحة للعباد في دِينهم ودنياهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «هذا يشمل جميع ما حكمَ به، وأنه أحسن الأحكام وأكملها وأصلحها للعباد، وأسلمها من الخلل والتناقض، ومن الشر والفساد، إلىٰ غير ذلك من الآيات البينات العامة والخاصة.

أما عقائد هذا الدين وأخلاقه وآدابه ومعاملاته، فقد بلغت من الكمال والحسن والنفع والصلاح -الذي لا سبيل إلىٰ الصلاح بغيره- مبلغًا لا يتمكن عاقل من الريب فيه، ومَن قال سوىٰ ذلك فقد قَدَحَ بعقله، وبيَّن سفهه ومكابرته للضرورات.

وكذلك أحكامه السياسية ونُظُمه الحُكْمِيَّة والمالية مع أهله ومع غيرهم، فإنها نهاية الكمال والإحكام والسير في صلاح البشر كلهم، بحيث يجزم كلُّ عارفٍ مُنصِفٍ أنه لا وسيلة لإنقاذ البشر من الشرور الواقعة والتي ستقع إلا باللجوء إليه

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٢/ ١١١٩).

(٢) مجموع مؤلفات العلامة عبد الرحمن السعدي (٢٢/ ١٩٨، ١٩٩).

والاستظلال بظله الظليل، المحتوي علىٰ العدل والرحمة والخير المتنوع للبشر، المانع من الشر، وليس مستمدًا من نُظُمِ الخَلق وقوانينهم الناقصة الضئيلة، ولا حاجة به إلىٰ موافقة شيء منها، بل هي في أشد الضرورات إلىٰ الاستمداد منه.

فإنه تنزيلُ الحكيمِ العليم بأحوال العباد ظاهرها وباطنها، وما يصلحها وينفعها، وما يفسدها ويضرها، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، وأعلم بأمورهم، فشرعَ لهم شرعًا كاملًا مستقلًّا في أصوله وفروعه، فإذا عرفوه وفهموه وطبقوا أحكامه علىٰ الواقع صلحت أمورهم، فإنه كفيل بكل خير.

ومتىٰ أردتَ معرفة ذلك فانظر إلىٰ أحكامه حُكْمًا حُكْمًا في سياسة الحُكْم والمال والحقوق والدماء والحدود وجميع الروابط بين الخلق؛ تجدها الغاية التي لو اجتمعت عقول الخَلق علىٰ أن يقترحوا أحسن منها أو مثلها تَعذَّر عليهم واستحال».

وساق شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**»، حاثًّا علىٰ تحكيم شرعِ الله مُحذِّرًا من العدول عنه اتباعًا للهوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

وحقيقة الإسلام هو الاستسلام لله، والخضوع له، وعبوديته، فلا بد أن يكون المسلم مُنشرِحَ الصدر لأحكام الله مُذْعِنًا لها، غير مشاقٍّ لها ولا مُبْتغيًا غيرها.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ النُّعْمَانُ بْنُ قَوْقَل، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الْمَكْتُوبَةَ، وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ، وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ، أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نَعَمْ**»، رواه مسلم.

وَلْيَحْذَرِ المسلمُ من أسباب الكفر وحبوط العمل، قال تعالىٰ في شأن الكافرين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أي: لا يريدونه ولا يحبونه».

وفي خصومة اليهودي والمنافق الذي رغب في التحاكم إلىٰ اليهود لعلمه بأنهم يأخذون الرشوة ، بيانٌ لواقع مَن يتحاكم لغير شرع الله طلبًا للظلم ورغبةً عن العدل.

قال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «في القصة من الفوائد: أن الدعاء إلىٰ تحكيم غير الله جَلَّ وَعَلَا ورسوله ﷺ من صفات المنافقين».

شَـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَىٰ فَهْمِ الطَّاغُوتِ**: التوحيد تألُّهٌ لله، وتحاكمٌ إليه، واتخاذه ربًّا، والكفر بما يُعبد من دونه وبما يتحاكم من دونه.

٢) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ**: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١] **الآيَةَ**: عَدلَ الكافرون والمنافقون عن شرع الله بدعوىٰ الإصلاح.

٣) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ**: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]: بعثَ الله جَلَّ وَعَلَا رسله عليهم الصلاة والسلام بالوحي والشرع الذي يحصل به الصلاح، والفسادُ في العدول عنه.

٤) **تَفْسِيرُ** ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]: كلُّ ما خالف حُكْمَ الله فهو من حُكْمِ الجاهلية، وواضعه من أجهل الناس؛ لأنه تعالمَ في حق الله ورَغِبَ عن أحكام العدل التي شرعها الله.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٦).

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٢/ ١١٣٠).

٥) **مَا قَالَ الشَّعْبِيُّ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ الْأُولَىٰ:** عدلَ المنافق عن شرع الله إلىٰ التحاكم إلىٰ يهودي؛ لأنه مبطِلٌ ظالمٌ.

٦) **تَفْسِيرُ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ:** صِدقُ الإيمان تحقيقُ التوحيد، وكذبُه ترْكُه.

٧) **قِصَّةُ عُمَرَ مَعَ الْمُنَافِقِ:** ضربه بالسيف؛ لرغبته عن التحاكم للنبي ﷺ إلىٰ اليهودي.

٨) **كَوْنُ الْإِيمَانِ لَا يَحْصُلُ لِأَحَدٍ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ:** حقيقة الإسلام: الاستسلام لله، والانقياد له.

۞ ۞ ۞


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَـابُ التَّـاسِعُ وَالثَّـلَاثُـونَ

بَـابُ مَنْ جَحَـدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَـاءِ وَالصِّفَـاتِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] الآيَةَ.
- وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ؛ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!».
- وَرَوَىٰ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصِّفَاتِ؛ اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ: «مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ».
- وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

فِيـهِ مَسَـائِلُ:

١) عَدَمُ الْإِيمَانِ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

٢) تَفْسِيرُ آيَةِ الرَّعْدِ.

٣) تَرْكُ التَّحْدِيثِ بِمَا لَا يَفْهَمُ السَّامِعُ.

٤) ذِكْرُ الْعِلَّةِ؛ أَنَّهُ يُفْضِي إِلَىٰ تَكْذِيبِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَوْ لَمْ يَتَعَمَّدِ الْمُنْكِرُ.

٥) كَلَامُ ابْنِ عَبَّاسٍ لِمَنِ اسْتَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُ.

الشَّرح

حياة القلوب في تألهها إلىٰ باريها، والنفوس الزكية إنما تعبد مَن تَعْلَمه سميعًا بصيرًا قريبًا مجيبًا، فتصمد لمَن له الكمال في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وحقائق التوحيد عَرَفها المؤمنون عن فطرة سليمة، وعقلٍ صريح، ووحيٍ صادق، ومشاهدةٍ لأمْرِ الله ونهيه وخَلْقِه وحُكْمِه القَدَري.

فالمؤمن يَعْلَم أنه لا إله إلا الله، وقد شهد ربًّا حكيمًا عليمًا قديرًا ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قد تعرَّف إليه، وعرَّفه نفْسَه، وصفاته وأسماءه وأفعاله وأحكامه، فعرف من ذلك العهد: قيومًا بنفسه مقيمًا لغيره، غنيًّا عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، مستوٍ علىٰ عرشه، فوق جميع خَلْقه، يرىٰ ويسمع، ويرضىٰ ويغضب، ويحب ويبغض، ويدبر أمر مملكته، وهو فوق عرشه مُتكلِّم، آمِرٌ ناهٍ، يُرسِل رُسُله إلىٰ أقطار مملكته، بكلامه الذي يسمعه مَن يشاء من خَلْقه، وأنه قائم بالقسط، مجازٍ بالإحسان والإساءة، وأنه حليم غفور شكور جَوَاد محسن، موصوف بكل كمال، مُنزَّهٌ عن كل عيبٍ ونقصٍ، وأنه لا مِثْل له، ويشهد حِكْمته في تدبير مملكته، وكيف يُقدِّر مقاديره بمشيئةٍ غير مضادة لعدله وحِكْمته».

وإنكار صفات الله وقع من الكفار تكذيبًا، ومن المبتدعة تعطيلًا، ومَن أنكر الصفات من المبتدعة فإنه يعبد عدمًا.

والموحدون يعبدون ربهم محبةً ورجاءً وخوفًا لإيمانهم بأسماء الله وصفاته.

---

(١) الفوائد (ص٢٤٢، ٢٤٣).

فالإيمان بالله ينشأ من معرفة أسمائه وصفاته، فمَن عرفَ كمال الله أفرده بالعبادة، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنه لا يتم الإيمان بالله حتىٰ يُؤمِنَ العبد بجميع أسماء الله الحسنىٰ، وجميع ما دلت عليه من الصفات، وما صدر عنها من الأفعال والمتعلقات والأحكام.

وهذه الأصول الثلاثة هي أركان الإيمان بالأسماء والصفات، فيقولون: إنه عليم، وذو علمٍ عظيم، ويَعْلم كل شيء، قدير ذو قدرة، ويَقْدر علىٰ كل شيء، وهكذا بقية الأسماء الحسنىٰ علىٰ هذه الطريقة.

وهذه الأمور الثلاثة متلازمة: الأسماء تدل علىٰ الصفات، وهي مشتقة منها، وصفاته تدل علىٰ أسمائه، فما سُمِّي بالعليم القدير الحي السميع البصير ونحوها؛ إلا لِمَا اتصف به من كمال العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر، والفعل مرتبطة به الأسماء والصفات، فإنَّ إثباتَ أفعالٍ بدون أوصافٍ تَصْدُر عنها غيرُ معقولٍ، فآثار الرحمة والنِّعم تدل علىٰ أنه موصوف بالرحمة العظيمة، وآثار الحكمة وانتظام الخَلق والأمر تدل علىٰ كمال حِكمته، وهكذا».

وأسماء الله وصفاته أخبارُ صِدقٍ جاء الوحي بها في القرآن والسُّنة، التصديق بها إيمان والتكذيب بها كفرٌ وردٌّ علىٰ الله قوله.

قال نُعَيم بن حماد الخزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «مَن شبَّه اللهَ بخَلقه فقد كفر، ومَن أنكرَ ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف به نفسه ولا رسوله تشبيهًا».

وردُّ نصوصِ الأسماء والصفات تكذيبًا أو تحريفًا هو من الإلحاد في معانيها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت: ٤٠].

---

(١) توضيح الكافية الشافية (ص١٠٠).

(٢) العلو (ص١٢٦).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الإنكار نوعان:

الأول: إنكار تكذيب، وهذا كفرٌ بلا شك، فلو أن أحدًا أنكر اسمًا من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسُّنة، مثل أن يقول: ليس لله يدٌ، أو أن الله لم يستوِ علىٰ عرشه، أو ليس له عينٌ، فهو كافر بإجماع المسلمين؛ لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفرٌ مخرج عن الملة بالإجماع.

الثاني: إنكار تأويل، وهو أن لا ينكرها، ولكن يتأوَّلها إلىٰ معنىٰ يخالف ظاهرها، وهذا نوعان:

الأول: أن يكون للتأويل مُسوِّغ في اللغة العربية، فهذا لا يوجب الكفر.

الثاني: أن لا يكون له مسوغ في اللغة العربية، فهذا حُكمُه الكفر؛ لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيبًا».

وإنكار ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا علىٰ مَن انتفض لسماع حديث رسول الله ﷺ؛ لأنّه لم يُؤمِن به، وحالُ المسلمِ الإيمانُ بالقرآن والتعظيمُ لله عند سماع آيات القرآن في صفات الله، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

وفي الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنّ النبيّ ﷺ تلا هذه الآية فقال: «**إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابَهَ منه فأولئك الذين سمَّىٰ الله فاحذروهم**».

وأثرُ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «حدِّثوا الناس بما يَعْرِفون، أتريدون أن يُكذَّبَ الله ورسوله»، وردَ معناه أيضًا عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث قال: «ما أنتَ مُحدِّث قومًا حديثًا لا تَبْلُغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»، رواه مسلم في مقدمة صحيحه.

---

(١) القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد (٢/ ٢٩١).

وهذان الأثران المقصود منهما: مراعاة أحوال المتعلمين، وتعليمهم بما تحتمله عقولهم؛ لأنه لا يجوز كتمان العلم عن الجميع؛ لأن اللهَ بيَّنه في القرآن ورسولُهُ ﷺ أَتَمَّ بيانَهُ في السُّنة.

ونصوص الأسماء والصفات يجب تعليم الناس ما تدل عليه من كمال الله، ودفْع توهم الأفهام المغلوطة التي ربما تكون سببًا في ضلال مَن لا رسوخ عنده في فهمها.

وبيَّن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن جحْدَ شيء من أسماء الله وصفاته هو ككفر المشركين ببعض أسماء الله وصفاته، حيث ساق في هذا الباب قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: هذه الأمَّة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن، لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصفِ الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم؟ قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري، وقد قال الله تعالىٰ ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]».

شـرْحُ المسـائل:

١) **عَدَمُ الْإِيمَانِ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ**: إثبات أسماء الله وصفاته كما يليق بجلاله توحيد، وجَحْدُها كفرٌ وتكذيب للقرآن .

٢) **تَفْسِيرُ آيَةِ الرَّعْدِ**: وهو كفرُ المكذبين المشركين باسم الرحمن، فليحذر المسلم من التشبه بهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٧٥٢).

٣) **تَرْكُ التَّحْدِيثِ بِمَا لَا يَفْهَمُ السَّامِعُ**: وتهيئته للفهم الصحيح بالتعليم النافع.

٤) **ذِكْرُ الْعِلَّةِ؛ أَنَّهُ يُفْضِي إِلَىٰ تَكْذِيبِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَوْ لَمْ يَتَعَمَّدِ الْمُنْكِرُ**: وحِفْظُ إيمان الناس واجب، ومما يجب أيضًا تعليمهم التوحيد، وتنقية قلوبهم من الفهم المغلوط لمعاني أسماء الله وصفاته.

٥) **كَلَامُ ابْنِ عَبَّاسٍ لِمَنْ اسْتَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُ**: يُستفاد منه إنكار العلماء علىٰ مَن يستنكر كلامَ اللهِ ورسوله، ولا يُصدِّقه.

۞ ۞ ۞

الْبَــابُ الْأَرْبَعُــونَ

بَــابٌ: قَــوْلُ اللهِ تَعَــالَى:

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٣] الآيَةَ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◈ قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي».

◈ وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا».

◈ وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: «يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا».

◈ وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ -بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ؛ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ**...» الْحَدِيثَ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ-: «وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَيُشْرِكُ بِهِ».

◈ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَىٰ أَلْسِنَةٍ كَثِيرٍ».

فِيــهِ مَسَــائِلُ:

١) تَفْسِيرُ مَعْرِفَةُ النِّعْمَةِ وَإِنْكَارِهَا.

٢) مَعْرِفَةُ أَنَّ هَذَا جَارٍ عَلَىٰ أَلْسِنَةٍ كَثِيرَةٍ.

٣) تَسْمِيَةُ هَذَا الْكَلَامِ إِنْكَارًا لِلنِّعْمَةِ.

٤) اِجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ فِي الْقَلْبِ.

الشَّرح

هذا الباب من أنواع توحيد الربوبية؛ لأن النعم من الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأن توحيد الربوبية هو توحيد الله بأفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكلُّ النعم من الله جَلَّ وَعَلَا، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، ويقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ٣]، لا إله إلا الله! لا رازق إلا الله، ولا خالق إلا الله.

فهذا الباب ضروري في تصحيح عقائد الناس؛ ذلك أن الناس يقع في ألفاظهم من الألفاظ الشركية، وفي قلوبهم من اعتقاد الشرك ما سنبيِّنه مما يوجب النصيحة في هذا الأمر.

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي»، وهذا موجود كثيرًا في كلام الناس، إذا قالوا له: من أَين لك هذا المال وهذا الرزق؟ يقول: هذا مالي ورثته عن آبائي!

وآباؤك مَن رزقهم؟!

اللهُ جَلَّ وَعَلَا.

ومَن حَفِظَ لهم النعمة والرزق حتىٰ توارثها أبناؤهم؟!

اللهُ جَلَّ وَعَلَا؛ وهذا يوجب شكرًا مضاعفًا إذ أنعم الله عليك وعلىٰ آبائك، ومتَّعكم بهذه النعم أنتم وآباؤكم.

ويقع في ذِكر الأسباب شركٌ ويقع تعطيل للأسباب، كيف يقع شركٌ؟ بحيث أنها لا تُنسب لله جَلَّ وَعَلَا، هذا شركٌ في الربوبية، وهذا واقع من قبل وما زال في الناس إلا مَن شاء الله جَلَّ وَعَلَا، بحيث أنه ينسب الفعل إلىٰ نفسه، ولا ينسب خَلْقَ الفعل إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا، ويغفل، لا يذكر هو السبب علىٰ أنه سببٌ، هذا لو ذَكره علىٰ أنه سببٌ وأن الله جَلَّ وَعَلَا مُسبِّبه فهذا كان يقوله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال النبي ﷺ: «**لولا أنا لكان أبو طالب في الدَّرك الأسفل من النار**» رواه البخاري، يعني النبي ﷺ شفع فيه فخُفف عنه العذاب.

ولماذا ما جُنِّب العذاب وإنما خُفف عنه؟

لأن الكفار لا يدخلون الجنة، قال تعالىٰ في الكفار: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨] لكن النبي ﷺ استُجيب له في تخفيف العذاب عن عمِّه، فالنبي ﷺ قال: «لولا أنا لكان أبو طالب في الدَّرك الأسفل من النار».

والنبي ﷺ قالها وهو يَعْلم أنه مجرد سببٍ، وأنَّ الله أذن له في الشفاعة، ولولا ذلك ما قُبلت شفاعته؛ لأن الشفاعة لها شرطان:

١) إذْنُ الله للشافع.

٢) ورضاه عن المشفوع.

واللهُ ﷻ لا يرضىٰ عن الكافرين، لكنَّ الله ﷻ أذِنَ لنبيه ﷺ أن يشفع في عمه في أن يُخفَّف عنه العذاب.

مَن يذكر السبب علىٰ أنه هو فاعله كما يقع من غلاة القدرية، وكما وقع من المشركين من قبل، ومن الدهريين في الزمن الحاضر، فهذا شركٌ أكبر.

قال قارون عن الأموال التي عنده: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]، يعني: بحِذقي وبذكائي وبحسن تدبيري للأمور هو الذي جلبَ لي هذه الثروة الطائلة، وهذه الأموال العظيمة، وهذا شركٌ.

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

ووسطية أهل السنة والجماعة أنهم يثبتون الأسباب، ويعلمون أن الله ﷻ هو مُسبِّب الأسباب، وأن الله ﷻ يرزق عبده من غير سببٍ منه، وأن الله ﷻ يرزق عبده

من غير السبب الذي سعىٰ في تحصيل الرزق من جهته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وكم من ساعٍ في طريقٍ معين ليحصِّل رزقه وجاءه رزقه من سببٍ آخر.

ويعتقد أهل السُّنة والجماعة أنه قد يُوجد السبب ولا يحصل المسبَّب، قد يتعطل السببُ عن سببيته، والله ﷻ هو الذي يُعطِّله، ما أكثر ما نرىٰ السحاب مُلبَّدًا في السماء، ويُرسل ﷻ الرياحَ فتمطر، وأحيانًا لا تمطر، أليس كذلك؟

وأحيانًا قد تمطر -أيضًا- ولا تنبت الأرض، عطَّل اللهُ ﷻ السبب عن مقتضاه، كما جاء في صحيح مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**ليس السَّنَةُ أن لا تُمطروا، ولكن السَّنَةَ أن تُمطروا ولا تُنْبِتُ الأرض**».

والسَّنَةُ: هي الجَدب والقَحْط.

فشأن المؤمن إثبات الأسباب وليس تعطيلها، لكن ينسبها إلىٰ مُسبِّبها وهو الله ﷻ، ويعلم أن الله ﷻ لو شاء لعطَّل السبب عن سببيّته.

واللهُ ﷻ أمَر عباده بالتوكل عليه وعبادته، وقرَن التوكل بعبادته؛ ليبيِّن أنه لا يمكن أن تُحصّل الأمور بدون السعي في تحصيل أسبابها ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

واللهُ ﷻ ذَكرَ في شأن أهل الكهف كيف أن الله ﷻ قبض أرواحهم، أو يعني: أماتهم في نومهم، كم لبثوا في كهفهم؟ ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥].

اللهُ ﷻ علَّم بني آدم الأسباب في قصة أصحاب الكهف، فكان الله ﷻ يُقلِّب هؤلاء، أصحاب الكهف ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨].

يقول الحافظ محمد بن علي الكَرَجي في (نُكَت القرآن الدالة على البيان)، قال: «لو شاء الله ﷻ لجعلهم في جهة واحدة، على جنبٍ واحد، ذات اليمين أو ذات الشمال، لكنّ الله ﷻ قلّبهم ذات اليمين وذات الشمال؛ ليُعلِّم عباده أن البِلَىٰ للأجساد يكون إذا استمر علىٰ جهةٍ واحدة لوقتٍ طويل، وأنَّ الله ﷻ إنما قلَّب أبدانهم ذات اليمين وذات الشمال حفظًا لها من البِلَىٰ».

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «أن أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا وصلوا مكة سألوا الناس» فأنزلَ اللهُ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فلا بُدَّ من بذل الأسباب، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]؛ ولذلك يقول العلماء: «تعطيل الأسباب قدحٌ في العقل وفي الشرع، والالتفات للأسباب عن مُسبِّبها شرك».

فلا بد من التوسط في الأمرين جميعًا، أنْ يُثْبِت الإنسان الأسباب، ويعتقد أنها مجرد أسباب وأن الله ﷻ هو مُسبِّب الأسباب، وأن الله ﷻ لو شاء لعطَّل هذه الأسباب عن مقتضاها وعن سببيّتها.

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا» هذا حُكْمه علىٰ التفصيل الذي ذكرناه.

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: «يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا»، هذا شرك أكبر، يعني: ينسبون ما يُقدِّره الله من مقاديرَ لخَلْقه في الدنيا إلىٰ شفاعة الموتىٰ الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فهؤلاء كأنّهم يعتقدون أن هؤلاء الموتىٰ لهم تصرفٌ في الكون.

وكذلك مَن جعلهم سببًا في قبول الدعاء، فقد أشرك أيضًا شركًا أكبر.

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب -*رحمه الله تعالى*- في **كشف الشبهات**: هذا الذي من أجله قاتل النبي ﷺ مشركي قريش، قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

ثم قال: «وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ» يعني شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم أبو العباس الحرَّاني -رحمه الله تعالى-، يعني «بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ» الجهني، الذي فيه أنَّ النبي ﷺ صلىٰ الصبح في الحديبية علىٰ إثر سماء، ثم التفت إلىٰ أصحابه فقال: «**قال الله سبحانه وتعالى: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا..**»، النَّوء: هو منازل الكواكب، قال: «**فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**»، هذا شركٌ في الربوبية.

يقول: «وَقَدْ تَقَدَّمَ» يعني: في أبوابٍ سابقة، «وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَيُشْرِكُ بِهِ».

«وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ» يعني: الريح طيبة، لكن مَن الذي جعلها تستقر، ولو شاء الله عز وجل لجعل الأمواج تموج بأهل السفينة، أليس الله؟!

وأيضًا حِذْق الملاح، مَن الذي جعله لا يغفل ويكون في تركيز يُحسن به قيادة السفينة؛ إنه الله، فاللهُ عز وجل قادر في لحظة أنْ يزيغ بصره ويجعله يسيء قيادة السفينة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

فانسبْ كل شيء إلىٰ الله عز وجل؛ ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢]، انقلبت عليهم الأمور في لحظةٍ، بعد أن كانت الريح طيبة، صارت ريحًا عاصفًا.

ونحن إذ نُدرِّس العلم أيضًا يتأكد عليكم جميعًا -وأنا أولكم- أن ننسب العلم إلىٰ الله.

موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كما جاء في صحيح البخاري: «**قام خطيبًا في بني إسرائيل، وسُئل: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه**» الحديث، «**فأوحىٰ الله إليه أن عبدي فلان الخضر هو أعلم منك بمجمع البحرين ارحل إليه**».

انسب العلم إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، كل نعمة انسبها إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، كل حول وقوة واستعانة اجعلها بالله عَزَّ وَجَلَّ، لا تغفل عن هذا، هذا من أسباب حفظ هذه النعم، ومن أسباب بركة هذه النعم، ومن أسباب زيادة الفضل من الله عَزَّ وَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

يقول العلماء: **الشكر: شكرُ القلب أولًا؛ باعتراف القلب بإضافة النعمة إلىٰ الله**.

وشكر اللسان: أنك تحمد الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ نعمه بلسانكَ.

وشكر الجوارح: أن تستعمل النعم في طاعة الله، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣].

أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعلني وإياكم دائمًا ممن ينسب النعم إلىٰ باريها ومُسدِيها، ربنا وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا شريك له، وأن نستعينه دائمًا في شئوننا كلها، ليس شيءٌ بحذقنا، حتىٰ الهداية، وطلْب العلم، ونِعَم الله عَزَّ وَجَلَّ واجتنائها، وتحصيلها كلها من الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي يسبب الأسباب، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣]، وَقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، والله أعلم.

شـــرْحُ الـمســـائل:

١) **تَفْسِيرُ مَعْرِفَةُ النِّعْمَةِ وَإِنْكَارِهَا**: اعتقاد أنَّ الله مُسديها، ونسبتها لغيره شركٌ وإنكار لنِعم الله.

٢) **مَعْرِفَةُ أَنَّ هَذَا جَارٍ عَلَىٰ أَلْسِنَةٍ كَثِيرَةٍ**: هذا يوجب علىٰ المسلم محاذرته والتحذير منه.

٣) **تَسْمِيَةُ هَذَا الْكَلَامِ إِنْكَارًا لِلنِّعْمَةِ**: كنْ من الشاكرين لأنعم الله، ولا تكنْ من الجاحدين المنكرين لها.

٤) **اِجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ فِي الْقَلْبِ**: اجعلْ قلبكَ وعاءَ خيرٍ، واحرصْ علىٰ تزكيته؛ بالاعتقاد الصحيح، والعلم النافع، والعمل الصالح، والنيات الخالصة لله، والإرادات الطيبة، وعليكَ بتنقيته من: شوائب الشرك، والاعتقاد الباطل، والرياء، والإرادات المذمومة.

الْبَابُ الْحَادِي وَالْأَرْبَعُونَ

بَابٌ: قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◈ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: «الأَنْدَادُ؛ هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللهِ وَحَيَاتِكِ يَا فُلَانَةُ، وَحَيَاتِي، وَتَقُولَ: لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَى اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ». رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

◈ وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

◈ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا».

◈ وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

◈ وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: (أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ)، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: (بِاللهِ ثُمَّ بِكَ)، قَالَ: وَيَقُولُ: (لَوْلَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ)، وَلَا تَقُولُوا: (لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ).

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ فِي الْأَنْدَادِ.

٢) أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُفَسِّرُونَ الْآيَةَ النَّازِلَةَ فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ أَنَّهَا تَعُمُّ الْأَصْغَرَ.

٣) أَنَّ الْحَلِفَ بِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ.

٤) أَنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ صَادِقًا فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْيَمِينِ الْغَمُوسِ.

٥) الْفَرْقُ بَيْنَ (الْوَاوِ) و(ثُمَّ) فِي اللَّفْظِ.

الشَّرح

استهلَّ شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب بالتحذير من الشرك، وذَكرَ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنواعًا منه من الشرك في الألفاظ.

ثم ذَكرَ حديث الفاروق عن النبي ﷺ في التحذير من الشرك في الألفاظ، وأَتْبَعه بعد ذلك بأثر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتضمن بيان تغلُّظ الشرك أعظم من كبائر الذنوب والمعاصي.

وذَكرَ بعد ذلك حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ في التوجيه لاستعمال الألفاظ الشرعية التي تحفظ منطق المسلم عن الألفاظ الشركية.

وفي خاتمة الباب ذَكرَ أثرَ التابعي إبراهيم النخعي فيما يُكره من الألفاظ الشركية.

والتوحيد اعتقادٌ بالقلب، ونُطْق باللسان، وعملٌ بالجوارح والأركان، فلابُدَّ أن يكون منطق اللسان نابعًا من حقائق كلمة التوحيد.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

والكلم الطيب والعمل الصالح هو من حقائق اعتقاد التوحيد، فالتوحيد

الخالص يستلزم الكلمة الطيبة والعمل الطيب، قال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الكلم الطيب: التوحيد والثناء علىٰ الله تعالىٰ.

قال علي بن المديني: الكلم الطيب: لا إله إلا الله. والعمل الصالح: أداء الفرائض واجتناب المحارم.

وفي هاء (يرفعه) ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ترجع إلىٰ الكلم الطيب، والعمل الصالح هو الرافع، قاله ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير.

المعنىٰ: أن هذه الكلمة الطيبة التي هي (لا إله إلا الله) لا تصعد إلىٰ السماء فتُكتب حيث تُكتب الأعمال المتقبلة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، إلا إذا اقترن بها العمل الصالح الذي يحققها ويُصدِّقها.

وكان الحسن يقول: يُعرض القول علىٰ الفعل، فإن وافق القول الفعل قُبل، وإنْ خالفه رُدَّ.

القول الثاني: أنها تعود إلىٰ العمل الصالح، والكلام الطيب هو الرافع؛ لأنه لا يُتقبل عملٌ إلا من مُوحِّد، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، يريد: الذين يتقون الشرك، وهذا عكس القول الأول.

القول الثالث: أنها تعود إلىٰ الله تعالىٰ، علىٰ معنىٰ: يرفعه الله تعالىٰ لصاحبه، قاله قتادة والسُّدِّي.

ويؤيد القولين الثاني والثالث قراءة مَن قرأ: (والعملَ الصالح)، بالنصب».

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٦/ ٢٧٦، ٢٧٧).

ابتدأ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بالتحذير من الشرك مُذكِّرًا بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وذكر تفسير ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لبعض أنواع الشرك، حيث نقل عنه قوله[1]: «هو أن تقول: واللهِ، وحياتك يا فلانة، وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص.

وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلانًا، هذا كله به شرك».

وتفسير ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا هو تفسير للشرك بذكر بعض أفراده، تنبيهًا علىٰ معنىٰ الشرك وتحذيرًا منه.

وقد تضمن تفسير ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا التحذير من الحلف بغير الله كقول: وحياتك.

وتضمن التحذيرَ من نسبة إيجاد وحصول الأشياء إلىٰ مشيئة المخلوق معطوفة علىٰ مشيئة الله.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا قال: ما شاء الله وشئت، فقد جعل خالِقَيْن».

ونسبة الأشياء إلىٰ غير مُسبِّبها، أو نسيان أنها من الله شركٌ، وهو منافٍ لتوحيد الربوبية، فالله وحده هو مُسبِّب الأسباب.

والسبب لا يستقل بالإيجاد، فلا يكفي أن يأتي المخلوق بالسبب إذا لم يشأ الله إيجاده، ولا يحصل الإيجاد إذا لم يوفق الله المخلوق لدفع المعارضات عما يسعىٰ لإيجاده.

فالمُوَفَّق مَن كان مستعينًا بالله، راجيًا توفيق ربه في حصول مساعيه، قال شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وهو في كل حالٍ شاكرٌ لأنْعُمِ الله الذي هيَّأه لأسباب مساعيه، وأتمَّ نعمته عليه بحصولها.

---

(١) كتاب التوحيد (ص٧٦).

وشهود الموحدين تفرُّد الله بالعلم والخَلق والمشيئة والإرادة والتقدير، من أسباب التحقق بالتوحيد، وقطْع أسباب الشرك، وصحة المنطق.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، فالمخلوق لا يمكنه الاستقلال بالفعل، فالله هو الذي خلق فيه الإرادة والقدرة والهداية إلىٰ فعل الأسباب، فكيف والحال هذه يغفل عن مُسبِّب الأسباب، وينسب إيجاد الأمور إلىٰ فعله ومَن أعانه.

والنبي ﷺ في تحذيره من قول: «ما شاء الله وشاء فلان» أرشدنا إلىٰ صواب المنطق في ذِكر مشيئة المخلوق متأخرة عن مشيئة الله حيث قال: «**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان**»، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

علىٰ كل حالٍ، مَن أضاف الشيء إلىٰ سببٍ شرعي أو حسي صحيح؛ جاز إذا كان معتقدًا أن الله ﷻ هو مُسبِّب الأسباب، وأن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله، وأن المخلوق لا يستقل بإيجاد الأشياء، وأنه لولا أنَّ الله أقدره ما استطاع عملًا ولا إيجاد شيء.

قال النبي ﷺ: «**لولا أنا، لكان أبو طالب في الدرك الأسفل من النار**»، رواه البخاري.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «نسبة الشيء إلىٰ سببه المعلوم يجوز، لكن لا يُقرن مع الله بالواو، فإنْ قُرن مع الله بالواو صار حرامًا، مثل أن يقول: (لولا الله وفلان لغرقتُ)، هذا لا يجوز.

إذا قال: (لولا الله قيَّد لي فلانًا لغرقتُ)، هذا يصح، وهو أعلىٰ الأنواع، لأنه ذكر المُسبِّب والسببَ.

---

(١) تفسير سورة الشورىٰ ص٣١٩.

إذا قال: (لولا فلان لغرقتُ)، هذا جائز؛ لأنه أضافه إلىٰ سببٍ معلوم وصحيح.

إذا قال: (لولا الله وفلان لغرقتُ)، هذا لا يجوز؛ لأنه شركَ بين الله وغيره بحَرْفٍ يقتضي التسوية.

إذا قال: (لولا الله ثم فلان لغرقتُ)، يجوز».

وذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن حلفَ بغير الله فقد كفر أو أشرك**»؛ تحذيرًا من شركِ الحلف بغير الله، وهذا النوع من الشرك جارٍ علىٰ ألسنة كثير من الناس -إلا مَن رَحِمَ الله-.

والحلف هو توكيد المحلوف عليه بذِكر مُعظَّم، والعظيم هو الله، ومَن عظَّم غيره في يمينه فقد أشرك.

فاملأ قلبكَ -أيها المسلم- من تعظيم الله، ولا تحلف إلا به، وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: قال النبي ﷺ: «**مَن كان حالفًا، فليحلف بالله أو فليصمت**».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ومن الشرك به سبحانه: الشرك به في اللفظ، كالحلف بغيره».

والحلف بغير الله شركٌ؛ لأنه مضاهاة للمخلوق بالله في التعظيم، قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «المضاهاة: أن يحلف بغير الله تعظيمًا للمحلوف به، فشبَّه خَلْقَ اللهِ به في التعظيم، قال الله تعالىٰ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ [التوبة: ٣٠]».

(١) الجواب الكافي (ص٣١٠).
(٢) الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار (١٥/ ٩٦).

وقد أمر النبي ﷺ بتعظيم الله في الأيمان، فقال: «**مَن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**».

وأمر النبي ﷺ مَن حلفَ بغير الله بتدارك ذلك بتوحيد الله، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَن حلفَ باللات والعُزَّىٰ، فليقل: لا إله إلا الله**».

قال العلامة الحسين بن مسعود البغوي رحمه الله(١): «أمره بكلمة التوحيد؛ لأن اليمين إنما تكون بالمعبود، فإذا حلف باللات والعزىٰ، فقد ضاها الكفار في ذلك، فأمر أن يتداركه بكلمة التوحيد».

وحذَّر ابن مسعود رضي الله عنه من الشرك بالحلف بغير الله، وبيَّن أن الشرك بالحلف بغير الله أعظم إثمًا من اليمين الغموس، وهو لم يُرِد التهوين من الكذب بالحلف بالله، حيث قال: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا».

فالحلف بغير الله شركٌ، والحلف بالله تعظيم له، ويجب تعظيم الله بالصدق في اليمين، فلا تحلف إلا بالله صادقًا.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله(٢): «الحلف بغير الله شرك أكبر إن أعتقد أن المحلوف به مساوٍ لله تعالىٰ في التعظيم والعظمة، وإلا فهو شرك أصغر».

والألفاظ الشركية متىٰ كان سببُها اعتقاد قلبي بالتشريك؛ كان شركًا أكبر.

والواجب علىٰ المسلم اجتناب الألفاظ الشركية التي تجعل المخلوق في رتبة الله أو تعظيمه أو إيجاده أو استعانته أو استعاذته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

---

(١) شرح السنة (١٠/ ١٠).

(٢) شرح كتاب التوحيد (ص٧٩٧)، المطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ المجلد العاشر.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أعلمَ اللهُ خَلْقه أن المشيئة له دون خَلْقِه، وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء، والمشيئة إرادة الله».

وختمَ شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بأثر إبراهيم النخعي أنه قال: يُكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك، قال: ويقول لولا الله ثم فلان، ولا يقول: لولا الله وفلان.

والكراهة في اصطلاح السلف المتقدمين تفيد التحريم، وجعل رتبة المخلوق مع الله شركٌ.

قال العلامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الحلف بغير الله، وكالتشريك بين الله وبين خلقه في الألفاظ، كـ (لولا الله وفلان، وهذا بالله وبك)، وكإضافة الأشياء ووقوعها لغير الله، كـ (لولا الحارس لأتانا اللصوص، ولولا الدواء الفلاني لهلكتُ، ولولا حذق فلان في المكسب الفلاني لما حصل...)، فكلُّ هذا ينافي التوحيد.

والواجب أن تُضاف الأمور ووقوعها ونفع الأسباب إلىٰ إرادة الله، وإلىٰ الله ابتداءً، ويذكر مع ذلك مرتبة السبب ونفعه، فيقول: (لولا الله ثم كذا)؛ ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره. فلا يتم توحيد العبد حتىٰ لا يجعل لله ندًّا في قلبه وقوله وفعله».

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤١٢).

(٢) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص١٢٤).

شــرْحُ المســائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ فِي الْأَنْدَادِ**: مَن عظَّم مخلوقًا أو نسب إليه شيئًا من أفعال الله أو صرف إليه شيئًا من العبادات؛ فقد اتخذه نِدًّا.

٢) **أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يُفَسِّرُونَ الْآيَةَ النَّازِلَةَ فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ أَنَّهَا تَعُمُّ الْأَصْغَرَ**: الشرك بأنواعه واجب الاجتناب، والشرك الأصغر ذرائع للأكبر.

٣) **أَنَّ الْحَلِفَ بِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ**: لأن فيه تعظيمًا للمحلوف به من غير الله.

٤) **أَنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ صَادِقًا فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْيَمِينِ الْغَمُوسِ**: الشرك أعظم إثمًا من الكبائر، وكلاهما واجب الاجتناب.

٥) **الْفَرَقُ بَيْنَ (الْوَاوِ) و(ثُمَّ) فِي اللَّفْظِ**: المخلوق مُتأخِّر الرتبة عن الله، لا يكون في رتبته بحالٍ.

۞ ۞ ۞

الْبَــابُ الثَّــانِي وَالْأَرْبَعُــونَ

بَــابُ مَا جَــاءَ فِيمَــنْ لَمْ يَقْنَــعْ بِالحَلِفِ بِاللهِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◊ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ». رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) النَّهْيُ عَنِ الْحَلِفِ بِالْآبَاءِ.

٢) الْأَمْرُ لِلْمَحْلُوفِ لَهُ بِاللهِ أَنْ يَرْضَىٰ.

٣) وَعِيدُ مَنْ لَمْ يَرْضَ.

الشَّرْح

الحلف هو: توكيدُ المحلوف عليه بذِكر مُعظَّم، ومن تعظيم الله أن لا تحلفَ بغيره، ولا تحلف به كاذبًا.

والحلف بغير الله شركٌ، قال النبي ﷺ: «**مَن حلف بغير الله فقد أشرك**»، ومن تعظيم الله حفظُ اليمين عن الحنث، قال تعالىٰ: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩]، إلا من ضرورة الإتيان بما هو أفضل من المحلوف عليه.

وقوله ﷺ فيمن حُلف له بالله: «**ومَن لمْ يرضَ فليس من الله**» دالٌّ علىٰ أنّ ذلك من كبائر الذنوب.

وفي الحديث: تنبيهٌ علىٰ أنّ من تعظيم الله وإجلاله: أن لا يُحلف إلا به، ولا يُحلف به إلا صِدقًا، وأن يُرضىٰ بيمينِ وحلفِ الصادق.

قال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قوله: «**مَن حلفَ بالله فلْيَصْدُقْ**»، هذا مما أوجبه الله علىٰ عباده، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥].

قوله: «**ومَن حُلف له بالله فليرضَ، ومَن لمْ يرضَ فليس من الله**»، هذا من حق المسلم علىٰ المسلم أن يَقْبَل منه إذا حلف له معتذرًا، والحديث يدل علىٰ الوجوب.

ومن حقه عليه: أن يُحسن به الظن إذا لم يتبين كذبه كما في الأثر عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (ولا تظنن بكلمة خرجتْ من أخيكَ شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملًا)، وهو من حُسْن الخُلق، ومكارم الأخلاق، وكمال العقل وقوة الدِّين».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إن كان الحالف موضِعَ صِدقٍ وثقة، فإنك ترضىٰ بيمينه، وإن كان غير ذلك، فلكَ أن ترفض الرضا بيمينه، ولهذا لمَّا قال النبي ﷺ لحُوَيِّصَة ومُحَيِّصَة: «**تبرئكم يهود بخمسين يمينًا**»، قالوا: كيف نرضىٰ يا رسول الله بأيمان اليهود؟(٣)، فأقرَّهم النبيُّ ﷺ علىٰ ذلك».

---

(١) قُرَّة عيون الموحدين (ص٢٠٧).

(٢) شرح كتاب التوحيد (ص٨٠٧)، المطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ المجلد العاشر.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

شـرْحُ المسـائل:

١) **النَّهْيُ عَنِ الْحَلِفِ بِالْآبَاءِ**: لا يجوز الحلف إلا بالله.

٢) **الْأَمْرُ لِلْمَحْلُوفِ لَهُ بِاللهِ أَنْ يَرْضَىٰ**: لأنّ ذلك من تصديق المؤمنين في صِدْقهم بالحلف بالله.

٣) **وَعِيدُ مَنْ لَمْ يَرْضَ**: براءةُ اللهِ منه.

۞ ۞ ۞



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَـــابُ الثَّـــالِثُ وَالْأَرْبَعُـــونَ

بَـــابٌ: قَـــوْلُ (مَا شَـــاءَ اللهُ وَشِـــئْتَ)

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ عَنْ قُتَيْلَةَ: أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.

◊ وَلَهُ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟! مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**».

◊ وَلِابْنِ مَاجَهْ، عَنِ الطُّفَيْلِ -أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا- قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَىٰ نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَىٰ، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «**هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَىٰ رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**».

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) مَعْرِفَةُ الْيَهُودِ بِالشِّرْكِ الْأَصْغَرِ.

٢) فَهْمُ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوًىٰ.

٣) قَوْلُهُ ﷺ: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟!**»؛ فَكَيْفَ بِمَنْ قَالَ:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ، مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ........

وَالْبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ؟!

٤) أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ؛ لِقَوْلِهِ: «**يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا**».

٥) أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الْوَحْيِ.

٦) أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِشَرْعِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ.

الشَّرْح

هذا باب قول: ما شاء الله وشئتَ، وهذا البابُ زيادةُ بيانٍ للبابين قَبْله، باب قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، حيث ذكر فيه المؤلِّف نهْيَ النبي ﷺ عن قول: ما شاء الله وشئتَ، وأمره أنْ يقول: ما شاء الله ثم شئت.

هنا هذا الباب جاء أيضًا لحماية جناب التوحيد أكثر، وأنه عوضًا عن أن تقول: ما شاء الله ثم شئت، تقول: ما شاء الله وحده.

وهذا يدل ضرورةً علىٰ قراءة وفهم وفقه أبواب التوحيد كلها؛ لأنها متعاضدة في تحقيق التوحيد، ويدل أيضًا علىٰ قيمة هذا الكتاب؛ لعنايته بحفظ جناب التوحيد، ونصحه في التحذير من وسائل الشرك.

وكتاب التوحيد من فضائله وخصوصياته: عنايته بحماية جناب التوحيد وتحذيره من الألفاظ والأفعال التي توقع في الشرك، ويُتدرَّج ويُتوسل بها إلىٰ ذلك.

فالأكملُ في حفظ التوحيد وصيانته أن تقول: ما شاء الله وحده؛ لأن المخلوق لا مشيئة له إلا بتقدير الله له، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

فجاء هذا الباب تتميمٌ في البيان، وفي حفظ التوحيد في استعمال الألفاظ، فتقول: ما شاء الله وحده.

وحديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: **أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟!»** أنكر عليه النبي ﷺ.

وقد كان النبي ﷺ ينكر ما يقع من بعض الصحابة حدثاء العهد بالإسلام ما يقع منهم من زلل مما يجري علىٰ لسانهم مما اعتادوه في الجاهلية من ذكر هذه الألفاظ، فالنبي ﷺ يصحح هذا، ويُنكر عليهم، فقال لمَن قال له: ما شاء اللهُ وشئتَ: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟!**».

لماذا قال له: «**أجعلتني لله ندًّا؟**»؟

لأنه جعل مشيئة المخلوق مع مشيئة الله في رتبةٍ واحدة، مساوية له، فكأنه -كما قال الإمام الشافعي- أثبت للفعل خالقَيْن، فقال له النبي ﷺ: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟!**» **يعني: هذا شركٌ**.

وقولُ النبي ﷺ: «**قل: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»، هذا غاية ما يكون في التوجيه، إذا نهيتَ عن شيء تدل وترشد إلىٰ الألفاظ الشرعية، ودلَّ النبي ﷺ إلىٰ أكمل لفظ أن يقول: ما شاء الله وحده.

وهكذا ينبغي أن نوطن ألسنتنا علىٰ ألا نذكر مشيئة المخلوق مع مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ ولو باستعمال لفظ «ثم» الذي يدل علىٰ تأخر رتبة مشيئة المخلوق عن مشيئة الله، اترك المفضول إلىٰ الأفضل، لا تقل: ما شاء الله ثم شاء فلان، وقل: ما شاء الله وحده.

ثم ساق المصنف -رحمه الله تعالى- حديث قتيلة «أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ»، هذا يهودي جاء إلى النبي ﷺ، يقول: «إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ».

وهذا الحديث في معنى حديث الطفيل في رؤيا رآها منامًا، رأى أن نفرًا من اليهود مروا عليه وقالوا: «إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ» هذا ثناءٌ عليهم، «لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ»، فهذا اليهودي لم يجد ما ينقم فيه على أصحاب محمد ﷺ، أو بعض أصحاب محمد ﷺ إلا قول بعضهم: «ما شاء الله وشاء محمد»، وهو قد وقعَ من بعضهم ممن لم يقصد أن يثبت خالقًا مع الله عَزَّوَجَلَّ في أفعال العباد.

وكان مما رأى الطفيل أنه أتى على نفرٍ من اليهود، فقال لهم: «إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ، وأتى على نفرٍ من النصارى، وقال لهم: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله».

وبالنسبة للواقع لا للرؤى، فإنَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اعتقادهم وعملهم التوحيد، وما يسبق به لسانهم من قول: «ما شاء الله وشئتَ» يتوبون منه. أما النصارى واليهود فاعتقادهم الشرك وهم مُقِيمُون عليه، ويَكْفُرون بمحمدٍ ﷺ الذي بشَّر به موسى وعيسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

واليهود مشركون الشرك الأكبر، عُبَّاد أصنام، صنعوا عجلًا من الذهب الذي سرقوه من القبط فاتخذوه إلهًا، وعبدوه.

الشرك ليس هو هدي الصحابة كهدي بني إسرائيل، بنو إسرائيل كلهم كفار مشركون، ما آمن منهم إلا قليل؛ عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونفرٌ قليل جدًّا.

اليهود عبد الطاغوت ينكرون على المؤمنين الإيمان الصحيح، وهم مغضوب عليهم يحرِّفون كلامَ الله ويعاندون أمره، قال الله جَلَّ وَعَلَا عنهم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٥٩، ٦٠].

وانظروا إلى إنصاف المسلمين في إيمانهم بالرسل جميعًا: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ [المائدة: ٥٩]، أنتم أيها اليهود كفرتم بأنبيائكم، ما آمنتم بما بُعثوا به، حرّفتم وبدلتم التوراة، ونحن أفضل منكم، مع كراهيتنا لكفركم، لكننا لا نكره أنبياءكم لماذا؟

لأنهم رسل الله، فآمنا بهم، وآمنا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكراهيتنا لكم ليس مبدؤها ومنشؤها العداوة لكم والعصبية لأنفسنا، وإنما لكفركم برسل الله.

فنحن المسلمون آمنا بموسى وعيسى، وآمنا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] لكن اليهود كَفَرُوا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكُفْرُهم بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باعثه الحسدُ، ولذلك يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٨٩]؛ لأن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بني إسماعيل من العرب، وهم من بني إسحاق، فكفروا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كانوا يعرفون أنه سيخرج في آخر الزمان، وأنَّ دلائل نبوته مذكورة في التوراة والإنجيل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فلذلك هاجر اليهود من أذرعات بالشام، التي هذه الأيام تُسمىٰ «درعا» إلىٰ المدينة؛ لأن عندهم في التوراة أن مهاجر نبي آخر الزمان في المدينة.

أهل المدينة آمنوا بمحمد ﷺ لما هاجر إليهم لماذا؟ لأنهم كانوا يسمعون من اليهود دلائل نبوته وصفته، فخرج النبي ﷺ وبُعث وعلىٰ الصفة التي ذكرها اليهود.

وكفرَ اليهودُ بمحمد ﷺ حسدًا، وكفروا بأنبيائهم أيضًا عنادًا، قال تعالىٰ مبكتًا اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فاليهود قومٌ طباعهم غليظة، ولذلك يقول ابن القيم: «من أجْلِ هذا شُدد عليهم في الشرائع التي فُرضت عليهم بسبب عنادهم»، كلما أمرهم الله ﷻ بشيء عاندوا وضادُّوا ما أمرهم اللهُ به.

وفي رؤيا الطفيل دليل وتهذيب وإرشاد وتوطين للنفس علىٰ قبول الحق ولو كان من عدوك، ولو كان من كافر، وهذا كثير في القرآن والسُّنة؛ قال الله ﷻ عن مَلِكَة سبأ لمَّا جاءها كتاب سليمان عليه السلام، ودعاها إلىٰ الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]. قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

فقالت هذه الكلمة وهي كافرة، فالذي يخرج علىٰ السلطان يُغيِّر البطانة كلها، فالله ﷻ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] يعني الكلمة إذا خرجت من كافر أو من عدو إذا كانت صوابًا يجب قبولها.

والشيطان الذي كان يأتي إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه ثلاث ليالٍ ويسرق من زكاة الفطر، ماذا قال له النبي ﷺ؟ لأنه قال لأبي هريرة، يعني لمَّا قبضه، قال: ألا أدلك علىٰ شيء ينفعك وتتركني؟ قال: نعم. قال: آية الكرسي مَن قرأها حين يمسي لم يزل عليه من الله حافظ حتىٰ يصبح، فقال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: «**صدقكَ وهو كذوبٌ**»، رواه البخاري.

وجاء في الصحيحين أن عجوزًا من بني إسرائيل دخلت علىٰ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقالت: إن أهل القبور يُعذبون في قبورهم، فدخل النبي ﷺ، فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله، إن عجوزًا من بني إسرائيل تقول: إن أهل القبور يُعذبون في قبورهم، قال: «**نعم يا عائشة، إنهم يُعذبون عذابًا يسمعه كل أحد إلا بنو آدم**»، والذي يُعذب في القبور؟ الكفار، وأما المسلمون فبعضهم من العصاة يُعذب، وبعضهم يكون قبره روضة من رياض الجنة.

وما الدليل علىٰ أن بعض عصاة المؤمنين يُعذبون في قبورهم؟

حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الصحيحين: «**أن النبي ﷺ مرَّ بقبر رَجُلين فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، وإنه لكبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستنزه من البول**» يعني: هم تهاونوا فيه، ما يظنون أنه من الكبائر، لكن النبي ﷺ أُوحي إليه أنهما يُعذبان في القبر، وعذابُ القبر حجبه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن الخَلق، فما يجوز أن نمر بقبر لمسلم ونسيء فيه الظن ونقول: إنه يُعذب في قبره، هذا من سوء الظن بالمسلمين.

وعصاة الموحدين إذا صلىٰ عليهم أهل التوحيد فنرجو من الله عَزَّ وَجَلَّ أن يقبل شفاعتهم فيه؛ لأنه جاء في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يموت فيقوم علىٰ جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا فيشفعون فيه إلا شفعهم الله فيه**».

ومن أسماء الله الحسنىٰ «المؤمن»، قال الخطابي -*رحمه الله تعالى*-: «ومن معاني المؤمن: أنه يصدق ظنونَ عِبادهِ»، فأبشروا في موتىٰ المسلمين الذين تدعون لهم بالخير، أن الله يجعل قبورهم روضة من رياض الجنة، ويفسح لهم في قبورهم مدّ أبصارهم.

من إرشاد القرآن وهدي النبي ﷺ: التحذير من سخرية الكفار بالمؤمنين في أخطائهم؛ ذلك أن ما يفعلونه هو أعظم شركًا وكفرًا وذنبًا.

في أول سرية بعثها النبي ﷺ إلىٰ قريش وقع قتال في شهر حرام، فصار كفار قريش يُعيِّرون النبي ﷺ وأصحابه بالقتال في الشهر الحرام، مع أنهم يتحايلون علىٰ القتال في الأشهر الحرم، يؤخرون بعض الأشهر الحرم، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبة: ٣٧]، فلما وقع من بعض الصحابة قتال مع كفار قريش في شهرٍ حرام، فصاروا يقولون: الصحابة قاتلونا في شهرٍ حرام، فماذا أنزل الله ﷻ؟

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، يعني شرككم، وكفركم، وصدكم عن سبيل الله، وإخراجكم للمؤمنين من مكة هو أعظم من هذا الشيء الذي تنقمونه علىٰ بعض الصحابة الذين وقع منهم قتال في الشهر الحرام.

وهكذا النصارىٰ، يقولون: المسيح ابن الله، شركهم كشرك بني إسرائيل في هذه الجهة لكنهم أخف عنادًا من بني إسرائيل؛ ولذلك يُسلم أكثر مَن يسلم من أهل الكتاب النصارىٰ، لماذا؟

لأن طباعهم ليست في غلظة اليهود، هم أرق من بني إسرائيل؛ ولذلك أثنىٰ الله ﷻ علىٰ هؤلاء المنصفين من النصارىٰ الذين لما بُعث النبي ﷺ آمنوا به؛ لذلك قال النبي ﷺ في حديث أبي هريرة في صحيح مسلم: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمّة من يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار**».

يقول الله ﷻ عن المنصفين من النصارىٰ الذين أسلموا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]، يعني آمنوا بمحمد ﷺ وما بُعث به.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، يعني ما أُنزل إلىٰ محمد ﷺ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤] يعني يُؤتون أجرهم مرتين؛ لإيمانهم بعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولإيمانهم بمحمد ﷺ.

وفي هذا توجيه أنْ يصرف الإنسان جهوده في الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ حيث يظن الاستجابة، وأن أهل العناد إذا تكررت دعوتهم ولم يقبلوا دعوة الله عَزَّوَجَلَّ يصرف الداعية همته إلىٰ غيرهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في شأن اليهود: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي في **تيسير الكريم الرحمن**: «قطع الله رجاء المؤمنين في إسلام اليهود إلا نفرًا يسيرًا» يعني ادعوا غيرهم، مع أننا لا نريد منهم جزاءً ولا شكورًا، وإنما ندعوهم لمصلحتهم، لتُعتق رقابهم من النار، ولحسن عاقبتهم في الدار الآخرة.

الكفار عندما تدعوهم إلىٰ الإسلام لا تريد منهم جزاءً ولا شكورًا، إنما تريد أن تدعوهم للإسلام إبراءً للذمة، ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، لا بد أن تؤدي دعوة الإسلام؛ لأن الله أمر بهذا.

ثم إذا أسلموا وقبلوا شرع الله عَزَّوَجَلَّ، هذا أيضًا من أسباب قوتهم، ماذا قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه؟

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢].

لا نكْتُم الخيرَ الذي بُعث به محمد ﷺ عن الناس؛ بل ندل الناس عليه، ونهديهم إليه، وبعضُ النصارىٰ يزعم أن محمدًا ﷺ رسول العرب فقط، هذا ليس بصحيح، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨]، ويقول الله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ثم قال النبي ﷺ للطفيل: «**هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟**»، **قُلْتُ: نَعَمْ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ**، فقام النبي ﷺ خطيبًا في أصحابه، فقال: «**أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَىٰ رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»، هذا تأكيد لحديث ابن عباس أنك تستخدم الأكمل في الألفاظ، وفيه دليلٌ علىٰ حماية جناب التوحيد، وسدِّ ذرائع الشرك، فتقول: ما شاء الله وحده.

وقوله ﷺ: «**يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا**»، هذا يدل علىٰ جواز تأخير تجديد البيان إلىٰ وقت الحاجة، وهذا ليس من تأخير البيان الذي لم يسبقه بيان، وإنما هذا من باب تجديد البيان؛ لأنه قد سبق من النبي ﷺ تبيين التوحيد، ويقوم كذلك بالتذكير به.

إذن هذا الحديث:

فيه بيانٌ أنَّ الأفضل للإنسان أنْ يقولَ: ما شاء الله وحده، لا يقول: ما شاء الله، ثم شاء فلان.

وفيه بيان سمو الإسلام؛ لأنه يقبل الحق ولو جاء به عدو أو مخالف.

وهنا لطيفة مهمة جدًّا ذكرها الإمام محمد بن عبد الوهاب في المسائل، يقول: «فهم الإنسان إذا كان له هوىً»، اليهود لهم هوىً في نقدِ الصحابة.

وفيه أنهم يفهمون التوحيد (بعض التوحيد)؛ لأنهم أنكروا قول: (ما شاء الله وشاء محمد).

ومشركو قريش كانوا يعرفون التوحيد الذي بُعث به النبي ﷺ، ولذلك النبي ﷺ لما حضرت أبا طالب الوفاة قال له: «**يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**»، فماذا قال أبو جهل؟ أترغب عن ملة عبد المطلب؟!

ولذلك قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: «قبَّح الله مَن أبو جهل أعلم منه بالتوحيد».

أبو طالب أيضًا كان يعرف أن النبي ﷺ دعوته دعوة حق وتوحيد، قال:

ولقد علمتُ بأن دين محمدٍ ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبةٍ ... لرأيتني سمحًا بذلك مبينا

لكن ما الذي صرفه عن الإسلام والتوحيد؟

الحمية الجاهلية. لذلك لابد أنْ تُضبط الحمية بالحق والشرع، قال النبي ﷺ: «**مَن قاتل تحت راية عُمِّية ينتصر لحمية فمات، فميتته جاهلية**»، وقال الله ﷻ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، أبىٰ الكفار علىٰ النبي ﷺ وأصحابه دخول مكة، لأداء العمرة؛ حمية الجاهلية.

الإسلام يهذب كل أهواء الناس وإراداتهم، وتأتلف الناس علىٰ اتباع كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، وعلىٰ تحقيق الإخوَّة في الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وإلا لن تقوم للإسلام قائمة بغير هذا.

والنبي ﷺ عندما هاجر إلىٰ المدينة أول ما بدأ به بناء المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

شـرْحُ المسـائل:

ذكرَ الإمام محمد بن عبد الوهاب في مسائل الباب:

١) **مَعْرِفَةُ الْيَهُودِ بِالشِّرْكِ الْأَصْغَرِ**: معرفة من غير توحيد لله ولا إيمان بالرسل جميعًا.

٢) **فَهْمُ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوًىٰ**: فهمُ اليهودي حُجّة عليه، وإنكارهم الشرك هوىٰ لا ديانة.

٣) **قَوْلُهُ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟!»؛ فَكَيْفَ بِمَنْ قَالَ:**

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ، مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ........................

وَالْبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ؟!: هذا لمَّا قال: ما شاء الله وشاء محمد، قال: «فَكَيْفَ بِمَنْ قَالَ:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ، مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ عند حلول الحادث العمم».

البوصيري في بردته الشركية ماذا يقول؟ يقول: إذا نزلت به نازلة: فإنه لا يفزع إلا إلىٰ رسول الله ﷺ، والرسول ﷺ قد قُبض صلوات الله وسلامه عليه، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عن أن يملكه لغيره؛ ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢١ - ٢٣]، فشركُ البوصيري أغلظ أنواع الشرك.

٤) **أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ؛ لِقَوْلِهِ: «يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا»**: هذا شرك أصغر إذا كان القائل لا يعتقد أن هناك خالقًا مع الله ﷻ.

أما إذا وُجد مَن يعتقد أن لغير الله مشيئة وتصرُّف في الكون؛ هذا شركٌ أكبر، مثل بعض الرافضة وغلاة الصوفية يعتقدون أن لأوليائهم تصرفًا في الكون، هذا شرك أكبر.

٥) **أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الْوَحْيِ**: هذه رؤية الأنبياء وكذلك رؤيا مَن صححها الأنبياء؛ لأن النبي أقر رؤيا الطفيل.

لكن رؤية آحاد الناس قد تكون رؤيا حق، أو حديث نفس، وقد تكون من الشيطان.

وقد تكون الرؤيا بشارة، أو إنذار، لكن بعد بعثة النبي ﷺ لا تكون تشريعًا؛ لأن الدين كَمُلَ ببعثة النبي ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

٦) **أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِشَرْعِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ**: إذا كان ذلك وقت التشريع في عهد النبي ﷺ وأقرَّه؛ كالأذان.

۞ ۞ ۞

الْبَــابُ الــرَّابِعُ وَالْأَرْبَعُــونَ

بَــابٌ: مَنْ سَــبَّ الدَّهْــرَ فَقَــدْ آذَى اللهَ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

- وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤] الآيَةَ.
- فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ: أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».
- وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ».

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ.

٢) تَسْمِيَتُهُ أَذَىٰ اللهِ.

٣) التَّأَمُّلُ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ».

٤) أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَابًّا، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِقَلْبِهِ.

الشَّرح

سبُّ الدهر سفه في العقول، لماذا؟ لأن الدهر ظرفٌ للحوادث، والذي قدَّر المقادير لهذه الحوادث هو الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ولذلك نهىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ عن سب الدهر؛ لأن حقيقته سبٌّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن النصيحة للمسلمين إفراد هذا الموضوع بباب في كتاب التوحيد، فالمقصود هو تصحيح عقائد المسلمين.

صدَّر الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- الباب بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] هؤلاء الكفار الدهريون، الذين لا يؤمنون بالله ﷻ، ولا يثبتون المعاد والحساب في الدار الآخرة، ولا يؤمنون بالجنة ولا بالنار، هؤلاء كفار يقولون عن حالهم في الدنيا: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهذا لا شك أنه من أعظم الكفر، يقول الله ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٧]، فالله ما استخلف الخَلِيقَة في الأرض إلا ليعبدوه، ثم أيضًا ليوفيهم الجزاء الأوفىٰ في الدار الآخرة فيُكرمهم ويدخلهم الجنة، ثم أيضًا يكرمهم بما هو أعظم من ذلك، وهو أعظم النعيم وهو النظر إلىٰ الله ﷻ.

لماذا نقول: الجزاء الأوفىٰ؟ لأن المؤمن يدركه فضل الله ﷻ في دنياه ثمرةً لإيمانه بالله ﷻ، وطاعته.

قال الله ﷻ مبينًا عاقبة وثمرة الإيمان بالله ﷻ والعمل الصالح في الدنيا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، والحياة الطيبة لا تعني بالضرورة السعة في الرزق، ولا تعني بالضرورة المركب الهني والسكن الفارِه، إن وُجد هذا فالحمد لله، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، لكن أعظم ما يكون من ثمرة الإيمان بالله والعمل الصالح في الدنيا: الأنس بالله، والفرح بتوحيد الله وذِكره، ويجد الكافر في صدره من السجن ما هو أعظم من السجن الذي يتوهمه في حق المؤمنين في مفهومه الخاطئ،

وإلا فالنبي ﷺ قال: «**الدنيا سِجْنُ المُؤمِن، وجَنّة الكافر**»، رواه مسلم.

ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] سبحان الله! هم مسجونون في هذه الدنيا من حيث لا يشعرون، وسجنهم في القبر أعظم، فإن الكافر في قبره يُضيَّق عليه في قبره حتى تختلفَ أضلاعه.

وأما المؤمن فحياته طيبة في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة، والجزاء من جنس العمل، والمؤمن يعرف أمارات الثواب وهو في الدنيا، فالله ﷻ ما يجعل في قلوب المؤمنين من الفرح بذكره ومناجاته ومن الحفظ والتسديد ما يكون سببًا في بشارته وهو يسير في طريقه إلى الله سبحانه وتعالى في هذه الحياة الدنيا.

ولذلك قال ابن القيم -*رحمه الله تعالى*-: «مقام المؤمن على الصراط بحسب اتباعه لصراط الله في الدنيا»، فمَن أحسن كوفئ بذلك في الدار الآخرة فيمر على الصراط آمنًا لا تتخطفه الكلاليب، ولا يزِلُّ في هذا الجسر الذي هو أَحَدُّ من السيف وأدقُّ من الشعرة، وَكُلُّنا وَارِدُه، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

شيخ الإسلام ابن تيمية كان إذا جلس في المسجد يذكر الله ﷻ بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، يقول: «في الدنيا جنة مَن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة».

إذا لمْ تشعر بالفرح بالله ﷻ في ذِكره ومناجاته وطاعته فلا بُدَّ أن تُصحِّحَ أحوالك، فاللهُ ﷻ يقول: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨] أنت في رحمة الله ﷻ ما دام أنك في الدنيا في طاعة الله ومؤمن به، وقول النبي ﷺ: «**الدنيا سِجْنُ المؤمن**» باعتبار معين، شيء مخصوص، وهو الانتهاء عن الزواجر، عما حرَّم الله ﷻ.

الدهريون يقولون: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فلا تسب الدهر لأيِّ قضاءٍ قضاه الله ﷻ، وأجراه ﷻ كونًا في خاصة نفسك أو في بلدك أو في أحوال المسلمين، لذلك يقول النبي ﷺ كما جاء في صحيح مسلم: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن».

فهؤلاء الدهريون يقولون: هذه أرحامٌ تَدْفَع، وأرضٌ تَبْلَع فقط.

نسأل الله العافية، نقول: لا، نقول: الله ﷻ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والكافرون -نسأل الله العافية- لا يزجرهم شيء عن سب الدهر؛ لأنهم ليسوا بمؤمنين، فلا يؤمنون بتقدير الله للمقادير، وأن الخَلْق خلقهم الله ﷻ لعبادته، وأنهم يُبعثون يوم القيامة ليحاسبهم الله ﷻ.

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٤] فكلامهم مُؤَسَّس علىٰ جهلٍ، وكل كلام يضاد التوحيد سببه الجهل، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

وبعض الفلاسفة المتكلمين أيضًا دهريون، لا يؤمنون بالله ﷻ، ولا بالبعث، ولا بالعقاب، فهؤلاء قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

الإمام محمد بن عبد الوهاب بوَّب بهذه الآية؛ ليستدل علىٰ أن الدهر ليس من أسماء الله الحسنىٰ؛ لأنه لو كان الدهر من أسماء الله الحسنىٰ لكان هؤلاء موحدين، لماذا؟ لأنهم يقولون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فلو كان الدهر من أسماء الله ﷻ لكانوا نسبوا خَلْقَ الموت والحياة لله.

فالدهر ليس من أسماء الله الحسنىٰ، فقد أخطأ ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدِّه «الدهر» من أسماء الله، وأخطاؤه في العقيدة عظيمة كثيرة، وفي هذا دليل علىٰ وجوب محاذرة تأسيس العلم والعقيدة بقراءة كتب ابن حزم.

فالواجب علىٰ طالب العلم: قراءة كتب أهل السُّنة والجماعة والتتلمذ عليها، الكتب النقية في العقيدة.

والعقيدة كما قال الإمام ابن باز -*رحمه الله تعالى*-: «تؤخذ من القرآن»، والعلماء الذين قرَّبوا العقيدة للأمّة الإسلامية، ودوَّنوها نقلوها أولًا عن طبقة الصحابة والتابعين، وليس ذلك لأحد غير أهل السُّنة، وهذا من أسباب طمأنينة أهل السُّنة لصحة اعتقادهم.

فنحن في سيرنا إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ عندنا البراهين علىٰ صحة طريق أهل السُّنة والجماعة إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ في العقيدة؛ لأن الصحابة هم بطانة النبي ﷺ، وهم أعلم بالقرآن، وهم الذين أخذوا الدين عن النبي ﷺ، فإذا كنتَ موافقًا لهم وللتابعين الذين أخذوا عنهم فأنت علىٰ الصراط المستقيم في العقيدة.

ومن أهم المصنفات في عقيدة السابقين الأولين:

- الحُجة في بيان المحجة.
- الشريعة للآجُرِّي.
- أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لِلَّالَكائي.
- والإبانة لابن بطة، هذه الكتب العقيدة فيها مُسنَدة إلىٰ الصحابة والتابعين، وليس للمبتدعة عقيدة مسندة إلىٰ الصحابة والتابعين.

فتتلمذْ علىٰ كتب العقيدة النقية المسندة كهذه، وأيضًا المتون النظيفة كالعقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، وسائر مصنفات العقيدة لأئمة أهل السنة والجماعة.

ومن المتون المتأخرة ومن أنفعها:

- كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب.
- وعقيدة أهل السنة والجماعة لشيخنا العلَّامة محمد بن عثيمين -رحمه الله تعالى-.
- فاحرص -طالب العلم- على الكتب التي دوَّنت اعتقاد السلف:
- كتب الإمام أحمد.
- السُّنة لعبد الله ابن الإمام أحمد، يُسنِد العقيدة إلى أبيه وإلى أئمة أهل السُّنة والجماعة.
- وكتاب السُّنة للخَلَّال.
- وكتاب الرد على الجهمية للبخاري.
- وخَلْق أفعال العباد للبخاري.
- والرد على الجهمية للدارمي، وغيرها.

على كلِّ حالٍ، المقصود: أنك تتلقى العلم عن كتب ومشايخ أهل السُّنة والجماعة المتمحضين في السُّنة.

قال: «فِي الصَّحِيحِ» يعني: صحيح مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ**».

الإيذاء غير الضرر، الضرر منفي عن الله عز وجل، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في الحديث القدسي: «**يا عِبادِي، لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي**»، رواه مسلم، لكن يؤذي الله عَزَّ وَجَلَّ ما يقع من سبِّ المخلوق له، ومن جملتها سبُّ الدهر؛ ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ في الحديث القدسي: «**لا أحَدَ أصبر على أذى من الله، يدعون له الولد، واللهُ عَزَّ وَجَلَّ لم يلد ولم يُولد**».

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٢].

فسبُّ الدهر أذًىٰ لله؛ «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ: أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، يعني: أنا الدهر، يعني أنا الذي قدَّرتُ المقادير في الأزمنة، وفي الأيام؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، في كل يوم يُحيي ويُميت، ويُعز ويُذل، ويرزق، ويعطي ويمنع.

وهذا التقدير اليومي كالتفصيل للتقدير السابق، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**قدَّر الله مقادير الخلائق قبل أن يَخْلُقَ السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عَرْشُه علىٰ الماء**»، **رواه مسلم**.

وقول النبي ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، فالليل والنهار هو الدهر والظرف للمقادير، والمقلِّب هو الله ﷻ، والمقلَّب ليس هو المقلِّب.

ثم إن الدهر اسم جامد، وأسماء الله ﷻ أعلام وأوصاف أعلام.

وفي رواية: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**» يعني أنَّ الله ﷻ هو الذي قدَّر المقادير في الدهور، والشهور، والأيام، والساعات، واللحظات، والدقائق؛ ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحِۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وهذا لكماله سبحانه وتعالى، فسبُّ الدهر هذا سفهٌ في العقول، وهذا لا يجوز، وهو محرَّم.

قال الإمام الشافعي رحمه الله[(١)]: «يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**».

إنما تأويله -واللهُ أعلم- أن العرب كان من شأنها أن تذم الدهر وتسبه عند المصائب التي تنزل بهم: من موتٍ، أو هدمٍ، أو تلفِ مالٍ، أو غير ذلك، وتسب الليل والنهار -وهما الجديدان، والفَتَيَان- ويقولون: أصابتهم قوارع الدهر،

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٣٣٦، ٣٣٧).

وأبادهم الدهر، وأتىٰ عليهم، فيجعلون الليل والنهار اللذين يفعلان ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الدهر**» علىٰ أنه الذي يفعل بكم هذه الأشياء، فإنكم إذا سببتم فاعل هذه الأشياء فإنما تسبون الله ﷻ، فإن الله تعالىٰ فاعل هذه الأشياء».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «نهيه ﷺ عن سبِّ الدهر، وقال: «**إن الله هو الدهر**».

وفي حديث آخر: «**يقول الله ﷻ: يؤذيني ابن آدم فيسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**».

وفي حديث آخر: «**لا يَقُولنَّ أحدكم: يا خيبة الدهر**».

في هذا ثلاث مفاسد عظيمة:

إحداها: سبُّه مَن ليس بأهل أن يُسبَّ، فإن الدهر خَلْقٌ مُسخَّرٌ من خَلقِ الله، منقاد لأمره، مذللٌ لتسخيره، فسابُّه أَوْلَىٰ بالذم والسب منه.

الثانية: أن سبه متضمن للشرك، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضر مَن لا يستحق الضرر، وأعطىٰ مَن لا يستحق العطاء، ورفعَ مَن لا يستحق الرفعة، وحرم مَن لا يستحق الحرمان، وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة، وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة في سبه كثيرة جدًّا. وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقبيحه.

الثالثة: أن السب منهم إنما يقع علىٰ مَن فعل هذه الأفعال التي لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، وإذا وقعت أهواؤهم حمدوا الدهر، وأثنوا عليه.

وفي حقيقة الأمر، فرَبُّ الدهر تعالىٰ هو المعطي المانع، الخافض الرافع، المُعِز والمُذِل، والدهر ليس له من الأمر شيء، فمَسَبَّتُهم للدهر مَسَبَّةٌ لله ﷻ.

---

(١) زاد المعاد ص٢٩٦.

ولهذا كانت مؤذيةً للرب تعالىٰ، كما في (الصحيحين) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالىٰ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر**».

فسابُّ الدهر دائر بين أمرين لا بد له من أحدهما: إما سبه لله، أو الشرك به، فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك وهو يسب مَن فعله، فقد سَبَّ الله».

فنهيُ النبيِّ ﷺ عن سبِّ الدهر بقوله: «**لا تسبوا الدهر**» هو في حقيقته نهيٌ عن سبِّ الله.

قال العَلَّامة أبو المظفر ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «في هذا الحديث من الفقه: النهي عن أن يستريح الإنسان إلىٰ ما يجعله منصرفًا لشكواه من الله تعالىٰ، فيسبَّ الدهر، وإنما تسبُّ الأقضيةَ والأقدار، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يقضي ويُقدِّر، وليس للدهر في ذلك شيء، وإنما سبُّ الناس للدهر، فيغلطون من جهتين:

- إحداهما: أنهم ينسبون فِعل الله إلىٰ الدهر.
- والأخرىٰ، أنهم يكرهون أقضية الله، فيستروحون إلىٰ سب الدهر، والمسبوب في الحقيقة إنما هو الفاعل تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فجاء الحديث ناهيًا عن أن يؤذي العبد ربه بأن يسب أقداره مسميًا لها دهرًا، فيكون جانيًا علىٰ جلال الربوبية من جهتين».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يُدبِّر الأمر، ويُصرِّف الأمور، ويُقلِّب الليل والنهار كيف يشاء، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ في القرآن الكريم: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤]، وصدَقَ الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ١٠٩، ١١٠).
(٢) شرح مشكاة المصابيح (١/ ١٢٣).

فاعتبرْ بتقلبات الزمان، واعلمْ أن الذي يقلبه هو الله ﷻ، فإذا انتقلت الحال من رخاءٍ إلىٰ شدةٍ، أو من أمنٍ إلىٰ خوف، أو من سعةٍ في الرزق إلىٰ ضيقٍ في الرزق، فهل يحل لك أن تسب الدهر؟

الجواب: لا تسب الدهر، الدهر مخلوق، له ربٌّ يتصرف فيه سبحانه وتعالى، فإذا سببتَ الدهر فقد سببتَ اللهَ».

وتغيُّر الأحوال من الشدة إلىٰ الرخاء، ومن الرخاء إلىٰ الشدة هو مما يبتلي اللهُ به عباده، وهو من موجبات التكليف، قال تعالىٰ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وحالُ المؤمن في الرخاء أو تحوله إلىٰ رخاء أكثر هو الشكر، قال النبي ﷺ: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»، متفق عليه.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله(١): «كلما زادت النِّعم زادت الطاعة».

وحالُ المؤمن في الشدة، من: الفقر، أو الجوع، أو اختلال الأمن ووقوع الهرج؛ هو الصبر والعبودية والاستعانة بالله كما أمرنا الله ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ – ١٥٧].

ومَن وقع منه سبٌّ للدهر فإنه يُزجر عن ذلك، ويَعزره وليُّ الأمر؛ لسوء منطقه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٢): «إنَّ مَن سبَّ الدهر من الخَلق لم يقصد سب الله سبحانه، وإنما قصد أن يسب مَن فعل به ذلك الفعل مضيفًا له إلىٰ الدهر، فيقع السب علىٰ الله؛ لأنه هو الفاعل في الحقيقة.

(١) شرح مشكاة المصابيح (١/ ١٢٣).
(٢) الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول ص٤٩٥.

وسواء قلنا: إن الدهر اسم من أسماء الله تعالىٰ كما قال نعيم بن حماد، أو قلنا: إنه ليس باسم، وإنما قوله: «**أنا الدهر**»، أي: أنا الذي أفعل ما ينسبنه إلىٰ الدهر، ويوقعون السب عليه، كما قاله أبو عبيدة والأكثرون، ولهذا لم يَكْفُر مَن سبَّ الدهر، ولا يُقتل، ولكن يُؤدب ويُعزر؛ لسوء منطقه».

شـــرْحُ المســائل:

١) **النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ**: لقوله ﷺ: «**لا تسبوا الدهر**»، وهو نهيُ تحريمٍ.

٢) والمسلمُ مؤمنٌ بربه، مُعتقِد الحكمة والعدل في أمرِ الله وتقديره، فلا ينطق لسانه بسب الدهر.

٣) **تَسْمِيَتُهُ أَذَىٰ اللهِ**: وهذا من أشد ما يكون تنفيرًا عن السب لله. والواجب علىٰ المسلم: تعظيم الله، والثناء عليه، والتسبيح له.

٤) **التَّأَمُّلُ فِي قَوْلِهِ**: «**فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**»: فإن هذا التأمل يفيدك أن سب الدهر في حقيقته سبٌّ لله، فاحذره.

٥) **أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَابًّا، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِقَلْبِهِ**: فالواجب علىٰ المسلم: ضبطُ لسانه عن أن يسبق إلىٰ سبِّ الله، أو الأذىٰ لله.

الْبَابُ الْخَامِسُ وَالْأَرْبَعُونَ

بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◈ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلاَكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ**».

◈ قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ.

◈ وَفِي رِوَايَةٍ: «**أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ**».

◈ قَوْلُهُ: «**أَخْنَعُ**» يَعْنِي أَوْضَعُ.

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) النَّهْيُ عَنِ التَّسَمِّي بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ.

٢) أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ؛ كَمَا قَالَ سُفْيَانُ.

٣) التَّفَطُّنُ لِلتَّغْلِيظِ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ، مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الْقَلْبَ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

٤) التَّفَطُّنُ أَنَّ هَذَا لِأَجْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ.

الشَّرْح

التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ لا يجوز، استدل لذلك شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بما في الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلاَكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ**»، فهذا الحديث فيه التحذير من مضاهاة الله عَزَّ وَجَلَّ في أسمائه الحسنىٰ، وفي ربوبيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا شك أنَّ هذا من أعظم ما يكون من حق الله الخالص، فليحذر المسلم أنْ يجعلَ نفسه ندًّا لله.

ولذلك نجد أن الله ﷻ من أسمائه الحسنىٰ (المتكبر)، قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، وكِبره ﷻ نعته به مع كل نعوته وأسمائه وصفاته ﷻ.

فهو لعلوِّ ذاته، وعلوِّ أسمائه وصفاته وكماله ونعوته فهو متكبر ﷻ، لكنه ليس كتكبُّر المخلوقين، كَمَالُه من أسباب كِبره وكبريائه ﷻ.

والمخلوق أوجده اللهُ ﷻ من العدم، ومهما بلغ من جميل صفاته فإن النقص صفةُ بشريته، ويلحقه فناء، ويقع منه ما يقع من النقص.

لكنَّ الله ﷻ مع كبريائه ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]، فمع كَمَالِ عدله، وكمال رحمته بخَلقه، وعفوه، وهو «**أرحم بعباده من الأم بولدها**»، كما قال النبي ﷺ، وهذا باب عظيم في معرفة معاني أسماء الله ﷻ وصفاته، الإيمان بكل أسمائه وصفاته.

وهذا نبَّه عليه ابن القيم -*رحمه الله تعالى*- في «التبيان في أيمان القرآن»، وقال: إنَّ شعيب عليه السلام كان يحبب قومه إلىٰ التوبة والإنابة إلىٰ الله ﷻ، فقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود: ٩٠].

قال: فحصل من اقتران اسم الودود مع الغفور من المعاني ما ينبغي معرفته وملاحظته، يقول: فإن المخلوق لو أسأتَ إليه ربما غفر لك ولا يحبك، لكن الله ﷻ إذا أقبل إليه عبده وتاب من إساءته إلىٰ ربه ﷻ فإن الله ﷻ يغفر له ويحبه أيضًا.

فكيف إذا آمنا بكل نُعُوتِ الله ﷻ، وتحقَّقنا من معانيها، وقد رَتَّب اللهُ علىٰ ذلك الفضل العظيم فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «**لله تسعةٌ وتسعون اسمًا، مَن أحصاها دخل الجنة**»، متفق عليه.

أحصاها: يعني حفظها، وآمَنَ بها، وعَمِل بمقتضاها.

هذا المعنىٰ المقصود بالإحصاء في حفظ أسماء الله ﷻ، ليس حفظًا مجردًا عن الإيمان بها والعمل بمقتضاها.

ومن الإيمان بأسماء الله الحسنىٰ وصفاته العُلىٰ: ألا تجعلَ له نظيرًا فيما انفردَ به، فلا تُسمي مخلوقًا بـ (قاضي القضاة).

فالذي يقضي بالحق مطلقًا هو الله ﷻ، وهو كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِى بِٱلۡحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠]، لكن تقييده يجوز، كقول: قاضي قضاة القطر الفلاني.

فرعون كان يقول: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِى﴾ [القصص: ٣٨]، فليحذر المسلم من التعاظم بحيث يجعل نفسه كالإله أو أعلىٰ.

النبي ﷺ كتب إلىٰ هِرَقْل يدعوه إلىٰ الإسلام، فكتب له: «**من محمد بن عبد الله إلىٰ هرقل عظيم الروم**»، فقيّدها بقوله: «عظيم الروم»، ذَكرَه بهذه الصفة؛ ليتألفه في دعوته للإسلام، فالحُكم باستعمال الألفاظ يختلف مع التقييد والإطلاق.

والله ﷻ يجازي مَن جعل نفسه ندًّا لله ﷻ بأعظم ما يكون من العقوبة، ولذلك قال النبي ﷺ: «**أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ**» يعني أوضعه وأصغره، لمَّا كان مقصود مَن تسمَّىٰ به التعالي فإنه أوضعُ اسمٍ عند الله ﷻ.

وسُنَّة الله ﷻ في عقوبته القدرية، وأيضًا الشرعية واضحة فيما يُقدِّره علىٰ مَن يتسمىٰ بهذه الأسماء، فمَن اختال بقوله: (أنا مَلِكُ الملوك)؛ ذهبَ مُلكه.

فالتواضع صفة المخلوق، والكبرياء لله ﷻ، وفي صحيح البخاري: «**أَنَّ رَجُلًا كان يمشي في حُلَّةٍ له قد أعجبته**»، يعني يمشي وهو متعاظِمٌ في نفْسِه، «**فخسفَ اللهُ به في الأرض، فهو يَتَجَلْجَلُ بها إلىٰ يوم القيامة**»، قال العلماء: هذا من المستثنين من حديث: «**أرأيتم ليلتكم هذه، فإنه بعد مائة سنة لا يكون أحَدٌ ممن هو علىٰ وجْهِ الأرض حيًّا**» يقول: هذا مستثنىٰ منها، لماذا؟

لأنه قال: «**يتجلجل بها إلىٰ يوم القيامة**» انظر عقوبته، سبحان الله! لمَّا كان يحب العلو في الأرض خسف الله به في الأرض، في أسفل سافلين، فلا يراه المخلوقون، وفوق هذا فهو في عذاب.

ورویٰ أحمد من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي ﷺ قال: «**يُحشر المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذَّر، فيطؤهم الناسُ بأقدامهم**»، غاية ما يكون في الصَّغار لهؤلاء المتكبرين.

وبالعكس تجد أن النبي ﷺ يقول: «**مَن تواضعَ لله رفعه**»، فشأن المسلم أن يخفض جناحه للمؤمنين، وأن يتواضع لعباد الله عَزَّ وَجَلَّ، لكن لا يكون ذليلًا ولا صاغرًا، وإنما يكون عزيزًا بإسلامه، يلين جانبه للمسلمين، ويكون عزيزًا مع الكافرين أو مع المبتدعين، أو مع مَن يستطيل عليه بغير حقٍّ ويؤذيه.

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا رأىٰ مَن يسير في ذلٍّ وصَغار؛ ضربه، أو تهدده، وزَجَره.

تسير بوسطية، لا بكِبر ولا بخُنُوع، ولا ذلٍّ ولا صغار، اجعلْ فِيكَ عِزَّةَ الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

فكنْ عزيزًا بإسلامك، وهذه صفةُ المؤمن ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، تحب المسلمين، وتحبهم بسبب إيمانهم وإسلامهم وتوحيدهم وطاعتهم لله عَزَّ وَجَلَّ.

فأخنعُ اسمٍ يعني: أذلّه وأصغره وأحقره هو الذي تسمىٰ بملك الأملاك، فنقول: هذا لا يجوز إلا لله عَزَّ وَجَلَّ، هو ملك الأملاك، وهو مَلِكٌ، مالك، ومَلِك يوم الدين، ومالك الخَلق كلهم، أنشأهم من غير حاجة، يعني من غير افتقارٍ إلىٰ أحدٍ من خَلقه، فهو لا يتعزز بهم من ذلة، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وإنما خَلَقهم لعبوديته، وليكملهم بهذه العبودية، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقولُ النبي ﷺ في الحديث: «**إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلاَكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ**»، قال سفيان -يعني الثوري-: «مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ» يعني كيفما تصرف الاسم بأي لغةٍ، بعربيةٍ أو أعجميةٍ فهو حرام.

فالمقصود -أيضًا-: المعنىٰ، ليس فقط اللفظ، يعني ملك الأملاك يوازيها في لغة الأعاجم: شاهان شاه.

وقد أدركنا مَن تسمىٰ بـ «شاهان شاه» كيف سلبه الله مُلْكَه؟!

وهذا يدل علىٰ أن حفْظَ المُلْك يكون في توحيد الله ﷻ، فكلما تحقَّق المَلِكُ بتوحيد الله ﷻ، وأقام شرعه، كان ذلك من موجبات حفظِ مُلْكِه، ونصرة الله ﷻ له، «**احفظ الله يحفظك**».

قال النبي ﷺ: وَفِي رِوَايَةٍ: «**أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ**» يعني هذا من شِرار الخَلق عند الله ﷻ، وقوله: «**أخنع**» يعني أوضع.

التسمي بهذه الأسماء والتعاظم بها النهيُ عنه ليس مختصًّا بالولاة، وبعض العلماء يسميهم الناس ويلقبونهم بألقابٍ فيها غلو.

والغلو في النبي ﷺ الذي هو أفضل المخلوقين لا يجوز، فكيف بمَن دونه؟!

فلمَّا كان بعض الصحابة يقول للنبي ﷺ: أنت سيدنا وابن سيدنا، قال: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان**»، وقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ عيسىٰ ابن مريم، إنما أنا عبدُ الله ورسوله**»، هذا غاية في التواضع من أَعْلَمِ الخَلق بالله.

فواجِبُ العلماء ومَن والاهم ألا يغلوا في الإطراء، فلا يسميهم أَحَدٌ ولا يتسمون بـ (قاضي القضاة) و(إمام الأئمة) ونحوه.

قال النبي ﷺ: «**أُوحي إليَّ أن تواضعوا حتىٰ لا يفخر أحدٌ علىٰ أحد**».

والنبي ﷺ مُعلِّم البشرية كان شديد التواضع، ويُعلِّم أمَّته ذلك، فجاء في صحيح مسلم أنه قيل له: يا خير البرية، قال: «**ذاك إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ»، مع أنه هو سيدُ ولدِ آدم ولا فخر.

وكما نقول هذا الحُكمَ في حق الأمراء، يُقال أيضًا في حق العلماء، فقد كان البعض يغلو في العلماء، يسمون ابن خزيمة في زمانه رَحِمَهُ اللَّهُ إمام الأئمة، وهو كان من كبار العلماء في زمنه وفي طبقته، لكن لا يُطلق قول إمام الأئمة، إمام الأئمة بالنسبة للبشر هو نبينا محمد ﷺ، لكن يُقال في ابن خزيمة: إمام الأئمة في زمانه.

وهكذا كانوا يقولون للشوكاني -*رحمه الله تعالى*- -العلَّامة محمد بن علي الشوكاني، كانوا يقولون له: قاضي القضاة، والصواب: أنْ تُقيَّد، قاضي قضاة القطر اليماني أو كذا، لا يُطلق القول بأنه (قاضي القضاة).

وكان من أحب الأسماء إلىٰ الله: عبد الله وعبد الرحمن؛ لأن فيه معنىٰ العبودية لله عَزَّ وَجَلَّ، أمَّا تسمية المخلوق: (ملك الأملاك)، هذا شركٌ، وهو من أبغض الأسماء لله عَزَّ وَجَلَّ.

وفي سؤال للحافظ النووي رَحِمَهُ اللَّهُ فيمَن سمَّىٰ ابنته: ست الناس، أو ست العلماء، أو ست العرب، ما حكمه؟ وهل هذه اللفظة صحيحة عربية أم لا؟

فأجاب الحافظ النووي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هذه اللفظة ليست عربية، بل هي باطلة من حيث اللغة، وقد عدَّها أهل العربية في لحن العوام، فقالوا: من لَحْنِهم قولهم: ست بمعنىٰ سيدة.

وأما حُكْمُها من حيث الشرع: فمكروهة كراهةً شديدة، وينبغي لمَن جهلَ وسَمَّىٰ به، أن يُغيِّر الاسم.

وثبت في (الصحيح) أن النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وعلىٰ آله وسلم غير اسم برة فسمَّاها زينب، والله أعلم».

---

(١) فتاوىٰ الإمام النووي ترتيب علاء الدين علي بن إبراهيم بن العطار الدمشقي ص١١٩.

شـــرْحُ المســـائل:

١) **النَّهْيُ عَنِ التَّسَمِّي بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ**: وهو نهيٌ للتحريم، وهو من أقبح الشرك، فملك الأملاك وملك الملوك والخَلق جميعًا هو الله.

٢) **أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ؛ كَمَا قَالَ سُفْيَانُ**: فالنهي عام لكلِّ لفظٍ من خصائص الرب سبحانه، لا يجوز تسمية مخلوق به، بأي لغة كانت.

٣) **التَّفَطُّنُ لِلتَّغْلِيظِ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ، مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الْقَلْبَ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ**: فكيف بمَن قصد معناه، فالنهي والإثم في حقه أوكد.

٤) **التَّفَطُّنُ أَنَّ هَذَا لِأَجْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ**: فالتوحيد تعظيمُ الله، فلا يُسمىٰ مخلوقٌ ناقص بنعتٍ من نُعوت الله المختصة به.


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosailulilmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَــابُ السَّــادِسُ وَالْأَرْبَعُــونَ

بَــابُ احْتِــرَامِ أَسْمَــاءِ اللهِ تَعَــالَى، وَتَغْيِيــرِ الِاسْمِ لِأَجْـلِ ذَلِكَ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ يُكْنَىٰ أَبَا الْحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ**»، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ، قَالَ: «**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «**فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

فِيــهِ مَســائِلُ:

١) احْتِرَامُ صِفَاتِ اللهِ وأَسْمَائِهِ، وَلَوْ كَلَامًا لَمْ يُقْصَدْ مَعْنَاهُ.
٢) تَغْيِيرُ الِاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ.
٣) اخْتِيَارُ أَكْبَرِ الْأَبْنَاءِ لِلْكُنْيَةِ.

الشّـَرح

حديثُ أَبِي شُرَيْحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ يُكْنَىٰ أَبَا الْحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ**»، فهذا يدلُّ علىٰ أن (الحَكَم) من أسماء الله الحسنىٰ، ويجوز أن يتسمىٰ المخلوق بعبد الحَكَم.

توحيد الحاكمية يتعلق بأنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، فمَن جعله نوعًا رابعًا أخطأ؛ لأنَّه جعله قسيمًا لأنواع التوحيد الثلاثة، كأنّه ليس منها، وهذا خطأ!

فالحاكمية تتعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن من أسماء الله الحسنىٰ الحَكَم، «**إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ**».

والحاكمية تتعلق بتوحيد الربوبية؛ لأنَّ من توحيد الله بأفعاله إفراده بالحُكم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

والحاكمية تتعلق بتوحيد الألوهية؛ لأنه يجب علىٰ العبد أن يتأله لله ﷻ بما قضاه وشرعه من أحكام، مع انشراحِ صدرٍ وإذعان وانقياد وقبولٍ لأحكام الله سبحانه وتعالى.

فإذًا الحاكمية تتعلق بأنواع التوحيد الثلاثة.

ثم سأل النبي ﷺ الصحابي: لماذا كَنَّاكَ قومُكَ بهذا؟

قَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ: «**مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟**»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ، قَالَ: «**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**»، قُال: شُرَيْحٌ، قَالَ: «**فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**».

إذًا كنَّاه النبي ﷺ بأكبر أبنائه، كنىٰ النبي ﷺ هذا الصحابي بأبي شريح، وفي هذا دليل علىٰ أنه يُكنىٰ الرجل بأكبر أبنائه.

قول النبي ﷺ للصحابي: هذا حَسَنٌ، فما هو الحسَن؟

إصلاحُه بين الناس، إذا اختلف قومه جاؤوا إليه، والإصلاح لا بد أن يكون خالصًا لوجه الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٤].

وشروط المُصلِح ذكرها ابن القيم في إعلام الموقِّعين:

١) أن يكون عالمًا بالواقع.

٢) عارفًا بالواجب.

٣) قاصدًا للعدل. والعدلُ هو شرعُ الله ﷻ؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل: ٩٠].

وقولُ النبي ﷺ: «**مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟**»، **قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ، قَالَ:** «**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**»، **قُلْتُ: شُرَيْحٌ**.. فالنبيُّ ﷺ غيَّر كنية الصحابي، لماذا؟ احترامًا لأسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

جزاه الله خيرًا هذا الصحابي تواضَع لله ﷻ، وقبل بتغيير كنيته، فبعضُ الناس تأخذه الحميّة فيأبىٰ تغيير اسمه ولو كان لأمر الله ﷻ ورسوله ﷺ.

سعيد بن المسيب تعرفونه، من سادات التابعين، وعلمائهم الكبار، ومن كبار التابعين، أدرك سنتين مضتا من خلافة أبي بكر، وأدرك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسمع منه، وأدرك كبار الصحابة، وأكثر الصحابة، وكان بعض الصحابة يتفقه بالأخذ عنه.

سعيد بن المسيّب رَحِمَهُ اللَّهُ اسم والده حَزَن، فقال النبي ﷺ لوالده: غيِّر اسمك؛ لأنَّ الحَزَن يدل علىٰ الحُزْن، والاسم له تأثير في صاحبه، فقال له: غيِّر اسمكَ.

قال: (واللهِ، لا أغيِّر اسمًا سمَّانيه أبي)؛ أخذته الحمية، والحمية بالباطل تضرك أنتَ قبل غيرك، قال سعيد بن المسيب: «فلا زالت الحزونة فينا». انظر ملاحظة ابنه لتأثير الاسم علىٰ أهل بيته.

لذلك يقول العلماء: سموا أبناءكم بأحب الأسماء إلىٰ الله ﷻ، وبالمعاني الجميلة التي يكون لها فألٌ طيب علىٰ الأبناء.

والنبي ﷺ في صلح الحديبية، في البداية حين أرسلَ كفار قريش بعض مَن يفاوض النبي ﷺ ولم يحصل الصلح، بعد ذلك أرسلوا سُهَيل بن عمرو -قبل أنْ يُسْلِمَ-، فقال النبي ﷺ: «**هذا سُهَيل، قد سَهُل لكم من أمركم**».

فبعضُ الأسماء لها أثرٌ وفألُ خيرٍ علىٰ مَن تسمىٰ به.

شَــرْحُ المســائل:

١) **اِحْتِرَامُ صِفَاتِ اللهِ وأَسْمَائِهِ، وَلَوْ كَلَامًا لَمْ يُقْصَدْ مَعْنَاهُ:** فأسماء الله ﷻ وصفاته التي اختص بها سبحانه، لا يُسمىٰ بها مخلوقٌ.

٢) **تَغْيِيرُ الِاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ:** لأن النبي ﷺ غيَّر كنية أبي الحكَم إلىٰ أبي شريح.

٣) **اِخْتِيَارُ أَكْبَرِ الْأَبْنَاءِ لِلْكُنْيَةِ:** لأن النبي ﷺ كنَّىٰ أبا شريح باسم أكبر أبنائه.

۞ ۞ ۞

الْبَــابُ السَّــابِعُ وَالْأَرْبَعُــونَ

بَــابُ مَنْ هَــزَلَ بِشَيْءٍ فِيْهِ ذِكْــرُ اللهِ أَوِ القُــرْآنِ أَوِ الرَّسُــوْلِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◈ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥].

◈ عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومحمدِ بنِ كعبٍ، وزيدِ بنِ أسلمَ، وقَتادةَ -دَخَلَ حَدِيْثُ بَعْضِهِم فِي بَعْضٍ-؛ أَنَّهُ قالَ رجُلٌ في غَزْوَةِ تَبوك: مَا رَأَيْنا مِثْلَ قُرَّائِنا هَؤلاءِ أرغَبَ بُطونًا، ولا أَكْذَبَ أَلسُنًا، ولا أجْبَنَ عندَ اللِّقاءِ -يَعني الرَّسُولَ ﷺ وأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ-، فقالَ له عَوْفُ بنُ مالكٍ: كَذَبْتَ؛ ولكِنَّكَ مُنافِقٌ، لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَذَهبَ عوْفٌ إلىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ، فَوجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجاءَ ذَلكَ الرَّجُلُ إلىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ ارْتَحَلَ، وَرَكِبَ ناقَتَهُ، فقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ ونَتَحدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ، نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقِ، قَالَ ابْنُ عُمَر: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ متعلِّقًا بِنِسْعَةِ ناقَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وإِنَّ الحِجارةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ، فيقولُ لَهُ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥]، مَا يَلْتَفِتُ إِلِيْهِ، ومَا يَزِيْدُهُ عَلَيْهِ.

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) وَهِيَ الْعَظِيمَةُ: أَنَّ مَنْ هَزَلَ بِهَذَا فَهُوَ كَافِرٌ.

٢) أَنَّ هَذَا تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَائِنًا مَنْ كَانَ.

٣) الْفَرْقُ بَيْنَ النَّمِيمَةِ وَالنَّصِيحَةِ للهِ وَرَسُولِهِ.

٤) الْفَرَقُ بَيْنَ الْعَفْوِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ، وَبَيْنَ الْغِلْظَةِ عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللهِ.

٥) أَنَّ مِنَ الِاعْتِذَارِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ.

الشَّرْح

بوَّبَ شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في حُكْمِ مَن هزل بذِكر الله أو القرآن أو الرسول ﷺ، وجعلَ ما ذَكره من الآية وسبب نزولها مفصحًا عن حُكْم الباب، وصرّح بذلك منطوقًا في مسائل الباب، حيث قال في المسألة الأولىٰ: «مَنْ هَزَلَ بِهَذَا فَهُوَ كَافِرٌ».

ونبَّه شيخ الإسلام علىٰ أن الحُكْم عام لكل مَن هزل بشيء من ذِكر الله أو القرآن أو الرسول ﷺ، لأنّ العِبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، حيث قال في المسألة الثانية: «أَنَّ هَذَا تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَائِنًا مَنْ كَانَ».

وشيخُ الإسلام أتْبَع الآية بذِكر سبب نزولها، وذكر معنىٰ واحدًا في ذلك، لكنّه قد أشار إلىٰ مجموع مَن روىٰ سبب النزول، وهم: عبد الله بن عمر، ومحمد بن كعب القرظي، وزيد بن أسلم، وقتادة.

وسبب النزول الذي ذكره شيخ الإسلام هو المروي عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وروىٰ نحوه محمد بن كعب القرظي(١).

وقتادة قال: بينما النبيُّ ﷺ في غزوة تبوك، ورَكْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها، هيهات هيهات، فأطلعَ اللهُ نبيَّه ﷺ علىٰ ما قالوا، فقال: «**عليَّ بهؤلاء النفر**»، فدعاهم، فقال: «قلتم كذا وكذا»، فحلفوا ما كُنَّا إلا نخوض ونلعب(٢).

وقال ابن إسحاق: كان جماعة من المنافقين يشيرون إلىٰ رسول الله ﷺ وهو منطلق إلىٰ تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلاد بني الأصفر كقتال العرب

(١، ٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٣٧).

بعضهم بعضًا؟ واللهِ لكأنا بكم غدًا مقرَّنين في الحبال، فأنزل الله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥](١).

ودلَّت الآية على أنّ السخرية بالمؤمنين لا يُقبل الاعتذار فيها بالهزل.

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «في قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦]، دليل على استواء الجد واللعب في الكفر».

وقوله تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٦]، أنّ مَن صدقَ في توبته من النفاق والسخرية بالمؤمنين فإنّ له سبيلًا إلى عفو الله، وأمَّا الكاذبون في توبتهم فاستمرارهم وإصرارهم على النفاق موجب لعذاب الله لهم.

وألفاظ الآية تدل على أنّ سبب كفر المنافقين استهزاؤهم بالله عَزَّوَجَلَّ وآياته ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥].

فالمستهزئ بشيء من الدِّين كافرٌ مُرتَد، واستهزاؤه دالٌّ على عدم تعظيمه لله ولا لشرعه ولا لدِينه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «نُقل عن الشافعي أنَّه سُئل عمَّن هزل بشيء من آيات الله تعالى أنَّه قال: هو كافر، واستدلَّ بقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

وكذلك قال أصحابنا وغيرهم: مَن سبَّ الله كفر، سواء كان مازحًا أو جادًّا؛ لهذه الآية، وهذا هو الصواب المقطوع به».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٣٧).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزّيز (٢/ ٥٣٨).

(٣) الصارم المسلول (ص٥١٣).

فالسَّبُّ للدِّين أو للقرآن أو للذِّكر أو للرسول ﷺ دالٌّ علىٰ عدم إيمان السَّابِّ بالله ﷻ ورسولِه ﷺ، فإنّ تعظيم الله لا يصدر معه سبٌّ وسخرية بدينه ووحيه ورسوله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ التصديق بالقلب يمنع إرادةَ التكلُّمِ وإرادةَ فعلٍ فيه استهانةٌ واستخفافٌ، كما أنّه يوجب المحبَّة والتعظيم».

فالسخرية بالمؤمنين خُلُقُ الكافرين، قال تعالىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [المائدة: ٥٧، ٥٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «هذه صفات أتباع الشيطان، الذي إذا سمع الأذان أدْبَرَ وله حُصَاصٌ».

وسخريةُ المنافقين بالمؤمنين هي إظهارٌ لحقائق بواطنهم المنطوية علىٰ الكفر، قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٩].

وسخرية المنافقين بالصحابة هي رميٌ للمؤمنين بأدوائهم، فالأجبن عند اللقاء هم المنافقون، الذين يتخلفون عن الجهاد، وإذا خرجوا أرجفوا بالمجاهدين، وخذَّلوا عن الجهاد، وسخروا بالمؤمنين.

(١) الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول (ص٥٢٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٠٧).

والأكذب ألسنًا هم المنافقون، فدِينهم مُؤسَّس علىٰ الكذب، ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]، يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

أمَّا الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فقد نعتهم الله بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

والصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ خرجوا من المدينة إلىٰ تبوك في وقتِ حصادِ الثمار، فتركوا الأموال والديار والثمار وجادوا بأرواحهم في سبيل الله، والرغبة في البطون هي نعتُ غيرهم، قال النبيُّ ﷺ: «**خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته، ويكثر فيهم السِّمَنُ**» متفق عليه.

فالكفار غيظهم سبُّ المؤمنين والسُّخرية بهم، ولا يرتاب منصف أنّ المؤمنين خير من الكافرين، فالمؤمنون خير البرية، والكافرون هم شرُّ البرية، هذا حُكمُ الله العدل العليم الحكيم.

فسبُّ الكافرين للمؤمنين وسخريتهم بهم هو زيادة في كفرهم، وإظهار لنِقَمِهِم؛ لاصطفاء الله لهم للإسلام. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٤].

قال العَلَّامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ(١): «صرَّح في هذه الآية الكريمة: أنّ المنافقين ما وجدوا شيئًا ينقمونه، أي: يعيبونه وينتقدونه إلا أنَّ الله تفضَّل عليهم فأغناهم بما فتح علىٰ نبيِّه ﷺ من الخير والبركة».

أما المؤمنون بالله ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، لا يسخرون ولا يستهزئون بالله ولا بآياته.

والمؤمنون بالرسول ﷺ يتبعونه، ويوالونه، ويُوقِّرونه ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٤٢١).

أَمَّا الكافرُ فكُفْرُه بالله ﷻ ووحيِه ورسولِه ﷺ هو سببُ طعنِه في اللهِ والإسلامِ وسخريتِه واستهزائه بالله وآياته ورسوله ﷺ والمؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

شــرْحُ المســائل:

١) **وَهِيَ الْعَظِيمَةُ؛ أَنَّ مَنْ هَزَلَ بِهَذَا فَهُوَ كَافِرٌ**: ذكرَ شيخُ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في المسألة الأولىٰ أنَّ مَن هزل بشيءٍ فيه ذِكرُ الله أو القرآن أو الرسول؛ أنه كافرٌ.

٢) **أَنَّ هَذَا تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَائِنًا مَنْ كَانَ**: وذكر في المسألة الثانية أنَّ هذا الحُكم عام في كل مَن فعلَ ذلك.

٣) **الْفَرْقُ بَيْنَ النَّمِيمَةِ وَالنَّصِيحَةِ للهِ وَرَسُولِهِ**: وذكرَ شيخُ الإسلام في المسألة الثالثة الفرقان بين النصيحة لله ﷻ ورسوله ﷺ التي قام بها الصحابي رضي الله عنه بإخبار النبي ﷺ بعدوان وأذىٰ المنافقين للإسلام والمسلمين، وبين النميمة وهي نقلُ الكلام بين المسلمين لإفساد ذات بينهم.

٤) **الْفَرْقُ بَيْنَ الْعَفْوِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ، وَبَيْنَ الْغِلْظَةِ عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللهِ**: شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله أوجبَ معاملةَ أعداء الله المستهزئين بالله وآياته ورسوله والمؤمنين بما يليق بتغلُّظ كفرهم.

٥) **أَنَّ مِنَ الِاعْتِذَارِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ**: وحذَّرَ في المسألة الخامسة من الأعذار الكاذبة التي لا ينبغي أن تُقبل من المنافقين والكافرين.

الْبَابُ الثَّامِنُ وَالْأَرْبَعُونَ

بَــابُ مَا جَــاءَ فِي قَــوْلِ اللهِ تَعَــالَى:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◈ قالَ مُجاهِدٌ: «هذا بِعَمَلي، وأَنا مَحْقوقٌ بهِ».

◈ وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: «يريدُ من عِنْدي».

◈ وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

◈ قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَىٰ عِلْمٍ مِنِّي بِوجُوهِ الْمَكَاسِبِ».

◈ وَقَالَ آخَرونَ: «عَلىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ».

◈ وَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِ مُجاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَىٰ شَرَفٍ».

◈ وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ سِمَعَ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: «**إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَني إِسْرَائِيْلَ: أَبْرَص وَأَقْرَع وَأَعْمَىٰ، فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَىٰ الأَبْرَص، فَقَالَ: فَأَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَونٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهبُ عَنِّي الَّذي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ، قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ؛ فأُعطيَ لَوْنًا حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، قال: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلَ أَوِ البَقَر -شَكَّ إِسْحَاقُ- فأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيْهَا.**

◈ **قَالَ: فأَتَىٰ الأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذي قَدْ قَذِرني النَّاسُ بِهِ، فَمَسَحهُ، فَذَهبَ عنهُ، وَأُعطِيَ شَعرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ**

الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: البَقَرُ أَوِ الإِبِلُ، فَأُعطِيَ بقَرةً حامِلًا، قَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيْهَا.

◊ فَأَتَىٰ الأَعْمَىٰ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قالَ: أن يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي؛ فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ، قالَ: الغَنَم، فأُعطِيَ شاةً والِدًا.

◊ فَأَنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّد هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ.

◊ قَالَ: ثُمَّ إِنَّه أَتَىٰ الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكينٌ، وَابْنُ سَبيلٍ، قَدِ انقطَعتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي هَذَا؛ فَلَا بلَاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّونَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحسَنَ، وَالْمَالَ؛ بَعِيْرًا أَتبلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ: الْحُقُوْقُ كَثِيْرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيْرًا فَأَعطاكَ اللهُ الْمَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، قَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا؛ فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنْتَ.

◊ قَالَ: وَأَتَىٰ الأَقْرَعَ فِي صُوْرَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنْتَ.

◊ قَالَ: وَأَتَىٰ الأَعْمَىٰ فِي صُوْرَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِيْنٌ، وَابْنُ سَبِيْلٍ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتبلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَىٰ فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي؛ فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ؛ فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ اليَوْمَ بِشَيءٍ أَخَذْتَهُ للهِ.

◊ فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيْتُمْ فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَىٰ صَاحِبَيْكَ». أَخْرَجَاهُ.

فِيْــهِ مَسَـــائِلُ:

١) تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

٢) مَا مَعْنَىٰ: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾.

٣) مَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

٤) مَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ مِنَ الْعِبَرِ الْعَظِيمَةِ.

الشَّرْح

هذا الباب في بيان أنواع من توحيد الربوبية، فإنّ الله سبحانه هو الذي يرزق عباده، وقد جعل الله لكل شيء سببًا، وأمر عباده بالتكسب، وهو سبحانه يرزق عباده بأنواعٍ من الرزق من غير كسبٍ ولا حِذقٍ منهم في طلبِهِ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، كما أنه سبحانه يُقدِّر العوائق التي تَحُول بين العباد وبين ما يسعون في طلبه، ويبتلي عباده ببسط الرزق وقبضه؛ ليستخرج عبودية خَلْقِه في السراء والضراء.

فالواجب علىٰ المسلم في أحواله كلها الإيمان بربوبية الله، وتوحيده في أفعاله، وعبوديته في السراء والضراء، والالتجاء إلىٰ الله وحده فهو الذي يبسط الرزق لمَن يشاء ويَقْدِر.

وكما يجب علىٰ المسلم التوكل علىٰ الله وبذلُ الأسباب الجالبة للرزق من: تجارة، أو زراعة، أو صناعة، أو غيره من أنواع الكسب المباح.

كذلك يجب عليه أداء حق الله في النِّعم؛ بشُكْرِه عليها.

وواجبُ المسلم توحيد الله في الأسباب، والجمع بين الشرع والقَدَر في تحصيلها، فلا يُعطِّل المسلم الأسباب، بل ينظر إلىٰ مسبِّبها فيُعلِّق قلبه ورجاءه وتوكله بالله، ويأتي بالأسباب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «منعُ الأسباب أن تكون أسبابًا؛ قدحٌ في العقل والشرع، وإثباتها والوقوف معها وقطعُ النظر عن مسبِّبها؛ قدحٌ في التوحيد والتوكل.

والقيام بها، وتنزيلها منازلها، والنظر إلىٰ مسبِّبها، وتَعلُّق القيام به، جمعٌ بين الأمر والتوحيد، وبين الشرع والقَدَر، وهو الكمال».

والمسلم في فِعله الأسباب مستعين بالله، متوكِّل عليه، يسأل ربه تيسير أموره، وتحققها، والتوفيق من الله، قال شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وقيام المسلم بالأسباب، وسؤال الله التوفيق؛ عونٌ علىٰ حصول المَطالب، فإنّه لولا توفيق الله ربما حصلت معارضات تمنع حصول المَطالب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الحاجة والفقر إلىٰ الله ثابتة مع فِعل السبب؛ إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سببٌّ تام لحصول المطلوب».

وقال شيخ الإسلام(٣): «مَن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل، وأخل بواجب التوحيد، ولهذا يُخذل أمثال هؤلاء».

وواجبك -أيُّها المسلم-: التوكل علىٰ الله في أمورك كلها، وتعظيم الرغبة والتوكل علىٰ الله في أعظم الأمور: الهداية، والنصر، والرزق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «أعظم التوكُّل عليه: التوكُّل في الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعة الرسول ﷺ، وجهاد أهل الباطل، فهذا توكُّل الرسل وخاصة أتباعهم».

---

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٥٦٤).

(٢، ٣) مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ١٧٩).

(٤) الفوائد (ص١٢٥).

قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، فالمسلم مستعين بالله في أموره كلها، الدينية والدنيوية، فالله هو الذي يُيَسِّر الأمور كلها، ويُعِين علىٰ حصولها.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن العبد عاجز عن الاستقلال بجلبِ مصالحه، ودفعِ مضارِّه، ولا مُعِينَ له علىٰ مَصالح دينه ودنياه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، فمَن أعانه الله فهو المُعانُ، ومَن خذله فهو المخذول.

وهذا تحقيق معنىٰ قول: (لا حول ولا قُوَّة إلا بالله)، فإنَّ المعنىٰ: لا تَحوُّلَ للعبد من حالٍ إلىٰ حال، ولا قُوَّة له علىٰ ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة، وهي كنز من كنوز الجنة.

فالعبد محتاج إلىٰ الاستعانة بالله في فعلِ المأمورات، وتركِ المحظورات، والصبر علىٰ المقدورات كلِّها في الدنيا، وعند الموت، وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يَقْدِر علىٰ الإعانة علىٰ ذلك إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، فمَن حقَّق الاستعانة عليه في ذلك كله، أعانه.

وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز**».

ومَن تركَ الاستعانة بالله، واستعان بغيره، وكَلَهُ الله إلىٰ مَن استعان به، فصار مخذولًا».

وتوحيد الله بشكرِ نِعَمِه هو من أسباب حفظها وبركتها ونمائها، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

فشكرُ النعم بنسبتها إلىٰ باريها، ومَن وُفِّق لأسباب تحصيلها، وأداء حقها

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص٣٦٢).

بزكاتها والصدقات الواجبة والمستحبة فيها، واستعمالها في عبودية الله ومراضيه؛ فإنه بشكره لله يحفظ الموجود من النعم ويستجلب المفقود.

والإلحاد والكفر بأنعم الله منها ما يكون بنسبتها لغير الله، كما كان المشركون يقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، قال تعالىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]، أو بالمخيلة بحصول النعم كقول الكافر: هذا بعملي، وأنا محقوق به، أو قوله: هذا لعلمي بوجوه المكاسب.

وتحقيق التوحيد من أسباب الرزق والسعادة والحفظ، قال تعالىٰ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لِرَبِّهِ عبادةً واستعانةً، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وفي قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وفي قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وفي قوله: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧]».

فملاحظة نعمة الهداية للإسلام، والرزق الذي يدفع به الإنسان ضرورته في الحياة من الهلكة، والعافية في البدن التي تعينه علىٰ عبودية الله وشُكْر النِّعَم من أسباب الفرح بالله وأداء حقه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها، فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عُوفيت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم».

---

(١) الوصية الصغرىٰ بشرح مقيِّده (ص١٣٨).
(٢) عُدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين (ص١٠٥، ١٠٦).

والأبرص، والأقرع، والأعمىٰ، ابتلاهم الله في أبدانهم، وعافاهم الله بعد المرض وبسط لهم الرزق، فصار لكل واحد منهم وادٍ من الغنم، والبقر، والإبل، والأبرص والأقرع بَخِلا عن أداء حق الله في المال إلىٰ المحتاجين، وكذبا في نسبة الرزق إلىٰ وراثته عن الآباء، فاختالا بذلك عن نسبتها إلىٰ الله فعُوقبا بسلب نعمة الرزق والعافية، وأما الأعمىٰ فنسب النعم إلىٰ الله، وأدىٰ حق المال بمساعدة المحتاجين، فـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحفظ له ماله وعافاه.

والناس فريقان: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [الأعراف: ٣٠]، فالشكور هو الذي هدىٰ الله، والكفور هو الذي حقَّت عليه الضلالة.

فالشاكر لأنعم الله هو الذي ينسب النعم إلىٰ الله، ويستعملها في طاعة الله، ولا تُشغله عن ذكر الله بل تعينه علىٰ ذلك.

والكفور ينسب حصول النعم إلىٰ حِذْقِه، واستحقاقه لها، ولا يؤدي حقها، ولا يستعملها في طاعة الله، ويلهو بها عن ذكر الله.

انظروا إلىٰ ذي القرنين الملك الصالح، الذي بلغ مُلْكُه مطلع الشمس ومغربها، آتاه الله أسباب المُلْك والتمكين من العلم والقدرة والقوة، فاستعمل الأسباب ولم يُعطِّلها، ونسب النعم كلها -ومن جملتها المُلْك- وأسباب التمكين إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، واستعمل التمكين لتوحيد الله وعبوديته.

قال تعالىٰ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٣ – ٨٥].

وحكم بالعدل وأعان عليه فقال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨].

وأما الكفور لنعم الله فمِن أَعْتَاهم قارون، قال تعالىٰ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، وقد أمره الله بشكر النعمة وأداء حقها

ولكنه اختال وكفر وزعم أنّه أُوتيه علىٰ علم من الله باستحقاقه لها، وعِلْمه بأسباب الكسب، فخسف الله به وأتلفه وماله.

وخطاب الله له هو خطاب للخَلْق جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

والنعم توجب الشكر والعبودية لله وحده، والمسلم في أحواله كلها إذا بُسِط له في رزقه أو قُدِر عليه يؤدي عبودية الله، مستحضرًا نِعم الله التي لا تُحصىٰ، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ونعمة الهداية للإسلام وحدها التي هي سبب سعادة الدارين شُكرُنا لها قليل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من لطائف التعبُّد بالنعم أن يستكثر قليلها عليه، ويستقلَّ كثير شكره عليها، ويعلم أنَّها وصلت إليه من سَيِّده من غير ثمنٍ بذله فيها، ولا وسيلة منه توسَّل بها إليه، ولا استحقاق منه لها، وأنّها لله في الحقيقة لا للعبد، فلا تزيدُهُ النعم إلا انكسارًا وذلًّا وتواضعًا ومحبةً للمُنعِم.

وكلَّما جدَّد له نعمة أحدث لها عبودية ومحبةً وخضوعًا وذلًّا، وكلما أحدث له قبضًا أحدث له رضًىٰ، وكلما أحدث له ذنبًا أحدث له توبةً وانكسارًا واعتذارًا، فهذا هو العبد الكَيِّسُ، والعاجز بمعزل عن ذلك».

حديث الأبرص والأقرع والأعمىٰ يدل علىٰ أنّ الصدقة تحفظ المال، وأنّ الشح بالمال عن بذله في حقوقه قد يكون سببًا في تلفه.

الصدقة فكاكك من النار، قال النبي ﷺ: «**اتقوا النار، ولو بِشِقِّ تمرة**»، متفق عليه من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) الفوائد ص١٦٥.

حسبك من فضل الصدقة أنّها تُظلك في المحشر حيث تَقْرُب الشمس من الخلائق مقدار ميل، قال النبيُّ ﷺ: «**يأتي المسلم في ظل صدقته يوم القيامة**»، رواه أحمد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه وصحَّحه ابن خزيمة.

وإمساك المال عن بذله في حقوقه يكون من ضعف اليقين بالله في الخُلْف، ومن غلبة الشح، وإلا فإنّ المؤمن موقن بأنّ صدقته كسبٌ له، دنيويًّا وأخرويًّا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال النبي ﷺ: «**ما نقصتْ صدقةٌ من مالٍ**»، رواه مسلم.

فقَوِيُّ الإيمان المصدِّق بخبر الله عز وجل ورسولِه ﷺ سخيٌّ في الصدقة وبذل المال بالمعروف، قال النبي ﷺ: «**الصدقة برهان**»، رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فالحاصل: أنّ مَن صدَّق بوعد الله، وأعطىٰ الفضل من ماله، واتقىٰ الشح يُيسر الله له الخيرات، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

والموّفق هو الذي جعل ماله وسيلة إلىٰ الله وعبادته وبناء دور الجنة، فإنّ المال من أعظم أسباب ذلك، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علمٌ يُنتفع به، أو ولدٌ صالح يدعو له**»، فالمال إذا بُذل في الصدقات الجارية استمر ثوابها إلىٰ يوم القيامة.

خُذْ من المال زينته الحقيقية، وهو استعماله في الأعمال الصالحة، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، ولا تتخذِ

المالَ للمباهاة والمخيلة واللهو عن طاعة الله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ [الحديد: ٢٠].

مالك الحقيقي هو ما تقرَّبت به إلىٰ الله وأنفقته في مراضيه، قال عبد الله بن الشخير رضي الله عنه: انتهيتُ إلىٰ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وهو يقرأ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، قال: «**يقول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقتَ فأمضيتَ، أو أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ**»، رواه مسلم.

اتَّخِذْ من مالك سببًا للتجارة الرابحة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

وسُنَّةُ اللهِ معلومةٌ في ابتلاء عباده بأنواع من الضراء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

والخصال التي وعد الله بها عباده علىٰ الصبر علىٰ أنواع الضراء؛ تسليةً لهم في صبرهم عليها عظيمة، قال ابن القيم رحمه الله[(١)]: «إنَّه جمعَ للصابرين ثلاثة أمور، لم يجمعها لغيرهم، وهي الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم».

وليس معنىٰ هذا أن يستدعي الإنسان البلاء لنفسه، بل يسأل الله العافية، فإذا ابْتُلي لَزِم الصبر والاستغفار والإنابة إلىٰ الله، وسأله كشف الضر وتحويله.

---

(١) عُدَّة الصَّابرين (ص١٣٠).

قال مطرف بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «لأنْ أُعافَىٰ فأشكر، أحبّ إليَّ من أنْ أُبتلىٰ فأصبر».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «الثواب علىٰ المصائب التي يُبتلىٰ العبد بها بغير اختياره، كالمرض والألم ونحوهما. وأمَّا أن تكون عبادةً مأمورًا بتحصيلها وطلبها، فلا، ففَرْقٌ بين ما يُثاب عليه العباد من المأمورات، وما يُثاب عليه من البليَّات».

فالمؤمن عند الابتلاء وفي المصائب لا يقنط، بل ينتظر الفرج من الله، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥، ٦].

قال الزجاج[3]: ذكَرَ العُسْرَ بالألف واللام، ثم ثنَّىٰ ذِكْرَه، فصار المعنىٰ: إنّ مع العسر يُسْرين.

وقال الفراء[4]: العربُ إذا ذكَرَت نكرة، ثم أعادت بنكرة مثلها صارتا اثنتين.

فاليسر مع العسر، فهذه بشارة للمؤمنين، وهو كقوله ﷺ: «**إنّ النصر مع الصبر، وإنّ الفرج مع الكرب**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[5]: «أما أرْجَحُ المكاسب: فالتوكل علىٰ الله، والثِّقَة بكفايته، وحُسْنُ الظَّنِّ به».

وذلك أنّه ينبغي للمُهْتَمِّ بأمر الرِّزق أن يلجأ فيه إلىٰ الله ويدعوه، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يَأْثُرُ عنه نبيّه ﷺ: «**يا عبادي! كُلُّكُمْ جائع إلَّا مَن أطعمته، فاستطعموني أُطْعمكُمْ، يا عبادي! كُلُّكُمْ عَارٍ إلَّا مَن كَسَوْتُهُ، فاستكسوني أَكْسُكُمْ**».

فالمسلم في حال السراء متواضع شاكر، وفي الضراء حسن الظن بالله راجيًا فضله راغبًا إليه.

---

(١) عُدَّة الصَّابرين (ص١٩٢).

(٢) طريق الهجرتين (٢/ ٦٠٧، ٦٠٨).

(٣، ٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٨/ ٦٧٢).

(٥) الوصيّة الصُّغرىٰ، مع شرحها لمقيدِّه (ص١٧٢).

قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [هود: ١١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هؤلاء ثنية -استثناهم- الله من نوع الإنسان المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة، والفرح والفخر عند النعمة.

ولا خلاص من هذا الذم إلا بالصبر والعمل الصالح، كما لا تُنال المغفرة والأجر الكبير إلا بهما».

ولا تظن -أيُّها المسلم- أن الفقر وحده هو الابتلاء، فالغنىٰ والجاه أيضًا ابتلاء، قال سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيما سخَّر الله له من المُلْك والنِّعم والجنود الذين يعملون له: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

ومن الكفار مَن بُسط له في الرزق، لكنّ الله حرّمهم أفضل نعمة وهي السبب لسعادة الدار الآخرة، نعمة الهداية للإسلام.

والدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وفي المسلمين مَن جمعَ الله له خيري الدنيا والآخرة.

واللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُملي للكافرين ليزدادوا إثمًا في الآخرة، وهو من تعجيل الطيبات لهم في الدنيا دون الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

فالرزق الهَنِيُّ هو الذي لا يُعذِّبكَ اللهُ عليه، قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

فالكافر عليه الجناح والإثم في رزقه؛ لأنه لم يَشكرِ اللهَ عليه بعبوديته وتوحيده.

(١) عُدَّة الصَّابرين (ص١٣٢).

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ الْآيَةِ**: الآية هي قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت: ٥٠]، فالكافر إذا بسط الله له الرزق بطرَ باللهوِ بالرزقِ عن الشكر لله وعبوديته وأداء حق المال، ولَهَىٰ بالنِّعم ومتاعِ الدنيا عن العمل للآخرة، وتألَّىٰ علىٰ الله بالثواب الحسن، فهذا الصنف من الكافرين توعده الله بالعذاب الغليظ، وهذا جزاءُ مَن كفر بأنعم الله ولم يشكرها.

فالمسلم يَحْذر التشبه بالكافرين، ويؤدي عبودية الله في النعم ولا يتمنىٰ علىٰ الله الأماني الكاذبة.

٢) **مَا مَعْنَىٰ**: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]: الكافر يختال بالنعمة، ويَلْهَىٰ بها عن شكرها، فيقول: أُوتيت النعم بحِذقي، ولأنِّي حقيقٌ بها، وهذا مِن كُفْرِها، ومِن عَدَمِ شكرِ الله المُنعِمِ بها حقًّا.

٣) **مَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ**: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]: اختيال الإنسان بنسبته حصول النعم إلىٰ حِذقه وتدبيره، هو من غروره والتفاته عن ربه، ولولا فضْل الله وتيسيره أسباب الكسب ودفْع معارضتها؛ ما استطاع أَحَدٌ تحصيل شيء من المكاسب.

٤) **مَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ مِنَ الْعِبَرِ الْعَظِيمَةِ**: قصة الأبرص، والأقرع، والأعمىٰ، موعظة للمؤمنين، فمَن شكرَ نِعَمَ اللهِ ونسبها إليه وأدّىٰ شُكْرَها وحقَّها؛ حَفِظَ اللهُ عليه دينه وماله، ومَنِ اختال بالنعم ولم يقم بشكرها، ولم يؤدِّ حق المساكين فيها؛ سلّط الله علىٰ مَالِهِ الآفات والتلف، وشرٌّ من ذلك خسرانه للآخرة، واللهُ أعلم.

الْبَــابُ التَّــاسِعُ وَالْأَرْبَعُــونَ

بَــابٌ: قَــوْلُ اللهِ تَعَــالَى:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾

[الأعراف: ١٩٠].

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

◊ قَالَ ابْنُ حَزْم: «اتَّفَقُوا عَلَىٰ تَحْرِيم كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو، وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ حَاشَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ».

◊ وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ قَالَ: «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ؛ لَتُطِيعُنِّي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيِّلٍ، فَيَخْرُجَ مِنْ بَطْنِكِ فَيَشُقَّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ وَلَأَفْعَلَنَّ؛ يُخَوِّفُهُمَا، سَمِّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ؛ فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]». رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

◊ وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «شُرَكَاءَ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ».

◊ وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٩٠] قَالَ: «أَشْفَقَا أَنْ لَا يَكُونَ إِنْسَانًا».

◊ وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الْحَسَنِ، وَسَعِيدٍ، وَغَيْرِهِمَا.

فِيْهِ مَسَائِلُ:

١) تَحْرِيمُ كُلِّ اِسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ.

٢) تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

٣) أَنَّ هَذَا الشِّرْكَ فِي مُجَرَّدِ تَسْمِيَةٍ لَمْ تُقْصَدْ حَقِيقَتُهَا.

٤) أَنَّ هِبَةَ اللهِ لِلرَّجُلِ الْبِنْتَ السَّوِيَّةَ مِنْ النِّعَمِ.

٥) ذِكْرُ السَّلَفِ الْفَرْقَ بَيْنَ الشِّرْكِ فِي الطَّاعَةِ وَالشِّرْكِ فِي الْعِبَادَةِ.

الشَّرْح

قصة آدم هي موعظة للمؤمنين جميعًا، وما هذه القصة إلا نموذج من القصة التي كرَّر الله ذكرها في القرآن، وكانت سببًا في خروج آدم وحواء من الجنة، واستخلاف الله لهما ولذريتهما في الأرض وتكليفهم بعبودية الله.

فالحرص علىٰ الخُلْد والمُلْك هو الذي كان سببًا في خروج آدم من الجنة، والحرص علىٰ الولد -صالح الخِلْقة- هو السبب في طاعة ذرية آدم للشيطان.

وتخويف الشيطان للمؤمنين بحصول المكاره هو نوعٌ من أنواع أذيته لهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

والمؤمن يأوي إلىٰ الله فيأمن، ويعتصم بالله فيكفىٰ، ويعتقد أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأن الأمّة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، وأنهم لو اجتمعوا علىٰ أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

والنبيون عليهم الصلاة والسلام اعتصموا بالله في دفعِ شرِّ الشيطان، وكذلك الصالحون ممن تلقىٰ عنهم علوم التوحيد، قالت امرأة عمران: ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وسيِّدُ الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام خوَّفه المشركون أن تناله آلهتهم بسوء، فأجابهم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾ [الأنعام: ٨٠].

قال ابن القيم رحمه الله(١): «قال الخليل: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٨٠]، فإن آلهتكم أقل وأحقر من أن تضر مَن كفر بها وجحد عبادتها، ثم رد الأمر إلىٰ مشيئة الله وحده، وأنه هو الذي يُخاف ويُرجىٰ، فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾ [الأنعام: ٨٠]، وهذا استثناء منقطع.

والمعنىٰ: لا أخاف آلهتكم، فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة، لكن إن شاء ربي شيئًا نالني وأصابني، لا آلهتكم التي لا تشاء ولا تعلم شيئًا، وربي له المشيئة النافذة، وقد وسع كل شيء علمًا، فمَن أَوْلَىٰ بأن يُخاف ويُعبد، هو سبحانه أَمْ هي؟».

فالذي يجب أن يخشاه المسلم هو مضار الشرك، والذي يكون سببًا لأمن المسلم ورزقه وسعادته هو التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والخير كله بيد الله وحده، فالمسلم يطلبه منه، وهذا حقيقة الأمر كله ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «مبدأُ الأمور من الله، وتمامها علىٰ الله».

ولذلك سأل زكريا عليه السلام ربه الخير في الذرية، فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨].

والموحِّدون تهديدُ أولياء الشيطان وتخويفه لهم يزيدهم توكلًا علىٰ الله وفرارًا إليه واعتصامًا به، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٩٦).

فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فالاعتصام بالله طمأنينة.

والواجب علىٰ المسلم عبودية الله وشُكْره، ونعمة الزوج والذرية من أَوْلىٰ النعم بالشكر، وتسمية الذرية بالأسماء الحسنة واجتناب الأسماء الشركية توحيدٌ لله، وأداءٌ لحقه، وشكرٌ لنعمه.

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٩٠]، علىٰ وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه، ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]، أي: جعلا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بإيجاده والنعمة به، وأقر به أعين والديه، فعبَّداه لغير الله. إما أن يسمياه بعبد غير الله، كـ(عبد الحارث) و(عبد العزىٰ) و(عبد الكعبة)، ونحو ذلك، أو يشركا بالله في العبادة، بعدما منَّ الله عليهما بما منَّ مِنَ النعم التي لا يحصيها أَحَدٌ من العباد.

وهذا انتقال من النوع إلىٰ الجنس، فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل إلىٰ الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيرًا، فلذلك قررهم الله علىٰ بطلان الشرك، وأنهم في ذلك ظالمون أشد الظلم، سواء كان الشرك في الأقوال أم في الأفعال، فإن الخالق لهم من نفْسٍ واحدة، الذي خلق منها زوجها، وجعل لهم من أنفسهم أزواجًا، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ما يسكن بعضهم إلىٰ بعض، ويألفه، ويلتذ به، ثم هداهم إلىٰ ما به تحصل الشهوة واللذة، والأولاد والنَّسْل.

ثم أوجدَ الذرية في بطون الأمهات، وقتًا مؤقتًا، تتشوق إليه نفوسهم، ويدعون الله أن يخرجه سويًّا صحيحًا، فأتم الله عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم. أفلا يستحق أن يعبدوه، ولا يشركوا به في عبادته أحدًا، ويخلصوا له الدين».

والقصة المروية عن آدم وحواء في طاعة الشيطان بتسمية ولدهما بعبد الحارث غير صحيحة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٣٢١، ٣٢٢).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذه القصة باطلة من وجوه:

- الوجه الأول: أنه ليس في ذلك خبرٌ صحيح عن النبي ﷺ، وهذا من الأخبار التي لا تُتلقىٰ إلا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة: إنها رواية خرافة مكذوبة موضوعة.

- الوجه الثاني: أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء، لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه، فمَن جوَّز موتَ أحدٍ من الأنبياء علىٰ الشرك فقد أعظم الفرية، وإن كان تابا من الشرك، فلا يليق بحكمة الله وعدله أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما.

- الوجه الثالث: أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء.

- الوجه الرابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلىٰ آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة، وهو معصية، ولو وقع منه الشرك، لكان اعتذاره به أقوىٰ وأَوْلَىٰ وأَحْرَىٰ.

- الوجه الخامس: أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال: (أنا صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة)، وهذا لا يقوله مَن يريد الإغواء، وإنما يأتي بشيء يُقرِّب قبول قوله.

- الوجه السادس: أن في قوله في هذه القصة: (لأجعلن له قرني إيل): إما أن يُصدِّقا أن ذلك ممكن في حقه، فهذا شركٌ في الربوبية؛ لأنه لا يَقدِر علىٰ ذلك إلا الله، أو لا يُصدِّقا، فلا يمكن أن يَقْبَلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

- الوجه السابع: قوله تعالىٰ: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٠] بضمير الجمع، ولو كان آدم وحواء، لقال: عما يشركان.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٨٩٤، ٨٩٥) باختصار يسير.

فهذه الوجوه تدل علىٰ أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يُعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شركٌ بأي حال من الأحوال، والأنبياء مُنزَّهون عن الشرك، مُبرَّؤون منه باتفاق أهل العلم.

وعلىٰ هذا؛ فيكون تفسير الآية -كما أسلفنا- أنها عائدة إلىٰ بني آدم الذين أشركوا شركًا حقيقيًّا، فإن منهم مشركًا ومنهم موحدًا».

وانتقد شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ «اتفقوا علىٰ تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد عمر، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب»، فاستثناءُ ابنِ حزمٍ اسم «عبد المطلب» من التحريم ليس بصواب، حيث قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا تقرير ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكن الصواب تحريم التعبيد للمُطَّلِب، فلا يجوز لأحد أن يسمي ابنه عبد المطلب.

وأما قوله ﷺ: «**أنا ابنُ عبدِ المُطَّلب**» فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء، فالنبي ﷺ أخبر أن له جدًّا اسمه عبد المطلب، ولم يَرِد عنه ﷺ أنه سمىٰ عبد المطلب، أو أنه أَذِن لأحدِ صحابته بذلك، ولا أنه أقر أحدًا علىٰ تسميته عبد المطلب.

والكلام في الحُكمِ لا في الإخبار، وفَرْقٌ بين الإخبار وبين الإنشاء والإقرار، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد**»، وقال ﷺ: «**يا بني عبد مناف**»، ولا يجوز التسمي بعبد مناف».

وقال العَلَّامة مرعي الكرمي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قوله ﷺ: «**أنا ابن عبد المطلب**»، ليس من باب إنشاء التسمية، بل من باب الإخبار بالاسم الذي عُرِف به، وباب الإخبار أوسع من باب الإنشاء».

---

(١) مجموع فتاوىٰ العلامة محمد العثيمين (١٠/ ٨٩١).

(٢) غاية المنتهىٰ (١/ ٤٥٢).

وفي هذا الحديث دلالة على أن ناقل وحاكي الكفر ليس بكافر إذا قاله نقلًا عمن تكلم به غير معتقد له، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «قد قال العلماء: إن حاكي الكفر ليس بكافر، فرسول الله ﷺ يتكلم عن شيء قد وقع وانتهى ومضى، فالصواب أنه لا يجوز أن يُعبَّد لغير الله مطلقًا، لا بعبد المطلب ولا غيره؛ وعليه فيكون التعبد لغير الله من الشرك».

شـــرْحُ المســائل:

١) **تَحْرِيمُ كُلِّ اِسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ**: فلا يجوز لمسلم أن يسمي أحدًا من ذريته بأسماءٍ شركية، بل الواجب شُكرُ الله على نعمة الذرية بتسميتها بأحب الأسماء إلى الله.

٢) **تَفْسِيرُ الْآيَةِ**: وهو أن الشيطان خوَّف مَن لم يسمِّ مولوده باسم شركي بالآفة في خَلْقه. وهذا تهديد وتخويف ممن ليس له شيء في خَلْق الإنسان، فاللهُ وحده هو الخالق لعباده، وهو الذي ينفع ويضر، والسلامة من الضر الذي يحاذره المسلم يكون بالاعتصام بالله وسؤاله العافية من الشر، ومَن تولَّى اللهَ وأطاعه ولم يطع الشيطان تولاه الله حفظًا ورزقًا ونصرًا وكفاية.

٣) **أَنَّ هَذَا الشِّرْكَ فِي مُجَرَّدِ تَسْمِيَةٍ لَمْ تُقْصَدْ حَقِيقَتُهَا**: وهذا يدل على تحريم الوسائل الشركية، وأن الشرك محرمٌ كله، صغيره ويسيره وكبيره، وما كان ذريعة للشرك الأكبر. ويدل على أن الشرك مُحرَّمٌ فِعله وإن لم تُقصد حقيقته، ويتغلظ مع قصده.

٤) **أَنَّ هِبَةَ اللهِ لِلرَّجُلِ الْبِنْتَ السَّوِيَّةَ مِنْ النِّعَمِ.**

---

(١) مجموع فتوى العلامة محمد العثيمين (١٠/ ٨٩٢).

فالنعم العظيمة منها الذرية الصالحة سوية الخِلقة والفطرة، وقُرَّة العين بصلاح دينهم، وقيامهم بالدين ونصرته والدعوة إليه، وهذه كانت من أسمىٰ مقاصد سيد الحنفاء في طلب الذرية حيث قال مبتهلًا إلىٰ الله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤]، أي: اجعل في ذريتي مَن يقوم بالحق من بعدي.

٥) **ذِكْرُ السَّلَفِ الْفَرْقَ بَيْنَ الشِّرْكِ فِي الطَّاعَةِ وَالشِّرْكِ فِي الْعِبَادَةِ**: الشرك في العبادة كله شرك أكبر، فصَرْفُ شيءٍ من العبادة لغير الله شركٌ أكبر.

أما طاعة الشيطان فقد تكون معصية وفسقًا، وقد تكون شركًا أصغر، وقد تكون شركًا أكبر بحسب نوع طاعته.

❁ ❁ ❁

الْبَـابُ الْخَمْسُـونَ

بَــابُ قَــوْلِ اللهِ تَعَــالَى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾

[الأعراف: ١٨٠].

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◈ ذَكَرَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]: «يُشْرِكُونَ».

◈ وَعَنْهُ: «سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالْعُزَّىٰ مِنَ الْعَزِيزِ».

◈ وَعَنِ الأَعْمَشِ: «يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا».

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) إِثْبَاتُ الْأَسْمَاءِ.

٢) كَوْنُهَا حُسْنَىٰ.

٣) الْأَمْرُ بِدُعَائِهِ بِهَا.

٤) تَرْكُ مَنْ عَارَضَ مِنَ الْجَاهِلِينَ الْمُلْحِدِينَ.

٥) تَفْسِيرُ الْإِلْحَادِ فِيهَا.

٦) وَعِيدُ مَنْ أَلْحَدَ.

الشَّرح

التوحيد هو التأله لله ﷻ، وذلك لا يكون إلا بالإيمان بأسمائه وصفاته، فواجب المسلم إثبات أسماء الله وصفاته علىٰ مقتضىٰ كماله، ونفي الإلحاد عنها.

وتوحيد الأسماء والصفات هو من توحيد الربوبية؛ لأن صفات الله قائمة بذاته.

وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات موجب لتوحيد العبودية، فالذي يستحق التوحيد هو الإله الكامل.

وقد أخبرنا الله في كتابه عن أسمائه وصفاته بألفاظ مفهمة لحقائقها وظواهرها، وكتابُ اللهِ أوضح بيانًا وأحسن تفسيرًا من كل كلام سواه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

فالتفسير هو الظهور والبيان، والحق هو المعنىٰ والمدلول الذي تضمنه لفظُ القرآن(١)، وهذا مما يقطع به المسلمون أن معاني ألفاظ الوحي هو ظاهرها.

وخطاب الله في القرآن واضح صريح في معناه، ألفاظ آياته وسياقها يدفع أوهام التحريف ويمنع من الإلحاد في معانيها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إذا تأمل مَن بصَّره اللهُ طريقة القرآن والسُّنة وجدها متضمنة لرفع ما يوهمه الكلام من خلاف ظاهره، وهذا موضع لطيف جدًّا في فهم القرآن نشير إلىٰ بعضه، فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، رفع سبحانه توهم المجاز في تكليمه لكليمه بالمصدر المؤكد الذي لا يشك عربي القلب واللسان أن المراد به إثبات تلك الحقيقة».

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٣٣٠).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٣٨٩).

والمسلمُ يطلبُ بيانَ معاني القرآن ممَّن بُعث بتبيينه ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

والصحابة الذين خاطبهم النبي ﷺ بالوحي فهموا منه ظاهر تلك الألفاظ، ولم يفهموا منه خلاف ظاهره؛ بدليل أنهم أَمَرُّوها كما جاءت، ولم يتكلموا بخلاف ظاهرها.

والمنقول عن التابعين الذين تلقوا معاني الوحي من الصحابة رضي الله عنهم هو تفسير اللفظ بما يوافق ظاهره، قال الأوزاعي رحمه الله: «كنا -والتابعون متوافرون- نقول: إن الله في السماء، ونؤمن بما جاء في الصفات».

فالمسلم يتلقىٰ دينه عن خير الناس.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «اعتقاد الفرقة الناجية هو ما كان عليه وأصحابه، كما قال النبي ﷺ في صفة الفرقة الناجية: «**هو ما كان علىٰ مثل ما أنا عليه وأصحابي**»».

وقال الوليد بن مسلم: سألت: سفيان الثوري، والأوزاعي، ومالك بن أنس، والليث بن سعد عن الأحاديث التي فيها الصفات؟ فكلهم قال: أَمِرُّوها كما جاءت(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٣): «قولهم: (أَمِرُّوها كما جاءت)، يقتضي إبقاء دلالتها علىٰ ما هي عليه، فإنها جاءت ألفاظًا دالة علىٰ معاني».

---

(١) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص١٦).

(٢) السنة للخلال (١/ ٢٥٩)، والشريعة للآجري (٢/ ١٠٤)، والصفات للدارقطني (ص١٢٣ - رقم ٦٩)، وأصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٨٢).

(٣) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٣٠٧).

فالمنقول عن السلف -خير القرون- إثبات الصفات، وإنكار تحريفات المعطلين والملحدين.

فالموحدون قابلوا نصوص الوحي بالتصديق؛ لأنها أخبار من الله، فاللهُ أصدقُ قيلًا، وهو أعلم بنفسه.

قال الحافظ أبو أحمد محمد بن علي الكرجي رَحِمَهُ اللهُ[(١)]: «كل صفةٍ وصفَ اللهُ بها نفسه، أو وصفه بها نبيه ﷺ فهي صفةٌ حقيقية، لا مجازًا».

وقال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللهُ (ت: ٥٣٥هـ)[(٢)]: «مذهب السلف -رحمةُ اللهِ عليهم أجمعين- إثباتها، وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها، فهذا إجماع معلوم متيقن عند جميع أهل السُّنة والحديث».

وقال العَلَّامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ اللهُ[(٣)]: «إن مذهب السلف دلَّ عليه الكتابُ والسُّنة، فإن مَن تتبع طريقتهم بعلمٍ وعدلٍ وجدها مطابقة لما في الكتاب والسُّنة جملةً وتفصيلًا، ولا بد، فإن الله تعالى أنزل الكتاب لِيَدَّبر الناس آياته، ويعملوا بها إن كانت أحكامًا، ويُصدِّقوا بها إن كانت أخبارًا.

ولا ريب أن أقرب الناس إلى فهمها وتصديقها والعمل بها هم السلف؛ لأنها جاءت بلغتهم وفي عصرهم، فلا جرمَ أن يكونوا أعلم الناس بها فقهًا، وأقومهم عملًا».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[(٤)]: «مَنِ اعترضَ على السُّنة والجماعة بنوعِ تأويلٍ: قياس، أو ذوق، أو تأويل منه خالف به سُنَّةَ رسول الله ﷺ؛ ففيه شَوْبٌ من الخوارج أتباعِ ذي الخويصرة».

---

(١) كتاب السنة، بواسطة تذكرة الحفاظ (٣/ ٩٣٩).

(٢) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٧٤).

(٣) فتح رب البرية بتلخيص الحموية (ص٢٣).

(٤) جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية (ص١٠٧).

والمسلم كما أنه يعتقد أن ذات الرب لا تشبه ذوات المخلوقين، فصفات الرب لا تشبه صفات المخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الصفات حُكْمها حُكْم الذات، فكما أن ذاته سبحانه لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات، فما جاءهم من الصفات عن المعصوم تلقوه بالقبول، وقابلوه بالمعرفة، والإيمان، والإقرار؛ لعلمهم بأنها صفة مَن لا شبيه لذاته ولا لصفاته».

والإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ هو أن تصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه رسوله ﷺ، فالله عَزَّ وَجَلَّ نعت نفسه بصفات الكمال، فالموحدون يؤمنون بها، والمكذبون يلحدون فيها.

قال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال الحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٣١١هـ)[٢]: «نحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز، وتهامة، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، مذهبنا أنا نثبت لله عَزَّ وَجَلَّ ما أثبته الله لنفسه».

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠] أمرٌ بالإيمان بأسماء الله وصفاته، وتحذير من الإلحاد فيها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الإلحاد في أسمائه هو: العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته (ل ح د)».

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٢٢٩).
(٢) التوحيد (١/ ٦٢).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ٢٩٧).

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وهو -أي: الإلحاد- قسمان: أحدهما: في أسماء الله. الثاني: في آياته».

وقال المجدد العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الإلحاد في آياته، فيكون في الآيات الشرعية، وهي ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من الأحكام والأخبار.

ويكون في الآيات الكونية، وهي ما خَلقه الله ويخلقه في السموات والأرض.

فأما الإلحاد في الآيات الشرعية فهو تحريفها، أو تكذيب أخبارها، أو عصيان أحكامها.

وأما الإلحاد في الآيات الكونية فهو نسبتها إلىٰ غير الله، أو اعتقاد شريك أو مُعِين له فيها».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «الإلحاد في أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنواع:

- أحدها: أن يُسمىٰ الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإلهية، والعُزَّىٰ من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهًا، وهذا إلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلىٰ أوثانهم وآلهتهم الباطلة.
- الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارىٰ له: أبًا، وتسمية الفلاسفة له: موجبًا بذاته، أو علةً فاعلةً بالطبع، ونحو ذلك.
- وثالثها: وصفه بما يتعالىٰ عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود: إنه فقير. وقولهم: إنه استراح بعد أن خَلق خَلْقه. وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

---

(١) فتح رب البرية بتلخيص الحموية (ص٢١).
(٢) فتح رب البرية بتلخيص الحموية (ص٢٢).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ٢٩٨، ٢٩٩).

وخامسها...

❖ ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول مَن يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة، لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم: السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة له، ولا سمع، ولا بصر، ولا كلام، ولا إرادة تقوم به.

وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا وشرعًا ولغةً وفطرة وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطّلوها، فكلاهما مُلحِد في أسمائه.

ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب، وكلُّ مَن جحدَ شيئًا مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسول ﷺ، فقد ألحد في ذلك، فليستقل أو ليستكثر.

❖ وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خَلْقه -تعالىٰ الله عما يقول المشبهون علوًّا كبيرًا-.

فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبَّهوها بصفات خَلْقه، فجمعهم الإلحاد، وتفرَّقت بهم طُرُقه.

وبَرَّأ الله أتباع رسوله ﷺ وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أُنزلت عليه لفظًا ولا معنىٰ، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئًا من التشبيه، وتنزيههم خليًّا من التعطيل».

شــرْحُ المســائل:

١) **إِثْبَاتُ الْأَسْمَاءِ**: دلَّ علىٰ ذلك القرآن والسُّنة والإجماع، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال النبي ﷺ: «**لله تسعة وتسعون اسمًا، مَن أحصاها دخل الجنة**»، متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يخالف في ذلك أَحَدٌ من المسلمين، ونفته الجهمية، وهم ليسوا من فِرَقِ الإسلام كما قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢) **كَوْنُهَا حُسْنَىٰ**: لأنها أسماء مَن له الكمال كله، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، وهذا الاعتقاد من أسباب تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين، ومن موجب اعتقاد حقائق أسمائه؛ لأنها حسنىٰ، أي: غاية في الحسن فلا تستلزم باطلًا لنحرِّفها، قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

٣) **الْأَمْرُ بِدُعَائِهِ بِهَا**: وهذا ما يقتضيه الإيمان بأسماء الله وصفاته، فتدعو بحقائق أسمائه وكمال نعوته، وهذا ما حثَّنا الله عليه وهو يخبرنا عن كمال أسمائه فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهكذا كان النبي ﷺ يحقق توحيده وعبوديته لله، فكان يقول: «**أسألك بكل اسمٍ سميتَ به نفسك**»، رواه أحمد.

٤) **تَرْكُ مَنْ عَارَضَ مِنَ الْجَاهِلِينَ الْمُلْحِدِينَ**: لأن الله ﷻ قال: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهذا أمرٌ بالإعراض عن اعتقادهم الإلحادي، وأمرٌ بالنهي عن مماراتهم بعد تبيين الحق، فالمُعانِدُ للحق يكفيه ما سبق من بيان الحق.

٥) **تَفْسِيرُ الْإِلْحَادِ فِيهَا**: وقد سبق شرحُ أنواعه.

٦) **وَعِيدُ مَنْ أَلْحَدَ**: فالله ﷻ توعَّد مَن اعتقد الضلال في أسمائه وصفاته وتهدده، فقال سبحانه: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن ذلك خارج مخرج التهديد».

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣٢٦).

الْبَابُ الْحَادِي وَالْخَمْسُونَ

بَابٌ: لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللهِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ فِي الصَّحِيْحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ؛ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُوْلُوْا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ**».

فِيْهِ مَسَائِلُ:

١) تَفْسِيرُ السَّلَامِ.

٢) أَنَّهُ تَحِيَّةٌ.

٣) أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ للهِ.

٤) الْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ.

٥) تَعْلِيمُهُمْ التَّحِيَّةَ الَّتِي تَصْلُحُ للهِ.

الشَّرْح

الخَلق جميعًا فقراء إلىٰ الله، أوجدهم الله من عدمٍ، وتدبير أمورهم كلها إلىٰ الله، فلا غنىٰ لهم عنه طَرْفة عين، وهو الذي يحفظهم ويعافيهم ويرزقهم ويجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر، فقيام أمورهم كلها بالله، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

والله غنيٌّ عن عباده، قائِمٌ بنَفْسه في كمالٍ، ليس به إلىٰ تسليم مخلوق له حاجة، فهو السلام الذي يُسلِّم عباده، قال تعالىٰ: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣].

فالسلام من أسماء الله الحسنىٰ، فالخَلق واجبهم وحاجتهم في دعاء الله بهذا الاسم وسائر أسمائه الحسنىٰ أن يُسلِّمهم من كل نقصٍ وسوء.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «المعنىٰ: وللهِ الأسماء الدالة علىٰ المعاني الحسنة، والأوصاف الجميلة، من: الرحمة، والمغفرة، والحِلم، والعفو، والرزق، والتعظيم، والتحميد، والتقديس، ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، أي: اسألوه بأسمائه الحسنىٰ، وتوسلوا إليه بها، كقولك: يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا كريم، يا حليم».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنىٰ اسم الله (السلام)(٢): «الذي يَسْلَم من كل عيبٍ ونقصٍ».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «(السَّلامُ) أي: من جميع العيوب والنقائص؛ لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله».

وقال الحافظ أبو بكر ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «خبرنا أنه (السلام)، وسمَّىٰ تحية المؤمنين بينهم سلامًا في الدنيا وفي الجنة، فقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، ونبينا المصطفىٰ ﷺ قد كان يقول يوم فراغه من تسليم الصلاة: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام**»، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣١٥).
(٢) رموز الكنوز (٢/ ٣٢٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٢٠).
(٤) التوحيد (١/ ٦٥، ٦٦).

مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]، فثبت بخبر الله أن الله هو السلام، كما في قوله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]».

وأهم ما يجب علىٰ كل مُسْلمٍ معرفته واعتقاده والإيمان به من معاني اسم الله «السلام»، ما يتعلق بألوهيته سبحانه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إلهيته سلامٌ من كل مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو».

والله السلام في ذاته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «هو سلامٌ سبحانه في ذاته عن كل عيبٍ ونقصٍ يتخيله وهمٌ، وسلامٌ في صفاته من كل عيبٍ ونقصٍ، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع علىٰ غير وجه الحكمة، بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار».

وشرعه الذي تعبدنا به كله سلام؛ لئلا يلحقنا العَنَت والمشقة والضرر، ولتستقيم أحوال البلاد والعباد علىٰ التوحيد والعدل والصلاح.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «شرعه ودينه سلامٌ من التناقض، والاختلاف، والاضطراب، وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم، وخلاف حكمته، بل شرعه كله حكمة ورحمة ومصلحة وعدل».

فالله عَزَّ وَجَلَّ هو السلام، منه السلام، فهو الذي يسلم عباده، والمخلوق لا يسلم الله؛ لكماله واستغنائه عن خَلقه.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦٠٣).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٦٠٢، ٦٠٣).
(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٦٠٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «تدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي رواه مسلم في (صحيحه) عند انصرافه من الصلاة: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»، فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعني: ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنىٰ، فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفًا وملكًا».

فنهي النبي ﷺ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أن يقولوا: السلام علىٰ الله، هو توجيه لهم بأن يطلبوا لأنفسهم من الله السلام السلامة من كل نقص.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «نهاهم النبي ﷺ أن يقولوا: «**السلام علىٰ الله**»؛ لأن السلام علىٰ المسلم دعاءٌ له وطلبٌ أن يَسْلَم، والله تعالىٰ هو المطلوب منه لا المطلوب له، وهو المدعو، لا المدعو له، فيستحيل أن يسلم عليه، بل هو المُسلِّم علىٰ عباده كما سَلَّم عليهم في كتابه حيث يقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١]».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «المقصود أن الله تعالىٰ يطلب منه السلام، فلا يمتنع في حقه أن يسلم علىٰ عباده، ولا يطلب له ذلك، فلذلك لا يسلم عليه.

وقوله ﷺ: «**إن الله هو السلام**»، صريح في كون السلام اسمًا من أسمائه».

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦٨٢).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٦١١).
(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٦١٣).

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ السَّلَامِ**: هو الدعاء بالسلامة من النقص والعيب والآفة.

٢) **أَنَّهُ تَحِيَّةٌ**: السلام تحية آدم وذريته، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَىٰ أُولَئِكَ، النَّفَرِ مِنَ المَلَائِكَةِ، جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ**».

٣) **أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ لِلهِ**: لأن الله هو الذي يُسلِّم عباده، فواجب الخَلق أن يطلبوا السلامة لأنفسهم من الله، فهو المدعو، وهو المطلوب، وهو الكامل في ذاته وصفاته، وغنيٌّ عن أن يكون به حاجة إلىٰ أن يطلب له المربوبون له السلامة.

٤) **الْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ**: هو إجلال الله وتعظيمه عن أن يسألوا له السلامة، فالله الغني الكامل المُنزَّه عن كل نقصٍ.

٥) **تَعْلِيمُهُمْ التَّحِيَّةَ الَّتِي تَصْلُحُ لِلهِ**: هو قولُ: «**التحيات لله والصلوات والطيبات**».

۞ ۞ ۞


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosailililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَــابُ الثَّــانِي وَالْخَمْسُونَ

بَــابُ: قَــولُ: (اللَّهُمَّ اغْفِــرْ لِي إنْ شِــئْتَ)

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◊ فِي الصَّحِيْحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ**».

◊ وَلِمُسْلِمٍ: «**وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**».

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) النَّهْيُ عَنِ الِاسْتِثْنَاءِ فِي الدُّعَاءِ.

٢) بَيَانُ الْعِلَّةِ فِي ذَلِكَ.

٣) قَوْلُهُ: «**لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ**».

٤) إِعْظَامُ الرَّغْبَةِ.

٥) التَّعْلِيلُ لِهَذَا الْأَمْرِ.

الشَّرح

الدعاء عبادة، فإخلاصه لله توحيد، وصرْفه لغير الله أو اتخاذ الوسائط في دعاء الله شركٌ، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فسمىٰ اللهُ الدعاءَ عبادةً، وعن النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**»، رواه أبو داود

والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠] فيه أن دعاء الله مباشرة، بدون اتخاذ الوسائط توحيد، ومن أسباب إجابة الدعاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الحنفاء ليس بينهم وبين الله تعالىٰ واسطة في العبادة والدعاء والاستعانة، بل يناجون ربهم ويدعونه ويعبدونه بلا واسطة، وإنما الرسل بلَّغتهم عن الله عَزَّ وَجَلَّ ما أَمَر به وأحبه من العبادات وغيرها، وما نهىٰ عنه، فهم وسائط في التبليغ والدلالة».

وعامة الشرك والضلال فيما بعد القرون المفضلة وقع في دعاء الموتىٰ والاستغاثة بهم، أو في اتخاذهم وسطاء في دعاء الله.

قال ابن القيم رحمه[(٢)]: «طلبُ الحوائج من الموتىٰ، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصلُ شركِ العالَم».

فاتخاذ الموتىٰ وسائط بين الله وخَلقه في الدعاء هو كشرك مشركي قريش، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إن المشركين يُقِرُّون بالربوبية، وأن كفرهم بتعلقهم علىٰ الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء، مع قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]».

واتخاذ الموتىٰ وسائط في دعاء الله؛ شركٌ وسفهٌ في العقول.

---

(١) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٧٧).

(٢) بواسطة: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (١/ ٤٩٥).

(٣) كشف الشبهات (ص١٢، ١٣).

قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فقد تهدد سبحانه من دعا شيئًا من دون الله، وبيَّن أنهم لا مُلْكَ لهم مع الله، ولا شركًا في مُلْكِه، وأنه ليس له عَوْنٌ ولا ظهير من المخلوقين، فقطعَ تعلُّقَ القلب بالمخلوقات رغبةً ورهبة، وعبادةً، واستعانة».

والدعاء نوعان: بلسان المقال، وبلسان الحال.

فالدعاء بلسان المقال: أن تدعو الله بلسانك، والدعاء بلسان الحال هو: قيامك بعبودية الله عَزَّوَجَلَّ ترجو رحمته وتخشىٰ عذابه، ترجو دخول الجنة والنجاة من النار، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه[٢]: «لفظُ الدعاء في القرآن يتناول هذا وهذا، الدعاء بمعنىٰ العبادة، أو الدعاء بمعنىٰ المسألة، وإن كان كلٌّ منهما يستلزم الآخر، لكن العبد قد تنزل به النازلة فيكون مقصوده طلب حاجته، وتفريج كرباته، فيسعىٰ في ذلك بالسؤال والتضرع، وإن كان ذلك من العبادة والطاعة، ثم يكون في أول الأمر قصده حصول ذلك المطلوب من: الرزق، والنصر، والعافية، مطلقًا، ثم الدعاء والتضرع يفتح له من أبواب الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ومعونته ومحبته، والتنعم بذِكره ودعائه، ما يكون هو أحب إليه وأعظم قدرًا عنده من تلك الحاجة التي أهمته، وهذا من رحمة الله بعباده، يسوقهم بالحاجات الدنيوية إلىٰ المقاصد العلية الدينية.

---

(١) التوسُّل والوسيلة (ص٨٠).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٥٢٠).

وقد يفعل العبد ما أُمر به ابتداءً لأَجْل العبادة لله، والطاعة له، ولما عنده من محبته والإنابة إليه، وخشيته، وامتثال أمره، وإن كان ذلك يتضمن حصول الرزق والنصر والعافية.

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أهل السنن -أبو داود وغيره-: «**الدعاء هو العبادة**»، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وقد فسّر هذا الحديث مع القرآن بكلا النوعين:

﴿ادْعُونِي﴾، أي: اعبدوني وأطيعوا أمري أستجب دعاءكم، وقيل: سلوني أُعْطِكم، وكلا النوعين حق».

فالتعبد لله بالدعاء من أعظم وأفضل أنواع عبادة الله، حيث يتوجه القلب إلىٰ الله، ويتضرع الداعي إلىٰ الله، ويثني علىٰ الله، ويذكره بأسمائه وصفاته، ويرجو ربه في إجابة الدعاء، ويَعْلَم أنَّ الله وحده الذي بيده أزِمَّة الأمور.

قال تعالىٰ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رحمه(١): «مما ينبغي لمَن دعا ربه في حصول مطلوب أو دفع مرهوب: أن لا يقتصر في قصده ونيته في حصول مطلوبه الذي دعا لأجله، بل يقصد بدعائه التقرب إلىٰ الله بالدعاء وعبادته التي هي أعلىٰ الغايات، فيكون علىٰ يقين من نفع دعائه، وأن الدعاء مخ العبادة وخلاصتها، فإنه يجذب القلب إلىٰ الله، وتلجئه حاجته للخضوع والتضرع لله الذي هو المقصود الأعظم في العبادة.

ومَن كان هذا قصده في دعائه التقرب إلىٰ الله بالدعاء وحصول مطلوبه، فهو أكمل بكثير ممن لا يقصد إلا حصول مطلوبه فقط، كحال أكثر الناس، فإن هذا نقص وحرمان لهذا الفضل العظيم، ولمثل هذا فليتنافس المتنافسون.

---

(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص٨٤).

وهذا من ثمرات العلم النافع، فإن الجهل منع الخَلق الكثير من مقاصد جليلة ووسائل جميلة، لو عرفوها لقصدوها، ولو شعروا بها لتوسلوا إليها. والله الموفق».

وصحة الاعتقاد وكمال الطاعة سببٌ لإجابة الدعاء، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ولهذا قيل: إجابة الدعاء يكون من صحة الاعتقاد، وعن كمال الطاعة، لأنه عقَّب آية الدعاء بقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾».

وقال شيخ الإسلام[٢]: «أخبر سبحانه أنه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ثم أمرهم بالاستجابة له، وبالإيمان به، كما قال بعضهم: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾: إذا دعوتهم، ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ [البقرة: ١٨٦]، أني أجيب دعوتهم.

قالوا: وبهذين السببين تحصل إجابة الدعوة: بكمال الطاعة لألوهيته، وبصحة الإيمان بربوبيته، فمن استجاب لربه بامتثال أمره ونهيه، حصل مقصوده من الدعاء، وأجيب دعاؤه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورىٰ: ٢٦]، أي: يستجيب لهم، يقال: استجابة واستجاب له».

وأفضل أنواع الأدعية التي هي مظنة لإجابة الدعاء، ما تضمن الثناء علىٰ الله والاستغفار له، والصلاة علىٰ النبي ﷺ، ووصف الداعي حاله، وسؤاله الله مطلوبه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ملخص ما يتضمنه الدعاء[٣]: «وصفُ الله بما يقتضي الإجابة، ووصف العبد بحاله، وسؤال العبد لمطلوبه».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٤/ ٣٣).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٥٢١).

(٣) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٤/ ٣٨٣).

وهذه مقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعاء، ومقامات الصِّدِّيقين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قال تعالىٰ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ أي: أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: إذا كانوا في الشدائد، ودعونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء».

وقال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ: علِّمني دعاء أدعو به في صلاتي، فقال: «**قُلِ: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنتَ، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنكَ أنتَ الغفور الرحيم**»، رواه البخاري ومسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هنا وصفُ العبد لحال نفسه المقتضي حاجته إلىٰ المغفرة، وفيه وصف ربه الذي يوجب أنه لا يقدر علىٰ هذا المطلوب غيره، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه، وفيه بيان المقتضي للإجابة وهو وصفُ الرب بالمغفرة والرحمة، فهذا ونحوه أكمل أنواع الطلب».

والواجب علىٰ المسلم أن يأتي بأسباب إجابة الدعاء، ويزيل موانعه، فلا يمنعك تقصيرك أو تفريطك في حق الله أن تدعوه، بل فر إليه، وسارع في مرضاة ربك والأخذ بأسباب إجابة الدعاء وإزالة موانع ذلك.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٨١).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٤٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الدواء هو التوحيد والاستغفار، قال تعالىٰ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ [محمد: ١٩]، وفي الحديث: «**إن الشيطان يقول: أُهلِكُ بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار، وبلا إله إلا الله، فلمَّا رأيتُ ذلك بثثتُ فيهم الأهواء، فهم يُذنِبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا**».

ولذلك كان الدعاء المفرج للكرب محض التوحيد، وهو «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، لا إله إلا هو رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم**».

وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: «**دعوة أخي ذي النون، ما دعاها مكروب إلا فرَّجَ اللهُ كربه** ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]».

فالتوحيد يُدخِل العبد علىٰ الله، والاستغفار والتوبة يرفع المانع، ويزيل الحجاب الذي يحجب القلب عن الوصول إليه».

وكان الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ همُّه في الدعاء، ويَكِل الإجابة إلىٰ الله وحده، ففعلَ الذي يجب عليه، ورجاؤه في الله جعله مطمئنًا للإجابة.

قال الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لا أحمل هَمّ الإجابة، ولكن هَمّ الدعاء، فإذا ألهمتُ الدعاء، فإن الإجابة معه».

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يدعو الله، بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحمٍ، إلا أعطاه الله إحدىٰ ثلاث: إما أن تُعجَّل له دعوته، وإما أن يدّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**»، قالوا: إذًا نُكثِر، قال: «**الله أكثر**»، رواه أحمد.

---

(١) شفاء العليل (ص٤٥٤).

والدعاء عبادة لله عَجَلَّ، وضرورة كل مسلم إليها معلومة، وقد أمرنا الله أن ندعوه في كل ركعة من كل صلاة ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، لنأخذ بأسباب الهداية التي من جملتها الدعاء.

وإذا كنا مأمورين أن ندعو الله في كل ركعة من كل صلاة، فهذا حثٌّ لملازمة الدعاء لله، فهو من أَجَلِّ العبادات.

وقد قضىٰ الله قدرًا وكونًا أن لا يُستجاب للمسلم في كل ما يدعو به، ليلازِمَ المسلمُ الدعاء، فيكون دائم التضرع إلىٰ الله، راجيًا مولاه، باذلًا أسباب إجابة الدعاء من توحيد الله وتقواه.

قال العَلَّامة أبو بكر الطرطوشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قال بعضهم: لو استُجيب للعبد في كل ما سأل لخرج عن حد العبودية، وإنما أُمر بالدعاء ليكون عبدًا، واللهُ يفعل ما يشاء».

ودعاء الله توحيد؛ لأن المسلم يدعو ربه ويناجيه ويتضرع إليه، ويتوجه إليه بقلبه قصدًا، وهذا من أعظم مقامات العبودية.

قال شيخ مشايخنا العلامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إن الدعاء ملازم للتوكل والاستعانة بالله، فإن التوكل هو الاعتماد بالقلب علىٰ الله، والثقة به في حصول المحبوبات واندفاع المكروهات، والدعاء يقويه، بل يُعبِّر عنه ويُصرِّح به، فإن الداعي يعلم ضرورته التامة إلىٰ الله، وأنها بيد الله، ويطلبها من ربه راجيًا له واثقًا به، وهذا هو روح العبادة».

دعاء الله توحيد؛ لأن المسلم يدعو ربه بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العظمىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

---

(١) الدعاء المأثور (ص١٠٧).

(٢) مجوع الفوائد (ص٤٦).

وقال الله في وصفِ سادات الحنفاء أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال سبحانه في وصف سيد الحنفاء: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الأوَّاه: الدعاء(١).

وإذا أقبلَ المسلمُ على الله، وأخلصَ له في دعائه، وقَوِيَ رجاؤه به في استجابة الدعاء، وتحرَّىٰ أوقات الإجابة، وتضرَّع في الدعاء؛ فحريٌّ أن يُستجاب له.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إذا جمع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة، وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتىٰ تُقضىٰ الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم، وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرب، وذلًّا له، وتضرعًا ورقةً، واستقبل الداعي القِبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله تعالىٰ، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنّىٰ بالصلاة علىٰ محمدٍ عبده ورسوله ﷺ، ثم قدَّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله، وألَحَّ عليه في المسألة، وتَمَلَّقه، ودعاه رغبةً ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدَّم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يُرد أبدًا، ولاسيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم».

وأسباب تخلف إجابة الدعاء ترجع إلى ضعف التوجه إلى الله بالدعاء، وضعفِ الرجاء في الاستجابة، وربما كان من أسباب ذلك نوع ما تَغَذَّىٰ به الداعي من الحرام.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٧٥).

(٢) الجواب الكافي (ص١٦، ١٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الدعاء فإنه من أقوىٰ الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف عنه أَثَرُه؛ إما لضعفه في نفسه، بأن يكون دعاءً لا يحبه الله لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله علىٰ الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًّا، فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام، والظلم، ورَيْن الذنوب علىٰ القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها، كما في صحيح الحاكم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يقبل دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ**»».

وحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيه حثٌّ علىٰ التوكل علىٰ الله، والثقة به في إجابة الدعاء، فمَن عَلِم واعتقد ربه محسنًا كريمًا يرزق بغير حساب، لم يتعاظم شيئًا يسأله ربه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنه سبحانه حسبُ مَن توكَّل عليه، يهديه، وينصره، ويرزقه بفضله ورحمته وجُودِه. فالتوكل عليه يتضمن الطمأنينة إليه، والاكتفاء به عما سواه».

فالله عظيمٌ مُلْكُه، كريمٌ عطاؤه، ما أعطاه خَلْقه منذ خَلقَ السماوات والأرض، وما يعطيهم في كل يوم؛ لا يتعاظمه، ولا ينقص من ملكه شيئًا.

وربكم يحثكم علىٰ سؤاله كل عظيم، فأي ترغيب في فضله أعظم من هذا؟! وأي إجابة أرجىٰ من هذه؟!

روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال: «**لو أن أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد فسألوني فأعطيتُ**

---

(١) الجواب الكافي (ص٩، ١٠).

(٢) النبوات (١/ ٣٧٩، ٣٨٠).

كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر».

فنحن لا نحصي نِعم الله علينا السابغة، الظاهرة والباطنة، وهي عظيمة كثيرة مباركة، تَتْرَىٰ في كل لحظة وكل يوم، كيف نتعاظم مسألة الكريم من فضله.

ولفظُ حديث أبي هريرة فيه نهيٌ عن تعليق الدعاء بمغفرة الذنوب وإن كانت عظيمة، فرحمة الله تغفر الذنوب جميعًا.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء**»، فذنوب العباد وإن عظمت فإن عفو الله ومغفرته أعظم منها وأعظم، فهي صغيرة في جنب عفو الله ومغفرته».

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أمرَ النبيُّ ﷺ الداعي أن يعزم المسألة، فقوة الإقبال علىٰ الله والإخلاص له في الدعاء وحسن الظن في الإجابة من أسباب إجابة الدعاء، ولا يتعاظم المسلم نوع ما يدعو به فإن الله كريم حيي يستحي أن يرفع العبد يديه فيردهما صفرًا.

قال شيخنا العلامة المجدد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «المحظور في هذا التعليق من وجوه ثلاثة:

الأول: أنه يشعر بأن الله له مُكْرِه علىٰ الشيء، وأن وراءه مَن يستطيع أن يمنعه.

الثاني: أن قول القائل: (إن شئتَ) كأنه يرىٰ أن هذا أمر عظيم علىٰ الله، فقد لا يشاؤه لكونه عظيمًا عنده.

الثالث: أنه يُشعِر بأن الطالب مستغنٍ عن الله، كأنه يقول: إن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل؛ فأنا لا يهمني، ولهذا قال: «**وليعظم الرغبة**»، أي: يسأل برغبة عظيمة».

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠٦).

(٢) شرح كتاب التوحيد، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٩١٧، ٩١٨)، باختصار.

فالواجب علىٰ المسلم: أن يعزم المسألة، وليس شيء عند الله عظيم من الحاجات؛ لكمال فضله وجوده[١].

ويُستثنىٰ من النهي عن التعليق في الدعاء ما لم يُتبين فيه الخير فيشترط الداعي الخير فيه.

قال شيخ مشايخنا العلامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المطالب المعيّنة التي لا يتحقق مصلحتها ومنفعتها، ولا يجزم أن حصولها خير للعبد، فالعبدُ يسأل ربَّه ويُعلِّقه علىٰ اختيار ربه له أصلح الأمرين، كالدعاء المأثور: «**اللهم أحيني إذا كانت الحياةُ خيرًا لي، وتوفني إذا علمتَ الوفاة خيرًا لي**»، وكدعاء الاستخارة».

شـرْحُ المسـائل:

١) **النَّهْيُ عَنِ الِاسْتِثْنَاءِ فِي الدُّعَاءِ**: والاستثناء في الدعاء هو أن يقول الداعي: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، فإنَّ النهيَ عنه مع الأمر بالعزم في الدعاء بيانٌ لأسباب إجابة الدعاء.

٢) **بَيَانُ الْعِلَّةِ فِي ذَلِكَ**: فإن الله لا مُكْرِهَ له، ومن إجلال الله وتعظيمه أن لا تتعاظم ما تدعو به.

٣) **قَوْلُهُ: «لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةِ»**: هذا حثٌّ علىٰ الدعاء بجزمٍ وإقبالٍ صادقٍ علىٰ الله في قوةٍ ورجاءٍ ورغبةٍ في فضلِ المولىٰ الكريم العظيم.

والعزم يكون عن اعتقاد جازم بفضل الله وإحسانه، وأنه يُنعِم علىٰ خَلْقه بما لا يمكنهم إحصاؤه من عظيم فضله.

---

(١) قرة عيون الموحدين (ص٢٣١).

(٢) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص١٤٤، ١٤٥).

٤) **إِعْظَامُ الرَّغْبَةِ**: لقوله ﷺ: «**وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**»، هذه رواية مسلم، وفيها حثٌّ علىٰ الدعاء بقوة الرغبة إلىٰ الله في جميع المطالب وإن كانت عظيمة، فإن هذا من أسباب إجابة الدعاء.

٥) **التَّعْلِيلُ لِهَذَا الْأَمْرِ**: وهو أن الله لا يتعاظمه شيء، فملك الملوك قد أعطىٰ خلقه من أنواع الرزق ما لا يحصىٰ، فلا تتعاظم ما تسأله ربك، فإنه كريم.

الْبَـابُ الثَّـالِثُ وَالْخَمْسُونَ

بَـابٌ: لا يَقُـوْلُ: (عَبْـدِي وَأَمَـتِي)

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◊ في الصَّحيحِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وضِّئْ ربَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلاي، وَلَا يَقُلْ أحَدُكُم: عَبدِي وَأَمَتي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وفَتَاتِي وَغُلَامِي**».

فِيْـهِ مَسَـائِلُ:

١) النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ: (عَبْدِي وَأَمَتِي).

٢) لَا يَقُولُ الْعَبْدُ: (رَبِّي)، وَلَا يُقَالُ لَهُ: (أَطْعِمْ رَبَّكَ).

٣) تَعْلِيمُ الْأَوَّلِ قَوْلَ: (فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي).

٤) تَعْلِيمُ الثَّانِي قَوْلَ: (سَيِّدِي وَمَوْلَايَ).

٥) التَّنْبِيهُ لِلْمُرَادِ، وَهُوَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ حَتَّىٰ فِي الْأَلْفَاظِ.

الشَّرح

من تعظيم الله ﷻ أن لا تخاطب مخلوقًا بألفاظ موهمة للنقص في حق الله، ولو لم تقصد بألفاظك إلا مخاطبة المخلوق، فالسامع ربما فهم خلاف ما قصدته، ناهيك أن حق الله ﷻ التنزيه والتعظيم.

فرعاية حق الله وتعظيم جناب التوحيد يوجب عليك مخاطبة المخلوق بالألفاظ المتمحضة في حقه، والتي لا تحتمل معنىٰ نقص في حق الأحد الصمد.

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذه الألفاظ المنهي عنها، وإن كانت تُطلق لغةً، فالنبي ﷺ نهىٰ عنها تحقيقًا للتوحيد وسدًّا لذرائع الشرك؛ لما فيها من التشريك في اللفظ؛ لأن الله تعالىٰ هو ربُّ العِباد جميعهم، فإذا أُطلقَ علىٰ غيره ما يطلق عليه تعالىٰ وقع الشبه في اللفظ.

فينبغي أن يجتنب هذا اللفظ، وهو قوله: (سيدي، ومولاي)، وكذلك قوله: «**لا يقل أحدكم: عبدي وأَمَتي**»؛ لأن العبيدَ عبيدُ الله، والإماءَ إماءُ الله، قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]».

وحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دالٌّ علىٰ نسخِ ما ورد في شريعة مَن قبلنا من استعمال لفظِ الربِّ في حق المخلوق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فإن قيل: لا ريب أن يوسف سمىٰ السيد ربًّا في قوله: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، ونحو ذلك.

وهذا كان جائزًا في شرعه، كما جاز في شرعه أن يسجد له أبواه وإخوته، وكما جاز في شرعه أن يُؤخذ السارق عبدًا، وإن كان هذا منسوخًا في شرع محمد ﷺ».

وقال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «قال العلماء: مقصود الأحاديث شيئان: أحدهما: نهيُ المملوك أن يقول لسيده: ربي؛ لأن الربوبية إنما حقيقتها لله تعالىٰ؛ لأن الرب هو المالك أو القائم بالشيء، ولا يُوجد حقيقة هذا إلا في الله تعالىٰ».

---

(١) قرة عيون الموحدين (ص٢٣١).
(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٤/ ٢٧).
(٣) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص١٦٧٢).

ومن العلماء مَن ذهبَ إلىٰ أن النهي عن قول «رب» للسيد كراهتُه تنزيهية، قال العَلَّامة محمد بن مفلح المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في الصحاح في أشراط الساعة قول النبي ﷺ: «أن تلد الأَمَةُ ربَّتها أو ربَّها»، فقيل: هذا يدل علىٰ أن النهي للتنزيه، وقيل: النهي عن كثرة استعمالها، لا في النادر».

والصواب: أنه لا يُطلق القول بالكراهة التنزيهية لكل مَن قال لمولاه: عبدي وأَمَتِي، وإنما يكون النهي للتنزيه إذا استُعمل للخبر المحض، وإن قُصد به التعيير فإن النهي للتحريم، فقد زجر النبي ﷺ أبا ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن تعييره لغلامه، وقال له: «إنكَ امْرؤ فيك جاهلية»، رواه البخاري ومسلم.

قال العَلَّامة أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٦٥٦هـ)[2]: «قول النبي ﷺ لأبي ذر: «إنك امرؤٌ فيك جاهلية»، أي: خصلة من خصالهم، يعني بها: تعيير عَبْدَه بأُمِّه، فإن الجاهلية كانوا يُعيِّرون بالآباء والأمهات، وذلك شيء أذهبه الإسلام بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وبقوله ﷺ: «إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية، وفخرها بالآباء، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خُلق من تراب»».

فالواجب علىٰ المسلم: انتقاء الألفاظ التي لا توجب الاشتراك بين الخالق والمخلوق، ولا توهم نقصًا في حق الله.

ولا يجوز لمسلم أن يستخدم من الألفاظ ما فيه انتقاص لحق المخلوقين.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إن إضافة الرب إلىٰ غير الله تعالىٰ تنقسم إلىٰ أقسام:

---

(١) الآداب الشرعية (ص٣٤٥).

(٢) المفهم (٤/ ٣٥١).

(٣) شرح كتاب التوحيد، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٩٢٥ – ٩٢٧)، باختصار.

- القسم الأول: أن تكون الإضافة إلىٰ ضمير المخاطب، مثل: أطعمْ ربَّكَ، وضيء ربك، فيُكره ذلك؛ للنهي عنه؛ لأن فيه محذورين:

١) من جهة الصيغة؛ لأنه يُوهِم معنًىٰ فاسدًا بالنسبة لكلمة (رب)؛ لأن (الرب) من أسمائه سبحانه، وهو سبحانه يُطعِم ولا يُطعَم، وإن كان بلا شك أن الرب هنا غير رب العالمين الذي يُطعِم ولا يُطعَم، ولكن من باب الأدب في اللفظ.

٢) من جهة المعنىٰ أنه يشعر العبد أو الأَمَة بالذل؛ لأنه إذا كان السيد ربًّا كان العبد أو الأَمَةُ مربوبًا.

- القسم الثاني: أن تكون الإضافة إلىٰ ضمير الغائب، فهذا لا بأس به، كقوله ﷺ في حديث أشراط الساعة: «**أن تلدَ الأَمَة ربها**».

وأما لفظ (ربتها)، فلا إشكال فيه لوجود تاء التأنيث، فلا اشتراك مع الله في اللفظ؛ لأن الله لا يُقال له إلا رب.

- القسم الثالث: أن تكون الإضافة إلىٰ ضمير المتكلم، بأن يقول العبد: هذا ربي، قد يقول قائل: إن هذا جائز؛ لأن هذا من العبد لسيده، وقد قال تعالىٰ عن صاحب يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، أي: سيدي، ولأن المحذور من قول ﴿رَبِّىٓ﴾ هو إذلال العبد، وهذا منتفٍ؛ لأنه هو بنفسه يقول: هذا ربي.

- القسم الرابع: أن يُضاف إلىٰ الاسم الظاهر، فيقال: هذا رب الغلام، فظاهر الحديث الجواز، وهو كذلك، ما لم يُوجد محذور فيُمنع، كما لو ظن السامع أن السيد ربٌّ حقيقي خالق، ونحو ذلك».

والنهي عن مخاطبة الغلام والجارية بقول: عبدي، وأَمَتِي، فيه رعاية لحق المخلوق، وهذا مما دل عليه لفظ مسلم: «**لا يقولنَّ أحدكم: عبدي وأَمَتِي، فكلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله**».

وتعظيم الله في اختصاصه بالعبودية الحقيقية هو سببُ نهيِ السيد أن يقول لغلامه: «عبدي».

قال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «يُكره للسيد أن يقول لمملوكه: عبدي وأَمَتِي، بل يقول: غلامي، وجاريتي، وفتاي، وفتاتي؛ لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالىٰ، ولأن فيها تعظيمًا بما لا يليق بالمخلوق استعماله لنفسه».

وحيث استُعمل من الألفاظ ما يمنع التشريك بين الله والمخلوق جاز، فاللفظ إذا كان مضافًا إلىٰ ما يُميِّزه عن الله انتفىٰ محذور النهي، وكذلك إذا استُعمل من الضمائر ما يمنع سوء الفهم للمعاني التي لا تليق بالله جاز.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «السيد علىٰ وجه الإطلاق لا يُقال إلا لله -وَجَلَّ- قال ﷺ: «**السيد الله**».

وأما (السيد) مضافة، فإنها تكون لغير الله، قال تعالىٰ: ﴿**وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ**﴾ [يوسف: ٢٥]، وقال ﷺ: «**أنا سيدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامة**»».

ودلالة حديث أبي هريرة تفيد التحريم في استعمال الألفاظ المشتركة بين الخالق والمخلوق، وتفيد تحريم الألفاظ التي يقصد بها المخلوقُ التعاظمَ لنفسه أو انتقاص المخلوق.

قال العَلَّامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قوله ﷺ: «**لا يقل أحدكم: أطعمْ ربَّكَ**» أي: لا يقل أحدكم لعبدِ غيره، ويحتمل أن يشمل قول السيد لعبده حيث يضع الظاهر موضع المُضْمَر تعاظمًا».

---

(١) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص١٦٧٢).
(٢) شرح كتاب التوحيد، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٩٢٨).
(٣) شرح كتاب التوحيد، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٩٢٥).

شــرْحُ الـمســائل:

١) **النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ (عَبْدِي وَأَمَتِي)**: وليقل: فتاي وفتاتي.

٢) **لَا يَقُولُ الْعَبْدُ: (رَبِّي)، وَلَا يُقَالُ لَهُ: (أَطْعِمْ رَبَّكَ)**: لئلا يُتوهم نقصٌ في حقِّ الله، ومنعًا من التشريك في الألفاظ بين الخالق والمخلوق.

٣، ٤) **تَعْلِيمُ الْأَوَّلِ قَوْلَ: (فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي)، تَعْلِيمُ الثَّانِي قَوْلَ: (سَيِّدِي وَمَوْلَايَ)**: فالمنهج القويم في التعليم إرشادُ المتعلمين إلىٰ الجائز من الألفاظ في مقام التحذير من الممنوع منها.

٥) **التَّنْبِيهُ لِلْمُرَادِ، وَهُوَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ حَتَّىٰ فِي الْأَلْفَاظِ**: فحماية جناب التوحيد وتعظيم الله وتنزيهه هو واجبٌ في استعمال الألفاظ التي لا تتضمن مشابهة المخلوق للخالق.

الْبَــابُ الــرَّابِعُ وَالْخَمْسُونَ

بَــابٌ: لَا يُــرَدُّ مَنْ سَـــأَلَ بِاللَّهَ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ، حَتَّىٰ تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) إِعَاذَةُ مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ.

٢) إِعْطَاءُ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ.

٣) إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ.

٤) الْمُكَافَأَةُ عَلَىٰ الصَّنِيعَةِ.

٥) أَنَّ الدُّعَاءَ مُكَافَأَةٌ لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ إِلَّا عَلَيْهِ.

٦) قَوْلُهُ: «**حَتَّىٰ تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**».

الشَّرح

قوله ﷺ: «**مَن استعاذ بالله فأعيذوه**»، دالٌّ علىٰ وجوب إعانة المخلوق إذا كان ذلك في الخير والمعروف، قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

والاستعاذة بمخلوقٍ فيما يَقْدِر عليه من الاستعاذة المشروعة؛ كالاستغاثة، قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥].

وقوله ﷺ: «مَن سأل بالله فأعطوه» دالٌّ علىٰ تعظيم المسألة بالله.

والنبي ﷺ في هذا الحديث حثَّ علىٰ إعطاء السائل بالله، وبيَّن في حديث قَبِيصَةَ بن المُخَارِق الهلالي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَن تحل له المسألة، فقال ﷺ: «**إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ رَجُلٍ، تَحَمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّىٰ يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّىٰ يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ – أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ– وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّىٰ يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّىٰ يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ –أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ– فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا**»، رواه مسلم.

وعن عُبَيْدِ الله بن عَدِيِّ بن الخِيَار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلَيْنِ حَدَّثَاهُ أَنَّهُمَا: أَتَيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَسْأَلَانِهِ مِنَ الصَّدَقَةِ؟ فَقَلَّبَ فِيهِمَا الْبَصَرَ، فَرَآهُمَا جَلْدَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنْ شِئْتُمَا، وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ، وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ**»، رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

ومَن رَزَقه اللهُ المالَ من غير مسألة فأَخَذَه، فلا بأس به، عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ كان يعطي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ العطاء، فيقول له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أعطِه –يا رسول الله– أَفْقَرَ إليه مني؟ فقال رسول الله ﷺ: «**خُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ أَوْ تَصَدَّقْ بِهِ، وَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَمَا لَا، فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ**».

قال سالم: فمِن أجْلِ ذلك كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لا يسأل أحدًا شيئًا، ولا يَرُدُّ شيئًا أُعْطِيَهُ، رواه مسلم.

قال العَلَّامة يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٩٠٩هـ)[(١)]:
«المسألة تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

سؤالِ صدقةٍ وجِوار وأخوة؛ كسؤال الإخوان الحاجة ونحوها، فهذا يُباح.

الثاني: سؤال السؤال للأخذ، وهو سؤال الأدنىٰ الأعلىٰ، فمن ملك ما يقوم به حرم، كما تقدم، وإلا فلا.

الثالث: سؤال العبودية والانكسار، فلا يُباح إلا لله عَزَّوَجَلَّ».

وقوله ﷺ: «**ومَن دعاكم فأجيبوه**»، فإن كانت الدعوة لوليمةِ عُرْسٍ فإجابته واجبة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «الإجابة إليها مأمور بها».

وقال ابن قُدَامة المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ في إجابة سائر الدعوات[(٣)]: «مستحبٌّ؛ لِمَا فيه من إطعام الطعام، وإظهار النعمة، ولا يجب الإجابة إليها؛ لِمَا رُوي عن عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه دُعِي إلىٰ ختانٍ فأبىٰ أن يجيب وقال: إنا كنا لا نأتي الختان علىٰ عهد رسول الله ﷺ، ولا يُدعىٰ إليه، رواه الإمام أحمد.

وتُستحب الإجابة؛ لقوله عليه الصلاة السلام: «**إذا دُعِي أحدُكم فليُجِب، عُرْسًا كان أو غير عُرْس**»، رواه مسلم، ولأن فيه جبْر قلبِ الداعي وتطييبه».

وقوله ﷺ: «**مَن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتىٰ تروا أنكم قد كافأتموه**»، يَعُمُّ كلَّ معروفٍ؛ لأن «**معروفًا**» نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم. وهذا من تعظيم الله الذي أَمَرنا بتعظيم ورعاية حق المخلوقين، قال النبي ﷺ: «**لا يشكر اللهَ مَن لا يشكر الناس**».

---

(١) مراقي الحنان بالسخاء وقضاء حوائج الإخوان (ص٣٦٢).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣٢/ ٢٠٦).
(٣) الكافي في فقه الإمام أحمد (ص٦٤٩).

وأَوْلىٰ المعروف بالمكافأة معروف الوالدَيْن والمعلمِين.

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وأيُّ معروفٍ أعظم من معروف العلم والنصح والإرشاد؟!».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «علىٰ المتعلم أن يَعْرِف حرمة أستاذه، ويشكر إحسانه إليه، فإنّ مَن لا يشكر الناس لا يشكر الله، ولا يجحد حقه، ولا ينكر معروفه».

شـرْحُ المسـائل:

١) **إِعَاذَةُ مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ**: تعظيمًا لله في الاستعاذة المشروعة.

٢) **إِعْطَاءُ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ**: من الإحسان إلىٰ المخلوقين.

٣) **إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ**: من مكارم الأخلاق، ومن أسباب تآلف المسلمين.

٤) **الْمُكَافَأَةُ عَلَىٰ الصَّنِيعَةِ**: فجزاءُ الإحسانِ الإحسانُ.

٥) **أَنَّ الدُّعَاءَ مُكَافَأَةٌ لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ إِلَّا عَلَيْهِ**: لأنها إحسانٌ وشكرٌ للمُحسِن.

٦) **قَوْلُهُ**: «**حَتَّىٰ تُرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»: تعظيمًا لحق الله الذي أمرنا بتعظيم حق المخلوق.

---

(١) الفتاوىٰ السعدي (ص١٠١، ١٠٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ١٣).

الْبَـابُ الْخَـامِسُ وَالْخَمْسُـونَ
بَـابٌ: لَا يُسْـأَلُ بَوَجْـهِ اللهِ إِلَّا الْجَنَّـةُ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يُسْأَلُ بَوَجْهِ اللهِ إِلَّا الْجَنَّةُ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

فِيْـهِ مَسَـائِلُ:

١) النَّهْيُ عَنْ أَنْ يُسْأَلَ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا غَايَةُ الْمَطَالِبِ.

٢) إِثْبَاتُ صِفَةِ الْوَجْهِ.

الشَّرْح

المسألة منهي عنها، ليتكسب المسلم ويتعفف عما في أيدي الناس، والنبي ﷺ بايع الصحابة علىٰ ألا يسألوا الناس شيئًا.

ومن اضطرته الحاجَةُ فلا يسأل بوجه الله؛ لأن وجه الله أشرف صفات العظيم فلا يُسأل به إلا أعظم المطالب، وهو الجنة.

فمن تعظيم الله الواجب أن لا يسأل بوجهه إلا الجنة.

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «لا يُسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد، وهي الجنة بما فيها من النعيم، ورضا الرب والنظر إلىٰ

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص١٤٨).

وجهه الكريم والتلذذ بخطابه، فهذا المطلب الأسنىٰ هو الذي يُسأل بوجه الله».

وكان طاووس يَكْره أن يَسْأل الإنسان بوجه الله(١).

وجاء رَجُل إلىٰ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ فرفع إليه حاجته، ثم قال: أسألك بوجه الله، فقال عمر: «قد سألتَ بوجه الله»، فلم يسأل شيئًا إلا أعطاه إياه، ثم قال عمر: «ويحكَ ألا سألتَ بوجهه الجنة»(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «هذه الآثار صريحة في أن السؤال بوجهه أبلغ وأعظم من السؤال به، فقد قال رسول الله ﷺ: «**لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة**»».

وقال العَلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة، أو ما هو وسيلة إليها؛ كالاستعاذة بوجه الله من غضبه، ومن النار، ونحو ذلك، مما هو وارد في أدعيته ﷺ وتعوذاته».

وصفة الوجه لله ثابتة بالكتاب والسُّنة والإجماع.

أما الكتاب: فقد قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩، ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٠٤، ١٠٠٥)، ط- أضواء السلف.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٠٥، ١٠٠٦).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٠٦).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢/ ١٣٢٢).

والنبي ﷺ لمَّا أُنزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: «**أعوذ بوجهك**»، رواه البخاري من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وعن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسط ويرفعه، ويُرفع إليه عملُ الليل قبل عملِ النهار، وعملُ النهار قبل الليل، حجابُه النور، لو كشفه لأحرقتْ سُبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصرُه من خَلْقه**»، رواه مسلم.

وعلماء السُّنة كلهم مجمعون علىٰ إثبات صفات الله، وإمرارها كما جاءت.

قال العَلَّامة ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ[1]: «نحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز، وتهامة، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، مذهبنا أَنَّا نُثْبِت لله عَزَّ وَجَلَّ ما أثبته الله لنفسه، نقر بذلك بألسنتنا، ونُصدِّق ذلك بقلوبنا، من غير أن نُشبِّه وجْهَ خالقنا بوجهِ أحَدٍ من المخلوقين عزَّ ربُّنا وجلَّ عن شبهِ المخلوقين، وجلَّ عن مقالة المعطلين».

والمبتدعة لهم طريقان في تحريف صفة الوجه:

الطريق الأول: دعوىٰ أنَّ لفظ (الوجه) زائد، فجعلوها صلة زائدة، قالوا: والتقدير: ويبقىٰ ربك، إلا ابتغاء ربه الأعلىٰ، ويريدون ربهم.

والرد علىٰ هذا من وجوه:

١) دعوىٰ أنَّ (الوجه) صلة؛ كذبٌ علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ وعلىٰ رسوله ﷺ وعلىٰ اللغة، فإن هذه الكلمة ليس مما عهد زيادتها.

٢) لو ساغ ذلك لساغ لمعطل آخر أن يدعي الزيادة في قوله: أعوذ بعزة الله وقدرته، ويكون التقدير أعوذ بالله، ويدعي معطل آخر الزيادة في سمعه وبصره وغير ذلك.

---

(١) التوحيد (١/ ٦٢).

٣) أن هذا يتضمن إلغاء وجهه لفظًا ومعنىٰ، وأن لفظه زائد ومعناه منتفٍ، وهذا باطل قطعًا.

٤) أنه لمَّا أضاف الوجه إلىٰ الذات وأضاف النعت إلىٰ الوجه فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، دل علىٰ أن ذكر الوجه ليس بصلة، وأن قوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، صفة للوجه، وأن الوجه صفة للذات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تأمل رفع قوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ذكر الوجه، وجره في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فذو الوجه المضاف بالجلال والإكرام لمَّا كان القصد الإخبار عنه، وذي المضاف إليه بالجلال والإكرام في آخر السورة لمَّا كان المقصود عين المسمىٰ دون الاسم، فتأمله».

٥) إنه لا يُعرف في لغة من لغات الأمم وجه الشيء بمعنىٰ ذاته ونفسه، فالوجه في اللغة مستقبل كل شيء؛ لأنه أول ما يُواجه منه، وليس هو كل الشيء، وهو في كل محل بحسب ما يُضاف إليه، فإذا أُضيف إلىٰ زمنٍ كان الوجه زمنًا، وإن أضيف إلىٰ حيوان كان بحسبه، وإن أُضيف إلىٰ ثوب أو حائط كان بحسبه، وإن أُضيف إلىٰ مَن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، كان وجهه تعالىٰ كذلك[2].

الطريق الثاني للمبتدعة في تحريف صفة «الوجه» لله: دعواهم أن الوجه مَجازٌ عن الثواب والجزاء، وهذا باطل من وجوه:

- أن اللغة لا تحتمل ذلك، ولا يُعرف أن الجزاء يسمىٰ وجهًا للمَجازي.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص٣٨٨).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (ص٣٨٧، ٣٨٨).

- أن الثواب مخلوق، والنبي ﷺ استعاذ بوجه الله، لمَّا أنزل عليه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: «**أعوذ بوجهك**»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: «**أعوذ بوجهك**»، ولا يُظن برسول الله ﷺ أن يستعيذ بمخلوق.

- أن النبي ﷺ كان من دعائه: «**أسألك لذة النظر إلىٰ وجهك**»، رواه أحمد، ولم يكن ليسأل لذة النظر إلىٰ الثواب، ولا يُعرف تسمية ذلك وجهًا لغةً، ولا شرعًا، ولا عُرْفًا.

- أن النبي ﷺ قال: «**مَن سألكم بوجه الله فأعطوه**»، رواه أحمد، وقال: «**لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة**»، رواه أبو داود، ولو كان المراد بوجهه مخلوقًا من مخلوقاته لما جاز أن يُسأل به، وهذا يدل علىٰ أن السؤال بوجهه أعظم من السؤال به سبحانه.

- أنه جاء في حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسط ويرفعه، ويُرفع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار، وعملُ النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خَلْقِه**»، فإضافة السبحات التي هي الجلال والنور إلىٰ الوجه وإضافة البصر إليه، تبطل أن يُراد به الثواب أو الجزاء، وتبيَّن أن المراد وجهه.

- قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، والزيادة هي -كما قال النبي ﷺ-: «**النظر إلىٰ وجهِ الله**»، رواه مسلم من حديث صهيب رضي الله عنه، وهذا يبطل تحريف معنىٰ الوجه إلىٰ الثواب.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، ففيه إثبات الوجه حقيقةً لله سبحانه وتعالى إذا استقبل العبد القِبلة.

ومنطوق الآية موافق لحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إذا قام أحدكم يصلي فإن الله قِبَل وجهه**»، رواه البخاري.

وفسَّر مجاهد والشافعي «الوجه» في الآية على الجهة، وليس هذا بتأويل تحريف؛ لأن الوجه لغةً يُطلق على الجهة أيضًا، كما أن الله قد ذكر الجهات المشرق والمغرب قبل ذكر الوجه، وكذلك قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾، و«أين» من الظروف، و﴿تُوَلُّوا﴾ أي: تستقبلوا[1].

شَرْحُ المسائل:

١) **النَّهْيُ عَنْ أَنْ يُسْأَلَ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا غَايَةُ الْمَطَالِبِ:** لأن وجه الله أشرف صفاته فلا يُسأل به إلا المطالب العالية.

٢) **إِثْبَاتُ صِفَةِ الْوَجْهِ:** وهي صفةٌ لله حقيقية، تليق بجلاله، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

❁ ❁ ❁

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ١٦).

الْبَــابُ السَّــادِسُ وَالْخَمْسُونَ

بَــابُ مَا جَــاءَ فِي اللَّــوْ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◈ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

◈ وَقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

◈ وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».

فِيــهِ مَسَــائِلُ:

١) تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ فِي آلِ عِمْرَانَ.

٢) النَّهْيُ الصَّرِيحِ عَنْ قَوْلِ: (لَوْ أَنِّي) إِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ.

٣) تَعْلِيلُ الْمَسْأَلَةِ بِأَنَّ ذَلِكَ يَفْتَحُ عَمَلُ الشَّيْطَانِ.

٤) الْإِرْشَادُ إِلَىٰ الْكَلَامِ الْحَسَنُ.

٥) الْأَمْرُ بِالْحِرْصِ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُ، مَعَ الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ.

٦) النَّهْيُ عَنْ ضِدِّ ذَلِكَ، وَهُوَ الْعَجْزُ.

الشَّرْح

هذا الباب في حسن المنطق في اختيار الألفاظ الموافقة للشرع، ومحاذرة الألفاظ التي تعارِض القَدَر.

وفي هذا الباب: توجيه الحرص على ما ينفع، وترْك العجز، والاستعانة بالله في الأمور كلها.

وحديث الباب وبقية النصوص في الموضوع تدل على أن استعمال لفظة (لو) يكون للتحريم في الاعتراض على الشرع والقَدَر وفيما يكون سببًا للتحسُّر.

وإن استعملت (لو) للتمني كانت بحسب المتمنى، إن كان خيرًا جاز، وإن كان شرًّا حرم.

وإن استعملت (لو) في الخبر المحض جاز.

قال شيخنا العلامة المجدد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن (لو) تُستعمل على عدة أوجه:

- **الوجه الأول**: أن تُستعمل في الاعتراض على الشرع، وهذا مُحرَّم، قال الله تعالى: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، في غزوة أُحُد حينما تخلف أثناء الطريق عبد الله بن أُبيّ في نحو ثلث الجيش، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلًا، اعترض المنافقون على تشريع الرسول ﷺ، وقالوا: لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قُتلوا، فرأيُنا خيرٌ من شرعِ محمد، وهذا مُحرَّم، وقد يصل إلى الكفر.
- **الثاني**: أن تُستعمل في الاعتراض على القَدَر، وهذا محرَّم أيضًا، قال الله تعالى:

---

(١) شرح كتاب التوحيد، مطبوع ضمن مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٤٨ – ٩٥٠)، باختصار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، أي: لو أنهم بقوا ما قتلوا، فهم يعترضون على قدر الله.

- **الثالث**: أن تُستعمل للندم والتحسر، وهذا محرَّم أيضًا؛ لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهيٌّ عنه؛ لأن الندم يُكسِب النفس حزنًا وانقباضًا، واللهُ يريد منا أن نكون في انشراح وانبساط، قال ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كذا لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان**».

- **الرابع**: أن تُستعمل في الاحتجاج بالقدر على المعصية، كقول المشركين: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، وهذا باطل.

- **الخامس**: أن تُستعمل في التمني، وحكمه حسب المتمني: إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشر، وفي الحديث عن النبي ﷺ في قصة النفر الأربعة: قال أحدهم: «**لو أن لي مالًا لعملتُ بعملِ فلان**»، فهذا تمنَّى خيرًا، وقال الثاني: «**لو أن لي مالًا لعملتُ بعمل فلان**»، فهذا تمنَّى شرًّا، فقال النبي ﷺ في الأول: «**فهو بنيته، فأَجْرُهما سواء**»، وقال في الثاني: «**فهو بنيته، فَوِزْرُهما سواء**».

- **السادس**: أن تُستعمل في الخبر المحض.

وهذا جائز، ومنه قوله ﷺ: «**لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما سقتُ الهَدْي ولأحللتُ معكم**»، فأخبر النبي ﷺ أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدي ولأحلَّ، وهذا هو الظاهر لي.

وبعضهم قال: إنه من باب التمني، كأنه قال: ليتني استقبلتُ من أمري ما استدبرت حتى لا أسوق الهدي.

لكن الظاهر: أنه أخبر لِمَا رأىٰ من أصحابه، والنبي ﷺ لا يتمنىٰ شيئًا قدَّر اللهُ خلافه».

ومقصود هذا الباب: حثُّ المسلمين علىٰ ما ينفعهم، وذلك يعم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وترك الالتفات إلىٰ أسباب التحسر والحزن، والتوكل علىٰ الله بعبادته والاستعانة به في الأمور كلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أَمَرَ النبي ﷺ أن يحرص علىٰ ما ينفعه، وأن يستعين بالله، وهذا مطابق لقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

فإن الحرص علىٰ ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته؛ إذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء أنفع له من ذلك، وكل ما يُستعان به علىٰ الطاعة فهو طاعة، وإن كان من جنس المباح».

وكما حثَّنا النبي ﷺ علىٰ ما ينفعنا، فإنه علَّمنا أن نستعيذ مما يضرنا، فقال للصحابي الذي شكي همومه وديونه: «**قل -إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ-: اللهم إني أعوذ بك من: الهم والحزن، وأعوذ بك من: العجز والكسل، وأعوذ بك من: الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدَّين، وقهر الرجال**»، رواه أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «فقد تضمن الاستعاذة من ثمانية أشياء: كل اثنين منها قرينان مزدوجان، فالهم والحزن أَخَوَان، والعجز والكسل أخوان، والجبن والبخل أخوان، وضلع الدين وغلبة الرجال أخوان.

فإن المكروه المؤلم إذا ورد علىٰ القلب، فإما أن يكون سببه أمرًا ماضيًا فيوجب له الحزن، وإن كان أمرًا متوقعًا في المستقبل أوجب الهم.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٣١).

(٢) زاد المعاد ص٧٥٨، ط- دار الكتاب العربي.

وتخلف العبد عن مصالحه وتفويتها عليه: إما أن يكون من عدم القدرة وهو العجز، أو من عدم الإرادة وهو الكسل.

وحبس خيره ونفعه عن نفسه وعن بني جنسه: إما أن يكون منع نفعه ببدنه فهو الجبن، أو بماله فهو البخل.

وقهر الناس له: إما بحق فهو ضلع الدين، أو بباطل فهو غلبة الرجال. فقد تضمن الحديث الاستعاذة من كل شر».

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ فِي آلِ عِمْرَانَ**: وفيه التحذير من مشابهة الكافرين والمنافقين في الاعتراض علىٰ الشرع.

٢) **النَّهْيُ الصَّرِيحِ عَنْ قَوْلِ: (لَوْ أَنِّي) إِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ**: فالواجب الفرح بما أصابك إن كان خيرًا وشُكرُ الله علىٰ ذلك، وإن أصابك شرٌّ تسترجع وتسأل الخَلَف.

٣) **تَعْلِيلُ الْمَسْأَلَةِ بِأَنَّ ذَلِكَ يَفْتَحُ عَمَلُ الشَّيْطَانِ**: وهذا التعليل تحذير من اتباع خطوات الشيطان، فإنّه يريد إحزان المسلمين.

٤) **الْإِرْشَادُ إِلَىٰ الْكَلَامِ الْحَسَنُ**: وهو أن تقول ما يرضي الله.

٥) **الْأَمْرُ بِالْحِرْصِ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُ، مَعَ الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ**: لأنّ هذا الذي بوسع الإنسان أن يفعله، وهو جلبُ المصالح لنفسه ودرأ المفاسد عنها بالأسباب الممكنة الجائزة.

٦) **النَّهْيُ عَنْ ضِدِّ ذَلِكَ، وَهُوَ الْعَجْزُ**: فإنّ العاجز يتمنىٰ بلا عمل، والحريص علىٰ الخير يستعين بالله في فعل ما ينفعه في دينه ودنياه.



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَابُ السَّابِعُ وَالْخَمْسُونَ

بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ.

٢) الْإِرْشَادُ إِلَىٰ الْكَلَامِ النَّافِعِ إِذَا رَأَىٰ الْإِنْسَانُ مَا يَكْرَهُ.

٣) الْإِرْشَادُ إِلَىٰ أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ.

٤) أَنَّهَا قَدْ تُؤْمَرُ بِخَيْرٍ، وَقَدْ تُؤْمَرُ بِشَرٍّ.

الشَّرْح

الريح مخلوق من مخلوقات الله، تسير بأمر الله، فهي مأمورة، فيرسلها رحمةً حيث شاء، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

والريح قد يرسلها الله فتكون رحمة، وقد تكون سببًا في الهدم والغرق. وقد كان النبي ﷺ يدعو إذا استسقىٰ: «**اللهم سقيا رحمة، لا سقيا هدم ولا غرق**». فما عند الله يُستجلب بطاعته ودعائه وسؤاله، فالقرىٰ التي أهلكها الله بالريح كعَادٍ، إنما أهلكها بسبب كفرها وعُتوّها وعُلوّها وكِبرها بغير الحق.

وكما أن الريح مُسخَّرة بأمر الله، فأنت أيها المخلوق عبدٌ خاضع مربوب لله، يجري فيك حُكْمه الشرعي والقدري، وإذا أحسنت في طاعة الله في حُكْمه الشرعي تولاك الله في أمره القدري.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «العبد دائمًا متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج -بل مضطرٌّ- إلىٰ العَوْن عند الأوامر، وإلىٰ اللطف عند النوازل، وعلىٰ قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل».

والقُرَىٰ إذا غلب عليها الشر فقد تأذنت بعذاب الله وسخطه وعقابه، قيل للنبي ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نَعم، إذا كَثُر الخَبث**»، متفق عليه.

وواجب المصلحين: السعي في حفظِ أوطانهم من أسباب الهلاك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فالإيمان بالله، والأعمال الصالحة، والاستغفار؛ أمانٌ لأهل القرىٰ من العذاب القدري، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فالمؤمنون يذكرون الله ويستغفرون لذنوبهم، ولا يصرون علىٰ الذنوب،

---

(١) الفوائد (ص٢٩٣).

قال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قال السدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الإصرار: السكوت وتَرْك الاستغفار».

ومن الواجب اعتقاده في فقه هذا الباب: الإيمان بأسماء الله وصفاته، والإيمان بقَدَره خيره وشره، فالعقاب الذي يرسله الله علىٰ القرىٰ إنما بكسبهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وهذه سُنَّة الله في خَلْقه، والمثلات فيمن خلا من قبلنا، إنما عاقبهم الله بكفرهم وفسوقهم، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

والطوفان الذي أهلك الله به الدنيا، أنجىٰ الله منه نوح ومَن آمن معه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «هو سبحانه يخبر أنه إذا أهلك أعداءه أنجىٰ أولياءه، ولا يعمهم بالهلاك بمحض المشيئة.

ولمَّا سأله نوح نجاة ابنه، أخبر أنه يُغرِقه بسوء عملِه وكُفرِه، ولم يقل: إني أغرقه بمحض مشيئتي وإرادتي بلا سببٍ ولا ذنبٍ!».

والمؤمنون وصْفُهم وحالُهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وكلما تحقق المؤمنون بالتوحيد والتقوىٰ كانوا في أمن الله وحفظه وكفايته، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنكم لن تزالوا بخير ما اتقيتم الله»، رواه البخاري.

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٣٠٨).

(٢) الفوائد (ص٢٣٧).

والمؤمن مَن يجمع في إيمانه بين العمل الصالح والخوف من الله والرجاء له، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «المؤمن يعمل بالطاعات، وهو مشفقٌ وَجِلٌ خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن».

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ – ٩٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أما خوفُ أوليائه من مَكْرِه فحقٌّ، فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلىٰ الشقاء، فخوفهم من ذنوبهم، ورجاؤهم لرحمته.

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]، إنما هو في حق الفجار والكفار، ومعنىٰ الآية: فلا يعصي ويأمن مقابلة الله له علىٰ مكرِ السيئات بمَكرِه به إلا القوم الخاسرون.

والذي يخافه العارفون بالله من مَكرِه: أنْ يُؤخِّر عنهم عذاب الأفعال، فيحصل منهم نوع اغترار، فيأنسوا بالذنوب، فيجيئهم العذاب علىٰ غرةٍ وفترة.

وأمرٌ آخر وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذِكره، فيتخلىٰ عنهم إذا تخلوا عن ذِكره وطاعته، فيسرع إليهم البلاء والفتنة، فيكون مَكرُه بهم تخليه عنهم.

وأمرٌ آخر: أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمونه من نفوسهم، فيأتيهم المَكْرُ من حيث لا يشعرون.

وأمر آخر: أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه، فيُفتنون به، وذلك مَكْرٌ».

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٣٤٤).
(٢) الفوائد (ص٢٣٩، ٢٤٠).

شـرْحُ المسـائل:

١) **النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ**: وهو نهيُ تحريمٍ؛ لأنها مخلوقة مربوبة لله.

٢) **الْإِرْشَادُ إِلَىٰ الْكَلَامِ النَّافِعِ إِذَا رَأَىٰ الْإِنْسَانُ مَا يَكْرَهُ**: فيسأل المسلم ربه خير الريح وخير ما أُرسلت به، ويعوذ بالله من شرها وشرِّ ما أُرسلت به.

٣) **الْإِرْشَادُ إِلَىٰ أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ**: فيَحْذر المسلم من سبِّ الله.

٤) **أَنَّهَا قَدْ تُؤْمَرُ بِخَيْرٍ، وَقَدْ تُؤْمَرُ بِشَرٍّ**: والذي يأتي بالخير هو الله، وما عنده يُستجلب بطاعته ودعائه.

والسبب الذي يجلب للمسلم المنفعة ويدفع عنه المضرة هو تقوىٰ الله، فأزمة الأمور كلها بيد الله، والله ﷻ يتولىٰ مَن اتقاه ويحفظه، ومَن كان الله له فقد حاز الخير وكُفي الشر.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الله جعلَ فِعْل المأمور وترْك المحظور سببًا للنجاة والسعادة، فشهادة التوحيد تفتح باب الخير، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر.

ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا بالله، ولا يخاف من الله أن يظلمه، فإن الله لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، بل يخاف أن يجزيه بذنوبه، وهذا معنىٰ ما رُوي عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لا يرجون عبدٌ إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه»».

❁ ❁ ❁

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٥٦).

الْبَـابُ الثَّـامِنُ وَالْخَمْسُـونَ

بَـابٌ: قَـوْلُ اللهِ تَعَـالَى:

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

- وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦].
- قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الآيَةِ الْأُولَىٰ: «فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ، وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ.
- وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ، الَّذِي ظَنَّ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.
- فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَىٰ الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَىٰ: بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَّرَهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ، فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.
- وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.
- فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَىٰ اللهِ، وَيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

◊ وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ؛ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَىٰ الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا».

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) تَفْسِيرُ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ.

٢) تَفْسِيرُ آيَةِ الْفَتْحِ.

٣) الْإِخْبَارُ بِأَنَّ ذَلِكَ أَنْوَاعٌ لَا تُحْصَرُ.

٤) أَنَّهُ لَا يَسْلَمِ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ وَعَرَفَ نَفْسَهُ.

الشَّرح

خرجَ النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم سنة ست في ذي القعدة إلىٰ مكة قاصدين أداء العمرة، وكان النبي ﷺ نوىٰ إن صدَّه المشركون قاتلهم، وتخلف عنه مَن ظنَّ بالله ظن السَّوء.

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «ظنهم أسوأ الظن بالله أنه يخذل رسله، وأولياءه، وجنده، ويُظفِر بهم عدوهم، فلن ينقلبوا إلىٰ أهليهم، وذلك من جهلهم بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق به، وجهلهم برسوله ﷺ وما هو أهلٌ أن يعامله به ربه ومَوْلَاه».

وأخذتْ كُفَّار قريش حمية الجاهلية، وصدوا النبي ﷺ وأصحابه عن العمرة، وحصل الصلح علىٰ أن يعتمر النبي ﷺ والصحابة العام القابل.

---

(١) زاد المعاد، ص٤٣٧.

وكان في ذلك من الحكمة حفْظ نفوس المسلمين المستضعفين بمكة؛ لأنه لو وقع قتالٌ ربما أُصيبوا لعدم تمايزهم عن الكافرين، وكان الصلح سببًا في إسلام كثيرٍ من المشركين، وكان فيه تمحيصٌ للمؤمنين في انقيادهم لطاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ ينظر من وراء هذا الصلح إلىٰ الفتح العظيم والعزِّ والنصر للإسلام.

وحصل ما كان موقنًا به رسول الله ﷺ من نصر الله لدينه، فكان فتح خيبر أول تلك البشائر بعد الصلح، ثم فتح مكة ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وظهر الإسلام.

قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أخبرهم بأنه هو الذي أرسل رسوله ﷺ بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله، فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار علىٰ جميع أديان أهل الأرض، ففي هذا تقويةٌ لقلوبهم، وبشارةٌ لهم وتثبيتٌ، وأن يكونوا علىٰ ثقةٍ من هذا الوعد الذي لا بد له أن ينجزه».

وسوء ظن المشركين بالله -وهذا من فساد توحيدهم- جعلهم يعدلون عن رب العالمين قصدًا ورغبةً ورهبةً ورجاءً إلىٰ الاستغاثة بالموتىٰ، وجعلهم يتخذون الوسائط والشفعاء في دعاء الله، كأنهم يستعطفون ربهم بالشرك، يستعطفونه بأعظم ما يسخطه، كلُّ هذا جهلٌ منهم، وسوءُ ظنٍّ برب العالمين.

وهذا جهلٌ منهم بحال معبوديهم الذين لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا.

---

(١) زاد المعاد، ص٤٣٩.

قال تعالىٰ: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ ﴾ [يونس: ١٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «نفىٰ سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدي، فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم».

والثقة بالله توحيدٌ وطمأنينة، وحقيقة الدين كله ترجع إلىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال العَلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المؤمنون بالرسل أخلصوا له العبادة وأفردوه بالاستعانة، فهو معبودهم ومستعانهم، وجميع الأعمال داخلةٌ في هاتين الكلمتين الشريفتين».

فالله عَزَّ وَجَلَّ هو غِياث المستغيثين، وإليه تنتهي الرغبات، وهو الذي يقدِّر المقادير، ويهدي وينصر ويرزق، وهو علىٰ كل شيءٍ قدير، وما شاء اللهُ كان، وما لم يشأ لم يكن.

قال العَلَّامة المجدد عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ أعظم الذنوب عند الله تعالىٰ هو إساءة الظن به، فإنَّ المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدَّس، فظن به ما يناقض أسماءه وصفاته؛ ولهذا توعَّد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الظانين به ظن السَّوء بما لم يتوعَّد به غيرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ [الفتح: ٦].

وقد قال تعالىٰ لمن أنكر صفةً من صفاته: ﴿ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣]، وقد قال تعالىٰ عن خليله إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٣/ ١٦٣).
(٢) منهاج التأسيس، ص١١٤
(٣) منهاج التأسيس، ص٢٨٨

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥ - ٨٧]، أي: فما ظنكم أن يجازيكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وما ظنكم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتىٰ أحوجكم ذلك إلىٰ عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيءٍ عليم، وعلىٰ كل شيء قدير، وأنه غنيٌّ عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقيرٌ إليه، وأنه قائمٌ بالقسط علىٰ خَلقه، وأنه المنفرد بتدبير خَلْقه لا يشركه فيه غيره، والعالِم بتفاصيل الأمور، فلا تخفىٰ عليه خافية من خَلْقه، والكافي لهم وحده، لا يحتاج إلىٰ معين، والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلىٰ مَن يستعطفه، ما اتخذتم من دونه أولياء تدعونهم وتتوسلون بهم إليهم بزعمكم».

وحقيقة الإيمان بالله ترجع إلىٰ تصديق خبره، والانقياد لأمره ونهيه، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

والمؤمنون وجدوا صدق ما أخبر الله به من الحياة الطيبة لمن انقاد لأمره ونهيه، واتبع وحيه، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، فمَن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات.

فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة مَن استجاب لله عَزَّوَجَلَّ والرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا».

والمؤمنون وجدوا صِدْقَ ما أخبر الله به في الدنيا، وعلمهم يقينٌ بصدق وعد الله لهم في الآخرة، وسيرون ذلك عيانًا إذا دخلوا الجنة، والكافرون يجدون

---

(١) الفوائد، ص١٢٧

ما غرَّتهم الشياطين أماني كاذبة، ومأواهم جهنم وبئس المصير.

قال تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥].

وكان من ثقة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخبر الله وتحقيقه للتوحيد الدعوة إليه والصبر عليه، فقد جدَّد الله به الدين، واضمحلَّت بدعوته البدع والشرك، وظهر دين الله ظهورًا عظيمًا في جزيرة العرب إلىٰ الشام، بما هيأ الله له من نصرة الإمام محمد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ القصد بهذا الوضع الاعتبار بما جرىٰ لأهل هذه الدعوة من النصر والتأييد والظهور علىٰ قلة أسبابهم، وكثرة عدوهم وقوته، وذلك من آيات الله وبيِّناته علىٰ أنَّ ما قام به الشيخ في حال فساد الزمان أنه الدين الذي بعث الله به المرسلين، وتبيَّن أن هذه الطائفة في هذه الأزمنة هي الطائفة المذكورة في قوله ﷺ: «**ولا تزال طائفةٌ من أُمَّتِي علىٰ الحق منصورة، لا يضرهم مَن خذلهم، ولا مَن خالفهم، حتىٰ يأتي أمر الله وهم علىٰ ذلك**».

ونقل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب تحذير ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سوء الظن بالله في مقاديره، حيث قال(٢): «أكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يَسلم من ذلك إلا مَن عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده.

فليعتنِ اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتبْ إلىٰ الله، وليستغفره من ظنه بربه ظن السَّوء».

---

(١) المقامات، ص١٦، ١٧

(٢) كتاب التوحيد، ص٩٧، ٩٨

وقد قال الله تعالىٰ عن هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في تحقيقه لتوحيد الله أنه قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أي: مع كونه مالكًا قاهرًا متصرفًا في عباده، نواصيهم بيده، فهو علىٰ صراطٍ مستقيم، وهو العدل الذي يتصرف به فيهم، فهو علىٰ صراطٍ مستقيمٍ في قوله، وفعله، وقضائه، وقَدَره، وأمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه، فخبره كله صدقٌ، وقضاؤه كله عدلٌ، وأمره كله مصلحةٌ، والذي نهىٰ عنه كله مفسدةٌ، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ورحمته، وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته».

شــرْحُ المســائل:

١) **تَفْسِيرُ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ**: ظنَّ المشركون بعد ظهورهم في غزوة أُحُدٍ أنَّ أمْرَ محمد ﷺ سيضمحل، وهذا من غرور كفرهم، فإنَّ اللهَ داوَلَ الأيامَ ونصرَ رسولَه محمدًا ﷺ والإسلامَ.

٢) **تَفْسِيرُ آيَةِ الْفَتْحِ**: ظنَّ المشركون أنه لن تظهر كلمة الإسلام، وأنَّ الله لن ينصر رسوله ﷺ، وسوءُ ظنهم بالله هو من أغلظ شعب شركهم وكفرهم، فنصرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رسوله ﷺ ودينه، وجعل كلمة الذين كفروا هي السفلىٰ.

٣) **الْإِخْبَارُ بِأَنَّ ذَلِكَ أَنْوَاعٌ لَا تُحْصَرُ**: من سوء الظن بالله في أمره وحُكْمه وقدره وشرعه.

٤) **أَنَّهُ لَا يَسْلَم مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ وَعَرَفَ نَفْسَهُ**: فاليقين بالله هو أساس الإيمان به، ومتىٰ اغتذت القلوب بحقائق الإيمان بأسماء الله وصفاته اطمأنت إلىٰ كفاية الله وتدبيره ونصره وحفظه ورزقه وولايته.

(١) الفوائد، ص٣٣

الْبَــابُ التَّــاسِعُ وَالْخَمْسُونَ

بَــابُ مَا جَــاءَ فِي مُنْكِــرِي القَــدَرِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◊ وَقَالَ ابنُ عُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لأَحَدِهِم مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أنْفَقَهُ فِي سَبيلِ اللهِ؛ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ، حتَّىٰ يُؤمِنَ بِالقَدَرِ، ثمَّ استَدلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**الْإِيْمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

◊ وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّه قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ؛ إِنَّكَ لَنْ تجِدَ طَعْمَ الْإِيْمَانِ حَتَّىٰ تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ! وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ تَقُوْمَ السَّاعَةُ**»، يا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**مَنْ مَاتَ عَلَىٰ غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي**».

◊ وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ**».

◊ وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ: قَالَ رَسُوْلُ اللهُ ﷺ: «**فَمَنْ لَمْ يُؤمِنْ بالقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ؛ أحْرَقَهُ اللهُ بالنَّارِ**».

◊ وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ؛ قَالَ: أَتَيْتُ أُبيَّ بنَ كعْبٍ، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيءٍ لَعَلَّ اللهُ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي، فَقَالَ: «لَوْ أنفقْتَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنكَ؛ حَتَّىٰ تؤمِنَ بِالقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلوْ مِتَّ عَلَىٰ غَيرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ

أَهْلِ النَّارِ، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، وَحُذَيفةَ بْنَ الْيَمَانِ، وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ؛ فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ». حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَواهُ الحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ.

فِيهِ مَسَائِلُ:

١) بَيَانُ فَرْضِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ.
٢) بَيَانُ كَيْفِيَّةِ الْإِيمَانِ.
٣) إِحْبَاطُ عَمَلِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ.
٤) الْإِخْبَارُ أَنَّ أَحَدًا لَا يَجِدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِهِ.
٥) ذِكْرُ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللهُ.
٦) أَنَّهُ جَرَىٰ بِالْمَقَادِيرِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ.
٧) بَرَاءَتُهُ ﷺ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ.
٨) عَادَةُ السَّلَفِ فِي إِزَالَةِ الشُّبْهَةِ بِسُؤَالِ الْعُلَمَاءِ.
٩) أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَجَابُوهُ بِمَا يُزِيلُ شُبْهَتَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا الْكَلَامَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَطْ.

الشَّرح

حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذِكرُه تامًّا يُعِين علىٰ فهم جواب ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحُكْمه فيمن أنكر علم الله بالمقادير.

قال يحيىٰ بن يَعْمَرَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ -أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ- فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ

إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ، قَالَ: «فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي»، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ «لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ»، رواه مسلم.

قال الحافظ النووي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «قوله: (يزعمون ألا قدَر وأنَّ الأمر أُنفٌ) هو بضم الهمزة والنون، أي: مستأنفٌ لمْ يَسبق به قدرٌ ولا عِلمٌ من الله تعالىٰ، وإنما يَعْلمه بعد وقوعه».

والقول بنفي علم الله بالمقادير قبل وقوعها قول غلاة المبتدعة القدرية، وهو بدعةٌ مكفرة.

قال أبو بكر الخلال: «سمعتُ أبا عبد الله يقول: إذا جحد العلم قال: إن الله ﷻ لا يعلم الشيء حتىٰ يكون، استتُيب، فإن تاب وإلا قُتل»[(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «غلاة القدرية الذين اتفق السلف علىٰ كفرهم، وحكموا بقتلهم الذين يقولون: لا يعلم أعمال العباد حتىٰ يعملوها، ولم يعلمها قبل ذلك، ولا كتبها، ولا قدَّرها، فضلًا عن أن يكون شاءها وكوَّنها.

وقول هؤلاء معلومُ البطلان بالضرورة من أديان جميع المرسلين، وكُتُب الله المنزَّلة.

وكلام الرسول ﷺ مملوءٌ بتكذيبهم، وإبطال قولهم، وإثبات عموم علمه الذي لا يشاركه فيه خَلْقه، ولا يحيطون بشيءٍ منه إلا بما شاء أن يطلعهم عليه، ويُعْلمهم به، وما أخفاه عنهم ولم يطلعهم عليه.

ولا نسبة لما عرفوه إليه دون نسبة قطرةٍ واحدةٍ إلىٰ البحار كلها، كما قال

---

(١) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، ص٩٧، ٩٨
(٢) السنة (٣/ ٥٣٢ – رقم ٨٧٢).
(٣) شفاء العليل، ص٣١٣

الخضر لموسىٰ -وهما أعلم أهل الأرض حينئذٍ-: (ما نقص علمي وعلمك من علمِ الله إلا كما نقص هذا العصفور من البحر)».

وبإزاء غلاة القدرية نفاة علم الله، المعتزلة الذين زعموا أن مشيئة المخلوق غلبت إرادة الله ومشيئته، ووقع الكفر من الكافرين.

وهذا من أنكر الأقوال، وأعظمها كفرًا، وأشدها ضلالًا، وحقيقته القدح في ربوبية الله.

قال شيخ المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قد دلَّلْنا فيما وصفناه بالعزة التي لا تشبهها عزة علىٰ ذلك؛ وذلك أنه مَن لم يَعْلم أنه لا يكون في سلطان الله عزَّ ذكره شيءٌ إلا بمشيئته، ولا يُوجد موجودٌ إلا بإرادته، لم يعلمه عزيزًا.

وذلك أن مَن أراد شيئًا فلم يكن، وكان ما لم يكن، فإنما هو مقهورٌ ذليل، ومَن كان مقهورًا ذليلًا فغير جائزٍ أن يكون موصوفًا بالربوبية».

وقول عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لابنه: «يا بنيَّ! إنك لن تجد طعم الإيمان حتىٰ تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك»، هو كلمات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأُمَّة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف**»، رواه أحمد والترمذي وصححه.

وهذه الكلمات هي جملُ العقيدة، متىٰ تحقق المسلم بها أوجبت له قصد الله وحده محبةً ورجاءً وخوفًا ورغبةً.

(١) التبصير في معالم الدين، ص١٣٠

قال الحافظ ابن رجبٍ الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خيرٍ وشرٍّ، ونفعٍ وضرٍّ، وأن اجتهاد الخلق كلهم علىٰ خلاف المقدور غير مفيدٍ البتَّه، علم حينئذٍ أن الله وحده هو الضارُّ النافع، المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عَزَّ وَجَلَّ، وإفراده بالطاعة، وحفظ حدوده، فإن المعبود إنما يُقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضارّ؛ ولهذا ذمَّ اللهُ مَن يعبد مَن لا ينفع ولا يضر، ولا يغني عابده شيئًا، فمَن علم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع غير الله؛ أوجبَ له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء، وتقديم طاعته علىٰ طاعة الخَلْق جميعًا، وأن يتقي سخطه، ولو كان فيه سخط الخَلق جميعًا، وإفراده بالاستعانة به، والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد، ونسيانه في الرخاء، ودعاء مَن يرجون نفعه من دونه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]».

وقول عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لابنه: «لن تبلغ حقيقة الإيمان حتىٰ تؤمن بالقدر خيره وشرِّه» هو في معنىٰ ما جاء في حديث جبريل في أركان الإيمان، حيث قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وتُؤمن بالقدر خيره وشره**»، رواه البخاري ومسلم، وفي معنىٰ حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات**»، رواه البخاري ومسلم.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٧٨].

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص٣٦٤، ٣٦٥

وهذا الاعتقاد بأنَّ الخير والشر كله بتقدير الله إجماعٌ، ليس في أهل السُّنة والجماعة مَن يخالف في ذلك.

قال العَلَّامة أبو القاسم الطبري اللَّالَكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هو مذهب أهل السُّنة والجماعة، يتوارثونه خَلفًا عن سلفٍ، من لدن رسول الله ﷺ بلا شكٍّ ولا ريبٍ».

وقال أبو الحارث: سمعتُ أبا عبد الله، وقد سُئل عن القدر، فقال: الخير والشرُّ بقدر، والزنا والسرقة وشرب الخمر كله بقدر(٢).

وقال حنبل: قلتُ لأبي عبد الله: إن قومًا يحتجون بهذه الآية: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، قال أبو عبد الله: ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك واللهُ قضاها(٣).

والإيمان بالقدر خيره وشرِّه هو من الإيمان بالله، وقضاء الله ليس فيه شر، وإنما الشر في المقضي، فالشر ليس في فعل الله، وإنما في المقدور، من ذلك: ما يصيب العبد من مصائب، فتكون سببًا في تكفير ذنوبه مع احتسابه، وسببًا في رفعة درجاته، والله يستخرج عبودية خَلقه بابتلائهم بالسراء والضرَّاء، قال النبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير: إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمسلم**»، رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «**«لا يقضي اللهُ للمُؤْمِن»**، والمؤمنُ هو: الذي لا يصر علىٰ ذنب؛ بل يتوب منه، فيكون حسنة، كما قد جاء في عدة آيات: أنَّ العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله، لا يزال يتوب منه حتىٰ يدخل بتوبته منه الجنة.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٩٤).
(٢) السنة، للخلال (١/ ٥٤٣ – رقم ٩٠٢).
(٣) السنة، للخلال (١/ ٥٤٥ – رقم ٩٠٩).
(٤) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٣٠).

والذنب يوجب ذل العبد، وخضوعه، ودعاء الله، واستغفاره إياه، وشهوده بفقره، وحاجته إليه، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو، فيحصل للمؤمن بسبب الذنب من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك، فيكون هذا القضاء خيرًا له.

فهو في ذنوبه بين أمرين: إما أن يتوب فيتوب الله عليه، فيكون من التوَّابين الذين يحبهم الله، وإما أن يكفِّر عنه بمصائب تصيبه ضرَّاء فيصبر عليها، فيكفِّر عنه السيئات بتلك المصائب، وبالصبر عليها ترتفع درجاته».

وعند ظهور مَن يُنكِر أنَّ الشر بقدر الله، أنكر عليهم الصحابة رضي الله عنهم ذلك، فقد سمع ابن عباس رضي الله عنهما رجلًا يقول: الشر ليس بقدر، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «بيننا وبين أهل القدر: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، حتىٰ بلغ: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، والعجز والكيس بقدر»(١).

وقال أبو بكر المروذي: قال رجلٌ لأبي عبد الله رحمه الله: إنَّ عندنا قومًا يقولون: إن الله خلق الخير، ولم يخلق الشر، ويقولون: القرآن مخلوق، فقال: هذا كفرٌ، هؤلاء قدريَّةٌ جهميةٌ، الخير والشر مقدَّرٌ علىٰ العباد.

قيل له: الله خلق الخير والشر؟ قال: نعم، الله قدَّره(٢).

وقال الحافظ أبو بكر الآجري رحمه الله(٣): «يُقال للقدري: يا مَن لَعِبَ به الشيطان، يا مَن ينكر أن الله تعالىٰ خلق الشر، أليس إبليس أصلَ كلِّ شرٍّ؟ أليس الله خلقه؟ أليس الله تعالىٰ خلق الشياطين، وأرسلهم علىٰ مَن أراد ليضلوهم عن طريق الرشد؟ فأيُّ حجةٍ لك يا قدري؟ يا من قد حُرم التوفيق، أليس الله تعالىٰ قال:

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (١١/ ١١٤ – رقم ٢٠٠٧٣) عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه أنَّ رجلًا قال لابن عباس: الشر ليس بقدر، فقال ابن عباس: فذكره، إسنادٌ صحيح.

(٢) السنة للخلال (١/ ٥٤٣ – رقم ٩٠٠).

(٣) الشريعة (١/ ٤٦٢).

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥] إلىٰ قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]».

وحديث ابن الديلمي فيه تبيين اتفاق علماء الصحابة رضي الله عنهم علىٰ الإيمان بالقدر، وهذا من المعلوم ضرورةً عنهم، فلا يصح إيمان مسلمٍ بدون الإيمان بالقدر.

والصحابة رضي الله عنهم خير الناس كما قال النبي ﷺ، وأكمل الأُمّة إيمانًا، وقد أنكروا بدعة القدرية التي ظهرت في أواخر عصرهم.

والواجب علىٰ المسلمين: اتباع الصحابة بتلقي الدين عنهم، قال تعالىٰ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال العَلَّامة أبو المظفر السمعاني رحمه الله(١): «شعار أهل السُّنة اتباعهم السلف الصالح، وتركهم كل ما هو مبتدع محدث».

والنبي ﷺ في نَهْيه أُمَّته عن الافتراق، وإخباره بأنها ستفترق إلىٰ ثلاثٍ وسبعين فرقةً دلَّ أُمَّته علىٰ ما تعتصم به من شروره وغوائله بالاعتصام بسُنَّته، وبتلقي الدين عن صحابته، فقال: «**ما أنا عليه وأصحابي**».

وفي حديث ابن الديلمي تبيين مرجعية الصحابة في تلقي الدين، فإنَّ ابن

---

(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ٣٦٤).

الديلمي[١] أتىٰ أُبَيَّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة ابن اليمان، وزيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وسألهم عن القدر، وهؤلاء سادات علماء الصحابة الذين أدركهم ابن الديلمي.

وهذا منهج الناصح لنفسه: يتلقىٰ العلم عن أكابر العلماء، قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يزال الناس بخيرٍ ما كان العلم في أكابرهم فإذا صار في أصاغرهم فذلك حين هلكوا».

والإيمان بالقدر من أركان الإيمان الستة: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

والإيمان بالقدر ينتظم أنواع التوحيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما[٢]: «القدر نظام التوحيد، فمَن وحَّد الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقضاء نقضًا للتوحيد، ومَن وحَّد الله وآمن بالقدر كان العروة الوثقىٰ لا انفصام لها».

فالإيمان بالقدر من قِسم توحيد الربوبية، فلا يقع شيءٌ إلا بمشيئة الله، والله خالقٌ لفعل العبد ولكل ما يقدره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومتعلق بتوحيد العبودية من جهة كسب العبد وتألهه لله وحده لا شريك له.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «العبد له ملاحظتان: ملاحظةٌ للوجه الأول، وملاحظةٌ للوجه الثاني، والكمال ألا يغيب بإحدىٰ الملاحظتين عن الأخرىٰ؛ بل يشهد قضاء الرب تعالىٰ وقدره ومشيئته، ويشهد مع ذلك فعله وجنايته، وطاعته ومعصيته، فيشهد الربوبية والعبودية، فيجتمع في قلبه معنىٰ قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾

(١) عبد الله بن فيروز الديلمي من كبار التابعين.
(٢) السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد (١/ ٢٢٣).
(٣) شفاء العليل (١/ ٢٢٣)

[التكوير: ٢٨] مع قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٤ – ٥٦]».

والإيمان بالقدر من قِسم توحيد الأسماء والصفات من جهة الإيمان بقَدَر الله، وقدرته، ومشيئته، وتقديره، وصفاته التي قضىٰ وخلقَ بها، وهَدىٰ خَلْقه لأعمال البر والخير، ومن جهة براءة المخلوق من حوله وقوته، واستعانته بربه في الإتيان بأموره الدينية والدنيوية[1].

فالإيمان بالقدر من توحيد الله في ربوبيته؛ لأنه من توحيد الله بأفعاله، والفرقتان: الجبرية والقدرية ضلَّت في توحيد الله في هذا الباب، فالجبرية نفوا فعل العبد الذي جعل الله له قدرة تامة وإرادةً جازمة يختار بها فعله، وقالوا: هو مجبورٌ، والقدرية نفوا تقدير الله لفعل العبد، وأنه لا يقع شيءٌ إلا بمشيئته.

وهدىٰ الله أهل السُّنة والجماعة لِمَا اختُلف فيه الجبرية والقدرية من الحق في أفعال العبد والقدر، فقالوا: العبد مختارٌ لفعله، يفعل بقدرة تامة وإرادة جازمة، قال تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ[2] قَٰدِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥]، واللهُ خالقٌ لفعله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، ولا يقع شيءٌ في مُلْكِ الله إلا بقدره ومشيئته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

قال العَلَّامة أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «الذين أشركوا به تعالىٰ في الربوبية منهم مَن أثبت معه خالقًا آخر، وإن لم يقولوا: إنه إلهٌ مكافئ له، وهم المشركون ومَن ضاهاهم من القدرية.

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٢٦).

(٢) علىٰ قصدٍ من أمرهم. رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٨/ ٢٣٣).

(٣) تجريد التوحيد المفيد، ص٥٩– ٦١

وربوبيته سبحانه للعالم الكاملة المطلقة تبطل أقوالهم؛ لأنها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات».

والمخلوق إن استعان بالله، وأخذ بأسباب الهداية هداه الله، فإن الله ﷻ خلَقه على الفطرة، فقال تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «**كل مولودٍ يُولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه**».

وقد كمَّل الله فطرة خلقه بشرعه، فمَن اتبع شرع الله صار من أهل السعادة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

ولا ينفك المسلم عن استعانة ربه في هدايته وتزكيته ودفع أسباب الضلالة عنه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

قال ابن القيم رحمه الله[(١)]: «إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يخلق أفعال العبد الظاهرة والباطنة، فهو الذي يجعل الإيمان والهدىٰ في القلب، ويجعل التوبة والإنابة والإقبال والمحبة والتفويض وأضدادها.

والعبد في كل لحظةٍ مفتقرٌ إلىٰ هدايةٍ يجعلها الله في قلبه، وحركاتٍ يحركه بها في طاعته، وهذا إلىٰ الله سبحانه وتعالى، فهو خلقه وقدره، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنتَ خيرُ مَن زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها**»، وعلَّم حصين بن المنذر رضي الله عنه أن يقول: «**اللهم ألهمني رشدي، وقني شرَّ نفسي**».

وعامة أدعيته ﷺ متضمنةٌ لطلب توفيق ربه، وتزكيته له، واستعماله في محابِّه».

وضلالةُ مَن ضلَّ، وكُفْرُ مَن كفر، إنما هو بسبب أخذه بأسباب الضلالة، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

---

(١) طريق الهجرتين، ص٦١٤، ٦١٥

فاللهُ يهدي مَن يستحق الهداية فضلًا منه وإحسانًا، ويضل مَن يشاء عدلًا، ولا يظلم ربُّكَ أحدًا.

قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أضلَّه الله علمًا به، وبأقواله، وما يناسبه ويليق به، ولا يصلح له غيره قبل خلقه وبعده، وأنه أهل للضَّلال، وليس أهلًا أن يُهدىٰ، وأنه لو هُدي لكان قد وضع الهدىٰ في غير محله، وعند مَن لا يستحقه، والرب تعالىٰ حكيمٌ، إنما يضع الأشياء في محالِّها اللائقة بها، فانتظمت الآية علىٰ هذا القول في إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدَّر عليه الضلال، وذكرَ العِلم؛ إذ هو الكاشف المبيِّن لحقائق الأمور، ووضع الشيء في مواضعه، وإعطاء الخير مَن يستحقه، ومنعه مَن لا يستحقه، فإنَّ هذا لا يحصل بدون العلم، فهو سبحانه أضلَّه علىٰ علمه بأحواله التي تناسب ضلاله وتقتضيه».

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، والمقدَّرات المخلوقات كلها عَلِمها الله، وكتبها في اللوح المحفوظ، وشاءها، وخلقها، وأوجدها سبحانه، وهذه مراتب القدر الأربعة: العِلم، والكتابة، والمشيئة، والخَلق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «تُؤمِن الفرقة الناجية بالقَدَر خيره وشرِّه، والإيمان بالقدر علىٰ درجتين، كل درجةٍ تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولىٰ: الإيمان بأنَّ الله تعالىٰ عَلِم ما الخَلقُ عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوفٌ به أزلًا، وعَلِم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال.

(١) شفاء العليل، ص٥٧
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ١٤٨، ١٤٩).

ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخَلق: «**فأول ما خلقَ الله القلم، قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائنٌ إلىٰ يوم القيامة**».

فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جَفَّتِ الأقلامُ، وطُويت الصحف، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وأما الدرجة الثانية: فهو مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السماوات والأرض من حركةٍ ولا سكونٍ إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ كل شيءٍ قدير من الموجودات والمعدومات، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره، ولا رب سواه».

واللهُ عَزَّ وَجَلَّ هو العليم الحكيم القدير، ما من شيءٍ شاءه وخَلَقه إلا وله حكمةٌ في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «كما أنه تعالىٰ أخبر أنه علىٰ كل شيءٍ قدير، وأنه فعَّالٌ لما يريد، وأنه إذا أراد أمرًا قال له: كن فيكون، وأنَّ كل شيءٍ خلقه بقدر، وكل صغير وكبير مستطر، فكذلك قد أخبر أنه الحكيم الذي شملت حكمته كل شيء، وأنه خلق السماوات والأرض ومَن فيهن بالحق، ولم يخلقهما باطلًا، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، إلىٰ غير ذلك من

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ١٤٩).
(٢) الدرة البهية شرح القصيدة التائية، ص٢٩

الآيات الدَّالَّات على الأصلين، وهما عموم مشيئته لكل موجود، وشمول حكمته للخلق والأمر، هذا الذي يتعين على المكلفين الاعتراف به واعتقاده».

والمخلوق له إرادةٌ ومشيئةٌ يختار بها الفعل؛ لذلك يحاسبه الله على فِعله، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ولا بد له من أن يفعل ما يحقق توحيده وعبوديته لله ﷻ، فتكون إرادته تابعةً لشرع الله وأمره، وتكون أعماله على السداد والصواب، تكون مصلحةً له وسعادة له في الدارين، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وأفعال العباد وكسبهم مخلوقٌ لله، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقال النبي ﷺ: «**اللهُ خلقَ كلَّ صانعٍ وصنعته**»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إن آيات الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات المخبرة بأنَّ العباد فاعلون، لا تنافي آيات القدر المتضمنة أن الله خلق أفعال العباد، فإن كثيرًا من الناس تاهوا في الغايات المقصودة، كما تاه كثيرٌ من الناس في الأسباب الفاعلة، ولا بد من توحيد الربوبية بأن يكون الله خالق كل شيء، وبأن يكون الله هو المعبود المقصود بذاته بالأفعال، لا سواه.

ولا يدفع ذلك من إثبات فِعل العبد وقدرته ومشيئته واعتقاده، كما أنه لا بد من إثبات انتفاع العبد بالفعل، وأنه يعمل مصلحته ومنفعته».

---

(١) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (رقم ١١٧) وصححه العلَّامة الألباني في السلسة الصحيحة (رقم ١٦٣٧).

(٢) جامع المسائل، المجموعة السادسة، ص١٥٥

شــرْحُ المســائل:

١) **بَيَانُ فَرْضِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ**: هو من الإيمان بالله.

٢) **بَيَانُ كَيْفِيَّةِ الْإِيمَانِ**: أن تُؤمِنَ بأن الله قدَّر المقادير كلها وتؤمن بأن الله لا يقدِّر إلا لحكمة، وأنه قدَّر الخير والشر، وليس في أفعال الله شرٌّ.

٣) **إِحْبَاطُ عَمَلِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ**: الكافر بالقَدَر كافرٌ بالله.

٤) **الْإِخْبَارُ أَنَّ أَحَدًا لَا يَجِدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِهِ**: فلا يصيب المؤمن إلا ما كتب الله له، فليكن رجاؤك بالله في جلب المنافع ودفع المضارّ.

٥) **ذِكْرُ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللهُ**: أَوْلَويةٌ نسبية باعتبار ما خُلق بعده.

٦) **أَنَّهُ جَرَىٰ بِالْمَقَادِيرِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ**: أمره الله أن يكتب ما هو كائنٌ إلىٰ قيام الساعة.

٧) **بَرَاءَتُهُ ﷺ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ**: فإنه بريءٌ ممن مات علىٰ الكفر بالقدر.

٨) **عَادَةُ السَّلَفِ فِي إِزَالَةِ الشُّبْهَةِ بِسُؤَالِ الْعُلَمَاءِ**: امتثالًا لأمر الله؛ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

٩) **أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَجَابُوهُ بِمَا يُزِيلُ شُبْهَتَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا الْكَلَامَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَطْ**: الاعتصامُ بالكتاب والسُّنة بفهم السلف نجاةٌ.


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَــابُ السِّتُّــونَ

بَــابُ مَا جَــاءَ فِي الْمُصَــوِّرِينَ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلِيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً**». أَخْرَجَاهُ.

◊ وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللهِ**».

◊ وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ؛ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ**».

◊ وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**مَنْ صَوَّرَ صُوْرَةً فِي الدُّنْيَا؛ كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوْحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**».

◊ وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ؛ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَىٰ مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟: «**أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ**»».

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) التَّغْلِيظُ الشَّدِيدُ فِي الْمُصَوِّرِينَ.

٢) التَّنْبِيهُ عَلَىٰ العِلَّةِ، وَهُوَ تَرْكُ الأَدَبِ مَعَ اللهِ، لِقَوْلِهِ: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي**».

٣) التَّنْبِيهُ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ وَعَجْزِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: «**فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ شَعِيرَةً**».

٤) التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا.

٥) أَنَّ اللهَ يَخْلُقُ بِعَدَدِ كِلِّ صُورَةٍ نَفْسًا يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ.

٦) أَنَّهُ: يُكَلَّفُ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرَّوحَ.

٧) الأَمْرُ بِطَمْسِهَا إِذَا وُجِدَتْ.

الشَّرح

وعيدُ المشرك عظيم، فمَن ضاهىٰ الله في خَلْقِه فهو أشد الناس عذابًا يوم القيامة.

ووعيد المُصوِّر يُجعل له بكل صورةٍ صوَّرها نفْسٌ يُعذب بها في جهنم.

وصفةُ الخَلْق أعظم صفات الإلهية التي تمدح الله بها نفسه، وظهر بها عجز الأنداد عن أن يخلقوا كخَلْقِه، فقال سبحانه: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾.

فالمصورون أشد الناس عذابًا يوم القيامة؛ لأنهم جعلوا أنفسهم شركاء لله في أخص خصائص الربوبية، وهو الخَلْق؛ لذلك حذَّر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذا النوع من الشرك حيث ذكر حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون خلق الله**».

وذكر شيخ الإسلام الوعيد في عذاب المصورين، كما في حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**كل مصوِّر في النار، يُجعل له بكل صورة صوَّرها نفس يعذب بها في جهنم**».

ويوم القيامة يوم التغابن ظهورُ مُلْك الله فيه أعظم من ظهور مُلْكه العظيم في الدنيا، فمَن ضاهىٰ خلق الله في الدنيا عجز عن ذلك في الآخرة كما عجز عن ذلك في الدنيا وأشد.

وهذا ما نبَّه عليه شيخ الإسلام بذكر حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن صوَّر صورة في الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ**».

وفي قول الله ﷻ للمضاهين لخَلْقِه: «**فليخلقوا ذرَّة أو ليخلقوا حبةً أو ليخلقوا شعيرة**» تحقيرٌ للمشركين مع الله في الربوبية، وبيان عجزهم عن أن يخلقوا أقل شيء.

ومع عجزهم عن ذلك فهو دالٌّ علىٰ تفرُّد الله بالربوبية، والمتأمل لمنافع هذه الحبوب كيف جعلها الله قوتًا لعباده وللبهائم، وما جعل فيها من أنواع المنافع الأخرىٰ من الأدوية وغيرها، يوجب عليه توحيد الله وشكره علىٰ نعمه، لا مضاهاته في خلقه.

وإذا كان الله قد سخَّر مخلوقاته لتسبيحه ﷻ، فكن مسبحًا له منزِّهًا له عن الشرك، فلا تضاهي الله في خلقه.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:٦].

وانظر -أيُّها الموفّق- شدة حرص المخلوقين علىٰ خلق الذهب والفضة، وعجزهم عن ذلك؛ ليزداد إيمانك بربوبية الله وحده لا شريك له.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «تأمَّل حكمة الله ﷻ في عزَّة هذين النقدين: الذهب والفضة، وقصور خيرة العالم عمَّا حاولوا من صَنْعَتهما والتشبُّه بخلق الله إياهما، مع شدَّة حرصهم وبلوغ أقصىٰ جهدهم واجتهادهم في ذلك، فلم يظفروا بسوىٰ الصَّنْعَة.

ولو مُكِّنوا من أن يصنعوا مثل ما خلق الله من ذلك لفسد أمرُ العالم، واستفاض الذهب والفضة في الناس حتىٰ صارا كالسَّعف والفخَّار، وكانت تتعطَّل المصلحة التي وُضعا لأجلها، وكانت كثرتها جدًّا سبب تعطُّل الانتفاع بهما، فإنه لا يبقىٰ لهما قيمة، ويبطل كونهما قِيمًا لنفائس الأموال والمعاملات وأرزاق المقاتلة،

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٦٣١، ٦٣٢).

ولم يتسخَّر بعض الناس لبعض، إذ يصير الكل أرباب ذهب وفضة، فلو أغنىٰ خلقه كلَّهم لأفقرهم كلَّهم».

وما تجبَّر مخلوقٌ وزعمَ أنه يخلق إلا وهيَّأ الله أسباب ظهور كذبه، فلا إله إلا الله.

قال العَلَّامة أبو القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قيل: إنَّ بعض الملاحدة قال يومًا: أنا أخلق، فقيل له: فأرنا خَلْقَكَ، فأخذ لحمًا فشرحه، ثم جعل بينه روثًا، ثم جعله في كوز وختمه ودفعه إلىٰ مَن حفظه عنده ثلاثة أيام، ثم جاء به إليه فكسر الخاتم، وإذا الكوز ملآن دودًا، فقال: هذا خَلْقِي، فقال له بعضُ مَن حضر: فكم عدده؟! فلم يدرِ، فقال: فكم منه ذكور وكم منه إناث؟! وهل تقوم برزقه؟! فلم يأتِ بشيء، فقال له: الخالق الذي أحصىٰ كل ما خلق عددًا وعرف الذكر والأنثىٰ ورزق ما خلق، وعلم مدة بقائه وعلم نفاد عمره، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، وقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾.

خلقَ الإنسانَ وصوَّره في أحسن تقويم، وحلم علىٰ الخلق أن يصوروا صورًا، فمَن صوَّر شيئًا من الخلق كُلف يوم القيامة أن ينفخ فيه ليرده إلىٰ معنىٰ الأرواح، فإذا عجز عن ذلك استحق به النار، فلا ينبغي لأحد أن يُصوِّر صورة؛ لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ تفرد بالخَلق، ووصف نفسه بأنَّه الخالق البارئ المُصوِّر، فلما كان الله يخلق الخَلق ويصوره ثم يخرجه ذا روح قابضًا باسطًا آكلًا شاربًا، ولا يقدر مخلوق علىٰ مثل ذلك، فتكلف ما لا يستطيعه؛ عُذب بذلك يوم القيامة».

والله عَزَّ وَجَلَّ من أسمائه الحسنىٰ: المُصوِّر، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤].

---

(١) الحجة في بيان المَحجَّة (١/ ١٣١، ١٣٢).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون علىٰ الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، كقوله تعالىٰ: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٨] ولهذا قال: ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي ينفذ ما يريد إيجاده، علىٰ الصفة التي يريدها».

وقال العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «الخالق البارئ المصور: أي هو المنفرد بخلق جميع المخلوقات، وبَرَأ بحكمته جميع البريَّات، وصوَّر بإحكامه وحسن خلقه جميع الكائنات، فخلقها وأبدعها وفطرها في الوقت المناسب لها، وقدَّر خَلْقَها أحسن تقدير، وصنعها أتقن صنع وهداها لمصالحها، أعطىٰ كل شيء خلقه اللائق به، ثم هدىٰ كلَّ مخلوق لما هُيئ وخُلق له، وإذا كان هو الخالق وحده البارئ المصور لا شريك له في شيء من ذلك، فهو الإله الحق الذي لا يستحق العبادة إلا هو».

فالله عَزَّوَجَلَّ الخالق البارئ المصور، قد أرىٰ عباده كمال ربوبيته فيما خلق، وذلك يستلزم إفراده بالعبودية.

وربُّنا مع خَلْقِه الخَلْق هداهم إلىٰ معرفة مصالحهم، وفَطرهم علىٰ معرفة الحق وإرادته، قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، ولا ندَّ لله ولا شريك له في ذلك.

وربنا الذي خلق كل مخلوق، فهو قائم علىٰ كل ما خلق، فتكفَّل بمصالحهم وتدبيرهم، قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾.

فالواجب علىٰ المسلم: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، لا أن يجعل نفسه ندًّا لله، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٢٠).

(٢) فتح الرَّحيم الملك العَلَّام في علم العقائد والتَّوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن (صـ ٢٥، ٢٤).

والتصوير هو التخطيط والتشكيل(١).

فتأمَّل -أيها المسلم- حكمة الله فيما خلقه، فإنَّ ذلك من أسباب تحقيقك للتوحيد وخضوعك لله ﷻ لا مضاهاته له فيما خلقَ، وتأمل حكمة الله فيما شرعه من تحريم التصوير.

وأولُ شركٍ في الأرض شركُ قومِ نوح، كان سببه صناعة تماثيل مصورة على صور المخلوقين، ولا يزال هذا السبب مع الغلو في قبور الموتى من أعظم أسباب الشرك في الناس.

من أجْل هذا حذَّر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب من هذين السببين، حيث ذكر في هذا الباب حديث أبي الهيَّاج الأسدي قال: قال لي عليٌّ رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني به رسول الله ﷺ: «**ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مُشرفًا إلا سَوَّيْته**».

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله(٢): «هذا ما صح عن النبيِّ ﷺ من إنكار هذه الأمور وإزالتها ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾، فأكثروا التصوير واستعملوه، وأكثروا البناء على القبور وزخرفوها، وجعلوها أوثانًا، وزعموه دينًا، وهو أعظم المنكرات وأكبر السيئات، تعظيمًا للأموات وغلوًّا، وعبادة لغير الله بأنواع العبادة التي هي حقُّ الله على عباده».

ومن أوجب ما يلزم المخلوق تحقيقه من توحيد الله أن يتذكر أنَّ أعماله كلها التي يُدبِّر بها أموره ويسعى فيها إلى مصالحه ويعمل بها الصناعات، مخلوقة لله وحده، وهذا يوجب عليه توحيده، لا مضاهاته في خلقه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

(١) الحجَّة في بيان المحجة (١/ ١٣١).
(٢) قُرَّة عيون الموحدين (صـ٢٤٤).

قال العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥]، وقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥]، فهذه المنافع التي علَّمها الله الإنسان، فلم يزل يفرِّعها الإنسان ويُرقِّيها حتىٰ وصلت إلىٰ ما وصلت إليه، وهو جاد في طريقه في تنمية الصناعات والمخترعات، وذلك كلُّه داخل في تعليم الله له، وإلهامه وإيجاده ﷻ المنافع والقوىٰ في مخلوقاته.

فالله تعالىٰ هو الذي أوجد فيها القوىٰ الصالحة لإيجاد المخترعات النافعة منها، والله هو الذي علَّم الإنسان ذلك».

شـرحُ المسـائل:

١) **التَّغْلِيظُ الشَّدِيدُ فِي الْمُصَوِّرِينَ**: لأنهم أشد الناس ظلمًا.

٢) **التَّنْبِيهُ عَلَىٰ العِلَّةِ، وَهُوَ تَرْكُ الأَدَبِ مَعَ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»**: فمضاهاة الله في الخَلق شركٌ، وسوء أدبٍ مع الله.

٣) **التَّنْبِيهُ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ وَعَجْزِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ شَعِيرَةً»**: وشهود التوحيد يُبطل كذب المضاهين لله في الخَلق.

٤) **التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا**: فلْيَحْذر المسلم من عذاب الله.

٥) **أَنَّ اللهَ يَخْلُقُ بِعَدَدِ كِلِّ صُورَةٍ نَفْسًا يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ**: فالجزاء من جنس العمل، فالعذاب بعدد أعماله الشركية.

٦) **أَنَّهُ: يُكَلَّفُ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرَّوحَ**: تحقيرًا للمشرك لإظهار عجزه.

٧) **الأَمْرُ بِطَمْسِهَا إِذَا وُجِدَتْ**: إبطالًا للشرك وتحقيقًا للتوحيد.

---

(١) فتح الرَّحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق (صـ٩٣).

الْبَـابُ الْحَادِي وَالسِّتُّـونَ

بَـابُ مَا جَـاءَ فِي كَثْـرَةِ الْحَلِفِ

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩].

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ**». أَخْرَجَاهُ.

- وَعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ**». رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

- وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ -قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا!-، ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ**».

- وَفِيهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**».

- قَالَ إِبْرَاهِيمُ: «كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ».

فِيْـهِ مَسَـائِلُ:

١) الْوَصِيَّةُ بِحِفْظِ الْأَيْمَانِ.

٢) الْإِخْبَارُ بِأَنَّ الْحَلِفَ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ.

٣) الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِيمَنْ لَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ.

٤) التَّنْبِيهُ عَلَىٰ أَنَّ الذَّنْبَ يَعْظُمُ مَعَ قِلَّةِ الدَّاعِي.

٥) ذَمُّ الَّذِينَ يَحْلِفُونَ وَلَا يُسْتَحْلَفُونَ.

٦) ثَنَاؤُهُ ﷺ عَلَىٰ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ أَوْ الْأَرْبَعَةِ، وَذِكْرُ مَا يَحْدُثُ بَعْدَهُمْ.

٧) ذَمُّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ.

٨) كَوْنُ السَّلَفِ يَضْرِبُونَ الصِّغَارَ عَلَىٰ الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ.

الشَّرْح

الحلف هو: توكيد المحلوف عليه بذِكر مُعظَّم، ومن توحيد الله تعظيمه عن الحلف به بالكذب، أو اتخاذ الحلف مطية للبيع والشراء في الأمور الحقيرة من متاع الدنيا.

وقد حذرنا الله من الخديعة بالمعاملة أو الغش بالحلف بالله، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ [النحل:٩٤].

قال الحافظ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أي: خديعةً وَدَغلًا وغِشًّا».

فالواجب علىٰ المسلم معاملة الناس بالصدق، وتعظيم الله عن أن يحلف به في الحقير من سلعٍ ومتاع الدنيا، فالله أجلُّ وأعظم في نفوس الموحدين من أن يُجعل الحلف به غرضًا للزيادة في ثمن السلع ورواجها.

---

(١) شَرْحُ السُّنَّة (٢/ ١٤٢٠).

وإذا تضمن الحلف بالله الكذب في ثمن السلع، أو الغش في البيع كان هذا استخفافًا بالله.

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الكذب وكثرة الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد».

والصدق والنصيحة في البيوع من أسباب بركة البيع ونماء المال وبركته، قال النَّبيُّ ﷺ: «**فإنْ صَدَقَا وبَيَّنا بُورك لهما في بَيْعهما، وإن كذبا وكتما مُحِقَتْ بركة بيعهما**»، متفق عليه من حديث حكيم بن حزام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وحذَّر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من التهاون بالحلف بالله في البيوع وأن يكون ذلك عادة من البائع، فذكر حديث سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلِّمهم الله ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم: أُشَيْمِط زانٍ، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه**».

وهذا الوعيد الشديد للحالف هو في حق الكاذب في يمينه، يدل لذلك حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المُسْبِل والمَنَّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**»، رواه مسلم.

ودلَّ حديثُ سلمانَ علىٰ تغلُّظ عذاب من ضَعُفَ في حقه سبب وباعث المعصية.

وحديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيه بيان فضل السلف علىٰ الخلف، فإن النبيَّ ﷺ امتدح قرنه والذي يليه بقرنين، ثم ذكر ما يكون من النقص بعدهم من التهاون في الأيمان والشهادات، وهذا ما دلَّ عليه أيضًا حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد (صـ١٥٩)

حيث قال النبي ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**».

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ذكر ما وقع بعد الثلاثة من الجفاء في الدين وكثرة الأهواء، فقال: «**ثم إنَّ من بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون**» لاستخفافهم بأمر الشهادة وعدم تحريهم الصدق؛ وذلك لقلة دينهم وضعف إسلامهم.

قوله: «**ويخونون ولا يؤتمنون**» يدل علىٰ أنَّ الخيانة قد غلبت علىٰ كثير منهم أو أكثرهم.

«**وينذرون ولا يوفون**»، أي: لا يؤدون ما وجب عليهم.

فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل علىٰ ضعف إسلامهم».

وختم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ الباب بأثر إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كانوا يضربوننا علىٰ الشهادة والعهد ونحن صغار».

وهذا فيه تبيين هدي الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في تربية الصغار علىٰ تعظيم الشهادة والعهد.

وإذا ظهر انتفاع الصبيان بالموعظة والنصيحة والتوجيه، اكتُفي به عن الضرب.

قال العَلَّامة موسىٰ بن أحمد الحجَّاويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:٩٦٨هـ)[2]: «قال إسماعيل بن سعيد: سألت أحمد عمَّا يجوز فيه ضرب الولد؛ قال: الولدُ يُضْرَب علىٰ الأدب.

قال: وسألته هل يُضْرَبُ الصَّبيُّ علىٰ الصَّلاةِ؛ قال: إذا بلغ عشرًا واليتيم يُؤَدَّبُ، ويُضْرَبُ ضَرْبًا خفيفًا، نصَّ عليه أحمد.

---

(١) قُرَّة عيون الموحدين (صـ٢٤٧).

(٢) شرح منظومة الآداب الشرعية (صـ١٤٩).

وقال الأثرم: سُئل أبو عبد الله عن ضرب المُعلِّم الصِّبيان؛ فقال: علىٰ قدر ذنوبهم، يَتَوَقَّىٰ بجهده الضَّرْبَ، وإن كان صغيرًا لا يعقل لا يضربُهُ».

شـرْحُ المسـائل:

١) **الْوَصِيَّةُ بِحِفْظِ الْأَيْمَانِ**: وذلك يكون بحفظها عن كثرة الحلف، وعن الكذب في اليمين، وعن الحنث فيها.

٢) **الْإِخْبَارُ بِأَنَّ الْحَلِفَ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ**: فالصدق في البيوع لا يحتاج معه إلىٰ الحلف.

٣) **الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِيمَنْ لا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ**: لا يُكلِّمه الله، ولا يزكيه، وله عذاب أليم.

٤) **التَّنْبِيهُ عَلَىٰ أَنَّ الذَّنْبَ يَعْظُمُ مَعَ قِلَّةِ الدَّاعِي**: والذنب يجب محاذرته سواء قَوِيَ الداعي أو ضَعُفَ.

٥) **ذَمُّ الَّذِينَ يَحْلِفُونَ وَلَا يُسْتَحْلَفُونَ**: لتهاونهم في اليمين.

٦) **ثَنَاؤُهُ ﷺ عَلَىٰ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ أَوْ الْأَرْبَعَةِ، وَذِكْرُ مَا يَحْدُثُ بَعْدَهُمْ**: خير القرون كان أحفظ ليمينه، وأقوم بالشهادة، وأداء الأمانة.

٧) **ذَمُّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ**: إذا كانت شهادتهم باطلة؛ لأنَّ خير الشهداء مَن يؤدي الشهادة بعِلمٍ وصِدقٍ قبل أن يُسألها.

٨) **كَوْنُ السَّلَفِ يَضْرِبُونَ الصِّغَارَ عَلَىٰ الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ**: تربيةً لهم علىٰ تعظيم الله.



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَــابُ الثَّــانِي وَالسِّتُّــونَ

بَــابُ مَا جَــاءَ فِي ذِمَّــةِ اللهِ وَذِمَّــةِ نَبِيِّــهِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

◊ وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَىٰ جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَىٰ اللهِ، وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ خَيْرًا، فَقَالَ: «اغْزُوا بِسْمِ اللهِ، قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَىٰ ثَلَاثِ خِصَالٍ -أَوْ: خِلَالٍ- فَأَيَّتَهُنَّ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَىٰ دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُم أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَىٰ الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ؛ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْأَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ؛ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ؛ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ؛ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا؟». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) الْفَرْقُ بَيْنَ ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ، وَذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

٢) الْإِرْشَادُ إِلَىٰ أَقَلِّ الْأَمْرَيْنِ خَطَرًا.

٣) قَوْلُهُ: «**اُغْزُوَا بِسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ**».

٤) قَوْلُهُ: «**قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ**».

٥) قَوْلُهُ: «**اِسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ**».

٦) الْفَرْقُ بَيْنَ حُكْمِ اللهِ وَحُكْمِ الْعُلَمَاءِ.

٧) فِي كَوْنِ الصَّحَابِيِّ يَحْكُمُ عِنْدَ الْحَاجَةِ بِحُكْمٍ؛ لَا يَدْرِي أَيُوَافِقُ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا؟

الشَّرح

ابتدأ النبي ﷺ وصيته لأمير الجيش ومَن معه من المسلمين بتقوىٰ الله؛ لأنها هي الجامعة لخصال الخير، الموجبة للانقياد لأمر الله ونهيه.

والمسلم كما أنه مأمور بتقوىٰ الله في حال السِّلم، فهو كذلك مأمور بتقوىٰ الله حال الحرب أو أَوْلىٰ، فالنفوس في حال القتال يجب أن تلزم التقوىٰ حتىٰ لا يقع منها الظلم والعدوان، وقتْل مَن لا يجوز قتله.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الجهاد فيه البلاء للأعداء، والنفوس قد لا تقف عند حدود الله، بل تتبع أهواءها في ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، فنهىٰ عن العدوان؛ لأن ذلك أمرٌ بالتقوىٰ،

(١) قاعدة في الانغماس في العدو (ص٦٢، ٦٣).

واللهُ مع المتقين، كما قال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وإذا كان الله معهم أيَّدهم علىٰ عدوهم».

والخديعة في الحرب مأذون فيها، بخلاف الغدر، فإنه ممنوع، وليس معنىٰ الخدعة في الحرب نقض العهود وقتْل مَن لا يجوز قتله من النساء والصبيان والرجال غير المقاتلين.

قال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «اتفق العلماء علىٰ جواز خداع الكفار في الحرب، وكيف أمكن الخداع، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان لا يحل».

والخديعة يرجع معناها إلىٰ حسن تدبير المعركة، من غير إشعار العدو بالأمان من القتال.

قال العَلَّامة محمد بن عيسىٰ بن أصبغ، ابن المناصف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٦٢٠هـ)(٢): «الخديعة والمكر في الحرب بطريق الإدارة والتدبير من العمل المشهور والسُّنة الثابتة.

لكن ربما التبس علىٰ بعض مَن رأينا أحوال يظنها من باب الخديعة الجائزة في الحرب، وهي قد تكون مما يتضمن الأمان الذي لا يسوغ أن يخفر، فرأينا أن ننبه علىٰ فرق بينهما، فنقول: إنه لما ثبت وجوب الوفاء وحظر الغدر، وتقرر في حد الأمان الأوصاف المقيدة في فصل التأمين قبل هذا، وثبت مع ذلك من قول النبي ﷺ في إباحة الخديعة في الحرب، وفعله في ذلك ما ذكرناه، انقدح وتبين أن الخديعة المباحة هي كل ما يرجع إلىٰ إجادة النظر في تدابير غوامض ذلك، وإدارة الرأي فيه ما يوهم العدو الإعراض عنه أو الغفلة دونه، وما أشبه ذلك من التقدم بكل ما يقع به توهين العدو، ولا يتضمن الإشعار بالأنس إليه علىٰ حال».

(١) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٢/ ٤٥).
(٢) الإنجاد في أبواب الجهاد (ص٢٣٢، ٢٣٣).

والغدر ضرره عظيم، وهو من كبائر الذنوب، وشريعة الإسلام شريعة عدل ووفاء.

وربما زين الشيطان للبعض الغدر توهمًا منه أن هذا يهيئ ظهوره على العدو، وهذا والله فيه حتفهم، فإن الله حرم الظلم وجعله محرمًا بين عباده، والغدر سبب لوقوع الفتنة بين المسلمين أنفسهم، فعن عبد الله بن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما نقض قوم العهد قط إلا كان القتل بينهم**»، رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

والغدر سبب لظهور العدو، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما نقض قوم العهد إلا أُديل عليهم العدو».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الجند الفساق إذا قاتلوا عسكر الكفار قتالًا لم يكونوا فيه بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء، وكان ذلك مما يسلط الكفار عليهم، وإن غلبوهم بالفجور والظلم أديلوا عليهم، فإن البغي مصرعه وخيم، والعدل واجب لكل أحد في كل حال، وإنما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط».

وقول النبي ﷺ للصحابة ولأُمَّته: «**إذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلىٰ ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم.**

ادعهم إلىٰ الإسلام، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أبوا، فاستعن بالله وقاتلهم»، فيه أمرٌ بضرب الجزية علىٰ الكافرين إذا أَبَوْا الدخولَ في الإسلام.

والجزية تُضرب مع القدرة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إن المخالفة لهم لا تكون إلا مع ظهور الدين وعلوه كالجهاد، وإلزامهم بالجزية والصغار، فلما كان المسلمون في أول الأمر ضعفاء، لم تشرع المخالفة لهم، فلما كمل الدين وظهر وعلا، شرع بذلك».

(١) الصفدية (٢/ ٣٢٧).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٧١).

وحديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دالٌّ علىٰ أن الجزية تضرب علىٰ كل كافر، لا تختص بأهل الكتاب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «لا يُقال إن القرآن يدل علىٰ اختصاصها بأهل الكتاب، فإن الله سبحانه أمر بقتال أهل الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية، فيُؤخذ من أهل الكتاب بالقرآن ومن عموم الكفار بالسنة».

وضربُ الجزية عام لكلِّ الكافرين؛ وذلك لاشتراكهم في عِلّة الحُكْم، وهي الكفر.

ودفعَ العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ توهُّم القيد في قوله تعالىٰ: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة: ١٠١]، بأنه إخبار بالواقع، لا مفهوم له[(٢)].

وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث بريدة لأمير الجيش «**وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوا أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه**»، أمرٌ بتعظيم عهد الله، وتحريم للغدر، فالعهد بالله ميثاق عظيم.

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «الذمة: العهد، وتخفر: تنقض، يقال: أخفرتُ الرجل: نقضتُ عهده، وخفرته: أجرته؛ لأنه لا يؤمن علىٰ مَن أعطىٰ ذمة أن يخفرها، فخفر ذمته أهون من أن يخفر ذمة الله تعالىٰ».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[(٤)]: «إن إخفار الذمم سواء كان

---

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٣٤٥).

(٣) قرة عيون الموحدين (ص٢٥١).

(٤) شرح كتاب التوحيد (ص١٠٧٦)، المجلد العاشر من مجموع فتاوىٰ الشيخ.

لذمة الله ﷻ وذمة رسوله ﷺ أو ذمة المجاهدين، كله ليس بهين، بل هو صعب، لكن الهون هنا نسبي».

وأمر النبي ﷺ أمير الجيش بأن ينزل الكفار علىٰ حكمه، هو فيما يؤديه إليه اجتهاده من دلالة المحكم من نصوص القرآن والسنة، فإن أصاب كان أجره مضاعفًا، وإن أخطأ فعلىٰ نفسه، والله ﷻ ورسوله ﷺ بريئان من خطئه ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠].

وهذا التوجيهُ من النبي ﷺ لبريدة رضي الله عنه كان وقت تشريع الأحكام، فربَّما نسخ بعض الأحكام بعضًا، ولم يبلغ ذلك بريدة، وبعد إحكام الشرع واستقراره يجب الحكم به.

شــرْحُ المســائل:

١) **الْفَرْقُ بَيْنَ ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ، وَذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ**: عهدُ الله أوثق.

٢) **الْإِرْشَادُ إِلَىٰ أَقَلِّ الْأَمْرَيْنِ خَطَرًا**: بعض الشر أهون من بعض.

٣) **قَوْلُهُ**: «اُغْزُوَا بِسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ»: لا بد أن يكون الجهاد خالصًا لله.

٤) **قَوْلُهُ**: «قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ»: تبيين لعلة الحُكم.

٥) **قَوْلُهُ**: «اِسْتَعِنْ بِاَللهِ وَقَاتِلْهُمْ»: النصر من عند الله وبإعانته.

٦) **الْفَرْقُ بَيْنَ حُكْمِ اللهِ وَحُكْمِ الْعُلَمَاءِ**: حُكْم العلماء يكون بالرد إلىٰ حُكْم الله، فمَن وافقه فهو المصيب.

٧) **فِي كَوْنِ الصَّحَابِيِّ يَحْكُمُ عِنْدَ الْحَاجَةِ بِحُكْمٍ؛ لَا يَدْرِي أَيُوَافِقُ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا؟**: وقت تشريع الأحكام ربما نسخ بعض الأحكام بعضًا، وبعد إحكام الشرع واستقراره يجب الرجوع إليه، لا يجوز التقدم بين يديه.

الْبَـابُ الثَّـالِثُ وَالسِّتُّـونَ

بَـابُ مَا جَـاءَ فِي الإِقْسَـامِ عَلَى اللهِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◊ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

◊ وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «**تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ**».

فِيْـهِ مَسَـائِلُ:

١) التَّحْذِيرُ مِنَ التَّأَلِّي عَلَىٰ اللهِ.

٢) كَوْنُ النَّارُ أَقْرَبَ إِلَىٰ أَحَدِنَا مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ.

٣) أَنَّ الجَنَّةَ مِثْلُ ذَلِكَ.

٤) فِيهِ شَاهِدٌ لِقَولِهِ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ ...**» إِلَىٰ آخِرِهِ.

٥) أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يُغْفَرُ لَهُ بِسَبَبٍ هُوَ مِنْ أَكْرَهِ الأُمُورِ إِلَيْهِ.

الشَّـرح

هداية الخَلق إلىٰ الله، وليست لأحد من المخلوقين قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، والمُبلِّغون عن الله هداة بيان ودلالة

إلىٰ صراط الله، واللهُ وحده هو المتفرد بهداية التوفيق للعمل، وهذا من توحيد الربوبية.

ولا يجوز لأحد أن يتألىٰ علىٰ الله ويُقنِّط الناس من رحمة الله، فما دام المخلوق حيًّا فهو علىٰ رجاء الهداية، فقد يُقدِّر الله له أسباب الهداية ويُنعِم عليه بانشراح الصدر إلىٰ الإسلام أو الانكفاف عن المعاصي.

والنبي ﷺ في غزوة أُحُد كُسرت رَباعيته وشُجّ وجهه، فقال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**».

وخيرٌ من التألي علىٰ الله باستبعاد رحمته ومغفرته للخلق، أن تدعو للخلق بالهداية، وتكون حسن الظن بالله بإجابة الدعاء.

والواجب علىٰ المسلم في دعوته ونصيحته للخلق: التواصي بالحق والصبر، دون ملل أو ضجر أو يأس من هدايتهم، فالله عَزَّ وَجَلَّ لم يعاجل كفار مكة بعقوبتهم لكفرهم وصدهم عن سبيل الله، واستمر النبي ﷺ علىٰ دعوتهم والنصيحة لهم حتىٰ أسلموا، قال تعالىٰ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سبب وعيد هذا المتألي علىٰ الله[1]: «الإعجاب بالنفس، وتحجر فضل الله عَزَّ وَجَلَّ وسوء الظن به تعالىٰ، فهذا محرَّم، وهو وشيك بأن يحبط الله عمل هذا المُقسِم».

وقال العَلَّامة العثيمين[2]: «مناسبة الترجمة لكتاب التوحيد: أن مَن تألىٰ علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، فقد أساء الأدب معه، وتحجر فضله، وأساء الظن به، وكل هذا ينافي كمال التوحيد، وربما ينافي أصل التوحيد، فالتألي علىٰ مَن هو عظيم يُعتبر تنقصًا في حقه».

---

(١) شرح كتاب التوحيد (ص١٠٨٧)، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ المجلد العاشر.
(٢) شرح كتاب التوحيد (ص١٠٨٧)، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ المجلد العاشر.

شَرْحُ المسائل:

١) **التَّحْذِيرُ مِنَ التَّأَلِّي عَلَىٰ اللهِ**: قد يكون ذلك سببًا لحبوط الأعمال.

٢) **كَوْنُ النَّارُ أَقْرَبَ إِلَىٰ أَحَدِنَا مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ**: فليَحْذَر المسلم أسباب دخولها.

٣) **أَنَّ الجَنَّةَ مِثْلُ ذَلِكَ**: فالواجب العمل لها.

٤) **فِيهِ شَاهِدٌ لِقَوْلِهِ**: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ ...**» **إِلَىٰ آخِرِهِ**: فلا تتهاون بشرر وضرر كلمة السوء.

٥) **أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يُغْفَرُ لَهُ بِسَبَبٍ هُوَ مِنْ أَكْرَهِ الأُمُورِ إِلَيْهِ**: أراد الله أن يُرِيَ الخَلْقَ من سعة رحمته ما يزجر عن تحجرها.

۞ ۞ ۞

الْبَـابُ الـرَّابِعُ وَالسِّتُّونَ

بَـــابُ لَا يُسْتَشْفَـعُ بِاللهِ عَلَى خَلْقِـهِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

◈ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نُهِكَتِ الأَنْفُسُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَىٰ اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ! سُبْحَانَ اللهِ!**»، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّىٰ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ ...**»، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

فِيْـهِ مَسَــائِلُ:

١) إِنْكَارُهُ عَلَىٰ مَنْ قَالَ: «نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ».
٢) تَغَيُّرُهُ تَغَيُّرًا عُرِفَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.
٣) أَنَّهُ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: «نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَىٰ اللهِ».
٤) التَّنْبِيهُ عَلَىٰ تَفْسِيرِ (سُبْحَانَ اللهِ).
٥) أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَسْأَلُونَهُ ﷺ الاسْتِسْقَاءَ.

الشَّرح

الاستشفاع هو: طلبُ الشفاعة، وخطأ الأعرابي هو استشفاعه بالله على النبي ﷺ، واللهُ هو الذي تُطلب منه الشفاعة، لا تُطلب له؛ لغناه عن كل أحد، وافتقار كل مخلوق إليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أنكر قوله: (نستشفع بالله عليك)، ولم ينكر قوله: (نستشفع بك على الله)، بل أقره عليه، فعُلم جوازُه».

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «قوله: «**ويحك**»، كلمة تُقال للزَّجر.

قوله: «**أتدري ما الله؟**» فيه إشارة إلى قلة علمه بعظمة الله وجلاله.

قوله: «**إنه لا يُستشفع بالله على أحد من خلقه**»؛ لأن الأمر كله بيده تعالى وتقدس.

وفي هذا الحديث: الردُّ على الجهمية، وإثبات العلو».

وقال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ(٣): «وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته، فإنما هو بدعائه ﷺ، ودعاؤه مستجاب، وأما بعد وفاته فلا يجوز الاستشفاع به».

وقال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «أمَّا الاستشفاع بالله على خلقه فهو تعالى أعظم شأنًا من أن يُتوسل به إلى خَلْقه؛ لأن رتبة المتوسل به غالبًا دون رتبة المتوسل إليه، وذلك من سوء الأدب مع الله، فيتعين تركه، فإنَّ الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه، وكلهم يخافونه، فكيف يعكس الأمر فيُجعل هو الشافع، وهو الكبير العظيم الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الكائنات بأسرها».

---

(١) الرد على البكري (١/ ٢٩٢).
(٢) قرة عيون الموحدين (ص٢٥٤).
(٣) قرة عيون الموحدين (ص٢٥٤).
(٤) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص١٦٤).

شــرْحُ المســائل:

١) **إِنْكَارُهُ عَلَىٰ مَنْ قَالَ:** «نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ»: لأنه ما قَدَر اللهَ حقَّ قَدْرِه؛ جهلًا منه.

٢) **تَغَيُّرُهُ تَغيُّرًا عُرِفَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ:** تعظيمًا لحق الله.

٣) **أَنَّهُ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ:** «نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَىٰ اللهِ»: لأن المخلوق يتوسل إلىٰ الله.

٤) **التَّنْبِيهُ عَلَىٰ تَفْسِيرِ (سُبْحَانَ اللهِ):** وهو تنزيه الله عن النقائص.

٥) **أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَسْأَلُونَهُ ﷺ الاسْتِسْقَاءَ:** لأن النبي ﷺ مُجابُ الدعوة.

۞ ۞ ۞


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الْبَـــابُ الْخَـــامِسُ وَالسِّتُّــونَ

بَـــابُ مَا جَـــاءَ فِي حِمَايَـــةِ الْمُصْطَفَى ﷺ حِمَى التَّوْحِـيدِ، وَسَــدِّهِ طُــرُقَ الشِّـــرْكِ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «**السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ**»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَا خَيْرَنَا، وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا، وَابْنَ سَيِّدِنَا، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

فِيْـــهِ مَسَـــائِلُ:

١) تَحْذِيرُ النَّاسِ مِنَ الْغُلُوِّ.

٢) مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ مَنْ قِيلَ لَهُ: (أَنْتَ سَيِّدُنَا).

٣) قَوْلُهُ: «**لَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»؛ مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِلَّا الْحَقَّ.

٤) قَوْلُهُ: «**مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي**».

الشَّرح

النبي ﷺ محمد، محمود الأخلاق، خصال الخير فيه أمكن من كل البشر، هو سيدُ ولد آدم، حقه التوقير والثناء من غير إفراط ولا غلو.

قال تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي: عَظَّموه ووقَّرُوه.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: القرآن والوحي الذي جاء به مبلغًا إلىٰ الناس ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة».

وحقيقة الإيمان بالرسول ﷺ واتباعه وطاعته هو من تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله، وطاعته طاعة لله الذي أرسله، قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فإن محمدًا ﷺ كان داعيًا إلىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنما حقوق الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في تعزيزهم، وتوقيرهم، ومحبتهم محبةً مُقدَّمة علىٰ النفس والأهل والمال، وإيثار طاعتهم ومتابعة سُنَّتهم».

ولا بُدَّ لكل مسلم من استشعار مِنَّة الله عليه؛ ببعثة محمد ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٧٥).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٤٤٨).

قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «من مفهوم الآيات اقتضاء **شُكْر الله علىٰ نعمه؛ إذ مِن لازِمِ تذكير الله عباده بنعمه عليهم أن يشكروه**».

وقال الحافظ ابن ناصر الدين(٢): «جميع ما نحن فيه من النعم والمِنَن؛ كالإيمان والقرآن ووجوه السنن وخيرات الدنيا والآخرة جزيلًا وقليلًا من المَنِّ الذي أشار الله إليه بقوله تعالىٰ -وهو أصدق قيلًا-: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران: ١٦٤]».

والنبي ﷺ بُعث بالتوحيد، وكان ينهىٰ عن الغلو فيه، ويُحذِّر أُمَّته مما كان سببًا في شركِ النصارىٰ حيث قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم**».

وحذَّرنا اللهُ من جفاء وظلم اليهود لرسل الله، فإنهم ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

والأُمَّة الوسط هم الذين يؤمنون بالرسل ويتبعونهم ويوقرونهم، ويثنون عليهم بخصال الخير التي فيهم من غير غلو.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «الملائكة والأنبياء -بل الصالحون- يستحقون المحبة والموالاة والتكريم والثناء، مع أنه يحرم الغلو والشرك بهم، فلهذا صار بعض الناس يزيد في التعظيم علىٰ ما يستحقونه فيصير شركًا، وبعضهم يُقصِّر عما يجب لهم من الحق فيصير فيه نوع من الكفر، والصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهو القيام بما أمر الله ﷻ به ورسله عليهم الصلاة والسلام في هذا وهذا».

---

(١) مجالس في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، (ص١٦٩).

(٢) مجالس في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، (ص٢٩٨).

(٣) الرد علىٰ الأخنائي (ص٤٨٥).

ومحمد ﷺ أعطاه الله من الممادح ما يغنيه عن غلو الإطراء، قال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، بما خصصناك به من أنواع الكرامة والفضل.

وروى أبو سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أن رسول الله ﷺ سأل جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن هذه الآية، فقال: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي**».

قال قتادة: فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة، إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وهذا قول جمهور المفسرين.

وقيل: رفعنا لك ذِكركَ في السماء.

وقيل: بأخذ الميثاق على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا بك، ويُقِرّوا بفضلك».

والشهادة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، ذُكرت فيها الرسالة؛ لأنها بيانٌ للتوحيد ومُسْتَلزِمة له، فالنبي ﷺ بُعث ببيان كيفية عبودية الله، ولا يُذكر النبي ﷺ كلما ذُكر الله؛ لأنه ليس ندًّا له، فلذلك لا يُشرع ذِكره عند العطاس، ويُذبح باسم الله وحده النسك، وهكذا.

وحديث عبد الله بن الشخير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: انطلقتُ في وفدِ بني عامر إلى النبي ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «**السيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**»، قلنا: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طولًا، فقال: «**قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**»، رواه أبو داود، نهى فيه النبيُّ ﷺ وفد بني عامر عن الثناء الذي يُخشى أن يكون استمالةً من الشيطان لهم للغلو في الإطراء؛ لذلك قال لهم: «**ولا يستجرينكم الشيطان**»؛ حمايةً لجَناب التوحيد.

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٨/ ٦٧٠).

وإن الله كَرِه لنا: «**قيل وقال**»؛ خشيةَ التزيد في الكلام، والإطراء في الثناء قد يتدرج به إلىٰ الغلو المذموم.

والنبي ﷺ قال عن نفسه: «**أنا سيدُ ولدِ آدم، ولا فخر**»، وقال للأنصار رضي الله عنهم: «**قوموا إلىٰ سيدكم -سعد بن معاذ رضي الله عنه-**»، وهذه سيادة مُقيَّدة، وسيادةُ المُلْك المطلقة لله وحده، لذلك قال النبي ﷺ: «**السيد الله**».

قال ابن القيم رحمه الله(١): «إن السيد إذا أُطلق عليه تعالىٰ فهو بمعنىٰ المالك والمولىٰ والرب، لا بالمعنىٰ الذي يُطلق علىٰ المخلوق».

وحديث عبد الله بن الشخير كما أنه تضمن التحذير من الغلو في الثناء علىٰ النبي ﷺ فإنه تضمن الحث علىٰ الثناء علىٰ الله؛ لأن هذا هو الغاية المطلوبة، وهو عبودية الله والثناء عليه، وأن يكون المخلوق مدحه في وصفه بالعبودية، وأن يجتهد المخلوق في ذِكرِ الله والثناء عليه بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العُلىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال النبي ﷺ: «**لا أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل هذا أثنىٰ علىٰ نفسه**».

والمعنىٰ في ذلك معلوم، فالمخلوق خصال الكمال والخير تليق به كمخلوق، وكل خصال الكمال والخير فيه هي من آثار خلق الله واصطفائه له، وكمال الله لا يُحد، ولا يُحصِي أَحَدٌ من خَلْقِهِ ثناءً عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه، فهو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، فيجب أن يتوجه الثناء إليه.

وحديث أنس رضي الله عنه أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا، وابن سيدنا، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس، قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد، عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله**»، حذَّر فيه النبي ﷺ من الغلو في الثناء عليه.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٧٩).

قولهم: «يا خيرنا» صواب، وثناء صحيح، وهو الذي قصده النبي ﷺ من قوله: «**قولوا بقولكم**»، وقولهم: «ابن خيرنا» هو الذي أنكره النبي ﷺ من قولهم، وقال: «**ولا يستهوينكم الشيطان**»؛ لأن أباه مات مُشرِكًا، وقد قال النبي ﷺ لمَن سأله عن أبيه: «**أبي وأبوك في النار**»، رواه مسلم.

ودلَّ النبيُّ ﷺ مَن قال له: «خيرنا، وسيدنا»، إلىٰ ما هو أحسن منه ثناءً علىٰ النبي ﷺ، فقال: «**أنا محمد عبد الله ورسوله**».

فالواجب الأخذ بتوجيه النبي ﷺ؛ بالثناء عليه بأفضلِ نُعُوته وصفاته: وصْف العبودية لله.

وقد أمرَ اللهُ ﷻ نبيه محمدًا ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

شـرْحُ المسـائل:

١) **تَحْذِيرُ النَّاسِ مِنَ الْغُلُوِّ**: نهىٰ النبيُّ ﷺ عن المبالغة في إطرائه.

٢) **مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ مَنْ قِيلَ لَهُ: (أَنْتَ سَيِّدُنَا)**: السيد الله.

٣) **قَوْلُهُ**: «لَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ»؛ **مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِلَّا الْحَقَّ**: خشيةَ أنْ يوقعهم ذلك، في الغلو في الثناء.

٤) **قَوْلُهُ**: «مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي»: موالاة النبي ﷺ وحبُّه والثناء عليه، يكون بما يليق بوصفه كبشرٍ.

الْبَــابُ السَّــادِسُ وَالسِّتُّــونَ

بَــابُ مَا جَــاءَ فِي قَــوْلِ اللهِ تَعَــالَى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◊ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ حِبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحِبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] الآيَةَ.

◊ وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللهُ».

◊ وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ». أَخْرَجَاهُ.

◊ وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «يَطْوِي اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟».

◊ وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ؛ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ».

◊ وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ؛ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ**».

◊ وَقَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ**».

◊ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ».

◊ أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ.

◊ وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ الْمَسْعُودِيُّ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ؛ قَالَهُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ. قَالَ: «وَلَهُ طُرُقٌ».

◊ وَعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟**»، قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ**». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

فِيْــهِ مَسَــائِلُ:

١) تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧].

٢) أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ وَأَمْثَالَهَا بَاقِيَةٌ عِنْدَ الْيَهُودِ الَّذِينَ فِي زَمَنِهِ ﷺ، لَمْ يُنْكِرُوهَا، وَلَمْ يَتَأَوَّلُوهَا.

٣) أَنَّ الْحَبْرَ لَمَّا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ صَدَّقَهُ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ.

٤) وُقُوعُ الضَّحِكِ الكَثِيرِ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ لَمّا ذَكَرَ الْحَبْرُ هَذَا الْعِلْمَ الْعَظِيمَ.

٥) التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ الْيَدَيْنِ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ فِي الْيَدِ الْيُمْنَىٰ، وَالْأَرَضِينَ فِي الْيَدِ الْأُخْرَىٰ.

٦) التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَتِهَا الشِّمَالِ.

٧) ذِكَرَ الْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ عِنْدَ ذَلِكَ.

٨) قَوْلُهُ: «**كَخَرْدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ**».

٩) عِظَمُ الْكُرْسِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ السَّمَوَاتِ.

١٠) عَظَمَةُ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْكُرْسِيِّ.

١١) أَنَّ الْعَرْشَ غَيْرُ الْكُرْسِيِّ.

١٢) كَمْ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ.

١٣) كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ؟

١٤) كَمْ بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ؟

١٥) أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ.

١٦) أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَرْشِ.

١٧) كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟

١٨) كِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ سَنَةً.

١٩) أَنَّ الْبَحْرَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

الشَّرح

السماوات والأرض مخلوقات عظيمة في قبضة الله، يطويها الله يوم القيامة، وهذا دالٌّ علىٰ عظمة الله.

وما السماوات السبع بالنسبة للكرسي إلا كدراهم أُلقيت في ترس، وما الكرسي بالنسبة للعرش إلا كحلقة في أرض فلاة، وهذه المخلوقات العظيمة في كف الرحمن كخردلة بيد أحدنا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الله أعظم وأكبر وأَجَلُّ من أن يُقدِّر العبادُ قَدْرَه، أو تدركه أبصارهم، أو يحيطون به علمًا».

وقال شيخ الإسلام[(٢)]: «إذا كان سبحانه يطوي السماوات كلها بيمينه، وهذا قدرها عنده -كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم، وهو سبحانه بيَّن لنا من عظمته بقدر ما نعقله».

ومَن عَلِمَ عظمةَ السماوات والأرضين، وكيف يقبضها الله ويطويها ويُبدِّل صفاتها؛ أوجبَ له ذلك هيبة الله وتعظيمه وتوحيده. وذلك دالٌّ أيضًا علىٰ اضمحلال كل شيء عند عظمة الله العزيز الجبار.

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٥/ ٤١٩).
(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٥/ ٤٢٢).

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان:

أحدهما: أنه موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكمله وأعظمه وأوسعه، فله العلم المحيط والقدرة النافذة والكبرياء والعظمة.

ومن عظمته: أن السماوات والأرض في كف الرحمن أصغر من الخردلة، كما قال ذلك ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيره، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١]، وقال تعالىٰ -وهو العلي العظيم-: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورىٰ: ٥].

وفي الصحيح عنه ﷺ أن الله يقول: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمَن نازعني واحدًا منهما عذَّبته**»، فللهِ تعالىٰ الكبرياءُ والعظمة، الوصفان اللذان لا يُقدَّر قَدرهما ولا يُبلغ كُنْهُهما.

النوع الثاني من معاني عظمته تعالىٰ: أنه لا يستحق أَحَدٌ من الخلق أن يُعظَّم كما يُعظَّم الله، فيستحق جَلَّ جَلَالُهُ من عباده أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم؛ وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته، والذل له، والانكسار له، والخضوع لكبريائه، والخوف منه، وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته.

ومن تعظيمه: أنْ يُتقىٰ حقَّ تُقاتِه، فيُطاع فلا يُعصىٰ، ويُذكر فلا يُنسىٰ، ويُشكر فلا يُكفر.

ومن تعظيمه: تعظيم ما حرَّمه وشرعه من زمانٍ ومكانٍ وأعمالٍ، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن

---

(١) الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية (ص٢١).

يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، و﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

ومن تعظيمه: أنْ لا يُعترض علىٰ شيء مما خلقه أو شرعه».

والآية والأحاديث التي ذكرها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب دلَّتْ علىٰ عظمة الله في تغيير العالم وتبديله، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فتتبدل صفاتُ السماء والأرض، ففي الصحيحين من حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ أَرْضٍ بَيْضَاءَ، كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ**».

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وأما تبديل السماوات، فقال عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: تُجعل من ذهبٍ.

وقال أبيُّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: تصير جفافًا.

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: تبديلها: تكوُّر شمسها، وتناثُر نجومها».

ومن توحيدكَ للهِ -أيها المسلم-: أنْ تشهدَ كمال الله وقدرته وعلمه وقوته، في خَلْق مخلوقاتٍ عظيمة كالسماوات والأرضين علىٰ أحسن ما يكون، وتوقن بالتلازم بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

قال العَلَّامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «من تمام حكمته أنه لم يخلق خَلْقَه سُدًىٰ، لا يُؤمرون ولا يُنهون ولا يُثابون ولا يُعاقبون علىٰ تلك الأوامر والنواهي، فالحكمة والحمد دالان علىٰ أنه خلقَ المُكلَّفِين لينفذ فيهم أحكامه

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٥٧١).
(٢) الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية ص١٣.

الشرعية، ويبتليهم بالأوامر والنواهي، ثم بعد ذلك يبعثهم بعد موتهم إلىٰ دارٍ تجري فيها عليهم أحكام الجزاء والثواب والعقاب، قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وما خلقَ اللهُ السماوات والأرضين والإنس والجن إلا لعبادته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]».

وما ذَكرَه شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خاتمة كتاب التوحيد من نصوص الوحي دالٌّ علىٰ التوحيد العلمي الذي هو الأساس لتحقيق التوحيد العملي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «التوحيد العلمي أساسه إثبات صفات الكمال للرب تعالىٰ ومباينته لخَلْقه وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل.

والتوحيد العملي أساسه تجريد القصد بالحب والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والاستعانة والاستغاثة والعبودية بالقلب واللسان والجوارح لله وحده.

فمدارُ ما بَعث اللهُ به رسله وأنزلَ به كتبه علىٰ هذين التوحيدين، وأقربُ الخَلْق إلىٰ الله أقومهم بهما علمًا وعملًا».

وصفات الله عَزَّ وَجَلَّ كلها كمال، نُؤمِن بها، ونتألَّه لله بحقائقها، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «قد أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن السماوات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والعرش لا يقدر قدره إلا الله، وهو سبحانه فوق عرشه يرىٰ ما عباده عليه.

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٠٢، ٤٠٣).
(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٣١، ٤٣٢).

فهذا هو الذي قام بقلوب المؤمنين المُصدِّقين العارفين به سبحانه من المثل الأعلىٰ، فعرفوه به، وعبدوه به، وسألوه به، فأحبوه وخافوه ورجوه، وتوكلوا عليه، وأنابوا إليه، واطمأنوا بذكره، وأنسوا بحبه».

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

فمَن عَلِم أنَّ الملائكة حملة العرش يعبدون رب العرش، عَلِم عظمة الله وكان أَوْلَىٰ به أن يعبد رب السماوات والأرض والعرش، ورب كل مخلوق.

فتوحيد الأسماء والصفات مستلزم لتوحيد العبودية، فمَن عَلِم كمال الله، وأنه ليس له سميٌّ ولا كفو؛ لَزِمَه إفراده بالعبودية، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنه لا سعادة لهم -الخَلْق-، ولا فلاح، ولا صلاح، ولا نعيم، إلا بأن يعرفوه، ويعبدوه، ويكون هو وحده غايةَ مطلوبهم، ونهاية مرادهم، وذِكره والتقرب إليه قرة عيونهم وحياة قلوبهم».

ودلَّت الأحاديث التي ذكرها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب علىٰ عظمة عرش الله، وعلىٰ استواء الله عليه،

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «عرشُ الرب جَلَّ جَلَالُهُ، الذي هو سرير مُلْكه، الذي اتفقت عليه الرسل، وأقرت به الأمم، إلا مَن نابذ الرسل».

فالله رب العالمين مستوٍ علىٰ عرشه، إلهٌ يُعبد، ويُصلىٰ له ويُسجد، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، وإليه تُرفع الأيدي بالدعاء، ومنه يأتي الخَلْقَ كلُّ خيرٍ.

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٣٦٦).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ١٩٥).

والكرسي -بحسب دلالة الأحاديث عن النبي ﷺ والآثار عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- مخلوقٌ عظيم، وليس هو علمُ الله كما يقول الجهمية.

ولا تصح الرواية عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بتفسير الكرسي بعِلم الله، قال الحافظ محمد بن علي الكَرَجي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «هذا حديث فيه وهنٌ».

وذكر العلامة الكرجي(٢) أن الصحيح المشهور عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «الكرسي موضِعُ قدميه، والعرش لا يقدر قدره أحدٌ».

وقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الصحيح المشهور عنه متوافق مع قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي نقله شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ عنه.

ومُوافِقٌ للمنقول عن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال(٣): «الكرسي موضع القدمين».

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «الكرسي موضع قدام العرش».

وهذه عقيدة السابقين الأوَّلِين، قال أبو عبد الله محمد بن خفيف رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتفقت أقوال المهاجرين والأنصار في توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه، قولًا واحدًا وشرعًا ظاهرًا» إلىٰ أن قال: «والكرسي موضع القدمين»(٥).

وقال العَلَّامة محمد بن عبد الله بن أبي زمنين رَحِمَهُ اللَّهُ(٦): «من قول أهل السُّنة أن الكرسي بين يدي العرش، وأنه موضع القدمين».

---

(١) نكت القرآن الدالة علىٰ البيان (١/ ١٨١).

(٢) نكت القرآن الدالة علىٰ البيان (١/ ١٨١، ١٨٢).

(٣) رواه ابن المنذر في تفسيره، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناد صحيح»، فتح الباري (٨/ ٤٧).

(٤) تفسير القرآن للسمعاني (١/ ٢٥٨).

(٥) مجموع الفتاوىٰ لشيخ الإسلام (٥/ ٧١/ ٧٥).

(٦) أصول السنة (ص٩٦)، الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٣٤٧).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الكرسي ثابت بالكتاب والسُّنة وإجماع جمهور السلف، وقد نُقل عن بعضهم: أن (كرسيه: عِلْمُه)، وهو قولٌ ضعيف، فإن علم الله وسع كل شيء، كما قال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

واللهُ يعلم نفسه، ويعلم ما كان وما لم يكن، فلو قيل: وَسِعَ عِلْمُه السماوات والأرض لم يكن هذا العلم مناسبًا، لا سيما وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي: لا يثقله ولا يكرثه».

وليس في معهود لغة العرب تسميه العلم كرسيًّا، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أهل السُّنة والجماعة عامتهم علىٰ أن الكرسي موضع قدميِّ الله عَزَّ وَجَلَّ، وبهذا جزم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، وغيرهما من أهل العلم وأئمة التحقيق.

وقد قيل: إن (الكرسي) هو العرش، ولكن ليس بصحيح، فإن (العرش) أعظم وأوسع، وأبلغ إحاطة من الكرسي.

ورُوي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] علمه، ولكن هذه الرواية أظنها لا تصح عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنه لا يُعرف هذا المعنىٰ لهذه الكلمة في اللغة العربية، ولا في الحقيقة الشرعية، فهو بعيدٌ جدًّا من أن يصح عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فالكرسي موضع القدمين».

وحديث الحَبر اليهودي دالٌّ علىٰ اتفاق الرسل علىٰ إثبات صفات الله علىٰ ما يليق به، وإذا ذكر أحبار اليهود أو النصارىٰ مما لم يُحرِّفوه من دين الرسل ما يوافق ما جاء به رسولنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ آمنا به.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٥٨٤).

(٢) تفسير سورة البقرة (٣/ ٢٥٤، ٢٥٥).

قال ابنُ خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «جَلَّ رَبُّنَا عَنْ أَنْ تَكُونَ أَصَابِعُهُ كَأَصَابِعِ خَلْقِهِ، وَعَنْ أَنْ يُشْبِهَ شَيْءٌ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ صِفَاتِ خَلْقِهِ، وَقَدْ أَجَلَّ اللهُ قَدْرَ نَبِيِّهِ ﷺ عَنْ أَنْ يُوصَفَ الْخَالِقُ الْبَارِئُ بِحَضْرَتِهِ بِمَا لَيْسَ مِنْ صِفَاتِهِ، فَيَسْمَعُهُ فَيَضْحَكُ عِنْدَهُ، وَيَجْعَلُ بَدَلَ وجُوبِ النَّكِيرِ وَالْغَضَبِ عَلَىٰ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ ضَحِكًا تَبْدُو نَوَاجِذُهُ، تَصْدِيقًا وَتَعَجُّبًا لِقَائِلِهِ لَا يَصِفُ النَّبِيَّ ﷺ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مُؤْمِنٌ مُصَدِّقٌ بِرِسَالَتِهِ».

شـــرْحُ المســـائل:

١) **تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]: الأرضُ خَلَقها اللهُ، وسخَّرها لمنافع العباد ليعبدوه، ويوم القيامة يقبضها، ويبدِّل صفاتها، فتصير أرضًا من فضة، ليس فيها مَعْلَمٌ لأَحَدٍ، فسبحان العظيم الذي كل شيء تحت قهره وقدرته.

٢) **أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ وَأَمْثَالَهَا بَاقِيَةٌ عِنْدَ الْيَهُودِ الَّذِينَ فِي زَمَنِهِ ﷺ، لَمْ يُنْكِرُوهَا، وَلَمْ يَتَأَوَّلُوهَا**: التوحيد مما اتفقت عليه المِلل والشرائع.

٣) **أَنَّ الْحَبْرَ لَمَّا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ صَدَّقَهُ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ**: أحوال الآخرة من الإيمان باليوم الآخر الذي اتفقت عليه المللُ.

٤) **وُقُوعُ الضَّحِكِ الكَثِيْرِ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ لَمّا ذَكَرَ الْحَبْرُ هَذَا الْعِلْمَ الْعَظِيمَ**: ما أخبر به النبيون عليهم الصلاة والسلام مما لم يحرِّفه أهل الكتاب يدل علىٰ أن القرآن مُصدِّق لِمَا بين يديه من الكتب.

٥) **التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ الْيَدَيْنِ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ فِي الْيَدِ الْيُمْنَىٰ، وَالْأَرَضِينَ فِي الْيَدِ الْأُخْرَىٰ**: لله يدان حقيقيتان تليق بعظمته سبحانه.

٦) **التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَتِهَا الشِّمَالِ**: الشمال اليد الأخرىٰ، وكلتا يدي الله يمين.

---

(١) التوحيد (١/ ١٧٨).

٧) **ذَكَرَ الْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ عِنْدَ ذَلِكَ**: يحصل بذلك ظهورُ مُلْك الله العظيم واضمحلال مُلْك مُلُوك الدنيا.

٨) **قَوْلُهُ**: «كَخَرْدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ»: عظمة السماوات والأرضين لا شيء بالنسبة لخالقهن.

٩) **عِظَمُ الْكُرْسِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ السَّمَوَاتِ**: وكلها مخلوقات عظيمة تدل علىٰ عظمة خالقها.

١٠) **عَظَمَةُ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْكُرْسِيِّ**: سرير الملك عظيم بالنسبة إلىٰ ما دُونَه.

١١) **أَنَّ الْعَرْشَ غَيْرُ الْكُرْسِيِّ**: الكرسي مقدمة للعرش.

١٢) **كَمْ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ؟**: خمسمائة عام، قال تعالىٰ: ﴿ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨].

١٣) **كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ؟**: خمسمائة عام.

١٤) **كَمْ بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ؟**: خمسمائة عام.

١٥) **أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ**: والعرشُ سقفُ الجنة، واللهُ فوق العرش.

١٦) **أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَرْشِ**: استواؤه علىٰ العرش عُلوُّه عليه.

١٧) **كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟**: مسيرة خمسمائة عام.

١٨) **كِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ سَنَةً**: سمْكٌ كثيف عظيم.

١٩) **أَنَّ الْبَحْرَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ**: بحرٌ عظيم.

الخاتمة

الحمدُ لله علىٰ تيسيره أسباب شرح كتاب التوحيد، وهذا شرحٌ متوسط، حصلَ فيه بسْطٌ في بعض أبوابه؛ لضرورة الشرح والتبيين، خصوصًا في التحذير من أشهر أنواع الشرك المعاصر.

فالعناية بتدريس وشرْحِ التوحيد والتصنيف في ذلك هو أوجب الواجبات، فإن الاعتقاد الصحيح هو ينبوع الأقوال والأعمال الصالحة.

وإذا كان الاعتقاد صحيحًا كانت الأعمال مقبولة بشروطها، وإذا كان الاعتقاد باطلًا كانت الأعمال مردودة، قال تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وتحقيق التوحيد من أسباب الحفظ والسعادة والرزق، قال تعالىٰ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ومن شُكْرِ الله الواجب علىٰ الهداية لنعمة الإسلام: تعليمُ التوحيد، وشرحه، وبيان ما يضاده من أنواع الشرك.

ومن شُكْرِ الله: شُكْرُ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ تجديده للدين، وشرحه للتوحيد، وتحذيره مما يضاده، قال النبي ﷺ: «**لا يَشكر اللهَ مَن لا يَشكر الناسَ**»، وتدريس علومه، وشرحها في مؤلفاتٍ نافعة؛ هو بعضٌ من شُكْرِه، جزاه اللهُ عن الإسلام خيرًا.

وتحقيق التوحيد أمانٌ للمُوحِّدِين في دُورهم الثلاث: في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ومدارسة التوحيد وتعليمه وبيان حقائقه؛ أرجىٰ الأعمال التي تُثقِل الميزانَ، وهو كنزنا الأعظم، وسعادتنا الكبرىٰ، وهو أوجب ما نتواصىٰ به مع أنفسنا وعموم المسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «يدخل في التوحيد من إخلاص الدين لله، والتوكل علىٰ الله، والرجاء لرحمة الله، والخوف من الله، والصبر لحُكْم الله، والقيام لأمر الله، وأن يكون الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله ﷺ أحب إلىٰ العبد من أهله وماله والناس أجمعين».

وتعليمُ التوحيدِ هو من أداءِ حقِّ اللهِ الذي افترضه علينا، وهو من اتباع منهج المُرسَلين ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وتعليمُ التوحيد هو من أسباب حفْظِ الإسلام وقوّته، ومن أسباب حفْظِ أديان الناس.

أسألُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أنْ يجنبني والمسلمين الشِّركَ، وأنْ يجعلنا ممَّن يحيا ويموت علىٰ التوحيد.

وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم وباركَ علىٰ نبينا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

❁ ❁ ❁

---

(١) الوصية الكبرىٰ (ص٩).

دليـــل الموضوعـــات

الموضوعـــات | **الصفحـــة**

تم بحمد الله